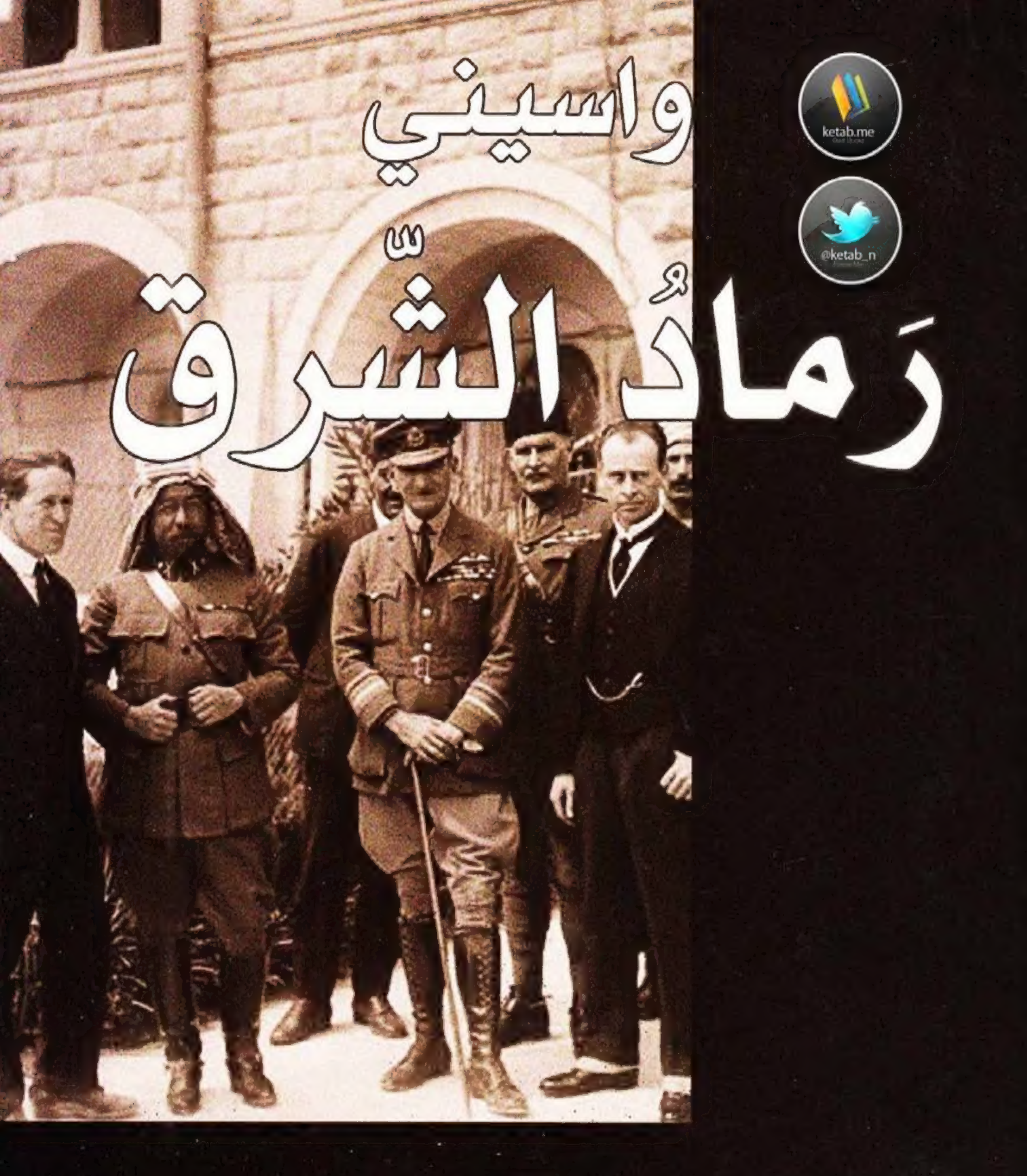


واسيني

رَمادُ الشّرق

II

الذئب الذي نبت في البراري

منشورات الجمل

رواية

واسيني الأعرج

رَمادُ الشّرق

II

الذئب الذي نبت في البراري

رواية

منشورات الجمل

واسيني الأعرج: رَمادُ الشّرق - II

واسيني الأعرج. مواليد ١٩٥٤ بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون في باريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي المنفتحة على أفق إبداعي إنساني. تنتمي أعماله إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقرّ على شكل واحد، بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجادّ على اللغة وهزّ يقينياتها.
حصل سنة ١٩٨٩ على **الجائزة التقديرية** من رئيس الجمهورية، ونال سنة ٢٠٠١ جائزة **الرواية الجزائرية**، على **شرفات بحر الشمال** ومجمل أعماله الروائية. اختير سنة ٢٠٠٥ كواحد من **خمسة روائيين عالميين** لكتابة التاريخ العربي الحديث روائياً، في إطار جائزة **قطر العالمية للرواية** على روايته: **سراب الشرق**. وحازت روايته **كتاب الأمير** سنة ٢٠٠٦ جائزة المكتبيين، وسنة ٢٠٠٧ الجائزة الكبرى للآداب (الشيخ زايد). كذلك حصل سنة ٢٠٠٨ على جائزة الكتاب الذهبي على روايته **كريماتوريوم (سوناتا لأشباح القدس)**، في المعرض الدولي للكتاب. تُرجِمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية، الإسبانية، العبرية... صدر له عن منشورات الجمل رواية **البيت الأندلسي** (٢٠١٠) و**جملكية آرابيا** (٢٠١١).

واسيني الأعرج: **رَمادُ الشَّرق: II – الذئب الذي نبت في البراري**، رواية
الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

للتاريخ حركيته الخاصة التي لا تخضع إلا لقوانينها الذاتية التي تظل مستعصية الفهم على الإنسان. حتى الشخصيات الاستثنائية ليست في النهاية إلا وسائط لاشعورية للتاريخ. فهي تنجز أهدافا كثيرا ما ينفلت معناها منها.

ليون تولستوي: ***الحرب والسلام.***
Léon Tolstoi: *La Guerre et la Paix.*

«إن الإنسان هو من يتقدّم داخل الضباب. ولكنه عندما ينظر إلى الخلف ليحكم على ناس الماضي، لا يرى أيّ ضباب في طريقهم. من حاضره الذي كان أيضا مستقبلهم البعيد، يبدو له مسلكهم واضحا بشكل كامل ومرئي في كل امتداه. وهو ينظر إلى الوراء يرى الناس وهم يسيرون إلى الأمام، يلمس أخطاءهم، لكنه لا يرى ضبابا.»[١]

ميلان كونديرا: ***الوصايا المخدوعة***

---

(١) L'Homme est celui qui avance dans le brouillard. Mais quand il regarde en arrière pour juger les gens du passé il ne voit aucun brouillard sur leur chemin. De son présent, qui fut leur avenir lointain, leur chemin lui parait entièrement clair, visible dans toute son étendue. Regardant en arrière, l'homme voit le chemin, il voit les gens qui avancent, il voit leurs erreurs, mais le brouillard n'est plus là.

Milan Kundera: *Les Testaments trahis.*



الليلة الأخيرة

أحزان أهل البلاد



-١-

«- ياه بأية سرعة جهنمية يمضي هذا الوقت؟ النوم هرب من عيني ولم يعد يجدي نفعا البحث عنه.»

تمتم جاز وهو يطبع قبلة هاربة على خد ميترا التي دخلت في إغفاءة عميقة بمجرد أن وضعت رأسها على الوسادة. كانت متعبة ولم تكن مهيأة لهذا النظام الجديد في أوقات سهرها.

العلامات الأولى للفجر تبدو واضحة كلما رفع المرء رأسه عاليا باتجاه سماء صافية. كانت قد بدأت تمحو الظلمة القاسية مخلفة وراءها خيطا من النور الدافئ الذي كان يملأ الفضاء بدون أن يكون مرئيا. لا شيء إلا وهج اللحظة الهاربة التي يصعب القبض عليها مثل حفنة من النور. بدأ رماد الحكاية يتراجع وتعب الليلة الماضية يتضاءل كغيمة لتحل محلهما كمشة من الأشعة المشرقة.

في الفضاء الفارغ للنزل والذي تسمع فيه خطوات الخارجين فجرا أو القادمين، مضخمة وثقيلة، في الزاوية المطلة على الحديقة الواسعة، تسمع من بعيد أنات البيانو وكأنها تأتي من بعد سحيق محملة بالحنين إلى المبهم والخوف. من حين لآخر تعلو قليلا بخجل ولكنها سرعان ما تعود إلى تمزقاتها الأولى وارتعاشاتها. شيء ما يشبه الشوق المفقود، كان يملأ الزوايا الفارغة للنزل.

رفع جاز عينيه بشكل آلي نحو الساعة. الخامسة صباحا وسبع دقائق

وسبع ثوان وكسورات هاربة. لم يتفاد الابتسامة المنزلقة بعذوبة وتعب كبيرين من الرقم سبعة الذي يتبعه أينما حل. لا شيء إلا السكينة والهدوء والرغبة في البحث عن أجزاء الحياة المتسربة كحبات الرمل الجاف. تمتم قليلا وهو يتحسس ملامس البيانو من جديد. لا أحد في بهو هذا النزل القديم إلا الحارس الذي يبدو جسده أصغر من رأسه الكبير والمدور كرأس قط خلوي. دار كثيرا في الزوايا الجانبية للنزل بمصباح يدوي صغير قبل أن يعود إلى مخبئه وراء الزجاج المقابل للباب، وينام مترصدا الأصوات وحركات الداخل والخارج. كان صوت البيانو يعطيه راحة خاصة تدفع به إلى النوم والتمدد.

تذكر جاز وهو يعدل ظهره من جديد على كرسي البيانو، أنه عندما عاد من منزل جده في ساعة متأخرة من الليل انتبه فجأة إلى أن سحابة من الحزن علت فجأة وجه ميترا قبل أن تضع إبهامها في فمها وتغرق في غفوتها التي ظلت تثقلها طوال طريق العودة إلى النزل. فقد نامت بسرعة من كثرة التعب وقلة النوم بينما ظل هو مشدودا إلى الإيقاعات التي ملأت رأسه، بحثا عن اللحظة الغائبة في عمق كل النظام الموسيقي الذي افترضه وبدأ يتغير في صلبه. قال لميترا:

- أخشى أن أعيد كل شيء وأضيّع كل ما بنيته.

- يستحسن أن تعيد كل شيء الآن ما دامت الفرصة بين يديك.

- المشكلة أنك كلما أعدت تأمل ما بنيته من جديد، وجدت لذة في إعادة صياغته. بين يديك. فتتدحرج بالقوة داخل عالم آخر وجديد كليا.

شعر كأن الإيقاعات الغائبة صارت الآن واضحة. كانت تتمادى في جسده بقوة وتتحول إلى كائنات حية تجبره على مقابلتها ومحاورتها ولا تعترف بالوقت ولا بالنوم. عندما تسلل من فراش ميترا لم تحرك ساكنا. دار طويلا في الحجرة قبل أن يترك النور الخافت للمدخل مشتعلا لأن ميترا لا تحب الظلمة، وينزل على رؤوس أصابعه بأوراقه نحو الزاوية المطلة على الحديقة التي يختبئ فيها البيانو القديم الذي لا يقل عمره عن

قرن. منذ مدة سحب من المرقص الليلي إلى هذا المكان وعوض بالسانتيتيزور الآلي. لا يعزف عليه إلا الزوار والعابرون على النزل. هذا ما قاله له المدير عندما استأذنه في استعمال بيانو النزل.

«- مايسترو، أنت تمنحه حيلة جديدة لا يمكنه أن يحلم بها.

- شكرا. شكرا جزيلا.»

شعر بأصابعه خفيفة مثل النور. ميترا الآن تغط في نوم عميق ولكنها تعبر كل إيقاعاته وتسكنها بعمق مثل قطرة ماء أو نفس هارب أو تنهيدة امرأة في حالة عشق لا تقاوم، لا ينقأ يتخيلها ممسكة الكمان في ذراعيها. كانت تبدو له وهي نائمة، كأنها طفلة صغيرة، تضع إبهامها في فمها. حتى أمها يئست في كسر هذه العادة واستسلمت لها. كانت تقول لها دائما بكثير من المزاح: كيف ستفعلين عندما تتزوجين؟ من يقبل بامرأة كلما غفت انزلق إبهامها نحو فمها واستقر هناك حتى الاستيقاظ؟ ولكن ميترا لم تكن تأبه مطلقا. وتقلب كل شيء إلى ضحك: مشكلته وليست مشكلتي يا ماما. أنا هكذا يا أمي، كالحب المراهق، يُقبل ككل أو يُرفض ككل. لا توجد منطقة وسطى. المسألة بسيطة ومحلولة إلا إذا كان هناك من يريد تعقيدها. تبدو من بعيد في إغفاءتها هادئة وكأنها لا تفكر في شيء. لقد قضت ليلة البارحة ساهرة حتى ساعة متأخرة من الليل ولم تغف لحظة واحدة.

تذكر كل التفاصيل الصغيرة. في الطريق وهما عائدان إلى النزل سألته:

«- يا جاز، كم كنا ساذجين وكم كنت ستخسر لو أنجزت عملك بالمواد القليلة التي كانت لديك! الكثير. مؤكد. سيكون عملك الموسيقي رائعا كالعادة لكن مادته العظيمة التي تدفع بالناس لفهم الشطط الكبير لما عاناه العرب في تاريخ تحررهم، ستكون ناقصة. لا وجود لشعوب ذكية وأخرى غبية، لا تفهم، من يظن ذلك هو الأغبى. توجد سعادات خرجت من صلب الظلم وبنيت على حساب سعادات بدائية وجميلة سرقت من جماعات وشعوب لم تعرف حقها في الفرح. كم

كنت ستخسر يا جاز؟ الكتب والاحاسيس جميلة ولكن لا شيء يعوض البشر ولو كانوا في آخر العمر. أمامك شهادة تنبض بالحياة، كل ما فيها موسيقى، رجل عال، بألقه وعنفوانه وذاكرته الحادة التي لم تهزمها الأيام القاسية. غرت وأنا استمع إليه. قلت: ماذا لوكان جدي حيا؟ نحتاج أحيانا إلى الذاكرة الصافية التي لم تسرق منها السنون شيئا مهما، لكي نعرف درجة العنف الذي سلط على شعب ولكي نفهم تصرفه وردود فعله التي تبدو أحيانا مجنونة وبلا روابط حقيقية ولكي ندرك الخسارات التي لا حدود لها والتي تتشكل منها الشخصية والأحاسيس. جدك أكد لي أن كل ما نعيشه اليوم ونحن بعيدين آلاف الكيلومترات عن مسرح الأحداث، مترابط. كم كنت ستخسر يا جاز! كم كنتَ ستخسر!

- معك حق. يوماً بعد يوم يتأكد لي أني لم أكن أعرف شيئا عن سياق أريد تجسيده. قد أكون قاسيا، الكتب تمنح المعلومة ولكنها لا تمنح الحياة. أنت تدركين يا ميترا، قد لا يهم الناس ما يتخفى وراء السيمفونية، المهم الإحساس بها، ما تحمله لهم من نبض حي، التناغم والانضباط الموسيقي والمتعة ولكنك عندما تؤلف، فأنت تفعل ذلك داخل نسق ثقافي لا أحد يعرفه إلا أنت وهذا هو السر العظيم للنجاح. أمي كانت محقة في موقفها لأنها كانت خائفة علي من تيه الهوية، وبحثي عن هذا الجذر الناقص في هويتي ليس طعنا في رغبة أمي في وضعي خارج شطط الهويات المرهقة والمتعبة. تخيلي رجلا يقضي عمره وهو على يقين من حبه وانتماءاته وفجأة يستيقظ ويكتشف نفسه وكأنه لا يعرف شيئا عن نفسه أولا، ولا يعرف محيطا كان يظن نفسه إلى وقت قريب، أنه يعرفه جيدا.

- أنا متأكدة من أن عملك هذا سيكون رائعا. ملمسك فيه حيٌّ وخاص.

- المشاريع التي ولدها جدي في رأسي لا تحصى أبدا. رأسي يضج بالموسيقى. أشعر بالامتلاء. أتمنى أن أجد القدرة على تسجيل كل ما يعبر رأسه في لحظة نبضه. الموسيقى كالفراشات، ألوانها رهيفة

وهشة، نحتاج إلى لحظة جميلة واستثنائية للقبض عليها بدون كسرها وخسرانها وبدون الضغط عليها كثيرا. الأشياء الهشة قد تموت بفعل الإصرار المبالغ فيه. كيف أعثر على تلك اللمسة التي لا تقتل ولكنها تمنح الحياة بقوة»

ميترا مثل مايا، تحب دائما أن تكون فراشة وأن يفشل الرسامون في نقل تفاصيل ألوانها الكثيرة.

عندما انزوى جاز في الركن وبدأ يعزف على البيانو لم يكن يعرف أن الوقت سيمضي بسرعة غير اعتيادية. تأمل في الأول رؤوس أصابعه، شعر بها مرهقة قليلا ولا تسعفه بالشكل الذي يشتهيه. دق على البيانو، جاءت النوتة الأولى خشنة وباردة. ليس بإمكانه أن يمس تنظيم البيانو لكنه شعر به مشدودا أكثر من اللازم. فكر قليلا في الليالي الماضية وفي كل ما كتبه وهو على الشرفة المطلة على المدينة وميترا في سابع نومة. تأمل السقف، بدا له قد نزل أكثر من اللازم مع أن طوليدو معروفة بعلو بناياتها وببحرها الذي يلتوي عليها كالثعبان بوديانها وممراتها المائية العديدة. حرك بسرعة النوتات كاملة وفي وقت واحد برؤوس أصابعه، فأحدثت إيقاعا منسابا كأنه سيل من الماء الجارف. بدأت تتقاطع وتتداخل بقوة في سلسلة متناهية الدقة من الإيقاعات.

كان فضاء النزل فارغا. تخيل الآن ميترا قد قامت من نومها وجلست قبالة مرآتها ترتب شعرها وتدقق في العطور وأحمر الشفاه. لا تحب أن تدهش الناس ولكنها تريد أن يُنظر إليها بإعجاب.

«- هل تغار من عيون الناس حبيبي؟ جاءه صوتها ناعما من بعيد.

لم يستطع أن يكتم ابتسامة ضاعت وسط إيقاعات كانت تنزلق دافئة كمطر ربيعي ممزوج بحفيف من الرياح المنداة والمعطرة برائحة النوار والحشائش البرية.

- مجنونة؟ تسألينني سؤالا لا يمكن إلا أن يكون جوابه مبطنا فيه، أحبك وترتعش فرائصي كلما رأيت عينين تصوبان نحوك كثيرا. هناك

لمسة إعجاب يمارسها النظر بالرغم عنه ولو كان يحيط به الآلاف من الحرس المدجج، لا يستطيع حيال ذلك أي شيء. هذه النظرة الهاربة مقبولة وهي مصدر إعجاب يتجاوز إرادتنا، ولكنها إذا ارتسمت طويلا على جزء من الجسد، تغير الأمر وصارت اشتهاء مدسوسا.

- يا غيور ويا منظر الغيرة ويا جبان من قول حرائق غيرتك، جاز حبيبي، قل فقط إنك تغار علي وهذا يسعدني ويكفي لأن يجعلني أحس أني أجمل امرأة في العالم.

- شيء من هذا...»

ابتسم جاز مرة أخرى ثم انكفأ أكثر على البيانو بحثا عن النوتات الأكثر حدة والتي ما تزال غائبة ولكنه يشعر بها تتبادل المواقع على رؤوس أصابعه قبل أن تستقر ويدونها. تصورها كما اشتهاها وتعودها. هي الآن تنظر إلى لباسها الجميل الذي يغيرها من امرأة عملية ومنشغلة بوظيفتها في الأوبرا، إلى امرأة جميلة ترتجف عيناها ودا وعشقا وجمالا كلما مست داخلها الأشياء الرقيقة، هكذا تخيلها قبل أن يراها فراشة تطير بآلاف الألوان وملايين الأشكال. يشتهي أن يراها جميلة. كلما استعدت لسهرة صارت مثل شمس صغيرة. يستعجل أن ينتهي النهار بسرعة ليراها في لباس السهرة. رآها وهي تضع الآن اللمسات الأخيرة على هندامها لحضور سهرة البؤساء بأوبرا طوليدو، أو هكذا تخيلها. لقد استطاعا أن يقنعا شريف بضرورة مرافقتهما إلى الأوبرا لأن ذلك كان مهما بالنسبة لهما خصوصاً أن بينه وبين هذا العالم زمناً طويلاً. ولهذا اتفق مع مدير الأوبرا الذي عرفه بسرعة، على أربعة أمكنة جيدة، لجده وعائشة وله وميترا.

عندما لامس البيانو من جديد، بدت له الإيقاعات أكثر خفة. فجأة بدأت تطن في رأسه موسيقى لم يكن قد تصورها أو رتبها. كانت تتدحرج وكأنها كانت قد استقامت بذهنه بترتيب غريب وكبير. فجأة بدأ يخط ويدون. استحضر الليلتين وأشواق أمه. رأى نفسه صغيرا ملتصقا بأمه وأحزانها وأفراحها الصغيرة رآها وهي تتشبث بالحياة بكل ما أوتيت

من قوة في رسوماتها التي لم تغادرها الألوان الزاهية، ثم وهي تخط دوائر متعددة بآلاف الألوان وكأنها ألوان الطيف مثلما كانت تفعل مانيا كما حكى له جده الذي عندما سألها عن المغزى من الدوائر والتدرجات اللامتناهية، قالت له: لا تكن غبيا. لا تسأل سؤالا مسطحا وغير مدهش. الألوان يا روحي مثل الفراشات، يمكن أن تطير وتهرب لمجرد الحفيف. هذه أجنحة فراشات مفتوحة عن آخرها. لا يمكن للعين مهما أوتيت من قوة أن تصنع شبيها لها. أرتجف من قوة الله كلما وقفت أمام هذه الدقة الغريبة.

كانت الألوان والموسيقى تتداخل في ذهنه بقوة عالية وكبيرة. تتبادل المواقع وتتدرج ثم تندغم حينما تصبح العبارة ضيقة أمام قوة الرؤيا. دق مرة واحدة في شكل سحبة طويلة استمرت زمنا، على زوايا البيانو برؤوس أصابعه. تكونت حلقات موسيقية تركيبية، فدَونها من جديد مهذبا عزفه الأول الذي كان مجرد إيقاعات غير منتظمة مثل رسومات جدته مانيا في مراحلها الأولى عندما تعرف إليها شريف في بداية حياتهما.

أغمض عينيه وترك أصابعه تنزلق من جديد على ملامس البيانو وتتهدهد على موجات هاربة لم يكن قادرا على الركض وراءها. شعر بحرية أكثر وكأنه كان يعرف سلفا كل تفاصيل المقطوعة ومسالكها المعقدة.

-٢-

صمت طويلا قبل أن يمد أصبعه نحو الصورة:

- الزمن يقهر بسرعة. هذه التي في الصورة هي مانيا في عز شبابها. كانت فراشة. وهذه صورة أخرى لها عندما كبرت وصارت تفاحة جميلة، وممتلئة كسنبلة صيفية. بل كبرتقالة فلسطينية. وهذه الصورة، أيام قلائل قبل أن تحترق كل ألوانها وأجنحتها وينسحب جسدها نحو

صمت الموت وتأكلنا المنافي التي لم تنته. المنفى كالمرض المعدي يا ابني، يورث لأقرب الناس إلى قلوبنا. مرض لا يمكن تفاديه أبدا.

تراقصت دمعات خفيفة تحت لمبة الهالوجين الخافت الذي أظهر كآبة هاربة على وجه بابا شريف عمقت خطوط ملامحه. مد أصابعه المرتجفة قليلا صوب عينيه دون أن يعطي الانطباع بأنه كان يدفعها عميقا لكي يمنع الدموع من النزول.

- أعتقد أن أمك لم تكن مخطئة أبدا، كلما رجعت إلى صوابي وجدت أن كل ما كانت تقوله كان يصدر عن قلب لا يضمر إلا المحبة ولكن للأسف كانت عنيدة. عقلها كان صارما وحساسا بقوة. عندما كنت أندفن في داخلي، كانت تغلق كل أبوابها مثلي على تفاصيل الحياة. لم تستمع لي ولم أستمع لها. التذكر يعيد الآلام التي لم تدفن إلى عمق الواجهة. ولا أحد فينا كان قادرا على عزائه، أنا غرقت في مصيبتي التي أدخلتني في مصنع للسيارات في ديترويت ولم ألتفت نحوها لأني كنت أعرف سلفا أن خالاتها سيهتممن بها أحسن مني. هي لم تجد عزاء في فقدان الأبوة، وكنت أريد أن أنسى ما كان يثقل ذاكرتي حتى لا أفقد صوابي. أنسى ولا ألتفت ورائي. وجود مايا كان يذكرني بمانيا بقوة ولم أكن قادرا على تفاديها. قطعت علاقاتي حتى مع خالاتها ولم أحفظ إلا قناة صغيرة تظهر لي وضعها. كنت أدرك أنها مشرقة ولن تجد مكانا أفضل من ذلك. كنت إنسانا ميتا مع وقف التنفيذ أنتظر فقط يوم العودة إلى تلك الأرض. ولم يتوقف حلم العودة إلا في سنة ٦٧ عندما انكسر يقيني نهائيا وأصبح مؤكدا أننا لن نخطو خطوة إلى الأمام وان كل شيء انكسر وان جيلنا لم يعد له ما يلتصق به حتى الحلم. ولم تكن الصنائع التي وضعت لنا لتسيير بلداننا قادرة حتى على تسيير شأنها الخاص. المشكلة أنهم أدخلوا لنا الهزيمة في عمق كياناتنا. بدءا من انكسار ٦٧ عرفت أنهم أرضعوا لنا الانكسار مع الحليب ولا أدري إلى متى سيظل هذا الحليب مستمرا يسري فينا. قد يبدو ما أقوله بعيدا تماما عما تفكرون فيه، فأنا واحد من أواخر ناس لم يعودوا اليوم على هذه الأرض إلا

ككائنات آيلة إلى الزوال. بيني وبين مايا هذا الألم الذي لم تفهمه ولن تفهمه أبدا. كلانا دفع ثمنا لظروف كانت أكبر منه. مع ذلك، التصقت زمنا بوهم العودة والعمل والتغيير لكن السنوات التي تلت صفعتني بالحقيقة المرة وان ساعتنا توقفت، وأننا في حاجة إلى جيل يفهم الدنيا في نظامها الجديد. للأسف، الجيل الذي ولد من هذه العملية القيصرية هو جيل انتحاري وعدمي. في مايا شيء من الانتحار مارسته على فنها وعلى نفسها. الظلم المتكرر يا ابني يولد ما لا يحسب بميزان. وعلى الذين يديرون دفة العالم مثل الذي يلعب بكرة ملونة، أن يدركوا هذا وإلا عليهم التخلص من ٣٠٠ مليون عربي، وعليهم أن يمحوا مليار مسلم يلتهمون يوميا الهزائم والإهانات. انتظرت عودة لم تحدث قط. وغيرت الرغبات الأولى بقبول الموت صمتا. لم أعد أنصت للشرق ولم أولِّ وجهي صوب الغرب كنت في اللاشيء، أنصت لذاك الحنين الذي لا يموت أبدا حتى عندما يهجع القلب نهائيا وتلعب الرياح الصحراوية القاسية برفاتنا مبعثرة إياها في كل نواحي الدنيا. كل شيء كان يبدو لي مؤقتا ولم يدخل في رأسي أبدا أن المؤقت سيصير حالة من الديمومة. أنت لا تتفطن له إلا عندما تكتشف فجأة في مرآة الصباح التي لا تكذب أبدا، أن شعرة بيضاء غزت ناظرك الأيمن في الجهة اليسرى، ثم أخرى وتليها ثالثة، ورابعة وبعد مدة تكتشف أن شعر الرأس سقط وأن بعضه قد ابيض تماما وهكذا تزحف نحوك الأشياء التي ترفضها ولا تريدها أبدا ولا يبقى أمامك إلا الانتحار صمتا. أنت أخرجتني من موت كان مؤكدا. ألبستني قميص عثمان الذي لم أرد أن أبرئ نفسي منه. لأن دم الذاكرة صار فينا ولكنني قضيت عمرا بكامله وأنا أتفاداه.

- نعتذر يا بابا شريف، قالت ميترا وهي تبحث عن كلمات تبعثرت بخجل على شفتيها. أيقظْنا فيك مدافن كنت تتفادى دائما الوقوف في وجهها وتحولنا إلى مرآتك التي ظللت طوال عمرك تعمل على تفاديها. ليس لطيفا منا أن نحرك هذه الأوجاع ولكن جاز منشغل بهذا الجزء من حياة ذويه الذين يسري دمهم وروحهم فيه. جيد أن نعرف وننسى إذا

أردنا لكن من الصعب جدا ألا نعرف شيئا هو فينا ويتحرك بالرغم منا حتى عندما نريد تفاديه. كارثة الناس اليوم يا جدي هي وضع الرأس في عمق الرمال وترك كل شيء عرضة للانفجارات المتلاحقة والكبيرة.

- تعتذران على إيه؟ الاحتفاظ بالمقابر داخليا ليس أمرا بسيطا ولا سهلا. شيء يجب التخلص منه نهائياً. أدركت ذلك متأخرا ولكني أدركته. ضيعت أكثر من عشرين سنة وانا أشتم تربيتي وفراغي، لا يمكن أن نعتز بالفراغ عندما يتعلق الأمر بالحياة والحب. أستسمحكم هذه الليلة مغادرة الكرسي المغرف، لقد تعبت وأريد أن أشعر معكم جميعا بقدر جميل من الراحة. التمدد بجانبكم بكامل طولي كما كان يفعل أجدادي في الشام أو في فلسطين وفي تلك الأرض البعيدة التي حرمت منها كما حرم منها والدي وحتى جدي. لقد نمت كثيرا وأشعر بجسدي ثقيلا أكثر من اللزوم على الرغم من أنه لم يبق فيه الشيء الكثير.

تمدد بابا شريف قليلا على المطرح، متكئا بنصفه الأعلى على الحائط، واضعا رأس النرجيلة بين شفتيه. لم يفعل شيئا ولم يتكلم، ولكنه سحب صندوقا صغيرا كانت عائشة المغربية قد وضعته بجانبه. توغل بيده عميقا كمن يبحث عن كنز. فأخرج صورة أخرى كانت لأمه، ماما صفية. امرأة جميلة ترتسم على محياها ابتسامة ساخرة كان من الصعب عليه كتمها. وجهها مشرق كوجه روسيات شرق آسيا. شعر كثيف وملامح واضحة ودقيقة وعينان غارقتان في الكحل والسواد، ثم مر بسرعة عليها كأنها لم تكن هي مبتغاه في البحث. أخرج صورة أخرى لأحد القادة العرب قال إن اسمه الحسيني، وأنه أحد أجداده من أمه. تأملها ثم مررها على الجميع بدون أن يقول كلمة واحدة عنها. حتى عندما سأله جاز لم يجبه أو لم يسمعه أو ربما لم يكن يريد أن يجيب. ثم صورة أخرى مصاحبة لها كانت ملصقة بها بماسك للأوراق، بها جمع من البشر يتقدمهم رجل بشاربين طويلين وطربوش وعصا يتَّكئ عليها بيسراه وفي يده الأخرى بقايا سيجارة، في الخلفية رجال أشبه بالروس القوقازيين، إلى جانبهم الأيمن رجل إنجليزي بقبعته ولباسه

القصير وحذائه الطويل وآخر في الخلفية يستند إلى بندقيتة ذات ماسورة طويلة. في الخلفية البعيدة قليلا، يرفرف علم أبيض، خرقة لا توجد بها أية علامة. أجاب بنفسه حتى قبلِ أن يسأله جاز:

– هذه راية التسليم كما يسمونها تأدبا وهي راية الاستسلام. يوم وضعت مدينة القدس بين أيدي الإنجليز ومعظم من تراهم، هم وجهاء المدينة الذين سيحمل الكثير منهم السلاح لتحرير مدينة قدموها بدون رصاصة واحدة للإنجليز. كان ذلك فجر يوم الأحد ٩ ديسمبر ١٩١٧ وكانت السماء تمطر بغزارة على المدينة المقدسة. قصة مؤلمة لأنه على أساسها، سيبنى فصل من أكثر الفصول ألما في حياتنا الخاصة والعامة. يبدو لي كأن هناك قانونا عاما، المدن التي تمنح للأعداء، تخذل أصحابها في النهاية.

– طيب، ما الذي منعهم من المقاومة والدفاع عن المدينة؟

– من الصعب فهم القصة بمنطق الحاضر. عندما دخل أللنبي، يقول جدي من أمي، هلل أغلب السكان لهذا الانتصار العظيم ودحر الأتراك. فقد طلع فجر الأحد ٩ ديسمبر من سنة ١٩١٧ وإذ بالقدس أصبحت في يد الإنجليز وحلفائهم. في هذه اللحظة بالذات كان قد انتهى الاستبداد التركي نهائيا خصوصا في سنواته الأربع الأخيرة، أي من ١٩١٤ إلى ١٩١٧ حيث أصبح البطش والتنكيل والقتل ممارسة يومية. لا أحد آنذاك كان يدري أن هذا الاحتلال هو نفسه من سيقسم البلاد قبل أن يمنحها هدية للحركة الصهيونية. المهم أن ذلك اليوم كان من أسعد وأبهى الأيام عند الشعب، فكنت ترى الناس يرقصون فرحا على قارعة الطريق مهنىء بعضهم بعضا بهذا العيد السعيد. المثير للانتباه أن بعض الذين كانوا يملؤون الشوارع من عرب مسلمين ومسيحيين من الذين كانوا تحت خدمة الجندية في القدس في عهدها التركي، غيروا ملابسهم العسكرية بملابس مدنية بصورة مضحكة هربا من الانتقام، فكنت ترى رجلا يلبس بنطلونا عسكريا وقميصا مدنيا وقبقابا خفيفا بدل الجزمة الثقيلة والجاكيت الذي يستعمل فوق القمباز ويضع على رأسه طربوشا

قديما. يجب تأمل الاحتلال في ظرفه وزمانه. الناس بالفعل كانوا سعداء جدا أمام نهاية الظلم التركي. الصورة تشي بهذه السعادة التي تكاد تخرج من عيون الناس.

- ومن هم هؤلاء الذين في الصورة؟

- الأول هو حسين بك الحسيني، رئيس بلدية القدس. بجانبه توفيق محمد صالح الحسيني. ثم أحمد شرف، قوميسير بوليس بياده، الحاج عبد القادر العلمي، قوميسير بوليس سواري، شمس الدين وأمين طهبوب، بوليس، والذي يلبس بنطلونا قصيرا هو جواد بك ابن إسماعيل بك الحسيني، وبرهان بن طاهر بك الحسيني. وقد حمل علم التسليم الأبيض، خلف حسين بك، سائق سيارة جمال باشا واسمه سليم من لبنان. أما الفريق الآخر من جيش بريطانيا فما كانوا سوى نفرين فقط، قيل إنهما وجدا بالصدفة في مكان التسليم، هكذا يقول رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل: «إن النفرين من الجيوش البريطانية اللذين يظهران في هذه الصورة كانا في الواقع يفتشان عن شراء بيض من فلاحي قرية لفتا، وبالصدفة تقابلا مع حسين بك الحسيني والأشخاص الذين كانوا يرافقونه آنذاك، فأخذت لهم هذه الصورة.»

- لا أفهم يا جدي لماذا يتنكر تشرشل؟

- إن موقع تسليم القدس المبين على الصورة كان في محلة الشيخ بدر وأصبح بعد الانتداب البريطاني محلة يهودية صرفة تعرف بمحلة روميما. هل تتصور أناسا من الرتب المرموقة في المجتمع يأتون في البرد القارس والمطر، في شهر ديسمبر ليتصوروا للذكرى؟ ما الذي جاء برئيس بلدية بقامة حسين الحسيني إلى هذا المكان القفر؟ وهل يعقل أن يترك عسكري في وضعية حرب وحدته ويذهب للتفتيش عن بيض؟ تشرشل يرفض فكرة التسليم لأنه يظن كعسكري أن ذلك سيمس بالسمعة العسكرية لجيوشه.

ثم سحب صورة أخرى من الصندوق. كانت ملامح الرجل واضحة

بلباسه العربي وشاربيه الدقيقين وبندقيته في يده اليسرى. كان يلبس لباسا درزيا فضفاضا بشروال زاد من قوته على الرغم من استقامة جسده التي كانت تبدو واضحة تماما. بعقال منظم بشكل دقيق على طريقة البدو العرب، وعلى يساره بارودته. وقفة مستقيمة تظهر بأسه وشجاعته الكبيرة. عينه، كانت تنظر إلى بعيد ولكنها تظل نظرة دافئة لا تشبه في شيء خزرات العسكر العكرة.

– عمي عز الدين أو الأمير كما يسميه الآخرون، لأنه هو أيضاً كان واحدا من أحفاد الأمير، كان رجلا استثنائيا، حساسيته تجاه الأشياء كانت كبيرة. نادرا ما صادفت رجلا يشبهه في تفانيه. الذي حدث هو أني عندما رجعت ذات يوم من اللعب، دخلت إلى الدار ولم أكن أعلم أن عمي عز الدين كان قد دخل على الرغم من أني رأيت ظله يتسرسب نحو البيت. كنت مأخوذا باللعب ولهذا لم أعر دخوله انتباها كبيرا لأنه عندما يتوسط الحوش يبدأ في مناداتي: شريف... شريف... بيِّن وشَّك يا حلو... فأظهر له من زوايا مختلفة. يومها لا هو ناداني ولا أنا انتبهت له بسبب اللعب.

كان جو البيت هادئا ومستكينا ولم يكن هناك ما يثير الانتباه سوى الكلمات التي ظلت عالقة في حلق أمي التقطتها وهي طائرة؛ سمعتها كاملة ولم أتجرأ حتى على الدخول. بقيت جامدا على الكرسي، بالقرب من البحرة الصغيرة التي يعطي خرير مائها الإحساس بالراحة التي لا تضاهى. كانت أمي منكسرة حتى العمق، شعرت بذلك من حشرجة صوتها الذي صار مرتبكا بسرعة وعاجزا عن تخبئة الغصة التي كانت تسد الهواء والنفس. قالت وهي تستجمع مفرداتها وتقولها بثقة كبيرة:

– لا يا عز الدين. أنت شاب رائع وجميل وألف امرأة تتمناك وتنتظرك. هل تعلم أنك كلما عبرت حي المغاربة، تسلقن الواحدة تلو الأخرى الحائط فقط لرؤيتك وأنت تعبر الدرب، والتمتع بطلعتك، وأنت لا تدري أن عشرات العيون الجميلة والطيبة تقتفي خطواتك. لا أستطيع أن أحزن مرة أخرى، لقد آثرت أن أنتظر وهماً أنا أولى العارفات أنه لن

يأتي أبدا ولن يتحقق. لا أنا قادرة على حمل مدافنكم وأحزانكم ولا أنت قادر على ترك سلاحك وبندقيتك وحصانك الذي تربيت عليه طويلا ولن أتجرأ أن أطلب منك ذلك. حزنت بما فيه الكفاية يا عز الدين وأريد اليوم أن أرحل لأرتاح. البلاد التي يتمت أبنائي لم تعد قادرة على حبهم. صرنا في هذا البيت لا نورث إلا الموت. أنا أعرف أن شريف لن يشذ عن هذه القاعدة. كم أشتهي أن أورثه قدرا ضئيلا من حب الحياة كذلك، والذي لا يتناقض مطلقا مع الكرامة. أعرف ما في قلبك يا عز الدين وعرفته منذ زمن بعيد حتى قبل أن تحدثني عنه، وسعيدة أنك خصصت به أرملة وأنت في ريعان الشباب والفتوة ولكن عليك أن تعذرني. ربما لم أعد أصلح للزواج؟

عمي لم يرد ولكني كنت أتخيل وضعه وأنا أعبث بماء البحرة. رأيته واضعا رأسه بين يديه كعادته وينظر إلى الآخرين بعينين هادئتين، منكسرا قليلا إلى الأمام، يستمع إلى حرائقه الداخلية التي يحتفظ بها لنفسه عادة ولا تخرج منه إلا بصعوبة. لم أسمع صوته ولكنني سمعت من جديد أمي.

- لقد تزوجت سليم صغيرة وكان الفارق بيني وبينه كبيرا جدا.
كنت معجبة بما كنت أسمعه عنه لكن في اليوم الذي تأكدت فيه أن الموت حقيقة وليس مجرد لعبة وأنه يمكننا أن نخسر من نحب بدأت أنانيتي تكبر وخوفي يزداد وتعلمت من أخوالي آل الحسيني، أننا نعيش مرة واحدة وأنه علينا ألا نفرط في حقنا في الحياة وفي الكرامة وعندما رأيت سليم في كل يوم يدفن صديقا من أصدقائه ضحية الطغيان التركي تأكدت أن مصيري سيكون حزينا على الرغم من أنه كان يستبعد كل ذلك. ويوم أنجبت شريف أقسمت أن أهرب به خارج الحي المغربي الذي لم يعرف إلا البارود والدفن. أحيانا لا أدري هل عليَ أن أحب الجد الأكبر أم أزعل منه لأنه لم يورث إلا رائحة البارود وحب الخيل والبواريد أكثر من حب النساء والحياة؟ يوم تزوجت سليم لم أطلب منه شيئا آخر، سوى أن أشبك يدي بيده كما كانت تفعل نساء آل الحسيني،

ألا يخدعن أزواجهن وأن يحافظن على ذريتهن الصالحة. شبكت يدي بيد هذا الرجل ولم أطلب شيئا آخر سوى تربية ابني والوفاء له.

هذه المرة كذلك تخيلت أمي وهي تسحب منديلها المورد وتمسح عينيها من دمع يسبقها حتى عندما تريد أن تخبئه. أو تلتفت نحو حائط ذي لون مبهم وتبقى لحظة قبل أن تلتفت نحو محدثها. وأنا بجانب البحرة اختلط ماؤها بالدمعات التي لم أعلم من أين جاءت وأنا أسمع أمي:

- لقد كدت أموت عندما سمعت أن شريف جرح في ميسلون وأنه مصاب مثلكم بجرح عميق وأن الله حفظه رحمة بي. وحياتك يومها صممت ألا أبقى لحظة واحدة في هذه المدينة. اعتبرني أنانية ولكني هكذا، لست مستعدة لخسران شريف. سأسافر وإذا كان من وجه طيب سيصاحبني دوما، من هذه العائلة، فهو وجهك تحديدا. أنت الوحيد الذي لم يفرض سلطانه على نساء الحي وأنت الوحيد الذي ظل يسمع إلى أنينهن وأنت الوحيد الذي يحمل في قلبه الشجاعة الكبيرة ودفئا أنثويا لم أره إلا عند أخوالي. أية امرأة لن تجد أحسن منك. يخطئ من يظن أن المرأة تبحث عن الأشجع والأجمل في الحي لكي تفوز به، لا. هي تبحث عن الأكثر دفئا، الذي يستمع إلى أنينها ويحسسها بوجودها. تبحث ببساطة عمن تثق فيه لكي تمنحه روحها. حسِّسْ المرأة بالأمان وستسلمك أغلى ما تملك، روحها. وأنت يا عز الدين من القلائل إن لم تكن الوحيد ممن أثق بهم وأشعر بالأمان الكبير وأنا بجانبهم. ولهذا فأنت سترحل معي. فقدان سليم كاد يقتلني فقد مجد الموت حتى أخذه. كنت دائما أبحث عمن يدافع عن حقه ولكن يمجد الحياة كذلك ويجعل منها غايته. سأبدو لك سخيفة ولكنها الدنيا. كل واحد فينا هو ثمرة محيط بكامله. ولا أدري إلى اليوم لو لم تدخل حياتنا هل كان بإمكاني المقاومة والبقاء هنا؟

وكلما انتظرت أن أسمع صوت عز الدين، أتاني صوت النافورة دافئا ولا شيء إلا انكسارات المياه وهي تتدحرج حبات، حبات مثل اللؤلؤ

تحت أشعة شمس كانت تنأى بسرعة. فجأة سمعت صوت يما صفية يناديني:

- شريف، تعال حبيبي، أنت لا تزعج أحدا.

عرفت أن أمي كانت تعرف بوجودي منذ دخولي إلى الحوش وكان يهمها ربما أن أسمع ما كانت تريد قوله. العادة ألا يدخل رجل على امرأة وهي وحدها ولكن عمي عز الدين كان سيد البيت وطيب القلب، ولم يكن مهتما لما كانت تقوله العمات الثرثارات.

عمي خرج ولم يقل كلمة واحدة. حتى عندما دخلت عليه، عانقني وضمني إلى صدره بقوة بدون أن يتكلم. ابتسم ثم حنى رأسه قليلا.

في الصباح الباكر دق شخص على الباب. خرجت أنا وأمي في الوقت نفسه وكنا شبه متأكدين أننا سنجد أنفسنا أمام عز الدين. فتحنا الباب بيد مشتركة. نزل من على حصانه. كان في زيه العسكري، ووجهه ذابل قليلا.

- صباح الخير.

رأيت وجه أمي قد اصفر.

- إذن ستذهب إلى جبهة القتال كما اشتهيت؟

بنباهة عرفت أن ما دار بينهما كان أقسى مما سمعت. أردت أن أؤنب عز الدين لأنه لم يخبرني عن مخططه ولكني بدوت لنفسي صغيرا أمام رغبته بالموت.

- نعم. ادعوا لنا بالخير والسلامة فقط.

كلمات قليلة ليست من عادة عمي عز الدين.

ودعها. سلم على رأسها ثم وضع بين يديها كوفية نيلية بخطوط بنفسجية:

- تذكرونا بخير.

- عز الدين... هكذا إذن...

تركت كلماتها معلقة. كانت الوحيدة التي تعرف معناها. قالتها أمي ولم تدر كيف تواجه يأسها. ارتبكت في مكانها. لأول مرة أرى أمي

مرتبكة بهذا الشكل، ثم وبدون حساب للعيون التي لا ترحم، احتضنته على غير عادة نساء الحي المغربي. التصقت به من رأسها حتى أخمص قدمها وشدته نحوها بقوة. ولم تأبه بما يمكن أن تقوله عماتي المجنونات اللواتي لا يتوقفن عن الكلام والنميمة. أمي كانت جميلة حتى في دمعها. حتى وأنا صغير كنت دائما أحزن لشبابها وكنت أشعر أن الدنيا ظالمة. في عائلتنا على المرأة أن تصون ذكرى زوجها بعدم الزواج وإذا أرادت فستزوج لمن يشتهي من كبار القبيلة. وضعية أمي كانت معقدة جدا، موجودة بين قطبي عائلتين معروفتين. أحسد أحيانا العائلات البسيطة التي لا أحد يأبه بحياتها، على الأقل يعيشون دنياهم كما يشتهون. أمي كانت جميلة وشهية. شدته قويا وعندما انسحبت منه بلطف كانت تشهق بأعلى صوتها. ربما لأنها في عمقها كانت تعرف أن عمي عز الدين لن يعود أبدا. ثم احتضنني طويلا بدوري وهو يتمتم في أذني: خذ بالك من الست صفية، فهي لنا جميعا وليست لك وحدك. كانت أمي قديسة وإن لم أرد رؤيتها كذلك. ثم وضع بيديه الناعمتين اللتين لم تخشِّنهما الحروب ومشقات الدنيا، في عنقي طوقا من ألياف معدنية فضية، يشبه المسبحة ولكن بحبات صغيرة كانت رائحتها زكية وطيبة، قال إنها مسبحة لجده عبد القادر وهي غالية عليه لأنها وصلته من والده. لم يفصل كثيرا. أتذكر فقط أني رأيت أمي بعينين حمراوين تسيلان دموعا غزيرة وهي تحاول أن تكتم بالكوفية فمها الذي كان يريد أن يصرخ عاليا. كانت كإنسان أصيب بالخرس بسبب صدمة ما.

انطفأ فجأة عمي عز الدين ولم يبق شيء منه في حي العمارة، في الزقاق المؤدي إلى مخارج دمشق الشمالية وانسحب كالظل الهارب. دُهشت كيف يموت الإنسان في أرضنا حتى قبل أن يموت. منذ ذلك اليوم لم أر عز الدين قط إلا عندما سمعت باستشهاده بعد أيام من خروجه من حي العمارة وانسحابه مع الثوار. كان من الذين خططوا مع الحوارنة لاغتيال آخر رئيس وزراء في عهد الملك فيصل، في سورية التي كان تحت الوصاية الفرنسية، علاء الدين الدروبي ووزيره عبد

الرحمن اليوسف. كان عز الدين يعرف مع مجموعته وقت الزيارة ومكانها تحديدا وتمت العملية بنجاح حتى قبل أن ينزل الدروبي ووزيره من القطار الذي نقلهما من دمشق إلى درعا. ما ساعد على تسهيل العملية هو أن علاء الدين الدروبي كان يظن أنه بتنقله سيقلل من هياج الناس ضد الاحتلال الفرنسي على الرغم من معرفته لعقلية الحوارنة الساخنة، ولكن سفرته تلك، كانت هي الأخيرة. بواسطة المدسوسين من بين الثوار أنفسهم، استطاع الفرنسيون أن يجدوا مكان عز الدين وينصبوا له ولأصدقائه كمينا ويقتلوه.

لم تبق أمي بعده في دمشق. استقبلنا خالي ومانيا في القدس وساعدانا على تحمل شطط الحياة. في الطريق إلى البيت كنت مع مانيا التي كانت سعيدة كأية طفلة تحصلت على لعبتها، هذه هي عادتها. ولكنها كانت في قمة فرحها وهي التي ألحت على المجيء مع خالي إلى المحطة وسعدت أننا غادرنا دمشق الشام التي لم تكن تحبها إلا لأنها كانت تمنحها فرصة اللقاء بي بحرية وبعيدا عن نظرات الأخوال الكثيرين خصوصا خالي مصطفى أو أبو مازن كما كان يناديه جدي. كنت سعيدا وحزينا أتحسس من حين لآخر مسبحة عز الدين ذات الرائحة الطيبة وأفعل ما كانت تفعله أمي بالكوفية النيلية ذات الخطوط البنفسجية. حضوره من خلال ما تركه لنا، كان يملؤني خوفا عميقا لم أكن قادرا على تفاديه، كان يشغلني. عرفت فيما بعد لماذا أمي كانت تكره الموت عندما خرجت لأول مرة لمقاومة الهاغانا الذين كانوا يريدون بكل الوسائل الحصول على أراضي جدي الذي ظل يرفض بيعها لليهود ولا حتى للوسيط الإنجليزي الذي كان على علاقة سرية بالوكالة اليهودية. وأن الموت مسألة سهلة وجدية وأن خوف أمي كان مبررا وصحيحا.

برتقال فلسطين

-١-

كانت القدس غاصة بالبشر على غير عادتها عندما دخلتها للمرة الأخيرة أنا وأمي.

مرأى القدس كان وحده كافيا لأن يهزني كالعادة لكنه في هذه المرة أربكني. كانت مانيا بصحبة خالي مصطفى. فقد أصرت على المجيء معه بعنادها اللامتناهي. عندما التقت نظراتنا اهتز كل شيء فيّ وشعرت بها جميلة كتفاحة وقريبة وتقلصت فجأة كل المسافات التي كانت بيننا. ومع ذلك عندما حييتهآ، بدوت عاديا حتى لا أدفع بخالي مصطفى أو كما يناديه جدي، أبو مازن، إلى الشك ولو أن عينيه الخضراوين الحادتين لا يفلت عن مرآهما أي شيء.

خالي الكبير كثيرا ما توكل له مثل هذه المهام التي كان يقوم بها جدي بنفسه عندما كان قادرا وكان جسده يسعفه، قبل أن تخذله الدنيا والأمراض التي تكاتفت ضده: الربو والسكر وفقر العظام. أتذكره وهو يقبّل أمي من جبهتها ثم يجلسها في العربة ويعود وحده ليحمل الحقائب ويرتبها الواحدة بجانب الأخرى. حتى عندما أريد أن أساعده، يدفع بي نحو التفاصيل التي قليلا ما أنتبه لها أو يمزح معي كعادته:

- يا الله يا بويْ اصعد إلى العربة واحرس أمك، واحرز حالك يسرقها منك إنجليزي أو شاب من المدينة. أمك جميلة وأنا ما أقدر يا بويْ أضمن لك أي شي في القدس.

- وحياتك يا جدي سأذبحه بهذه.

وأؤشر على العصا التي يضعها دائما بمحاذاة يده اليمنى في العربة حتى يسهل استعمالها.

ثم ننطلق باتجاه حارة المغاربة.

جدي الذي أوكل كل مهامه الكبرى لابنه البكر خالي مصطفى، لم يعد يخرج من البيت إلا عند الضرورات القصوى. حتى نشاطه السياسي قل كثيرا مع مجموعته الأثيرة، عزة دروزة الذي ناضل بجانبه في المؤتمر السوري، وعوني عبد الهادي، ورشيد الحاج إبراهيم، وصبحي الخضرا والدكتور سليم سلامة وفهمي العبوشي وأكرم زعيتر وعجاج نويهض الذي سيؤسس معهم لاحقا، في القدس، بعد سنوات، في ٤ أوت ١٩٣٢ حزب الاستقلال العربي الذي رفع لواء استقلال البلاد العربية استقلالا تاما وألح على وحدة البلاد العربية التي لا تقبل التجزئة وعلى انتماء فلسطين العربي التي اعتبرها جزءا طبيعيا من سوريا ونادى في مختلف المحافل بإلغاء وعد بلفور وإقامة حكم عربي برلماني في فلسطين. وعلى الرغم من أن السنوات التي مضت لم تمسس مطلقا ذاكرة جدي التي ظلت متقدة وحية، إلا أنها أرهقته كثيرا. فقدد انضم للثورة في زمن مبكر وعانى الأمرين وأدخلته خيباتها المتكررة في حالة من الصمت والعزلة التي قليلا ما يقبل اختراقها، فلا الوطن العربي صار وحدة، ولا استطاع أصدقاؤه الذين وثقوا في الإنجليز بشكل أعمى واحتفلوا بكسر شوكة الأتراك، الحفاظ على فلسطين. أدرك جدي متأخرا أن الخيبة هي السرير المثالي للمرض. وتحصن بماضيه كمن يتحصن بسور متآكل ضد العواصف متخليا عن كل شيء لابنه البكر. وكلما احتاجت العائلة إلى شيء يتطلب حلا سريعا، وجهها إلى خالي مصطفى:

«- يالله يا بويْ، هيدي مو مشكلة. شوفوا أبومازن، يعرف كيف يحلّها.»

خالي مصطفى لم يقصر في استقبالنا. فقد كان طيبا وطيعا كعادته.

فيه الكثير من صفات أمي بل حتى الكثير من ملامحها، مثلا قصر الأنف وحدته، العيون اللوزية الفاتحة التي كثيرا ما تنزلق نحو خضرة خفيفة عند بعض خالاتي وخالي إبراهيم وابن خالي الكبير. امتشاق الجسد على الرغم من بعض القصر غير المشين والحديث بحركات اليد، وعندما يضحكون مثلما يبكون لا يخبئون عواطفهم وأحاسيسهم ويبدو أني في هذا أكثر شبها بسليم مني بأمي وإخوتها.

كان يوم دخولنا إلى القدس غاصا بالبشر، على غير المرات السابقة. كنت أشعر بضيق ولكن وجود مانيا خفف حالة الفقدان التي كنت أحس بها. كانت مانيا تركب العربة مواجهة لي بينما ظل خالي منهمكا في حديث الشوق مع ماما صفية، أخته. فقد جاب بها العالم وأخبرها بكل مستجدات القدس وفلسطين ولم أر إلا وجه أمي من حين لآخر وهو يتخذ تعرجات مختلفة بحسب ما كان يحكيه خالي. شعرت كأننا وصلنا بسرعة للساحة التي كانت غاصة بالناس الذين كانوا يأتون من كل الجهات ويسلكون مختلف المعابر.

عندما سألت مانيا عما كان يحدث ونحن نتأمل هذه الحركة التي لا تتوقف. شعرت كأننا ما نزال في الأحياء الدمشقية القديمة أو الحي الذي كبرت فيه.

- بدأ الوضع يتعقد هنا كذلك. اليهود يا خيو... بدأوا بمطالب العدل، فأصبحوا يطالبون بالأرض. دخلوا الأرض من كل الأمكنة باسم القانون الإنجليزي واللاقانون واستقروا هنا. سيأتي يوم، إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه الآن، سيطردوننا. إن شاء الله ما يكونوا مجانين، ويتعقلوا شويه، هذه المدينة وجدت للكل. وإن شاء الله كمان المسلمون والمسيحيون يتعقلوا بدورهم ويدركوا أن الاعتداء على الآخرين لا يقدم إلا الأحقاد. البارح كنت أحكي مع ماري أستاذتي في الرسم،، هي كمان بتقول إن ما يحدث لا يبشر بخير وان الإنجليز لم يجلبوا معهم إلا الخراب. لما كنا صغارا كانت تأتي بنا إلى هذه الساحة ونبدأ في رسم دقائق حيطانها ومعالم وأقواس وقرنات صوامعها

وقلاعها. لا يمكن لهذه المدينة أن تقتل تاريخها.

- يريدون أخذ القدس؟ مجانين!

- يريدون حائط المبكى ونريد حائط البراق، المشكل أن المكان نفسه وواحد. وكل طرف له تاريخ يجره وراءه ويصر على أنه الأصدق كما يقول خالي وطاطا ماريا.

- بس هذا لا يبرر كل هذه الهيصة.

- كل شيء بدأ من قصة صغيرة ربما سمعت بها وأنت في الشام. في يوم ١٤ أوت قام اليهود في تل أبيب بمظاهرة كبرى رفعت فيها أعلام يهودية موشحة بشرائط سوداء وعلت الأصوات بالهتاف الحائط حائطنا. عار على الحكومة، عار على السير كيث روتش، حاكم القدس. وفي ١٥ أوت قدم إلى القدس من تل أبيب عدد كبير من الشباب اليهود واشتركوا مع يهود القدس بمظاهرة صاخبة، مخترقين الشوارع وقاصدين المبكى وقد حملوا الأعلام الصهيونية وكان خطباؤهم ينادون أثناء السير بوجوب امتلاك البراق وضرورة انتزاعه من المسلمين. ولدى وصولهم المبكى رفعوا على حائطه العلم الصهيوني الوطني، وعلت الأصوات بهتافات كالتي هتفوا بها في مظاهراتهم في تل أبيب وانشدوا الهاتيكفا، نشيدهم الوطني. واليوم كما ترى يقوم المسلمون بمظاهرة كبرى احتجاجا على اليهود. المشهد يخيف، فكل جهة تريد إظهار قوتها وحقها الديني والتاريخي.

- شيء لا يبشر بخير.

- أي خير يا حبيبي؟ كلنا على فوهة بركان سيقذف بالجميع نحو الجحيم.

عندما وصلنا إلى الساحة نزلت مانيا وطلبت مني أن أتبعها. ترددت وأنا أنظر إلى عيني أمي، تردد خالي قبل أن تقول له ماما صفية:

- ما فيه شي يا خيِّي. مانيا تحب تفرجيه على القدس. خليه يعرفها ويتعود عليها.

- ينْخاف عليهم يا صفية من طيش اليهود وشبابنا.

- صاروا كبارا يا حبيبي ويعرفون مسالك الدنيا.

لم أر خالي الكبير مصطفي، يوما يرفض طلبا لأمي. قبل أن نتوغل في العمق أنا ومانيا ونترك أمي وخالي يذهبان نحو البيت ويدخلان الحي المغربي، قالت مانيا لخالي وكأنها كانت تريد أن تطمئنه:

- ما راح نتأخر يا خالي. سأتجول بشريف في القدس القديمة ونعود مساء. ما راح نتجاوز باب الرحمة، نبقى بحارة الحرم الشريف وساحة البراق وأوضح له معبر أجداده المؤدي إلى ساحة البراق التي يريدون اجتزاءها منا على أساس أنها حائطهم الذي يندبون عليه كوارثهم التي ارتكبوها.

- بهيك يوم يا بنتي؟ قال خالي يائسا.

- مالنا ومال اليهود يا خالي. أريد أن يعرف شريف مدينته الجديدة بعمق.

لم يسأل أحد من ركاب العربة التي انعطفت نحو الحي المغربي، بينما سرت أنا ومانيا من بين الجموع باتجاه حائط البراق الذي كان يملك معابره أجدادي، هكذا سمعت ذلك من فم الأمير سعيد.

- وأنا في الشام، سمعت من أعمامي أن الأمير سعيد مصمم على الذهاب بعيدا في الدفاع عن المعبر المؤدي إلى زاوية الغوث المغربية، سيدي أبي مدين وكل المسالك المؤدية لها هي ملك مغربي. قال: إنه سيسخر كل قواه للدفاع عن أرضه ومحيطه وانه لن يسلم شيئاً منها.

- كويس أنه ما يزال فيه بشر يحسون بحقوقهم.

كانت الأفواه تصرخ بأعلى أصواتها ولم نمنع أنفسنا من الصراخ كثيرا مثل الرجال وبعض النساء المسنات وعدد لا يحصى من الأطفال. كان بعض اليهود ينظرون من بعيد بعد أن تجرأ القليل منهم واخترق الحي المغربي، إلى المشهد ولم يقتربوا أبدا من الصارخين وإلا لالتهموا أحياء. فجأة وعلى الرغم من الحزام الأمني المكون من شيوخ المدينة وكبارها، هجم الناس بشكل فوضوي على الحائط المتنازع عليه حتى شعرت في لحظة من اللحظات أنه سيؤكل بحجارته وترابه وفوجئت كيف

أن الطاقة البشرية لها قوة صامتة مثل قوة الموج والرياح والزلازل، عندما تندفع لا قوة تقف في وجهها. وعلى الرغم من صرخات المنظمين المنادية بالتريث وعدم السقوط في الاستفزازات، قلبوا منضدة الشماس اليهودي وتطايرت بعض أجزائها في السماء وكسروها وأحرقوا ثيابه بعد أن كبوا عليها الزيت واخرجوا الاسترحامات التي وضعها المصلون اليهود في خروق الحائط وكوموها مع الكتب وصحائف الصلاة وأشعلوا فيها النار تحت صرخات كانت تتردد في شوارع القدس في شكل عواء.

في المعبر المؤدي إلى الساحة مدت مانيا يدها واحتضنت يدي. شعرت بحرارتها، خمنت أن الزمن القادم لن يمدنا إلا بمزيد من الرغبة في البقاء معاً طويلا. من حين لآخر، عندما كنت أتذكر أني لن أعود إلى الأرض الشام، ينتابني حزن عميق لأن عالما بكامله مات ولن يتكرر أبدا. كانت السعادة تقرأ في عيني مانيا وجرأتها الملتبسة بلمسة من الحياء لم تمنعها من ترك أمي وخالي يذهبان إلى البيت بدوننا.

عندما عبرنا نحو المدينة القديمة، كنت قد غصت في عمق مدينة لم تعد إلا مجموعة من الأصداء المتعاقبة التي لا تاريخ محدوداً لها ولا صوت فيها إلا أصوات باعة القطن الآتية من بعيد وصوت مانيا الذي كان ينفصل وحده من بين آلاف الأصوات كنداءات طفل صغير.

لا أدري كيف مضى الوقت ولكنه مر بسرعة وكان علينا أن ندخل إلى البيت ولم تكن لدي أية رغبة في فعل ذلك. شعرت بثقل العودة. لا أدري من أين نزلت هذه الشهوة الكبيرة، ولولا أوساخ حارة القطانين المهملة تماما لسحبتها باتجاهي وقبلتها تلك القبلة التي لم أتجرأ على ممارستها معها في حياتي. قبلة تنتابني في الحلم وأتدرب عليها في لحظات الخلوة، ألا أكتفي بلمس الشفتين ولكن أن أمصهما مثلما أمص الحلوى الشباكية وأن ألعب بلساني في لهاها ولا أدري قدر المتعة ولكن التفكير في ذلك وحده كان يمنحني إحساسا غريبا ولذة استثنائية. في زاوية مظلمة في المعبر ضغطت على يدها التفتت نحوي، لاحظت انكسار عينيها وقبل أن أنفذ رغبتي قالت: المسجد. رفعت رأسي فرأيت

المؤذن، لعنته ولعنت غبائي. وكأن المؤذن سمعها، فصدح بصوته المقلق في صومعة تشبه قلعة أطلَت برأسها العملاق فجأة من أكوام المدينة القديمة، ولأول مرة في حياتي تمنيت الخرس للمؤذن على الرغم من صوته الجميل. قالت وهي تشرق بضحكة جميلة:

- ألم أقل لك؟ يا حبيبي في هذه المدينة كل خطوة بمسجد أو كنيسة أو كنيس يهودي. يجب أن تحذر في المرات القادمة قبل أن تقدم على التفكير في تقبيلي.

قلت باستفزاز واضح:

- طيب ليش جبتني لهيك مدينة، القبلة فيها محرمة؟

- لم أقل القبلة محرمة بس بدك تعرف المواقع حتى لا تستفز الناس. ثم... لتتعلم الصبر قليلا. نحن مازلنا في أول يوم في المدينة، الأحسن هلا نعود للبيت، لقد أُذِّن المغرب وعلينا أن نعود إلى جحورنا.

- شو راح بيصير يعني لو بقينا بالمدينة؟

- ما راح يصير شي، سوى أن خالي أبو مازن سيقتلني وأمي تعلقني من رجلي وخالتي تلعنني طوال حياتها لأني ضيعت وحيدها وأفسدت له أخلاقه. ستتحرك كل القبيلة وتبدأ في عملية البحث. إذا لم نوجد سيتحرك آل الحسني والحسيني معلنين أن ابنين منهم اختطفا من طرف العصابات اليهودية أو العربية المتواطئة وبعدها تتحرك عائلة الحسيني والنشاشيبي والخالدي لتعلن أن للمصاهرة حقا وأن الشابين منهم ودمهما دمهم. وتتحرك آلة الدفاع بقوة وربما قد تقوم حرب بكاملها من أجل رغبة مجنونة مني أو منك. هذا كل ما يمكنه أن يصير. شو رأيك في هيك حالة؟

ضحكت:

- لا يا أختي، ما إلي رأي. ندخل حالا قبل فوات الأوان.

- الحمد لله أنك زلمة فهيم.

تراقصت ابتسامتها على محياها اللطيف ثم انعطفنا في طريقنا إلى البيت.

في المعبر الذي غطاه ظل البنايات العالية، وقفت مواجهة لي. ضغطت على يدي ثم مدتها إلى وجهي. تلقائيا رفعت رأسي عاليا. انتبهت لحركتي العفوية:

ما فيه لا كنيس ولا كنيسة ولا مسجد.

إلى اليوم ما تزال قبلتها على رأس لساني، بها حلاوة النبتة العزيزة على ذاكرتي: البنفسج البري ولحظة الصمت التي أعقبت ذلك.

في المساءات المرتبكة، غامت الشمس بسرعة كقرص مخنوق واندفنت في كومة من الضباب الذي خلفته الأدخنة التي تصاعدت بكثافة من ساحة الأقصى وكانت رائحة الورق والبلاستيك تشم من بعيد متوغلة في عمق الأحياء القديمة. عندما دخلنا مساء كنا متعبين وفي قلبنا كل مشاهد المدينة. لم أكن أتخيل أن الناس بهذه القوة وهذا العنفوان. ولكن شعرت فجأة أن حقدا كبيرا كان قد استقر في المدينة واحتل أسواقها وشوارعها. رأيت لأول مرة ونحن نقطع الممرات والمداخل الصغيرة الرهبة في عيون الناس وهم يطلون من وراء الشبابيك. كنت أشعر بأن شيئا كان يتهيأ في الأفق الملتبس بالرماد ورائحة البارود الذي كان يأتي من الأحراش المحيطة بمدينة القدس.

كان شيء ما قد امحى نهائيا. براءتنا الأولى وعفوية المدينة.

-٢-

فجأة وجدت نفسي في عمق مدينة القدس، أتنفس هواءها وأسرارها الصغيرة.

لم تكن تعني لي القدس أكثر من زيارة عائلية رؤية خالاتي وأخوالي ومانيا التي كلما مر العمر، ازددت ارتباطا بها. لم تشعرني حاراتها وأسواقها القديمة وشوارعها وسورها الذي كان يبدو لي خشنا وعاليا، بأية غرابة. صالحتني القدس مع أخوالي ونظام حياتهم الذي كنت أراه رخوا وغير بطولي. كان ورائي إرث حارة المغاربة، جدنا الأكبر الأمير

عبد القادر. لقد ورثت الحارة الكثير من خصاله الكريمة والكثير من الصرامة والقسوة تجاه المرأة وتجاه من يسلك مسلكا غير ما سطر له سلفا. الفن عند أعمامي كان بدعة ولهذا خسرت أمي صوتها. كنت دائما أشعر بأن أمي خسرت موهبة باطنيةٍ في حلقها وخسرت حقها في الحياة إذ لم يكن بإمكانها أن تعيد الزواج برجل هي تختاره ويختارها وليس أن يسترها رجل كما يقال في حي العمارة بدمشق الشام.

من بين كل أخوالي الطيبين، خالي إبراهيم، حالة نادرة لا تتكرر أبدا. كان ممتلئا بشيء أشتهيه فيه ولكنني كنت أحس به وأفتقده. كان مولعا بالحياة وتفاصيلها. يسخر كثيرا من مغامراته وسذاجته، لكنه عندما يتحدث عن السياسة، يصبح شيئا آخر تماما، يدافع ويقاتل من أجل رأيه ولا يسلم في حججه بسهولة.

عندما رآني في ذلك الصباح الذي تلا وصولنا إلى القدس بأسبوع، سألني وهو يضحك مع يما صفية:

- والله يا أختي، شريف تحفة. الله يخلِّي لك إياه. أنا متأكد من أن شريف سيكون له شأن كبير في هذه المدينة.

- بس ما تخرب أخلاق الولد الله يرضى عليك، أنا أعرفك جيدا.

- بلشنا نغير من هلاًّ؟

- لا غيرة ولا هم يحزنون. شريف عيوني. لا تنس، الولد لساته صغير.

صمت خالي إبراهيم قليلا ونظر إلى وجه أمي. فهم جيدا ما كانت تقصده. ذهب نحو النافذة وغرس نظره في الحديقة ثم في النافورة التي كان خرير مائها يخترق صمت البيت. شعرت يما صفية كأنها هزته في اندفاعه.

- ولوْ حبيبي، أنت تعرف جيدا أن مكانك في العينين مثل شريف وأكثر. أنا بس أخاف عليه من هذه الأوضاع المرتبكة التي لم ترحم والده وأتمنى أن يترك يكبر في أمان. هذا كل ما في الأمر.

عاد نحوها وهو يبتسم بإشراق:

- لم تتغيري كثيرا منذ طفولتك، لا تريدين من أحد أن يزعل بسببك، تراضين الجميع حتى عندما يكونون هم الظالمون. لا حبيبتي أنا مش زعلان. شريف ابني وحبيبي.

ثم أخذني من يدي وخرجنا وهو يضحك ضحكة تظهر محياه الطفولي بشكل بارز.

- شايف يا شريف مشكلة النسوان؟ تضحك يبلعونك، تبكي ياكلونك، نطلع مينشان ننجو منهن. يا الله يا خويْ، يا الله. قم بسرعة. خليك من حديث النسوان. سترى القدس كما لم تعرفها أبدا في حياتك.

- أي قدس تريد أن يعرفها شريف؟ فقد جابت مانيا به كل شوارعها ومحلاتها.

ردت أمي من عمق المطبخ.

- هذه قدس الجميع، أفرجيه قدسي أنا كما أعشقها وأشتهيها. قدسي التي لا تنام ولا تصحو. قدسي الحية دوما، التي فشل العثماني في طمسها والإنجليزي في كسر عنفوانها.

ثم خرجنا وتوغلنا في عمق المدينة. شعرت أن المسالك التي كنا نقطعها ليست هي نفسها التي سرت فيها أنا ومانيا. كانت تبدو لي أقل شعبية وأكثر أناقة وحياة. الناس يتبادلون التحيات والأخبار السياسية والعسكرية للبلاد، يتحدثون عن المسرحيات والعروض الفنية والمواعيد. فقد كانت لخالي إبراهيم علاقات يصعب حصرها مع الإنجليز والأمريكان واليهود والمسلمين والمسيحيين. في كل زاوية من زوايا المدينة يناديه شخص ليحييه، ليمنحه شيئا ما، ويستجيب خالي للجميع بالكثير من الود والمحبة.

في الطريق سألني سؤالا استغربته في البداية قبل أن أتآلف معه، من كثرة ما سمعته عن تمرد خالي:

- تحب الموسيقى يا شريف؟

في حياة أعمامي لا توجد الموسيقى، كدت أنساها.

- أحب صوت أمي وهي تغني بديعة مصابني وسيد درويش وخصوصا الشيخ أحمد الطريفي الذي يأسرها صوته ونشيجه الجميل.

- تريد أن تراها؟

- مين اللي ما بيحب يرى أمه؟

- لا يا غشيم، أنا أحدثك عن الستِّ بديعة.

- ما دامت أمي تقلدها من حين لآخر عندما يكون خاطرها صافيا، فأنا أيضا أحبها. أسمعها أحيانا وهي تدندن وحدها. الأحسن بالنسبة لأمي عدم تنبيهها وإلا ستتوقف ولن تضيف كلمة واحدة. وعندما تنتهي وأقف عند رأسها، تقول: إيه يا شريف حبيبي، هذه الستِّ بديعة، أعظم صوت سمعته في حياتي.

- أختي صفية كان يمكن أن تكون إحدى فنانات الشرق المهمة، ولا أبالغ في ذلك أبدا، ولكن حسابات العائلة الفارغة منعتها من هذه الفرصة. كنت أنام على صوتها إذ كانت هي من يهدهدني. كلما ذهب عني النوم، أناديها لتصعد نحو غرفتي، تسألني: شو بك؟ أجيبها بلا أدنى تردد: النوم هرب من عيني، غني لي شوية. تجلس عند رأسي بشعرها الطويل. تصمت طويلا قبل أن ينطلق صوتها قويا وعاليا. كان الذين يعرفونها من العائلة يعتقدون أنها ستمتهن الغناء ولكن الأقدار التي يصنعها البشر شاءت غير ذلك. كنت صغير العائلة ولم يكن يسمح لي أن أحتج وأرفع صوتي أمام سادة البيت الكبار.

- أعرف صوت أمي جيدا يا خالي، ولكنني لم أكن أعرف هذه التفاصيل.

- ربما كانت خيتي صفية أكثر رزانة مني. لو عرفتَ هذه التفاصيل، ماذا كان سيحدث؟ لا شيء. انتهى. لقد اختارت صفية أو اختاروا لها حياة أخرى. كانت تحلم بفارس عظيم، يأتيها على جواد أبيض ويختطفها. فجاءها الفارس واختطفها وكانت سعيدة معه، وهذا وحده كاف. الفن يا شريف لا يحتاج فقط إلى تضحية ولكن في الأغلب الأعم إلى قطيعة نهائية مع العائلة. وأمك لم تجد من يساعدها على الاعتناء

بصوتها. فقد ظلت مرتبطة بوالدها كثيرا وبما يقال حوله عن أبنائه، المرتبط بدوره بسمعة العائلة، المرتبطة بسمعة فلسطين بكاملها، المرتبطة بسمعة الأمة والدين... وهات يا كلام... شايف؟ كيف ندمر حياة جميلة بسلسلة من الخرافات وننسى أن للإنسان وجوده الفردي البسيط المليء بالنبض والشوق.

- هذه هي أمي التي أعرفها يا خالي منذ أن فتحت عيني.

- وهذه هي أختي التي تمنيت لها أن تكون شيئا آخر. الدنيا بنت الكلب. الدنيا فعلا أبوها كلب.

- وأمها؟

- غزالة.

تفرقع مثل الملحة في ضحكته ثم عبرنا عمق شارع يافا المليء بالحياة والحركة. دخلنا إلى مقهى وبار الجوهرية.

- هذا المقهى والبار من أجمل الأماكن وأحلاها في القدس. تعال نشرب قهوة.

توغلنا عميقا في صالاته الواسعة. كان غاصا بالبشر. جلسنا، فركض نحونا النادل وحيا خالي إبراهيم:

- زارتنا بركة أخويْ إبراهيم بك.

- تسلم. كاسة عرق إلي وشاي سخن لابن أختي.

- طلباتك أوامر يا إبراهيم بك.

التفت خالي إبراهيم نحوي.

- شايف هذا المكان ما أحلاه؟ أربعة شباب التقوا وفكروا في المشروع وأنجزوه. الأول اسمه خليل والثاني إبراهيم، كانا موظفين في الجندرمة، فاستقالا للتفرغ كليا للعمل في المقهى، والثالث اسمه جورج بن ميخائيل الحلبي من أبناء طائفة الروم، ورابع هو حبيب الموندو. اشترك الجميع في فتح هذا المقهى بار الذي صار بسرعة ملتقى الشباب الذي كان يبحث عن حياة أخرى. كان الإقبال عليه عظيما من الأهلين

على اختلاف طوائفهم وأديانهم. فكنت ترى الزبائن يجلسون على الكراسي الممتدة من أول زاوية عمارة هذا المقهى إلى المنعطف المؤدي إلى طريق أملاك عمائيل ودائرة السفر والمهاجرة أو طريق الكانتورة. والعمارة التي نحن فيها الآن، تسمى عمارة الروس. كانت عبارة عن أربعة مخازن متسعة الأرجاء. لها ستة أبواب في الطابق الأرضي. كان الطابقان الأول والثاني مستعملين من قبل دائرة الاستخبارات البريطانية وبعض الدوائر الأخرى لحكومة الانتداب البريطاني. الإقبال على المقهى كبير. يأتون إليه من كل الطوائف. كان في البداية عاديا ولكنه تطور بسرعة إذ إن صاحبه جاء بأساليب مغرية اقتبسها من بيروت عندما كان في جندية الجندرمة زمن الحكم العثماني. أدخل المازة اللبنانية الشهية على الطاولة الفلسطينية في مقهاه وباره واستغل علاقاته الكثيرة مع الفنانين والموسيقيين، ففتح أمامهم هذا الفضاء الجميل.

جاء صوبنا رجل. قام له خالي إبراهيم باحترام وحياه بحرارة ثم التفت نحوي:

- هذا يا شريف من أعز أصدقائي. معلمي. خليل بك، صاحب هذا المكان الجميل وهو الذي جاءنا بمازة بيروت وتشكيلاتها الجميلة ليعطي للكأس متعته. وهذا يا خليل بك، ابن أختي، ابني. أعرِّفه على المدينة التي يمكن ألا يعرفها طوال حياته من غير هذه الفرصة.

- شوي شوي على الصبي، يمكن لسه مو مطهَّر.

قال الرجل بصوته الخشن المثقل بالرمال.

شعرت بامتعاض ممزوج برغبة في الصراخ في وجهه: أنا رجل. رجل ونصف. لم يكن يعرفني، ولكن نصيحته التي لم أحبها، ذكرتني بأمي.

أحس خالي بانزعاجي وكأنه قرأ كل شيء في عيني:

- يا خليل بك أنت ما تغير مفرداتك. ما ينخاف عليه. شامي أصيل.

- إذا كان هيك ماشي الحال. جيت بس أقول لك أننا جايبين بديعة

مصابني ورفيق عمرها نجيب الريحاني الذي أقنعه صديق عمره فخري النشاشيبي بزيارة القدس.

- شخصية فذة. التقيت به العديد من المرات في سهرات عند بعض العائلات اليهودية الراقية الأصيلة في القدس. كان يحب مجالسها الجميلة فيبدع في النكتة. في مرة من المرات قال لنا ونحن مسترخون، نسأله عن تجربته الفنية والمسرحية، فقال: يرجع الفضل لتفوقي في التمثيل إلى المرحومة والدتي. تساءلت: وهل كانت هي أيضا ممثلة؟ فأجاب: كنت وأنا صغير ثورة متنقلة في كل لعبي وعملي في البيت. وكنت أسبب لها انزعاجا قويا في حياتها. فكانت رحمها الله، تشتمني وتقول لي: روح... إلهي يفرج عليك الناس... وهذا ما حدث بالفعل. ربنا استجاب لها وأصبحت على المسرح يضحك عليَّ حتى الحزين.

النكتة خففت من ثقل الرجل فصار يقهقه بأعلى صوته ولم يكن مهتما بالزبائن الذين ملؤوا المكان.

ثم خرجنا باتجاه مقهى بريستول الواقع خلف سور باب الخليل، مقابل ملك كلارك، في شارع يافا الذي أصر خالي على أن نمر عليه. من أشهر مقاهي القدس. كان يملكه إلياس قرنفل، من أهالي بيت لحم وشريكته المسز روز الإنجليزية. كان رواد هذا المقهى من النخبة المقدسية والعربية وحتى الأجنبية. لم نجلس فيه كثيرا ولكنه أشار بأصبعه نحو الطاولة التي كان يجلس بها نجيب الريحاني:

- كلما مر من هنا، تلك هي زاويته التي لا تحمل شيئا إلا جدته الفنية ونكاته التي تضحك حتى الميت كما كان يقال عنه كلما جاء الحديث عن نكاته البديهية.

لا أدري ماذا حدث لي ولكني عندما عدت إلى البيت كنت مرتاحا على غير العادة وشعرت بالفعل بأني صرت أفهم شيئا من خبايا القدس. كلما سألتني مانيا عما رأيته، بعد خروجي مع خالي إبراهيم، ذكرت لها كل شيء بالتفاصيل وأضفت الملح من عندي بحيث أرى في عينيها رغبة كبيرة للدخول إلى هذه الأماكن لكنها كانت تخاف من أمها وجدها

وأخوالها الذين لا يقولون شيئا ولكن حديثهم عن الآخرين قمعها بقوة.

كنت أنتظر يوم بديعة مصابني بفارغ الصبر:

- طولت بديعة يا خالي؟

- بدك تتعلم الصبر يا شريف. ستأتي متى سمحت لها أوضاع البلاد بذلك. الإنجليز صاروا يشددون على كل شيء وأثقلوا على المسافرين على متن القطارات بالغرامات الثقيلة.

- لا تنساني. مشاغلك كثيرة يا خالي.

- اتركها علي ولا تسأل.

لم يلبث خالي إبراهيم أن دعاني إلى رفقته للتعرف إليها.

- اليوم عرسك. ضبط لي حالك بشكل كويس. البس أجمل ما تملك في خزانتك.

- من هذه الناحية أمي مدلّعتني زيادة.

عندما أصبحنا في جوف مقهى بار الجوهرية الواسع، أغلق الباب بإحكام من الداخل. كانت ليلة جميلة أعادتني طوال السهرة إلى صوت أمي. بل كنت أرتكب في داخلي جريمة في حق أهلي. طوال السهرة لم أر إلا أمي على المنصة بجسدها البض وحركاتها المتناسقة والجميلة. ليلتها عرفني خالي بالعديد من الناس الذين ما تزال أسماؤهم تطن في رأسي: تحسين الخالدي، رشدي المهتدي، فوزي درويش، داود الفتياني وغيرهم وكلهم من سادة المدينة وشبابها ومثقفيها. طالت السهرة حتى الساعة الثانية صباحا ولم أشعر أبدا بالتعب. عندما دخلت إلى الدار على رؤوس أصابعي كي لا أوقظ أمي وأتحمل سيل الملاحظات الكثيرة، فتحت الطنجرة فوجدت بها محشي الباذنجان ملفوفة بحرام صوفي، كانت هذه عادة أمي للحفاظ على الطبخ ساخنا. عندما بدأت أكل الباذنجانة المحشية سمعت أمي:

- أديش الساعة يا شريف؟

ارتبكت. تأكدت من أن أمي لم تنم إلا قليلا من شدة خوفها عليَّ.

- الساعة الثامنة والنصف يا ما.

- ولك استح على حالك، هالقيت دقت ساعة دير اللاتين الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

- بتعرفي يا ما شو قالوا العرب؟

- شو قالوا؟ نورني الله يخليك. . . .

- من طلب العلا سهر الليالي، وأنا أسهر الليالي يا ما.

- يا عيني عليك. شاطر. والله شا. . . .طر. قالتها ممدة الكلمة الأخيرة بسخرية. هالمثل قالوه للشخص يا اللي بيقرأ ويكتب، مش اللي مثلك يقضي كل وقته مع مجنون أكثر منه، عند رجلي بديعة مصابني ونجيب الريحاني.

- وحياتك يا ما، كلما سمعتها، فكرت فيك بقوة. صوتك ليس أقل منها.

- يا الله روح نام ويكفِّي، بلاش كلام فارغ.

- وحياتك يا ما صوتها بيشبهك تماما.

- لو كان الزمن طيبا لرحت معكما ولكن. . . يا الله كلْ لك لقمة ورُحْ نامْ.

أبوس رأسها كما هي العادة وأدخل في عمق الفراش براحة لا أحس بها إلا بعد هذه السهرات.

في الفراش لم أتذكر شيئا آخر إلا صوت وسحر الست بديعة.

رأيتها بعد ذلك العديد من المرات مع خالي إبراهيم، في مقهى المعارف خارج باب الخليل. كان هذا المكان يقوم بوظيفة أحد أهم المسارح في المدينة. وعندما نزلت في فندق سان جون، حارة النصارى، داخل السور لصاحبه عمي صليبا سعد أخبرت خالي وذهبت برفقته. وفي فندق مينا ميخائيل الحلبي بالقرب من بوابة الخليل الذي تحول فيما بعد إلى مطبعة لجريدة مرآة الشرق لصاحبها بولس شحادة، من أهالي رام الله. كان معها عازف العود شحادة اليهودي، وراقصتان

بهندام قومي مصري. كانت بديعة ليلتها بلباسها الشفاف المعد للرقص، آية في الجمال. وبيدها الفقاشات، ترقص فتهتز بتناسق تام كل أعضائها على نغمات آلة القانون التي كانت تملؤها حنينا وتشوقا. أتذكر أغنية لها من مقام راست نوى.

صح النوم، ما تقوم يا حبيبي،
ريق ريقك عَ الحليب.
يا لبن قشطة وحياة حبك،
لو داقه العيان ليطيب.

ومن كثرة تكراري لها في البيت، أثرت انتباه أمي التي حفظتها بسرعة وكلما انسحبت نحو المطبخ وأحست بوحدتها، سمعتها تردها ممزوجة بلوعة داخلية. وعندما تنتبه لوجودي، تسبقني إلى الملاحظة:

- والله صرت فنانا يا شريف. أخذت عقلك الستَ بديعة.

كنت أظن أن أمي كانت تمزح ولكني اقتنعت بأن صوتي كان جميلا. لم يكن في نيتي أن أحترف الفن، ولكني كنت سعيدا لشيء واحد، هو أني كنت قريبا من أمي التي، منذ أن دخلت القدس في المرة الأخيرة، لم تعد تذكر الشام إلا قليلا. ربما كانت تريد أن تنسى أو أن قربها من أهلها جعلها أقل ضيقا مما كانت عليه في الشام بين أعمامي الذين تحكمهم أخلاقيات شاقة وجافة وصارمة.

-٣-

انتقلت كل العائلة إلى ديوان جدي القديم الذي لا يفتح إلا في المناسبات الكبرى والغالية عليه، مثلما تفعل العائلات الكبيرة، في عمق حارة المغاربة. كان البيت كبيرا كملعب، يغلب عليه البياض والألوان الباردة. شاءه جدي شبيها بالبيوتات الأندلسية فكان له ما شاء.

كانت الحركة في البيت مختلطة وكل واحد يذهب في اتجاه، نساء البيت ورجاله حتى قبل أن يصل الضيوف. كانت سعادة أمي لا تضاهى

كأن سليم سيعود اليوم أو ربما عمو عز الدين الذي كان غيابه قاسيا على كل العائلة بعدما عودنا على نظامه اليومي إذ لم يكن يتوقف عن زياراتنا.

قالت أمي وهي تنفض الأفرشة التي تمتد في استقامة وكأنها ستستقبل جيشا كبيرا. لم أر في حياتي قاعة بهذا الاتساع وهذا الكبر.

- الأمير سعيد ليس شخصية بسيطة. الناس يتحدثون عنه كثيرا في القدس، خصوصا في الحارة. سيحضر مؤتمر الدفاع عن حائط البراق.

لم يبد علي حماس كبير تجاه ما قالته. فقد ورثني عز الدين موقفه وتردده على الرغم من حبه له ولكن وجاهته الزائدة لم تكن تروق له. يقول إن الوجاهة الزائدة تبطن رغبة لامتناهية في السلطان. لاحظت أمي ذلك:

- يا حبيبي، الأمير سعيد شخصية كبيرة هنا في القدس وينتظرون مبادرته لأنه الممثل الشرعي للمغاربة ولمصالحهم في فلسطين وفي غيرها. على الأقل نشم فيه رائحة تلك المدينة والناس الذين نعزهم بها. صعب يا حبيبي أن نغادر أرضا لم نكن مستعدين لمغادرتها. كلما سمعنا به شعرنا باعتزاز داخلي.

لم أفهم أمي جيدا ولكنني شعرت بعمق أحاسيسها وبرهافة ما كانت تقوله.

زيارة الأمير سعيد غيرت الشيء الكثير في العائلة. فقد كانت الفرحة عارمة لم يستطع أحد احتواءها. أنا نفسي، في لحظات نسياني المتعمد، شعرت بتلك السعادة متجاوزا ما تعلمته من عز الدين الذي ظل متواضعا كطفل ولم يحسب أي حساب شخصي. الأمير سعيد لم يتغير كثيرا سوى أن العمر بدأ يزحف ولكنه كان نشيطا ومحدثا كبيرا.

لقد امتلأ بيت الضيافة بالزوار وبمشايخ المدينة ووجهائها الذين اشتركوا في المؤتمر وتغيرت حركة حارة المغاربة وصارت فجأة تشبه الحارات الشامية وحي العمارة المتمادي الطول والاتساع.

جدي قبل أن يستقبل ضيوفه، استقبل كل أفراد العائلة واحدا واحدا

وسأل عن اسم الصغير والكبير. عندما وصل إلى أمي، شد على رأسها بحرارة:

- الشام وبيروت مشتاقتان إليك. لا تنسوا أن لكم أهلا هناك ينتظرونكم في أية لحظة.

- الله هو اللي يعلم ما في القلوب. كل مرة أتمنى أزورك فيها، يأتي طوفان الحياة فيغير كل شيء في. الله يجمعنا في ساعة خير. ثم إنك ابتعدت عنا في بيروت وصارت دمشق تشتاق إليك ولا تزورها إلا من حين لآخر وأشغالك زادت هنا وهناك ولا نريد أن نقلقك أو نثقل عليك.

- أعوذ بالله. أنتم أهلي وعشيرتي. بكم نكبر وبدونكم يصغر كل هذا العالم الوهمي الذي يحيط بنا. الدنيا تغيرت كثيرا. وأنا نفسي ما بعرف كيف أسير وقتي. البلاد في فوضى عارمة وتحتاج لمن ينقذها.

شعرت بأن الأمير سعيد لم يتغير إلا قليلا، فهو يشعر دائما كأنه يحمل على ظهره هموم المدينة كلها. كان الأمير سعيد ملكا بدون مملكة ويسير على خطى جده الأمير عبد القادر ولكن عمي عز الدين علمني أنه لا يوجد في الدنيا رجل يشبه آخر. لا أحد يكرر الآخر مهما أوتي من قوة. وأشعر أن كلام عز الدين ما يزال صادقا وقائما. لقد صرف أموالا كثيرة في الدفاع عن الخط الحجازي، حتى صار رئيسا للجنة الدفاع عن هذا الخط. فهو يعتبر أن الخط الحجازي مؤسسة إسلامية ووقف إسلامي عام ولا يجب اغتصابه مثلما حدث من طرف الفرنسيين الذين لم يسمهم بالاسم. وقد رفع دعوى على شركة شام-حمى-حلب وملحقاتها واعتبر سكوت العالم الإسلامي على ذلك جناية. وقد حرك المدينة في مظاهرة كبيرة من الجامع الأموي حتى غصت السوق الكبيرة بالجماهير الواسعة. وأضربت المدينة بسائر محلاتها التجارية والصناعية ودكاكينها من الصباح إلى حوالي الظهر. وعلى الرغم من هجوم الشرطة على سوق الحميدية إلا أنهم فشلوا في تفريق المتظاهرين. ثم مروا بدار المندوبية ثم بسراي الحكومة المحلية التي احتشد رجال الشرطة أمامها. وكان القرار هو عدم

السكوت عن مساعي الدول الاستعمارية لاستثماره ظلما وعدوانا. وقد غطت الأحداث جريدة البيرق البيروتية في عددها ٦٧٠ الصادر يوم الخميس في ٣ نيسان ١٩٣١.

طلب من مصوره المرافق له أن يأخذ صورة عائلية عامة لكل العائلة من صغيرها الذي في القماط حتى كبيرها الذي بدأ يخطو خطواته الأولى نحو تربة القبر. ربما كان ذلك أهم ما قام به الأمير سعيد، فقد تعرفت على أفراد من العائلة الذين لم أعرفهم في حياتي. أبناء أعمامي وأخوالي والذين ينتمون إلى العائلة من بعيد والذين سكنوا الحي في وقت متقدم وكانوا من الأوائل الذين صاغوا وجه الحارة. عندما اشتعل النور الذي يثبت الصورة، صرخ الأطفال فرحا وهم يحاولون أن يتفادوا بأعينهم الصغيرة التي تشبه عيون الديكة، النور القوي الذي انبعث بصوته المخنوق من آلة التصوير التي بدت وكأنها انفجرت على آخرها. عندما رأيت الوجه الأملس للمصور الإنجليزي يرفع رأسه من الغطاء بسعادة تأكدت أن الصورة كانت ناجحة.

ثم انسحب الأمير سعيد نحو الديوان باتجاه مدخل الضيوف. كان الفضاء عاجا بالحاضرين الذين جاؤوا لتحيته ولسماع وضعية حائط البراق. كان أعيان المدينة يجلسون في الصفوف القريبة.

كان الأمير سعيد هو أول من بادر بالطمأنة وهو يمسح على لحيته الكثة:

- إن شاء الله، النتائج ستكون كويسة. قمنا بالواجب ولا يوجد مبرر لتناسيها. مقترحاتنا صحيحة وموضوعية ولم نبنها فقط على العواطف الجياشة. عواطف الإنجليز من هذه الناحية باردة جدا. الفرنسيون يتعاملون بشكل أحسن مع الأحاسيس ويقرؤونها بحكمة.

- لازم نصل إلى حل يضع هذه المعضلات في مكانها الطبيعي. اليهود بالغوا ولازم يسمعون صوتنا، قال مختار مدينة القدس.

- للأسف لا توجد لجنة للأماكن المقدسة التي في استطاعتها وحدها تعيين وتحديد الحقوق والادعاءات بشأن الحائط. فقد كان من

شأنها حسم الخلافات بشأن حقوق المصلين اليهود عند الحائط. وقع العديد من الحوادث أخطرها حادثة أيلول ١٩٢٥ إثر صدور قرار يحظر على اليهود أن يجلبوا إلى الحائط كراسي ومقاعد حتى ولو كانت الغاية منها جلوس الطاعنين في السن والعجزة عليها ثم حادثة ٢٤ أيلول ١٩٢٨ وهو يوم عيد الغفران عند الطائفة اليهودية. أيدت حكومة جلالة الملك الإجراءات التي اتخذها المستر كيث روش، حاكم مقاطعة فلسطين. رفع بمساعدة البوليس ذلك الستار الذي كان قد أثار وضعه على الرصيف تجاه الحائط فيما مضى شكاوي المسلمين باعتبار أن وضعه هناك من المستجدات غير المعهودة. فوقعت القلاقل التي جاءت بنا إلى هذا المؤتمر، في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٢٨ وترأسه سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى. وانتهينا كما تعرفون إلى النتائج التالية التي ترمي إلى الحفاظ على الوحدة الروحية للشعب الفلسطيني. ورفضنا بقوة كل محاولة ترمي إلى إحداث أي حق لليهود في مكان البراق الشريف وسنحتج على أي تساهل يغير من الأوضاع بشكل يسيء إلى المسلمين قاطبة. وطلبنا من الحكومة التدخل لمنع اليهود من وضع أية أداة من أدوات الجلوس والإنارة والعبادة والقراءة. ومنعهم من النحيب ورفع الأصوات والا سيضطر المسلمون إلى فعل ذلك وحدهم. وتتحمل الحكومة كل التبعات المترتبة على ذلك. وقررنا إنشاء جمعية حراسة الأماكن الإسلامية المقدسة. وقد أوصينا بتعيين لجنة دولية وفقاً لأحكام المادة ١٤ من صك الانتداب على فلسطين للفصل في الحقوق والمطالب المتعلقة بحائط البراق الشريف. ننتظر تقرير لجنة شو.

– طبيعة اليهود، عندما تفتح أمامهم نافذة يسعون لتوسيعها إلى باب حتى تصير ملكا لهم. كانوا دائما هكذا وتاريخ شراكتنا معهم يدل دلالة واضحة على أنهم لا يتغيرون أبدا.

– نتهم دائما بالتطرف والبدائية مع أن نخبنا كانت دائما حكيمة في قراراتها. والله ما إلنا خلاف مع المسيحيين الذين هم منا ونحن منهم

وننتمي إلى نفس الأرض ولنا ما لهم من حقوق ومن واجبات ولا مع اليهود، فهم أبناء عمومة، يمشون على أرضنا ويعبرون طرقاتنا ويسكنون بيوتنا ويقاسموننا أكلنا ولكن أن يشككونا في حقوقنا، فهذا غير مقبول أبدا ولابد إذا توفرت الظروف أن نحادث حكماءهم، سنفعل ذلك بلا تردد. منذ مؤتمر زيوريخ ونحن نعيش هذا التعدي على الحقوق الإسلامية المتكرر. تجاوزوا الحق الممنوح لهم بالوقوف أمام حائط البراق للعبادة والبكاء باعتباره الجدار الوحيد القائم إلى اليوم من بقايا هيكل سليمان والله وحده يعلم الحقيقة، ووضعوا إلى جانبي الحائط مقاعد خشبية ورفعوا الأعلام اليهودية تمهيدا لتحويل المكان إلى معبد يهودي وهذا استفزاز للمسلمين لأن الحائط هو أحد جدران المسجد الأقصى وكان من الطبيعي أن تنشب ثورة ٢٣ آب ١٩٢٩. حتى جاءت لجنة شو لتفصل في الحق. وقدمنا لها احتجاجنا. ما ضاع حق وراءه طالب ملحاح.

- حلوة كلمة ملحاح هذه، الناس عادة يبتلعونها. قال أحد المشايخ الذي كاد أن ينام في زاوية دار الضيافة.

كان خالي إبراهيم أول المتدخلين الذين غيروا مسار النقاش. فقد كان رأيه حادا كعادته. فهو لا يتوانى عن الحقيقة وقولها كما يشعر بها ويحسها:

- يا أمير سعيد نحن نقدر كل مساعيك للخير مع سماحة الحاج أمين الحسيني الذي كان ضحية مضبطة، ذكر فيها اليهود أنه هو السبب في الاضطرابات وخصصوا عشرة آلاف جنيه لهذا الغرض وجعلوا ثمن توقيع كل عربي على المضبطة المذكورة عشرة جنيهات ولكن عندما وقعت المضبطة بين يدي مزقتها إلى ألف قطعة وكنت بيافا وأوقفت اللعبة. ولكن هذا لا يغطي ضعفنا أمام لجنة شو. يجب أن نتنبه إلى أن لليهود حقاً في هذه الأرض وألا نكون كمن يغمض عينيه على شيء موجود. هم لم ينزلوا من السماء. مثلنا سكنوا هذه التربة منذ آلاف السنين وتعذبوا فيها ودافعوا فيها عن حقهم في الوجود.

- لم أنكر لهم هذا الحق ولكنهم اعتدوا على دين الآخرين وهذا غير مقبول. ثم إن المغاربة هم سكان حي البراق الشريف، الحائط الغربي للمسجد الأقصى. وهم أقرب الناس لرؤية حقيقة موقف اليهود عندما كانوا يأتون إلى حائط البراق ليبكوا. والمغاربة هم أحرص الناس على قدسية هذا المكان الذي يهمهم. وله علاقة بوقفهم الخاص. وتماديهم في دعاية التملك التاريخي للمكان، يجعلنا نغير رأينا تجاههم. ونقر بعدم التسامح مع هذه الممارسات. وسندافع عن حقوقنا بكل الوسائل أمام المغتصبين. وندرك سلفا أن هذه الممارسات ستؤثر سلبا على العلاقة الأخوية مع اليهود.

- يمكن أن يكون الإنسان مغربيا ويهوديا في الآن نفسه. لقد جاؤوا اليد في اليد من الأندلس وكلاهما مجرد من أرضه ومن حقه الأدنى في الحياة. إذا لم يدرك المؤتمر هذه التفاصيل فلن نستطيع إقناع الأوروبيين أبدا. نحن نقف أمام الآخر ولا نقف أمام أنفسنا فقط يا أمير سعيد.

جدي نظر إلى خالي إبراهيم نظرة حادة وقاسية لكي يصمت ولئلا يتمادى في نقده. بينما التفت إبراهيم إلى أحد الحاضرين وكأنه لم ير جدي أو لم يكن يريد أن يرى وجهه الذي احتقن فجأة. بينما استمر صمت الأمير سعيد لحظة من الزمن بدت طويلة جدا، كان يبحث فيها عن إجاباته الضائعة.

- لا أعلم، هم على كل حال من أدخل الدين في القومية. حتى صارت اليهودية قومية وليست دينا؟ هم من ابتدعها للم شمل اليهود ومن حقهم إذا كان هذا يقودهم نحو مزيد من لم الشمل والرزانة في التعامل مع الأقوام التي لا تشبههم. ومع ذلك لم نعتد على أي حق. بل ذهبت حتى إلى ما هو أبعد، لقاء أحد أهم المنظرين لليهودية الحديثة. ثم إننا جئنا بشكل نظامي وفق دعوة مسبقة من سماحة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين يسألني فيها أن أكون من المدافعين عن حقوق المسلمين وخاصة المغاربة. واجتمعت إلى سماحة الحاج أمين وإلى كاظم باشا رئيس المؤتمر. وطلب الزعيم الصهيوني كليفرسكي مقابلتي

فاجتمعت إليه فأعرب لي عن رغبته في الصلح وأظهر ميلا شديدا للمفاوضة وأكد لي عن نيته الطيبة ورغبة اليهود الأغنياء في استثمار أموالهم في الأرض العربية ومساعدتهم على تكوين الإمبراطورية العربية وأكدت له أن العرب هم مع الصلح وأن اليهود يقيمون في فلسطين منذ أجيال إلى جانب العرب وهم مواطنون لهم الحق في كل شيء. وأعلمته أن قضية البراق ليست قضية أساسية وأن المسلمين مستعدون للدخول في مفاوضات أساسية ولكن يجب أن نتفق منذ البدء على إلغاء فكرة الوطن القومي. فرد كليفرسكي بنوع من القلق: لكن اليهود مشتتون في العالم ولا وطن لهم؟ فأجبته وقد ساعدتني قريحتي أمام هذا الرجل الذكي: وهل نحن مرغمون على إنشاء وطن لهم عندنا؟ إذا كان الأمر كذلك فإن المغاربة أحق بأن يطالبوا بوطن قومي لهم؟ وكذلك الأكراد والشراكسة؟ فإن عدد هؤلاء كبير وفي وسع كل قوم منهم مساعدة أبناء بلاده على المهاجرة إلى سوريا وإنشاء وطن قومي لهم. فهل من المعقول أن ينشأ في سوريا وفلسطين أوطان للمهاجرين؟

- ولا تشكون في نزاهة اللجنة؟

- لا نتحسس منها مطلقا حتى ظهور العكس. تتألف من شخصيات مرموقة معروفة بحيادها وأنا على ثقة أن حكمها سيكون في مصلحة المسلمين. فضلاً عن كون وقفنا المغربي ظاهراً وبيناً. منذ ٦٢٩ سنة وزاوية سيدي الغوث أبو مدين وقسم من جدار البراق للمغاربة وليس الطريق الذي يسلك منه المغاربة إلى الزاوية ملكا عاما بل هو خاص بهم. وليس لأحد أن يعتدي على أملاكهم. لقد سمحت الحكومة التركية لليهود بأن يقفوا عند الحائط شرط ألا ينوحوا فكانوا راضين كل الرضا عن هذه الهبة غير المنتظرة. نحن نؤمن بالقانون إلى أن يثبت العكس ثم أن الحق معنا. وقدمنا حججنا والتقيت مع الوجهاء العرب واليهود والكثير منهم اعترف لنا بهذا الحق ولا يطلب إلا العيش في هدوء. وأستطيع أن أؤكد أن حجج اليهود ووثائقهم واهية ووهمية إلى أبعد حد وأن الوثائق التي وعد المسلمون بتقديمها والوثائق الهامة التي أعدها

سعادة أحمد زكي باشا لتقديمها إلى اللجنة وهي عبارة عن خمسة كتب لابد أن تقنع اللجنة وهذا ما ننتظره.

أتذكر أن النقاش كان حادا وصعبا. عندما سئل عن ردة الفعل في حالة عدم الاعتراف بحقهم في الأماكن المقدسة، أجاب بدون تردد:

- لن يجرؤوا.

- وإذا تجرؤوا؟ قالها أحد الحاضرين الشباب وكأنه ندم عليها لأنه بعدها لم ينطق بكلمة واحدة:

- أتفهم فورة الشباب. لكن القوة العربية إذا كانت قد تساهلت سابقا في تقسيمها فلن تتردد على استعمال كل قواها وهذا عهد مني ولو دفع بنا الأمر إلى تكوين كتيبة مغربية مثلما فعل المغفور له جدنا الأمير عبد القادر الحسني عندما اضطر للدفاع عن المسيحيين. لم نصل بعد إلى هذا الوضع وأتمنى ألا نصل له مطلقا لأن الثمن فيه سيكون باهظا على كل المستويات.

عندما صمت الجميع، وقبل أن يؤتى بالأكل، شرب الأمير سعيد قهوته التي ألح أن تُغلى في الركوة كما تعود عليها منذ زمن بعيد. مزمزها بتلذذ وكأنها كانت تمنحه تفكيرا خاصا، وترك بصره يغرق بعيدا مخترقا الضفة ونهر الأردن وأراضي الجليل الغنية وغوطة دمشق التي بدت إليه قريبة أكثر من أي زمن مضى.

بعد الظهر، لم يبق إلا هو والعائلة وبعض المقربين. ودعته أمي. سلم على رأسها كعادة المغاربة لتفادي وجه المرأة. ثم مد يده إلى جيبه بسخائه المعهود، لكن أمي أقسمت ألا تأخذ مليما واحدا وأنها إذا احتاجت سيكون أول من تطلب منه ذلك وأنها بخير وأنْ لا شيء ينقصها وأن ابنها قد كبر والأيام الصعبة قد انتهت وولت. تجمدت يده في جيبه. ارتبك قليلا قبل أن يستعيد توازنه. أمي تعرف عادته الدائمة ولكنها لم تكن تريد شيئا منه. كبرياؤها هو الذي منعها دائما من ذلك. تمتم الأمير سعيد الذي خرجت الحروف من صدره منكسرة ومرملة:

- طيب، سيحاسبك الله إذا لم تطلبي مني ذلك عند الحاجة. على

الأقل زورينا في الشام. أرضكم هناك كذلك. سأغضب منك إذا سمعت أنك جئت إلى الشام أو بيروت ولم تزوريني.

- موافقة.

- نتمنى نستأنس بك وبهذا البطل الذي سيكون ابن أبيه إن شاء الله.

- الله يحفظه ويحفظك من كل مكروه والله يخليك ذخرا لهذه الأمة.

قالتها أمي بشيء من التردد والتلعثم على لسانها.

ثم ودع بقية العائلة واحدا واحدا، صغيرا وكبيرا وانسحب. لم أر إلا ظهره الكبير والمعقوف قليلا عند الرقبة وهو ينسحب من دار الضيافة متبوعا بجدي الذي بدا عليه الإنهاك واضحا.

-٤-

خالي الكبير مصطفى يريد دائما أن يكون هو أول من يوصل المعلومات لجدي. فهو عينه التي ترى كل شيء. عندما دخل في ذلك اليوم حاملا في يده رزمة من الأوراق، عرفت أمي بحاستها، ومن حركته وارتباك وجهه، أنه كان يحمل أخبارا غير سارة لجدي.

- اصبر شويه يا مصطفى، بابا يصلي.

- المسألة خطيرة ولا تتحمل الصبر.

لم يكن خالي قادرا على تحمل السر ريثما يأتي جدي. أكد لنا ما كان مجرد ظنون وأوهام. في البداية، كان من الصعب عليه أن يجد كلماته، قبل أن ينطلق بلا توقف عندما التحق بنا جدي.

- هذا المنشور موقع من طرف السير جون تشانسلور أصدره يوم ١ سبتمبر ١٩٢٩ في ظهر يوم الجمعة ورمته الطائرات اليوم على رؤوسنا. منشور يحملنا كل التبعات والتجاوزات التي حدثت. اسمعوا ماذا يقول: **عدت من المملكة المتحدة فوجدت بمزيد من الأسى أن البلاد في حالة**

اضطراب فأصبحت فريسة لأعمال العنف غير الشرعية. وقد راعني ما علمته من الأعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الأشرار سفاكي الدماء عديمي الرأفة وأعمال القتل الوحشية التي ارتكبت في أفراد من الشعب اليهودي خلوا من وسائل الدفاع بقطع النظر عن عمرهم وعما إذا كانوا ذكورا أو إناثا والتي صحبتها كما وقع في الخليل أعمال همجية لا توصف وحرق المزارع والمنازل في المدن وفي القرى ونهب وتدمير الأملاك. إن هذه الجرائم قد أنزلت على فاعليها لعنات جميع الشعوب المتمدنة في أنحاء العالم قاطبة. فواجبي الأول أن أعيد النظام إلى نصابه في البلاد وان أوقع القصاص الصارم بأولئك الذين سوف يثبت عليهم أنهم ارتكبوا أعمال العنف وستتخذ جميع التدابير الضرورية لإنجاز هاتين الغايتين وبناء عليه أطلب من جميع سكان فلسطين أن يساعدوني على القيام بهذا الواجب. . . ولكي أضع حدا للأخبار الملفقة التي ذاعت عن حائط المبكى. أعلن لعموم الأهالي بأنني عازم على تطبيق المبادئ التي ينطوي عليها الكتاب الأبيض الصادر في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٨. صدر في اليوم الأول من شهر أيلول من سنة ١٩٢٩. المندوب السامي والقائد العام: ج. ر. تشانسلور.

- مصابون بعمى سيجر البلاد نحو الهلاك لا محالة.

قالت أمي وهي تلملم لباسها الطويل. رد خالي وهو يستجمع ثقته في نفسه.

- تشانسلور من المفروض أنه أكثر الإنجليز تفهما ولكن يبدو أن ضغوطات الصهيونية كانت كبيرة عليه.

الحقيقة أنه في ٢٣ آب سرى خبر أن اليهود قتلوا عربيين فهاجت خواطر العرب. ما لبث أن سرى الهياج إلى القرى المجاورة ثم اتسع وشمل المدن والقرى وفي مقدمتها يافا وصفد والخليل وحيفا وغيرها وقامت مظاهرة هائجة في نابلس للأعراب معبرة عن سخطها واستيائها وتحولت الاضطرابات في الخليل إلى مذبحة يهودية عمومية قتل فيها ٦٠

يهوديا وجرح قرابة المائة وفي نفس اليوم هجم العرب على البوليس في نابلس وسرقوا الأسلحة. وهاجموا على ست مستعمرات ودمروها تدميرا كاملا وساءت الحالة في حيفا واتجه اليهود في يافا نحو سكن أبي كبير فقتلوا إمام المسجد الشيخ عبد الغني عون وستة أفراد من عائلته ووقع أيضا هجوم من اليهود على مقام النبي عكاشة في القدس وأصيب المقام بتلف كبير هو وأثاثه ومصابيحه الفضية وكتبه النادرة الثمينة وانتهت الاضطرابات في يوم ٢٩ آب بحوادث صفد ووقع فيها ٤٥ يهوديا بين قتيل وجريح وأحرقت دور ودكاكين عديدة لليهود ونهب اليهود ٣٠ مخزنا للعرب كانت في داخل حيهم. وقد كان عدد العرب الذين حكم عليهم بسبب هذه الاضطرابات ٧٩٢ منهم ٢٠ حُكموا بالإعدام. مقابل ٩٢ يهوديا منهم واحد حكم عليه بالإعدام: خانكيز. وقد ثبتت عليه تهمة قتل العائلة العربية في يافا. واستأنف العرب لدى مجلس الملك الخاص بلندن، فبدل حكم الإعدام بالسجن المؤبد ما عدا ثلاثة وهم: عطا أحمد الزير ومحمد خليل جمجوم الخليل وفؤاد حسن حجازي من صفد.

- تشانسلور من المفروض أنه أكثر الإنجليز تفهما ولكن يبدو أنه واقع تحت ضغوطات الصهيونية. ولكن سيرد العرب عليه لا محالة بقوة وجدارة وسيسمع ردهم. لا يعقل أن ينسى الناس هكذا بسرعة. لا نحتاج إلى قوة للذاكرة. الإنجليز بدؤوا يمزقون هذا الجسد ومع ذلك يجب ألا ندخل غمار هذه الأحقاد فهي لا تؤدي بنا إلا إلى مزيد من الهلاك. يجب أن يعرف المخططون أن تقسيم الأرض وتطبيق الكتاب الأبيض سيقود البلاد ومن فيها إلى حرب المائة سنة.

- بابا أنت تغالي.

- لا يا ابني. الأحقاد كل يوم تزداد أكثر وكل يوم تزداد عمقا وسيأتي وقت إذا استمرت الحالة على حالها والإصرار على تقسيم أرض وجدت أصلا لليهود والعرب والمسيحيين، أن نعيش زمنا قادما نتقاتل فيه وتنقلب فيه الموازين للقوي قبل أن تعود للآخر بعد مئة سنة ويدرك بعدها

جيل عاقل أن ما حصل كان حماقة أو بكل بساطة سيوضع المقهورون في مستعمرات صغيرة معزولة لا حياة فيها إلا القهر وما يريده الطاغية.

- تشاؤم. هذا غير ممكن يا بيِّي.

- ما فيه شي بعيد. نعيش التمزيق وقد يعيش القادمون الفقدان وقد يعيش ما بعد بعدهم النسيان. كل الأمم تنسى أنك وجدت ذات يوم على هذه الكرة الأرضية. القوة عمياء وقادرة على كل شيء. لقد مُحيت أمم من على وجه الكرة الأرضية ومسحت ولكم في الهنود الحمر أسوة ودرس حي.

- سندافع عن هذه الأرض بأسناننا إذا حتم علينا الأمر.

- منذ أكثر من ثلاثين سنة ونحن نفعل الشيء نفسه وأخشى أن تسقط أسناننا. لا نريد أن نصل إلى هذه الأوضاع. فإذا وصلنا إلى هذه الحالة الله يستر، عجزنا كبير أمام من يريد أن يقسم هذه الأرض بتمزيقها.

لم تكن تبدو على جدي وهو يذهب إلى فراشه أية سعادة كما كان يفعل دائما. بدا في عينيه انكسار عميق فرت كل الألوان التي كانت تمتزج في عينيه في لحظات السعادة، مبعدة عنه شبح الشيخوخة التي كانت تزحف على وجهه بسرعة كبيرة وغير معتادة.

-٥-

في الحياة، هناك لحظات تأخذنا بسحرها حتى قبل أن نفهمها، لا تمنحنا حتى فرصة التفكير فيها وتقليبها على مختلف أوجهها لفهمها. ونترك أنفسنا طعما لحالة الزهو الذي تمنحه لنا.

حبي لمانيا أعماني وأدخلني غمار تجربة عشقية كبيرة. مانيا من حيث لا تدري قربتني من عالمها وزادتني ارتباطا بالحياة وارتباطا في الوقت نفسه بالأرض التي كنت أكبر عليها. شريف ومانيا، قصة حلوة مو هيك؟ أحد أبناء خالتي كان يستفزني دائما: يجب أن أكتب كتابا عنكما

اسمه شريف ومانيا مثل قيس وليلى. مانيا كانت متهورة. لم تكن تسمع إلا لقلبها. كان قلبها ممتلئا ووالدها لا يؤذيها، غارق دوما في استيهاماته وخوفه الداخلي، وأمها تريدها أن تكون من أكبر فنانات المدينة ومعلمتها في المدرسة المسيحية ماريا، علمتها كيف تكون صبورة ومتقنة لعملها ورسمها.

عندما وجدني خالي في الجنينة المحاذية لبيتنا، برفقة مانيا في وضع لم نكن نحسد عليه، التصقنا مع بعض وأغمضنا عيوننا وحاولنا ألا نرى ما كان يحيط بنا. مازلت أشعر بحرارة عود النوار الذي كانت تضعه مانيا على رأس لسانها وفي فمها. بقيت قبلتنا جامدة في شفتينا والى اليوم أتذكر طعمها مثل القبلة الأولى المعطرة بالنرجس البري، في الحي الشعبي.

تسلل إلى الحديقة كالثعبان ولم يقل شيئا، بينما كنت أشعر بجسدي حارا كالنار.

تمتمت وشفتاها ما تزالان ملتصقتين بفمي، شعرت برعشة جسدها القلق والخائف والمليء باللذة المخنوقة:

- هل رآنا خالي؟
- لا ما شافنا، فتح فقط عينيه ليحفظ صورتينا.
- طيب لماذا لم يقل شيئا؟ لا هو لم يرنا.
- عبيطة. ليس أعمى إلى هذه الدرجة.

كانت الوشوشات تتداخل وتتحول إلى حركة تملأ الفم. لم أكن قادرا على رفع عيني إلى الأعلى ولا مانيا. سأتذكر طوال عمري تلك القبلة المسروقة التي لم تكن تشبه في شيء القبل الأخرى.

ثم سحبتني نحوها وواصلت تقبيلها. ولكني أتصور أني كنت أعقل منها أو ربما أغبى، فقد أقنعتها بضرورة التوقف عند هذا الحد ويمكنه أن يعود. ضحكت:

- ما يعود، ما نحنا راح نتزوج يا حبيبي. شو راح يصير يعني. راح

يشرطوا علينا الزواج درءا للفضيحة؟ هذا ما نريده. والا موش هذا رأيك؟

- رأيي رأيك، بس خالي أبو مازن صعب في مزاجه.

كثرة الدردشة والكلام قللت من شعلة الجسدين.

في المساء دعانا خالي إلى العشاء في دار جدي. كنت أنتظر أن يقول شيئا ولكنه لم يتدخل في أي شيء. عندما انتهينا من العشاء، ناداني ونادى مانيا، وأجلسنا ناحية جدي، كل واحد من جهة. نظر إلى أمي ونظر إلى خالتي وزوجها الممحو تماما أمام قوة خالتي وأمام مرضه بعد التعذيب. ثم مد جدي يدينا إلى بعضهما بعضا. تنفست طويلا وحمدت الله وقلت الآن ليفعل خالي ما يشاء فلن يتجرأ على أذانا ما دام جدي قد باركنا. ورأيت عيني مانيا يعود إليهما رونقهما الطبيعي. كنت خائفا من أن يحرمنا من بعضنا بعضا. صمت الجميع ولم يتجرأ أحد على أن يتكلم في حضرة جدي إلا خالي مصطفى كعادته. كنا كقطعتي ثلج. تساءلت ماذا سأقول لأمي إذا فضحنا، ولو أنها كانت تعرف أو تحس بذلك وخالتي لم تكن تتمنى سوى لقائنا. فجأة تأملنا جدي بنظرة فيها الكثير من الملعنة. مانيا لم ترفع رأسها قط بينما صمت خالي الذي كان يريد أن يتكلم نهائياً:

- هل تعرفون لماذا جئت بكم اليوم إلى البيت؟

- أعرفك كريما دوما يا بابا؟ ردت أمي.

- لا يا بنتي صفية. في رأسي موال وحابب أغنيه أمامكم جميعا قبل أن أرحل عن هذه الدنيا. صعب أن يرحل الإنسان وفي أعماقه أشواق ظلت معلقة ولم تجد من يعطيها الحياة. هذا إذا لم تروا مانعا، شريف ابني ومانيا ابنتي الحبيبة أتمنى أن أرى فرحهما وانا مازلت قادرا على الوقوف لأدبك مع الجميع حتى الصباح وأرقص كما أشتهي.

ضحك الجميع من جرأة رجل وقور لم تسمع منه العائلة إلا النصائح أو الدعوة للخير.

- أعرف أنهما لن يرفضا طلبي. نرسم الأمور في وقت قريب

وبعدها مباشرة تأتي فرحة العرس التي لن تطول إن شاء الله. يجب أن نغلق الأفواه. بلدتنا صغيرة والناس يرونهما منذ مدة معا ولا يرحمون، لا أريد هذا لا للعائلة ولا لابنتي ولا لابني.

- هل سمعت شيئا عنهما؟ أم مجرد رغبة منك؟. قالت أمي. فإذا كان الأمر يتعلق بالرغبة لن أجد أفضل من مانيا زوجة لابني وأعتقد أنهما يحبان بعضهما يا بابا بس لساتهم صغار شوي.

أشرقت أسارير مانيا وهي منكسرة العينين قليلا.

ومع ذلك، فقد دُهشت أمي من قرار جدي الذي يكون قد تحرك بقرار من خالي. ولكنني رأيت في عينيها إشراقا كبيرا. خالتي عندما رفعت رأسها باتجاه وجه ابنتها، عرفت بأن مانيا كانت عاشقة. ابتسمت فارتسم على محياها شوق لم أعهده من قبل.

- يا بابا؟ موش من المفروض أن تسأل المعنيين. موش لازم تعرف شواللي بيفكروا فيه؟ ما بحب أفقد لا ابنتي ولا ابن أختي.

- من هايدي الناحية أنا سألتهما ولم أر مانعا لدى أحدهما. نحن نقدم لهما خدمة جليلة.

رفعت مانيا رأسها بعد أن استجمعت كل قواها وقالت وهي تنظر في وجه جدي:

- جدي في رتبة بيِّي وأكثر. اللي بيشوفو أنا راضية به.

في داخلها كانت تتراقص رغبات أقوى.

لم تكن لدي شجاعة مانيا إذ لم أستطع أن أقول أية كلمة ولكني على العكس منها، شعرت باعتداء على داخلي وعلى عواطفي وحتى على رجولتي. لم أمانع ولم أقف ضد قرار جدي. هززت رأسي ضاغطا على يد جدي الذي فهم قراري. جدي كان أكثر تسامحا من خالي. دليله حاسته العميقة تجاه الخير. لو رآنا في الحديقة لتظاهر بعدم الانتباه ولمر بدون كلام. شعور خالي الأكبر بالمسؤولية يقوده أحيانا إلى الإحساس بالمسؤولية المبالغة الزائدة. لا يتدخل جدي أبدا في تفاصيل العائلة إلا

عندما يتعلق الأمر بالمسائل الكبرى مثل قضية الأرض التي باع الكثير من جيراننا قطعا منها إلى الوسيط الإنجليزي. عندما احتج جدي على هذا الفعل مكررا كلمته الاعتيادية:

- بتعرف أن بيع الأرض مثل بيع العرض بأرخص الأثمان؟

- اتفقت مع المفوض البريطاني على ألا تباع الأرض للمرابين ولا للوكالة اليهودية.

- وبأي حق تمنع مشتريا من بيع أرض صارت الآن ملكه؟

- وعده.

- أي وعد يا رجل؟ هذا كلام فارغ. ما الذي منعك من بيع حقك في الأرض وقد مات عليها أجدادك الذين وعدتهم يوم سلمت لك ألا تبيعها وإذا بعتها فإخوتك أولى؟

- إخوتي في وضع أزفت مني.

وتنتهي المساجلة بألم يظهر بسرعة على عيني جدي مخترقا نظراته التي تنكسر وتضيع في فضاء وفراغ كبيرين يتحولان إلى هوة كبيرة تفصله عن كل محيطه.

ثم تدخل والد مانيا الذي سمعت صوته لأول مرة، كان أبح ومنكسرا وكلماته دائرية، تعود إلى نفسها في دورة مغلقة يصعب على المستمع فهمها:

- هي ابنتك يا بابا، افعل ما تشاء وبإمكانك أن تتصرف في اتجاه ما هو صلاح وخير للعائلة. كل ما تراه خير للعائلة فهو يناسبنا.

- الآن أسالهما إذا ما كانا يريدان بعضهما.

لم تخرج كلمة من حلوقنا إلا بصعوبة كثيفة. كنا كأننا نعيش في فقاعة شفافة، غير قادرين على رؤية الأشعة التي كانت تغمرنا من كل الجهات. هززت رأسي وهزت مانيا رأسها وهي تنظر من تحت هدبيها إلى وجهي بألق كبير، تتسرب من عينيها ألوان قزحية لم أكن قادرا على مقاومتها. وانتهى يومها كل شيء وخط مصيرنا إلى الأبد ولكن كما

اشتهيناه ولم يكن خالي إلا مدارا صغيرا في حياتنا ولحظة دافعة إلى الأمام بقوة أكثر. خالي كلما أراد أن يحقق شيئا بلا منازعات استدعى الجميع إلى دار جدي وطرح المشكل وهو يعرف مسبقا ألا أحد ينقض لهما فكرا. جدي يثق فيه بشكل أعمى ويحمّله كل ما لا يسمح له السن القيام به.

تدخلت أمي بدون أن ترد كلام جدي وكنت خائفا من أن تبدأ في تعقيد الأمور:

- شرط أن نخبر أهلنا في الشام. ما يصح ألا يعرف أعمامه بهذا القرار.

- ليش؟ إن شاء الله ناوية تزوجيهم بكرة؟

ضحك جدي فغطت مسحة من النور ابتسامته البيضاء باستمرار.

- لا يا بيي ولكن أعرف أن عمه عز الدين سيكون سعيدا حين يسمع بالقصة.

ولم تكن محاولات خالي إلا تأكيدا لما سمعه جدي منا. كان كمن يستجوب شابين يخبئان شيئا خطيرا. بعد سنوات طويلة لم يعلق في ذاكرة مانيا إلا مشهد ترددي أمام خالي وأنا أبحث عن الكلمات التي لا تحرج. كنت أقرأ في عينيه كل ملعنات الدنيا. **اللي تشوفو يا خالي أنت كبير العائلة بعد جدي؟ أريد نعم كاملة وواضحة. نعم يا خالي. أرددها وأنا أشعر بالدوار.** وانتهت الجلسة بخير ولكننا استمررنا في خلواتنا وهربنا. فلم تمنحنا الخطبة الرسمية أي شيء خاص. كنت كمن وجد كنزا ضيعه وليس مستعدا لفقده من جديد. لم تتغير عادة عود النوار الموضوعة على رأس لسان مانيا لكي تصير شهية بشكل حار وتترسخ القبلة ليس على الشفتين ولكن تتوغل في الأعماق والنزول إلى أن تلمس أرق نقطة فينا.

لا أعلم أني في حياتي وجدت بديلا لمانيا، كلما رأيت امرأة قرأت ما ينقصها بالقياس لمانيا أكثر من تأمل جمالها مما حماني من مشكلات الدنيا القاسية وبقيت في عالمي المغلق دوما والذي لم أبحث قط عن

فتحه بينما كان الزمن ينحت مسالكه فيّ. كنت سعيدا في ظلمتي وفي فقداني. نحن عندما نخسر من نحب بشكل فجائعي، لا نبحث عن أشياء أهميتها أقل مما تقتضيه الظروف.

حميت ذاكرتي من التلف الأكيد.

بعد الخطبة لم يتغير شيء من حريتنا سوى أنه أصبح من حقي أن أبقى مع مانيا مدة أطول وأن القبل ظللت أسرقها كما في الأول، ولم تمنحني الخطوبة حرية تذكر ولكني كلما التقيت بمانيا أعادت المشهد أمامي بسخرية وبشكل مسرحي وهي تعوج الكلمات وتضغط عليها مثلما يفعل خالي عندما يعطي الأوامر، وتضحك عاليا من صمتي أمام خالي الأكبر الذي يقوم بأغلب شؤون البيت. صحيح أنه ثقيل ولكنه طيب إلى درجة كبيرة. شعوره بالمسؤولية تجاوز كل شيء. أخوالي الآخرون لم يكونوا معنيين إلا بتجارتهم ولكن تقسيم الأعمال كذلك كان يسير بهذه الطريقة ولم يكن هناك ما كان يمنعهم من زيارتنا في أواخر الأسبوع، ما عدا خالي إبراهيم، فحالته خاصة جدا. جدي كان وراء الصغيرة والكبيرة وظل طوال حياته سيد ذاكرته. كانت مانيا كلما قلدت خالها مصطفى أو الخال الأكبر كما كنا نسميه، ماتت من الضحك ولا تعود إلى الوضع الطبيعي إلا بعد زمن وكأنها في حالة هستيريا: **هل تريدها...** ن..ن...ع...م يا خالي... **أنا ما بحب هيدي النعم. أحبها مليانة**. يا الله. ن...ن....عععععم... يا خالي. **آيوه. كده معقول. أنت يا شابة شو رأيك في الحكاية؟** أأأ...نا... ياخالي... وحياتك... ما بحبووو..بس....أقووولها... **يا الله قوليها وخلصينا من حكايتك**... يا خالي... قلت لك... ما بحبووو بس... بمووووووت فيه... وحياتك يا خالي بموت فيه..... الله يلعنك ويلعن أصلك ما ألأمك... أقولها وأنا مثبت على شفتيها الممتلئتين اللتين تعطيانني رغبة ملحاحة لأكلهما ومصهما بقوة لإسكاتها. كانت مانيا مذهلة وكان علي أن أتعود على حماقاتها الجميلة. لا شيء يمر معها بسهولة. لم تكن مانيا في عز عنفوانها تقرأ خيبات الحياة

ومصادفاتها الخطيرة والتباساتها التي لا تخبر بها أحدا. لم تكن ترى في الدنيا إلا ما تمنحها من سعادة كأية فتاة في سنها.

- شو كنت فاكرني أقول له؟ العب مثلك بالكلمات السخيفة التي لا تطعم ولا تغني: اللي تشوفوا يا خالي أنت كبير العائلة بعد جدي. خالي ما كان بيشوف إلا القبلة الملعونة التي رأتها عيناه والفضيحة المرتقبة.

- لم تقولي شيئا.

- لو قلت شيئا كنت أغرقتك تحت الأرض.

- إيش معنى؟؟

- أقول له لا أحب هذا المجنون ولكن بي رغبة لإغراقه في قبلة حتى أقطع أنفاسه وأدوخه.

نضحك طويلا ثم نختبئ في أجمل زاوية في الحديقة المؤدية إلى جنينة البيت، ونسرق قبلة صحيحة... قبلتين... ثلاثا... ثم نغرق ولا نحسب أبدا.

هزائم منفردة

-١-

لا أدري السر الكامن فيَّ الذي جعلني أتذكر عز الدين، فقد حولني قربي من ابنة خالتي مانيا إلى أسعد إنسان وبدأت أنسى قسوة الحياة وبدأ يتحول كل ما عشته ماضيا باهتا. وبدأت أسمع لأشواق مانيا عن قرب. في مرة من المرات في الحديقة التي كنا نهرب نحوها في أوقات فراغنا، ليس بعيدا عن مسجد المدينة، صرخت في وجهي مع نوبة من البكاء لم أعهدها ولم يكن لها سبب ظاهري على الأقل:

- وحياتك أنت ما بتستحي. قسما بالله لو وجدت كيف أعذبك مثلما عذبتني لن أتردد لحظة واحدة فقط حتى تذوق الإحساس بالفقدان الذي عشته.

فوجئت من عدوانيتها التي كنت أعرفها ولكن لم يكن هناك سبب لذلك.

- شو اللي حصل مني مو كويس؟

- هل تدري ماذا فعلت بي أيها المجنون؟ هل تعلم مهالكك؟ بتعرف أنك لو قتلت في ميسلون كنت قتلت روحي وحملتك أمام الله ذنب انتحاري.

- وين نحنا ووين ميسلون؟ ذهبت مثلما يذهب جميع الناس.

- لأنك مش مهبول وبس بل أكثر من هذا، أناني وما بتفكر إلا في نفسك.

وكررت عليّ موقفها الذي كنت أعرفه جيدا وأنْ لا شيء أثمن من الحياة وأن علي أن أواصل ما قام به أجدادي ببقائي حيا فعندما نموت قد يوضع لنا تمثال في المدينة ولكنه لا يغير شيئا كبيرا في الحياة. لم أكن أملك حيالها شيئا يمكن أن أقوله سوى أني كنت في أعماقي أترقب الوقت الذي أصير فيه كبيرا وأعود إلى دمشق لأكون محاربا مع أعمامي. لكني عندما تعرفت إلى أخوالي لم أجد فيهم حماسا كبيرا للثورة ولكني في الواقع كنت جاهلا لأن ما قام به أخوالي لم تكن له حدود أبدا. كان يتم سرا لكي يستمروا أكثر. كانوا يعرفون الصغيرة والكبيرة في فلسطين.

ولكني في ذلك الصباح عندما قمت باكرا لم أكن سعيدا ولم أبحث عن مانيا ولم أهرب أنا وهي إلى الجنينة في الدار أو تلك القريبة من المسجد، نختبئ بها قليلا بعد خروجنا من المدرسة. كان شيء ما في قلبي يؤذيني. رأيت عمي عز الدين يسقط من حصانه ولا يقوم أبدا. حاول الحصان بمنخريه أن يحركه لكي يحمله على ظهره ولكن عمي ظل مرميا على الأرض. ولم أكن أملك قوة إنقاذه فقد كان هناك فاصل شفاف، كلما اقتربت منه صدني إلى الوراء. وظللت أتخبط في مكاني حتى قمت مذعورا. فكرت أن أوقظ أمي وأحكي لها عن رؤيتي القلقة إذ ذهب النوم عن عيني تماما ولكني لم أستطع قط. ونمت من جديد مفتوح العينين ولم أتمكن حتى من شرب قهوتي. خرجت منكسرا وظل الكابوس على صدري ثقيلا ولم أستطع مقاومته حتى جاء الغداء في حضرة خالي الكبير الذي لا يضيع فرصة الغداء مع أختيه. يقول: إنّ لا أحد يضمن هذا الزمن القاسي ولهذا يجب أن نستفيد مما يمنحه لنا الله من فرص قليلة لنكون معا.

لم أر أمي تبكي مثلما رأيتها في صباح تلك الجمعة الملعونة. كنا في الجنينة نتغدى. عندما دخل رجل لا أعرفه ولكنه شريك أصغر أخوالي، ووشوش في أذن خالي الأكبر ثم خرج. قرأت في عينيه وحركاته خطرا ما. كان الأمر جديا. نادى خالي على أمي. كانت تنظر إليه بعينين مدورتين بشكل ملتبس مثل الذي فقد الصوت وكانت تعرف

حدوث شيء كانت تنتظره، وبقيت اللقمة معلقة في فمها. بلعتها بصعوبة. وقبل أن يتكلم قالت:

- عز الدين؟ لابد أن يكون عز الدين ما فيه غيره.

- شو عرفك؟ رد خالي باندهاش كبير.

- كل شي في عينيك بيقول ذلك. وقع له مكروه أكيد. قل أرجوك. ماذا حدث لعز الدين؟؟

- لا شيء، لا تكبري الأشياء.

بدأت ترتجف.

- لا يا خيي عيونك بتقول شي آخر. لا يا عمي أنا متأكدة من أن مكروها قد وقع لعز الدين.

ثم بدأت تصرخ ولم تتمالك أعصابها. وتندب وكأن ما حدث كان من داخل البيت الذي كانت تعيش فيه. بيننا وبين عمي عز الدين مسافة طالت وهو خرج ولم يعد. سألنا عنه كثيرا ولكننا لم نحصل على أية إجابة. حتى أمي عندما استقرينا في مكاننا الجديد سألت عنه وسافرت إلى الحي المغربي لتتفقد أملاكنا هناك مع أحد أخوالي ولكنها لم تعثر عليه. وكلما سألت عنه أجيبت بأنْ لا أحد يعلم أخباره سوى أنه ما يزال على قيد الحياة. حتى إن بعضهم يصر على أنه سافر إلى بيروت وانضم إلى المقاومين هناك ضد الجيش الفرنسي. لما أخبرتني أمي بكل هذه المعلومات تمنيت أن أرحل إلى بيروت ولكن الوقت لم يكن قد حان لفعل ذلك. فجأة وانا أسمع أمي تندب جاءتني صورته ممزوجة بصورة استيفان وصورة ماريكا، السيدة الطيبة التي زرتها في البيت وكانت حرة في لسانها وكانت معجبة بوالدي الذي حكى عنه يوسف استيفان كثيرا.

- أرجوك قل ماذا وقع له؟

وبدأت تهز صدر خالي بعنف كبير بينما كان هو يبحث عن كلماته بعدما عَقِد لسانه ولم يعد قادرا على الكلام. احتار في الإجابة لأنه لم يكن ينتظر رد فعلها بهذه القوة.

- أرجوك يا خيي تكلم. قلبي يتمزق. أرجوك تكلم.

- أذكروا موتاكم بخير يا أختي، عز الدين استشهد الله يرحمه.

ابتعدت أمي قليلا وكأنها تستعد لمعركة قاسية:

- تسألني عن الخير؟ أي خير يأتي من الله الذي نسينا في هذا القفر؟ سوى البؤس والموت.

- استغفري الله يا أختي. كلامك مش طيب. الأعمار بيد الله، يمدها ويستردها عندما يشاء، لا يسأل ولا يُسأل عنها. احمدي الله أنه ذهب شهيدا ولم يذهب مثلما يذهب الناس العاديون.

- هو يعرف أن قلبي صار مدودا من كثرة الجروح والآلام. كلما قلت: إن الدنيا صارت بخير واستقر الوضع وجدتني في جنازة وراء كل الناس الذين أحببناهم. أي خير عندما يذهب الطيبون عن هذه الأرض ولا يبقى إلا القتلة والمرابون والسماسرة؟ أي خير يا خويا وقد ذهب أعز رجل حملني وحمل ابني على ظهره ولم يطلب أي مقابل لحبه لنا؟ أي خير يا خويا عندما يتفتت في جبهات الموت رجال كان يفترض فيهم كل شيء ملتصق بالحياة إلا الموت. كلنا مسؤولون يا خويا عن موتهم. كان يمكن أن ننقذهم ولكننا دفعنا بهم إلى التهلكة. أية فداحة يا خويا. . . أية فداحة يا خويا. . .

خالي الطيب لم يرد بأية كلمة وضمها إلى صدره طويلا. يومها شعرت بأن أمي كانت تحب عمي وخبأت حبها بل قاومته باستماتة. جعلوها تتصور أن حب أي رجل بعد موت زوجها هو خيانة لذكرى الميت. لماذا لا تكون السعادة هي أجمل شكل من أشكال الاعتراف بحب الذين ماتوا؟ شعرت بقسوة عماتي وبؤسهن. أمي كانت أكثر التصاقا بمجتمع غير مجتمعها. كبر أبي ومسؤولياته جعلت أمي وهي الشابة وأصغر أخواتها لا تنظر إلى الحياة مثلما كان يفترض أن تنظر لها.

عندما تماسكت قليلا، قالت:

- منذ متى حدث ذلك؟

- على الأقل منذ أسبوع، الخبر أوصله بعض أصدقائه. حتى الجثة لم تصل ولكن دفنها أصدقاؤه في مكانها ولم يكن من الممكن أن ينقل نحو المدينة التي ولد فيها وعشقها باستماتة ويقال : إنه لم يكن هو الوحيد.

في الليل عندما هدأ كل شيء، جلست بالقرب من أمي قليلا. لم أكن أريد أن أسألها ولكنها هي التي شجعتني على الذهاب بعيدا. شعرت في لحظة من اللحظات أنها هي كذلك كانت تريد أن يسمع نحيبها الآخرون.

- عز الدين كان عظيما وشجاعا وقد أنقذ ليس فقط نفسه ولكن تخاذل الكثير من المغاربة. قدم روحه للآخرين. كان يرفض الطابور الخامس الذي وضعه الفرنسيون وحاربوا به مع الجيش السنغالي سكان البلاد. لم يفرط في المدينة التي حمت أجداده ومنحتهم المحبة والحياة. لم يشبه أحدا في حياته. كان شبيه نفسه فقط. عرفت أنه لم يمت وحده فقد مات هو واحد أصدقائه الذين أحبهم بصدق،

- استيفان؟ لا يوجد غيره ممن كان يصاحبه. فؤاد غصن لم يذهب، فقد عاد إلى بيروت منذ مدة وبقي هناك ومعظم عمله في المستشفيات. سنسأل عنه.

- يقال : إنه جرح جرحا بليغا وتوفي في أحد مستشفيات بيروت.

كان حزني وحزن أمي حميما لدرجة شعرت بها قريبة على غير العادة. لا أدري لماذا تقرب الأحزان القصوى الناس فيما بينهم. لم أكن أملك وسيلة أخرى لفهم أمي ولكني رأيتها تنهار كما لم أرها أبدا في حياتي. فقد تكسرت فجأة مثل البناية العالية. في المساء نفسه لبست لباسا أسود لم تكن النساء يرتدينه إلا عندما يكون المصاب زوجا وأحيانا أخا أوأبا. ولم يكن عز الدين شيئا من ذلك.

ربما كان أكثر. المؤكد أنه كان أكثر.

-٢-

لم أنم أبدا. شعرت بشيء عميق قد احترق فيّ نهائيا آخذا في أثره كل ما شيدته من أحلام وأشواق. تقلبت طويلا في فراشي قبل أن ألحظ أن غرفة أمي كانت ما تزال مضاءة هي كذلك. كان الليل قد قطع شوطا وكنت خائفا على أمي. دققت على الباب. قالت: ادخل. فدخلت.

- مو نايمة يا ماما؟

- ما جاني نوم يا حبيبي. القلب صار مليان من وين يجي النوم؟ وحياتك الآن، الآن كنت جاية لعندك.

كانت جالسة بالقرب من المجمر، تتأمل الجمرات وهي تتآكل وتتفرقع من حين لآخر مخلفة ذرات خفيفة من الرماد الأبيض الذي كان يتعالى قبل أن يتهاوى في عمق المجمر أو خارجه، على الهيدورة التي كانت تجلس عليها أمي. انتبهت إلى أنها كانت تلبس اللون البنفسجي وهو اللون الذي كان يحبه عمي عز الدين، وتحيط برقبتها السامقة كوفيته النيلية التي تخترقها خطوط بنفسجية. كانت تغطي منها فمها وأنفها. بانت عيناها بوضوح كبير.

- لازم ترتاحي شوية يا يما صفية. أنت متعبة.

- يبدو أننا لا نرتاح إلا عندما تسحبنا المقابر نحوها. أستغفر الله.

ما الذي قادني نحو أمي في هذه الليلة المتأخرة؟ بكاء أمي هذا اليوم لم يكن عاديا. أعادني إلى طفولتي يوم إعدام والدي، عندما رأيتها تحجز دمعها بصعوبة وكتمت كل شيء في بيروت ولكنها عندما عادت إلى دمشق أطلقت العنان لقلبها. ولكنها تعقلت أمام أعمامي وعماتي وصمتت ثم اختفت لتنام. لكن هذه المرة، فقد كان بكاؤها يشبه عواء ذئبة فقدت كل ما يربطها بغارها وصغارها ورائحة المكان وأصبحت ضائعة في قفر موحش. بدأت من النهاية حتى لا أثقل عليها ولا أدري القوة التي منحها لي الله لتحمل الصدمة. فقد كان عمي عز الدين يعني لي الكثير ولم أصدق حتى وأنا أحكي مع أمي أنه مات حقيقة:

- خسارة كبيرة يا يما صفية. كنت تحبين عمو عز الدين؟

- مين ما كان يحب هذا الرجل الطيب القلب والحقيقي الذي حمّر دائما وجه المغاربة؟

- ليس هذا قصدي. أقصد. . .

- لا تشرح. فهمتك. . .

صمتت قليلا وكأنها تسترجع صورا لم تعد موجودة:

- عندما تكبر في ظل رجل عظيم مثل سليم، لا تستطيع أن ترفع عينيك نحو شخص آخر أبدا. لا أحد يساوي نظرته أو شوقه. يملؤك عن آخرك وحياتك مسيرة كلها بتوقيته. وجودك رهين به. أنت أصلا غير موجود إلا به. فينا شيء من بقايا التقاليد الهندية القديمة بحيث على المرأة أن تتبع زوجها الميت. نحن لا نتبعه ولكن علينا أن نقبل بموت جزء كبير فينا إن لم يكن الكل. ولهذا عندما يذهب هذا الرجل يتوقف كل شيء في حياتك، حياتك نفسها تتوقف ويتبعثر حلمك. ثم فجأة عندما تقل حركة المعزين والذين يستمعون إلى قلبك، وينصرفون لحياتهم، تشعر بهوة الفراغ وقلق الوحدة.

- وهل تشعرين بذنب تجاه عز الدين وانك لم تستطيعي إقناعه بالبقاء. أنا لا أستطيع أن أنسى صورة اليوم الأخير، لأول مرة أرى عمو عز الدين منكسرا عن آخره.

- عز الدين كان رجلا شهما. أعرف جيدا لو قبلت به، كنت سأدفع به نحو قدر آخر وكنت متأكدة أنه سيفعل ذلك من أجلي وسيحزن في أعماقه لأن ذلك سيصدر منه حبا وليس قناعة. وسيقف أهله ضده إذ كيف هو الشاب والمقدم على الحياة يقبل بامرأة أرملة مات رونقها وبريقها وتسحب وراءها ابنا. ولهذا لم أرد أن أشغله عن عالم هو صنعه وعاش فيه وتربى فيه بشكل كبير. وعالمي كذلك فقد رهنت حياتي على ابني إذ كان هو رهاني الكبير لمواصلة الحياة والمقاومة. أقدارنا المسكينة يا شريف حبيبي، يصنعها الآخرون، قدره صنعه أجداده بتضحياتهم وقدري الصغير صنعته لي تجربتي الخاصة وعزلتي وفقداني وربما عالمي

الصغير. حتى عندما كنت مع سليم لم أكن أريد البطولات الكبيرة. كنت أشتهي عالما صغيرا أصنعه أنا وهو وعشا يجمعنا ولكنها من بقايا أحلامنا المدرسية فقط. والدك كان رهين قدر يتجاوزه كثيرا ولم يكن سيده. ضابط في أعلى مؤسسة تركية، درس في أرقى مدارسها وكل شيء كان يرشحه لأن يكون قائدا أكثر من جمال باشا ولكنه اختار مسلكا قاسيا هو طريق الثورة العربية ودفع الثمن غاليا. عند هؤلاء الناس كل شيء يلعب على شعرة أرق من الهواء وأدق من الذرة وأقطع من السيف. قلّ من يراها وقلّ من يلمسها. كيف وجد نفسه داخل دوامة قتلته وكيف وجدت نفسي في دائرته؟

- ومشكلة عمي عز الدين؟

- أعرف أنك ستعود إلى هذا الموضوع. أنا لم أشأ أن أدخل عالما لم أكن قادرة على تحمله. ما كنت فيه كان يكفيني. صحيح أني من حين لآخر أشعر بذنب داخلي كبير، واني كنت قادرة على إنقاذه من موت كان يركض باتجاهه، ولكني كنت في النتيجة سأنتهي إلى قتله بطريقتي إذ أخرجه من خياراته التي بنى كل حياته عليها. كنت سأخنقه بحبي. ولم يكن هذا هو انشغالي. كنت أريده أن يظل شامخا لأنه كان مقتنعا بما كان يفعله ومستعدا للموت مثلما فعل أجداده. الذي لم يكن يراه هو أن الخواجات كانوا ينادون بالاستقلال وراء الكراسي الفخمة ويبعثون أبناءهم للتعلم في فرنسا وإنجلترا وأمريكا ليعيدوهم بعد زمن قصير إلى سدة الحكم عندما يستقر كل شيء. أشعر به أنه كان لحم المدافع كغيره من الناس الطيبين الذين آمنوا بهذه الأرض. جيل سينقرض بالتدريج برومانسيته وأحلامه. ولم أكن أملك قدرا جميلا أقترحه عليه سوى أن أفرح به ويفرح بي وهل كنت قادرة على ذلك؟ مؤكد أني أنا كذلك كنت أحبه وماذا بعد ذلك؟ هل كنت قادرة على الدفاع عن حبي أمامك وأمام أهله؟ وحتى أمام نفسي؟ لا أعتقد. حتى في اليوم الذي بقيت فيه متمترسا في جنينة البيت مواجها للبحرة تلعب بمائها، كل شيء كان يغلي في داخلي. كنت أعرف أنك محرج من الدخول ومجروح كأي طفل

يشعر بأن أمه ستسرق منه، ولكن عز الدين الله يرحمه بقي في حدود ما تعوده دائما معي ولم يقل ما يؤذي كبريائي وإلا لما استمعت إلى كلماته المتقطعة. صحيح يا شريف، القدر لا يضع في مسالكنا دائما نفس الرجال الرائعين ولهذا كنت أشتهي أن أرتمي بين ذراعيه ولكني لم أكن قادرة على فعل ذلك لأن الثمن كان باهظا عليك وعلي ولم تكن لدي الطاقة لتحمله.

- علي؟ لم أفهم جيدا يا يما؟

- أنت ابن سليم يا شريف. العيون المصوبة نحو البيت لا تعد ولا تحصى. ولا أريد أن تنعتك الأصابع من ورائك. بيوت المغاربة تزخر بالعيون التي لا تدور في محاجرها إلا لتتحول إلى قذائف لا ترحم أبدا. يهمني مستقبلك لأن قدرك لم يكن يشبه قدر الآخرين. فأنت لم تكن عاديا.

- ألم تقولي لي بأنك لم تكوني معنية بنميمة عماتي؟

- بلى. ولكني أتفادى أن أذهب نحو التهلكة بيدي. ولهذا صممت أنا كذلك أن أخرج من مدينة لم أشعر بقرابتها منذ أن غادرها الرجل الذي قاسمني حياتي. لا أريد أن يمسّك شيء. أكلمك وكأني أكلم نفسي. عز الدين كان رجلا عاليا ولم أسمع أبدا منه كلمة نابية. أبدا. أنت لا تعرف يا شريف، مازلت شابا أننا عندما نخسر كل مبرر للحياة، نذهب مكتوفي الأيدي نحو التهلكة. وعز الدين فعل ذلك بلا تردد. كان ينتظر مني أن أنقذه ولكنه قدره لأني لم أكن قادرة على منعه من خياراته ولم أكن أريد لأنه لن يغفر لي ذلك لو طالت حياتنا. ولا أريد رجلا يندم على خياراته. الله غالب.

الغريب، أن كل ما سمعته جرحني عميقا ولكني دُهشت من صراحة أمي وصمتها وقوتها وكيف قربني هذا الجرح القاسي من أنينها. لأول مرة أعرف أن أمي كانت تعاني بقسوة فقدانها وفضلت أن تدخل في دائرة صمتها ولا تتكلم إلا لأعمق نقطة ضوء مدفونة في القاع.

سألتها عن تفكيرها في الذهاب إلى الشام للتعزية. قالت بلا تردد نعم. كانت تنتظر مني أن أسألها لأني أعرف أمي فيما يتعلق بمهالك العائلة، قد لا تذهب إلى عرس ولكن في الموت لم تتخلف أبدا عن أي حدث من هذا النوع في حياتها. تقول إن الناس في حاجة إلينا لحظات القرح أكثر من لحظات الترح. وكنت أعرف سلفا ثقل وضع ودعته منذ زمن وترفض العودة إليه. كانت تريد نسيانه إلى الأبد.

- سنذهب يا يما إذا شئت عند أعمامي للتعزية.

- يجب. هذا لم يعد خيارا. ولوأني لا أدري سأعزي من؟ أهله؟ قومه؟ أصدقاءه؟ حيه وشوارعه. أنا في حاجة يا حبيبي لمن يعزيني فيه. أهله اختاروا ابنة عمه الذي صاحبه طويلا ولكنه كان يشعر بأن عمه مثل والده ولهذا كان يرفض دائما أن يقترن بابنته لأنها كانت في صف أخته. ثم إنه لا توجد بينهما أية قواسم مشتركة سوى العلاقة العائلية الطيبة. كان يشعر بدمار. وكنت أعرف أن بقاءه معك ومجيئه عندنا كان حبا في والدك ولكن كان كذلك هربا من وضع لم يكن مستعدا لمواجهته. كان أكثر آل عبد القادر حبا للدنيا وأكثرهم شجاعة ولم يكن منغلقا على صيغ دينية ميتة. كان يرفض الوجاهة التي غرق فيها ابن عمه الأمير سعيد. كان أكثر حبا لأخيه عبد القادر. ابن عمه سعيد كبر على هذه الحالة.

- ومتى سنذهب للشام؟

- كنت أتمنى أن أنسى تلك المدينة وسأصر الآن على نسيانها بشكل أبدي على الرغم من أني أحس أني حالمة؟ إذ كيف أنسى مدينة أسعدتني وجرحتني في أعز ما أملك. سأحاول. سأذهب أو سنذهب إذا شئت ولكن ننتظر أن يفرغ خالك ليرافقنا إلى هناك. لن أقف على قبره ليس فقط لأنه بلا قبر ولكن لأني سأراه في كل زوايا البيت وأراه في ساحة الحي المغربي وهو يعبره بحصانه ويكتم ابتساماته الجميلة وضحكاته العالية مع الصبية. قد أزور قبر والدك وأعود إلى فلسطين وإن شاء الله نودع أحزاننا مرة واحدة وأملا في ألا أعود أبدا. لا أجد لذة

كبيرة في السفر لا أدري لماذا. فقد غسلت يدي منذ أن غادرت المكان. التمزقات التي طالت أرضنا جعلت من تنقلاتنا أمرا صعبا ولكننا سنخرج إلى هناك.

- يجب أن ننسى يا أمي.

لم تجبني ولكنها استمرت في أكل أصابعها.

خمنت أنها لم تسمعني.

لأول مرة أرى أمي وهي تحكي بصراحة لم أعهدها فيها أبدا. كانت تتكلم كمن امتلأ قلبه فجأة ولم يعد قادرا على التحمل، وكمن لم يعد له ما يخسره في وضع كان مليئا أصلا بالقلق والخسارات المتوالية.

في تلك الليلة رأيت أمي تأكل أصابعها بلا دراية منها وبلا قدرة على التحكم، حتى أدمتها وهي تحكي عن عمي عز الدين ولم أكن قادرا على إسكاتها أبدا. لم أكن قادرا على إبداء أية ملاحظة.

قلت لها وأنا أحاول أن أقرأ السر العميق الذي كان ينام كالجرح، في عمق عينيها:

- غدا إن شاء الله، تصبحين على خير يا أمي.

قالت وهي تقف عند الباب:

- . . . هل تعتقد أننا ننسى حينما نشاء أم إن النسيان قوة لا تذهب إلا عندما تشاء هي من تلقاء نفسها؟ لا أدري. لا أريد أن أشغلك ولكن قلبي ممتلئ. تصبح على خير يا حبيبي. إن شاء الله بكره خير.

تلك الليلة لم أنم إلا قليلا. فقد ملأتني صورة أمي المذهلة بعينيها الرائعتين وحرارة محياها وقلبها الطيب ووجه عمي عز الدين السمح الذي استمر طويلا يسائلني وهو يضحك عندما قلت له بأني لست قادرا على نسيان الأرقط أبدا:

- وهل تظن يا أجدب أننا ننسى عندما نشاء؟

لم أفهم قصده تماما ولكني شعرت بنفسي أكثر قربا منه.

-٣-

قبل خالي أن يرافقنا حتى محطة القطار. ولم يكن الأمر سهلا. كان علينا بذل مجهودات كبيرة. لم تشجعه أمي على المغادرة لمرض جدي ولقلقه على الأرض التي كان المرابون اليهود والإنجليز يهددون بأخذها مثلما فعلوا مع الكثيرين وأكدوا أمام المفوض العسكري لفلسطين أن الأراضي والثكنات كانت مهملة أو لم تكن مشغولة منذ مدة طويلة ولهذا فاقتحامها لم يكن عملا لا شرعيا. كانت أخبار الاتفاقيات السرية تصل تباعا ولم تكن مشجعة أبدا. خطط التقسيم كانت متواترة وما كان مجرد دعاية أصبح مؤكدا وصار حقيقة. فقد مزقت المخططات الأرض الفلسطينية مثل الذي يمزق ورقة عتيقة.

كانت شهوتي كبيرة للذهاب إلى دمشق. فنحن منذ أن وطئنا أرض فلسطين لم نلتفت وراءنا وكأن أمي كانت تريد أن تترك ذاكرتها المعذبة وراءها. واشتهيت بالمناسبة أن أزور بيروت وأن أعزي ماريكا على استيفان إذ سمعنا أنه مات وهو يقف بجانب عمي. على الرغم من عدم حماس أمي إلا أنها لم تمانع وأكدت أنها إذا وجدت فرصة ستذهب معي إلى بيروت للوقوف على بقايا قبر والدي. لأول مرة اشتهيت أن أذهب وحدي أو مع رجل ولكن ليس مع أمي. لم أفهم السبب يومها. شيء ما في داخلي كان يقودني نحو ماريكا. كان صوتها يعجبني وكنت أرى فيها شيئا استثنائيا من أمي. ولكن أمي لم تكن لها حرية كلامها. كنت أريد أن أتأكد منها ما قيل عن قصة عمي وربما استيفان. كانت تعرف كل شيء لأن الجميع كان يجتمع في بيتها وأن حبها للآخرين، كما حكى لي عز الدين كان كبيرا. في دمشق غيرت أمي قرارها وبقيت مع أعمامي وعماتي وتركتني أسافر مع الطبيب فؤاد غصن.

لم تطل رحلة بيروت. في الطريق أكد لي الطبيب فؤاد غصن وفاة رجل آخر كان صديقا لعز الدين واستيفان، وأما استيفان فقد جرح وأصيب بإغماءة دامت يومين قبل أن يؤخذ إلى السجن ويحكم عليه في

منفى بجزيرة. . . ماريكا أعطت لضابط نصاب كل ما تملك لكي يخرجه بأقل الخسارات والأحكام ولكنه كذب عليها فقط. نفي إلى جزيرة كانت تركيا ترمي فيها كل المعادين لنظامها. تقول ماريكا: إن استيفان عندما رأى عز الدين يسقط تحت وابل الرصاص أمام عينيه، ذهب ليجر جسده ويبعده قليلا ولكنه لم يسلم من شظايا القذيفة التي رمته بعيدا. الفرنسيون هم الذين اقتادوه إلى المستشفى قبل أن يعلم به أصدقاؤه والأقربون وماريكا. تذكرت كلمة أمي التي كانت تكررها دائما وهي محقة ولم تغادر يوما فمها.

لحم المدافع يا حبيبي. لا يصلحون لشيء آخر إلا لتزييت المدافع.

أكد لي فؤاد غصن ما كنت أريده في أعماقي:

- إذا أردت أية معلومات فهي أعرف بكل التفاصيل. للأسف لدي شغل بمستشفى بيروت ولكني سأتركك عند ماريكا ثم أمر عليك مساء. لقد أخبرتها مثلما وعدتك وهي تنتظرك.

- شكرا يا سيدي. أريد فقط أن أعرف ما حدث لهذين الرجلين ولوأني أعرف مسبقا أني أوقظ جراحات دفينة ليس من السهل نسيانها أبدا.

- ماريكا امرأة تحفظ الود وأنا متأكد من أنك ستجد عندها إجابات عن انشغالاتك.

عندما دخلنا إلى بيروت طلبت منه بحياء أن نذهب ولو دقيقة إلى الساحة.

لم تتغير كثيرا هي هي سوى أنها أصبحت أكثر نظافة وكثرت بها المقاهي والشوارع الصغيرة. ثم أخذني إلى نزل الخديوي. وعندما فتح الباب لكي ندخل جاءه الكثير من العسس ورحبوا به طويلا. كلهم يعرفونه ولم يكن يعرفني أحد. طلب مفاتيح إحدى الغرف وتوغلنا عميقا. عندما كنا نصعد الدرج عاودتني أنفاس أمي المسكينة التي كانت تتقطع وهي تحاول أن تسحبني وراءها تارة أوأن تحملني في ذراعها تارة

أخرى. فجأة وصلنا إلى البهو وقطعناه بهدوء. لم يتغير فيه الشيء الكثير سوى الأرضية التي تغيرت قليلا وأصبحت مغطاة بموكيت أحمر. فتح الباب. تأملت الغرفة جيدا. كان الزمن قد توقف نهائيا. عرفت كل شيء. كل التفاصيل برزت أمامي دفعة واحدة. عندما فتحت النافذة بهدوء تناهت إلى أذني حركة الناس والباعة والصرخات وأصدقاء سليم وهم يرفعون عقيراتهم بالأناشيد والتكبير ثم اتضح لي وجه والدي وكأني أراه الآن صافيا وهادئا وأمي تدفع بي نحوه. ليكو... هو بيشوف نحوك... عرفك... بقيت في مكاني متصلبا حتى نبهني فؤاد غصن وسحبني من يدي. انفجرت ببكاء مُرّ لم أحس به في أي يوم من الأيام. كان والدي يتوارى وراء كتلة من الضباب وكنت أغيب بعيدا في شكل هروبي معاكس لحركته تماما. شددت على فمي لكيلا أصرخ وبعدها أطلقت العنان لنفسي، فاحتضنني فؤاد باتجاه صدره وهو يتمتم بصعوبة:

- ابك حبيبي... ابك وأفرغ صدرك من الحمم الحارقة. أي غبي ألزم الرجال بألا يبكوا؟

عندما رفعت رأسي صوبه كان هو كذلك يكفكف دمعه فأعطاني ذلك راحة خاصة.

وانزلقنا في عمق الأحياء حتى إندفنا في شارع المتنبي.

-٤-

دق فؤاد غصن أربع مرات ثم أربع مرات متتالية، ثم أربع مرات أخرى بتثاقل قليل بين الدقة والأخرى ثم دقتين جافتين. عشر دقات. ولم ينادها باسمها. فجأة فتح الباب فعرفت أن الأمر يتعلق بشيفرة متفق عليها سلفا. تذكرتني منذ الوهلة الأولى، فعانقتني. امرأة طيبة ودافئة. شعرت بصدقها الكبير الذي اجتاحني بقوة.

- والله صرت راجلْ يا شريف. تفضلوا.

طلبت من الطبيب فؤاد أن يدخل ولكنه اعتذر بأدب عند الباب

ووعد أن يمر مساء بعد الانتهاء من عمله ليأخذني. قال إنه سيمر علي بعد الظهر ولا يجب إذن أن أقلق. فلم تلح عليه ماريكا كثيرا. فقد كانت تعرف ظروفه جيدا. تركني معها وانسحب بسرعة من بين البنايات.

رحبت بي طويلا ولم تكف عن النظر إلى وجهي وكأني نزلت عليها من المريخ.

- جئت تسأل عن عز الدين إذن؟

شعرت بنوع من الحرج والخوف الداخلي: لماذا تستقبلني بهذا السؤال؟

- نعم. قلت بدون أن أتلعثم. ثم أضفت: وأسأل عنك وعن عمو استيفان الذي أتمنى له كل خير. سمعت أنه جرح وأنه خرج من الموت بأعجوبة. الحمد لله على سلامته.

- شو بدك، الأحوال في هيك أوضاع الزفت. استيفان لم يعد إلا مرة واحدة منذ أن غادر هذا البيت، ولكني متأكدة أنه لم يكن مخيرا بسبب الحرب التي دخلها مع مجموعة من الشباب في حواف دمشق. الفرنسيون عندما ألقوا القبض عليه، سألوني مرارا عن درجة معرفتي به، وادعيت أنه كان يزورني مثلما يزورني الجميع بنقودهم أولا. كنت أعرف الضابط فطلبت منه أن يسمح لي برؤيته قبل منفاه وأتأكد فعلا أنه ما يزال حيا وأن جسده لم يرم للكلاب الجائعة كما كانوا يفعلون مع الكثير من الأموات. فلم يمانع ولكن بشروط وقعت عليها مغمضة العينين وضمنت له ليلة كاملة لم ينل منها إلا سهرة لم تدم أكثر من ساعة وبعدها بعثته عند زوجته وقد ضيع طريقه من كثرة سكره. صحيح أنه أخذ مني نقودا كثيرة وادعى بقدرته على إخراجه بأقل الأحكام وكان أقلها المنفى، مثله مثل أصدقائه الذين سلموا أمرهم لله. لم أنم مع رجل واحد ليلة كاملة إلا مع استيفان لأن استيفان كان حبيبي.

دُهشت من صراحتها ومن لكنتها الجميلة التي تجعل من لغتها كلاما يشبه كلام الأطفال. في ماريكا شيء من الطفولة ولم تكبر إلا قليلا. لا أتذكر ملمحا واحدا فيها تغير كثيرا ما عدا الخط المستقيم على جزء من

جبهتها الصافية. ثم مدت يدها لكومة من الرسائل كانت بجانبها وبدأت تتفحصها الواحدة بعد الأخرى حتى وصلت إلى الرسالة التي كانت تريدني أن أعرف تفاصيلها:

- هيدي رسالة يمكن تفيدك، هي رسالة استيفان الأخيرة. كتبها وهو في السجن قبل أن ينفى نحو جزيرة الموت. كان يكذب بأنه بصحة جيدة وكنت أراه في كل مرة يزداد نحافة وصفرة. قال فؤاد غصن حين رآه: أخشى على كليتيه. وعندما سألته بنفسي قال وهو يقهقه: أنت دائما تصرين على الهبل. لا شيء وأنا بصحة جيدة. انظري... ثم بدأ في التحرك بحرية أمامي. وكنت سعيدة أن أعرف أنه في حالة جيدة. كنت في حاجة إلى أن أكذب على نفسي. أنا أعرف أنها الرسالة التي سبقت منفاه وأعرف جيدا أنه سيتمكن من الهرب ذات يوم ويعود لي أو أذهب إليه. أنا أفكر بالفعل في الخروج من بيروت والذهاب إلى حيث لا يعرفني أحد. أريد محيطا آخر كما كان يقول لي استيفان دائما. قال لي إنه سيبدأ في كتابة مذكراته ولا ينهيها حتى يخرج من السجن وبذلك سيعطي مبررا لحياته. ستكون رفيقه واستأذنني بأن يكتب عن حياتنا باسم مستعار فقلت له: شو راح أخسر؟ أنت بتحبني وأنا أحبك فضع اسمي كما هو وطز على اللي ما بيفهم أن للمومس كذلك قلبا لا يمكنها أن تسلمه إلا للرجل الذي تحب وإن لم يكن هذا الرجل لها ويستحي أن يقول إنها حبيبتي وإن كان جسدها ليس ملكها دائما. تلعب به مثلما يفعل البهلوان أو المسرحي أو الممثل وتقبل بعملية الانتهاك اليومي التي يمارسها ضدها الآخرون.

- أنا متأكد أنه سيخرج من أزمته هذه. استطاع أن يهرب في وقت جمال باشا فكيف لا يستطيع في زمن كل شيء فيه تغير. الحمد لله أنهم لم يحكموا عليه بالموت.

- حكموا عليه في البداية بالموت وبعدها غيروا الحكم بالنفي من المدينة ثم من البلد. يقول الضابط الكذاب إن كل ذلك كان بفضله، بينما هو حكم عام طبق على كل مساجين الحرب الذين كانوا في وضعه.

سحبت الرسالة من الكومة الموجودة بين يديها. تأملتها طويلا. عبرتها بسرعة ثم أشارت إلى السطر الذي كان علي أن أبدأ منه ولا أقرأ ما هو خاص بها أو على الأقل هكذا بدا لي الأمر، ومع ذلك، لم أكن قادرا على تفادي الجملة الأولى الجميلة التي افتتح بها استيفان رسالته:

غـالـيـتـي. . . .شـطـطـي الـجـمـيـل. . . . عـيـنـي. . . عـمـري وروحي. .ثم انزلقت بعيني صوب السطر الذي أشرت عليه بعينيها وأصبعها.

«أنا الآن في هذا الفضاء البارد الذي أشعر بالبرودة تخرج من شقوقه وفجواته. شيء يشبه الخوف ينتابني من جراء نومي في هذه الأمكنة. أخشى أن أقتل ليلا. شيء واحد أرفضه. أريد أن أرى وجه قاتلي وأن أربكه بخزراتي الحادة. أريده ألا يعرف ماذا يفعل في تلك اللحظة. أريد أن أنتصر عليه بنظري فقط. النظر سلاح أقوى أحيانا من سلطان السلاح. كنا معا. عز الدين الله يرحمه، خرج من معركة ميسلون سالما لكن سلاحه لم يحمه هذه المرة أبدا. أنت تعرفين أنه يحمل على ظهره هما كبيرا. كان دائما يتمنى أن يكون أبا ثانيا لشريف، فهو لا يعرف شيئا آخر غير حبه ليما صفية كما كان يسميها. وأقسم أن يظل أعزب إلى أن يرث الله هذه الأرض. ليس ضروريا أن نتزوج ويمكن أن نكون سعداء. فهو يغبطني معك ويتمنى لنا كل الخير ولكنه يؤنبني دوما على جبني. حاولت مرارا أن أقنعه بأنك أنت من يرفض الزواج مني ولست أنا ولكنه لم يصدقني أبدا. فهو لا يحاكمك كما يفعل السفلة والصغار والمتهتكون داخليا. هل تعرفين مقدار شجاعته؟ كان يعرف أن الهجوم سيؤدي إلى موته ولكنه لم يستمع أبدا لنداءاتي. إذا رأيت عائلة سليم سلمي لي عليهم فقد كان في رتبة والدي النصوح. فقد وقف بجانبي في أدق اللحظات وأصعبها وهو الذي دفع بي خارج السيارة لأنه كان يعرف أن حلمي بالهرب كان كبيرا. كان عز الدين الله يرحمه هو الذي أشرف على عملية السطو على القطار واغتيال الدروبي الذي وضعته فرنسا في مكان الحكومة التي

حلّتها، ومرافقيه في قطار درعا. . هذه المرة لم يستطع أن يتفادى الموت الذي انتظره في الزاوية. اليوم تعرفت أن المنفى وليس الإعدام، هو مآلي. لم يذكروا المكان ولكنه ليس مهما. رغبتي في الحياة كبيرة ولهذا سأفكر وأقاوم برودة الحيطان وستكونين قدوتي وشوقي ومنارتي في عالم ليس سهلا أبدا.»

في أعماقي كنت سعيدا أن استيفان لم يمت وحزينا أن عز الدين ذهب مبكرا لأن قلبه كان ينبض بكل الأشياء الجميلة ولم يكن عدلا أن ينسحب في هذا الوقت المبكر جدا.

- بعد نفي استيفان، صرت امرأة بلا شيء آخر. ربما بلا شيء يستحق الذكر والبكاء عليه. أقول دائما إن استيفان رجل رائع، سيعود إلى أهله الذين ينتظرون زواجه بعد أن خطبوا له امرأة لم تمل من انتظاره وهي على حق ومع ذلك أنا كذلك أنتظره باستمرار وبكد، وجازفت بحياتي من أجله.

شعرت تجاه ماريكا ما شعرت به في المرة الأولى. بالمرارة القاسية وبعطف كبير. دُهشت أن لغة مومس مثل ماريكا لم تكن تختلف عن لغة أمي إلا في التفاصيل. من كثرة الكلام على خطر المومسات وضياعهن تربت عندي فكرة مغلوطة عن طريقتهن في الكلام وعن أشواقهن. كانت عيناها حارتين وقويتين ونظرتها ساحقة ومدمرة على الرغم من نعومة خزرتها الجميلة.

- لماذا لم تتزوجا؟

تساءلت بطفولة:

- لو تزوجت استيفان يا حبيبي لضيعته ولاستيقظت كل أنانياتي وأنانياته ولاضطررت لإخراج أنيابي الحادة، أنياب الغيرة، ولصرت عادية كبقية المخلوقات ولم أكن أريد أن أرجع إلى حالة الموت الآلي التي لا تذكرني إلا بذلك العسكري التركي الجبان والثقيل والمختل. عز الدين

كان نوعا آخر. لم يكن يأبه بما كان يجري حوله. كان يحب الحياة ويدافع عنها. كان ممتلئا بالإيمان. كان عز الدين الله يرحمه إنسانا جميلا وشهما. طيبا جدا. أنت يا شريف تبحث فيه عن والدك الذي لم تشبع منه وسرقه منك الموت؛ ليست لدينا نفس العلاقة. أنا كذلك أرى فيه صديقا كان يمكن أن ألتقي به في أثينا أو قبرص وأكبر معه وأترك هبلي يترعرع في أحضانه. فقد كان دافئا وجميلا. أما استيفان كان أكبر من ذلك كله. التقيت به في ظرف قاس وكان هو من حماني وأخرجني من دائرة بيع جسدي. كنت دائما أقول لنفسي من العبث ألا أستفيد مما منحني الله، جسدي. جسدي هو الذي أنقذ استيفان من موت محتوم. كان يأتيني الأتراك والضباط الكبار. أعرفهم واحدا واحدا يمكنهم أن يتحولوا إلى فئران صغيرة تحت جسد امرأة. هذا البيت لا يعرفه إلا القليلون وعندما أستقبل من أحب فقط. هنا كان استيفان في بيتي لا يلمسه أحد فقد كان في منأى عن القتلة. في البيت المقابل لهذا البيت تماما. الرجال يا حبيبي وأنت ما زلت صغيرا يمرون دائما على الأشياء الاستثنائية ويجانبون الدهشة ولهذا فهم في الأغلب الأعم قليلو ذكاء. الشاطرة فينا تستطيع أن تشعرهم بعنفوانهم وقوتهم لكيلا تهزم وتتمكن. اسأل كم امرأة تجد المتعة مع زوجها وتلحق شهوتها؟ حتى اللواتي يتأوهن كاذبات إلا فيما ندر ولكن عليهن الدخول في اللعبة. الجنس يا شريف حالة خاصة. نفس المرأة عندما تختار عشيقها تكتشف مساحة جديدة في جسدها، أرضا بكرا لم يمسسها أحد. أنا كذلك كان علي أن ألعب اللعبة. تعرف رجلي الوحيد الذي شعرت دائما أني قريبة إلى قلبه وقريب إلى قلبي هو استيفان، ما عداه، رجال عابرون على الجسد يجدون متعتهم وأجد نقودي التي أنقذت الكثيرين.

- أنا يا سيدة ماريكا مؤمن بما فعلته، وهذا هو الأهم.

- لا تهتم البلاد ليست ناقصة من المعتوهين. ستجد حتما من يقص عليك أني لست أكثر من عاهرة كانت تشتغل مع العرب ولكنها في الوقت نفسه كانت قحبة الأتراك والفرنسيين والإنجليز. الثورة لا تقتلها القحبات

ولكن القوادين هم من يجهز عليها، يا صاحبي وما أكثرهم في هذا الزمن الذي يأكلنا بلا رحمة! سيقولون إن عاهرة قادت الثورة العربية ولهذا انهزمت وهم لا يعرفون أن التي يقولون عنها عاهرة ركعوا عند أقدامها ووضعوا في صدرها ممتلكاتهم ولم ينالوا حتى بسمة صادقة منها. لم أمنح جسدي للثورة العربية سخاء فلست نبية، ولكني قدمته انتقاما من أمي ومن عشيقها. كل شيء يبدأ كاللعبة ثم ينتهي إلى شيء آخر يتجاوزنا. هل تظن أن الجميلة سعيدة في الماخور؟ لا يا حبيبي. هي الوحيدة المشتهاة وعليها أن تتحمل كل من يستطيع أن يصل إلى جسدها بنقوده. وربما أزمتي الكبيرة مع استيفان هي هذه. لا أدري لماذا أقص عليك هذه الخرافات وأنت آت إلى هنا لكي تجد فيّ ما يعطيك توازنا لفقدان عمك. كان يمكن أن يكون والدك لو أرادت أمك ولكنها امرأة كبيرة وعصية، تريد أن تظل وفية لشيء انتهى ولم يعد موجودا أبدا.

- لم أفهم.

- لا. أنت كذلك تتغابى علي. أنت فاهم كويس يا صاحبي.

كانت محقة. دُهشت كيف تجرأ عز الدين عليّ قص ما بداخله لماريكا؟ الناس عندما يموتون لا نزعل عليهم بل نغفر كل حماقاتهم وجنونهم. شعرت في لحظة من اللحظات بعطف كبير تجاه عز الدين.

قامت ماريكا ثم سارت نحو المطبخ. بان لي جسدها مصقولا ومدهشا وحرا في حركاته كلهب شمعة. قمت من مكاني لأنسحب وكنت أظن أنها كانت تدفعني نحو مغادرة البيت بكثير من الأخلاق والأدب. كانت حركات أقدامها كأنها لم تكن تلمس الأرض.

قمت من مكاني استعدادا للذهاب ولكنها دُهشت لحركتي.

- هل تريد الذهاب وأنت لم تشرب قهوتك؟ ألم يقل لك الطبيب بأنه سيمر عليك. مؤكد أنك تقول في خاطرك من تكون هذه العاهرة التي تحدثني عن أمي وعن عز الدين وعن أشياء لا علاقة لها بها؟ خيبتك الأولى يا حبيبي هي كيف كان يعيش أبطال الثورة عند عاهرة؟ هل تعتقد أن الناس يسافرون ويتخبَّؤون ويأكلون ويشربون بدون أن يكون لديهم

بعض المال لفعل ذلك؟ الثورة يا حبيبي ليست شيئا بدون مال يدعمها. ألم أقل لك أني أفعل ذلك كله نكاية في أمي وفي صديقها الذي حاولت أن أسرقه منها ولم أستطع ونكاية في الذين اغتصبوني برضاي ونهبوا جسدي ولم آخذ منهم حقي. هل تعلم ما معنى أن تقدم امرأة جسدها لرجل آخر فقط لأنه يملك الدراهم. المرأة ليست مثل الرجل، ربما تتحمل ولكنها لا تحب الرجل الغبي وبالتالي لا تجد معه أية متعة أما الرجل فيستمتع عندما يضع تحته امرأة غبية وبلهاء وكلما تحدثت زادت غباء وكلما زادت غباء زادت شهوته وحبه لها.

شعرت برغبة في الجلوس ولكني كنت خائفا من أن أثقل عليها وكانت تقرأ كل ما كان يدور برأسي من تفاصيل صغيرة حتى الخبيث منها. وما كان يدور برأسي لم يكن دائما شيئا جميلا. أو على الأقل هكذا كنت أتصور. كانت كلما تحركت، التوت قليلا بجسدها فأسمع شيئا يشبه الأنين.

- سيدتي ماريكا، أخشى أن أثقل عليك بوجودي.

- وجودك يسعدني يا شريف لأني متأكدة من أنك ستعود يوما وتكون أكبر من الآن ولن تقف موقفا وسطيا إما أن تحبني أو تكرهني. أنا متأكدة من أنك ستعود إلي لأنك طيب وفي قلبك الكثير من شعلات الحب والطفولة. لو كنت في سنك وسماحتك يا شريف لن أترك دقيقة واحدة تتسرب من حياتي. لقد دخلت هذه المدينة طفلة وهاهو ذا العمر يركض بسرعة. حتى شارع المتنبي المسكين تعب منا وبدأت أسماء أخريات يأخذن المكان. مهنتنا هكذا، بمجرد ما يذبل الجسد يصعد من تحتك من يقتلك. وجدت قبلي هيلانة عواد، فطومة الحلبية، ومارسيل ومرموره وصونيا وترثني اليوم سوزي وبيانكا وفالونتين ولطيفة زكا. التسعيرة في الفترة العثمانية كانت بين نصف بشلك وليرة ذهبية مجيدية ليصبح جسد جميل ملكك. والبشلك يساوي ثلاثة قروش. والقرش ثلاثة متاليك ونحاسة، اليوم كل شيء تعقد وصار أغلى.

استغربت كيف كانت تحكي عن سنها وهي ما تزال مشرقة ولا شيء

فيها يوحي بأن العمر غيرها كثيرا. على حافة الثلاثين ولا شيء كان يمنعها من معاودة الحياة.

كانت جميلة مثل أمي ولكنها لم تكن تشبه إلا نفسها.

كنت في خفاء ما أقاوم تخلفي العميق ونظرتي لهذه المرأة التي لم تكن تختلف أبدا عن نظرة جدي وربما كانت نظرة جدي أحسن مني. هل يمكن لقحبة أن تكون بطلة في غير نزال الفراش؟ ومع أني كنت مقتنعا بغير ذلك، هناك شيء خفي كان فيّ، تصعب عليّ مقاومته كما أشتهي. فقد كان حضورها قويا عليّ ويتجاوز قدرات مخي على الاستيعاب.

- وين رايح. صغير وحامل الدنيا على ظهرك؟

- صغير ولا أحمل شيئا. صورة عمي عز الدين فقط.

- عز الدين يا حبيبي انتحر لأن أمك كانت مجنونة ولأنها رهنت حياتها برجل واحد.

كيف تتجرأ عاهرة تبيع جسدها للعابرين أن تقول مثل هذا الكلام؟. ثم لمت نفسي من جديد لأني في أعماقي كنت مع ما كانت تقوله ولم تكن مخطئة أبدا. شعرت ببرعم التخلف اليابس قد أخرج فجأة اشتهاءاته فحاولت أن أدفنها في عمق الجذع نفسه.

- ربما أنت تقول في خاطرك ما لهذه المومس الضائعة المخمورة والمحششة دوما تقول مثل هذا الكلام عن أبي وعن أمي؟ الأم والأب في سياق المقدس. خرافة تافهة. إننا نفترض أنْ لا وظيفة للأب والأم إلا وظيفة الأبوة والأمومة، في اللحظة التي ينجبون فيها تنتهي حياتهم وكأن لا حياة لهم خارج الوظيفة البيولوجية. سخافة. الجسد يبقى ينبض حتى آخر لحظة والقلب يا حبيبي لا يموت إلا بموت صاحبه. آخر جهاز يستسلم لسلطان الموت. لو جئتني في ظرف غير هذا لاحتفظت بك أطول مدة وسأنسيك كل ما يدور برأسك من أفكار سيئة ولكن!

عندما دق الطبيب على الباب لأول مرة، تمنيت أن أقول له عد غدا

لا أستطيع الذهاب معك اليوم. ولكني لم أفعل ولا أدري لماذا، فقد قرأت ماريكا كل شيء في عيني:

- تعودت ألا أضغط على الزمن، وحده الكفيل بالتحضير لما نشتهيه.

وخرجت من بيتها وكأني أخرج من قلبها ومن ذاكرتها.

في شارع المتنبي لم ألتفت ولم أرفع رأسي. فجأة انطفأ كل شيء ولم أعد أرى إلا المبهم والأشياء التي تكثف ضبابها وارتباكاتها ولم أكن قادرا على هزها أو تحريكها. بدا لي كأني أسمع صوتا يأتيني من بعيد كان يشبه صوت ماريكا التي كانت تكرر قصائد والدي التي حفّظها لاستيفان قبل أن يموت:

ههنا ننسج حرفا لم يقل

وهنا نكتب شعرا لا يطال

هذه أشرعتي مبحرة نحو المحال

ورياحي همسات الوجد لما ليس يقال

شعرت بدفء الكلمات بشكل غريب. اجتاحني وجه ماريكا كموجة عارمة ملتبسا بملامح ضائعة من وجه أمي. كان عنفوان ماريكا وصدقها يكسر كل شيء فيّ ويقربني من رغبة الموت متعاليا على الأشواق الصغيرة التي أنبتتها فيّ أمي.

لأول مرة ألمس علامات الرجل الصغير الذي كان ينام تحت جلد الطفل الصغير.

الذئب الذي نبت في البراري

-١-

فجأة تغير لون السماء المسائية واهتزت الخيمتان الصغيرتان المختبئتان وراء الهضبة التي تخبئ جزءا من خليج حيفا. من حين لآخر كنت أنظر نحو الأفق المتمادي حتى تتداخل الزرقة في بياض كان يشبه اللاشيء. الناظور الذي لم يغادر عيني أحمد العكي لم يظهر له بعد الصيد الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر ونثبت للحاكم الإنجليزي أن ما يشاع عن الهجرة السرية لم يكن مجرد كلام.

بدأ البحر الهادئ يتحرك بشكل غير عادي دافعا بطيور النورس نحو الأعماق وهي التي تعودت أن تصطاد طريداتها على حواشي الساحل. بدأت الأمواج التي كانت وديعة، تتضخم وتتغير باستمرار وتتواتر وتتسارع بشكل فجائي. نظر إلى السماء طويلا قبل أن يحني رأسه

- أصعب ما في عملية مثل هذه هو الانتظار؟ هيدي حبيبي مش مقرراتي ولكن مقررات اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب العربي الفلسطيني في جلسة ١٣ جويلية ١٩٣٤، ما لي دخل في هيك قرارات. وعلينا أن ننتظر حتى تجي الحمامة ونقتنصها وإلا سنعود بلا شي.

- طبيعي عمل مثل هذا يتطلب صبرا كبيرا. مادام فيه هجرة سرية لازم يكون فيه مهاجرون سريون ونصابون وتجار يربحون من وراء هذه المهنة. بس... البحر يا سيدي... لا يبدو أن مجنونا سيركبه

اليوم... سيدي... فقد تغير لونه مما يصعب الرؤية في وضع مثل هذا.

- وهل المهاجرون السريون ناس عقلاء؟ طبعا، هيك سماء ما راح تسهل من مهمتنا لكن كشافة حيفا المدربين على هذه الأوضاع سيساعدوننا. هذا الوضع سيغير من خطتنا بشكل واضح. ستدفع الأمواج بالمراكب إلى عمق البحر ولن تستطيع الخروج في أمكنتها المعتادة وقد تخرج في مكان غير الذي أخبرنا به. وبكرة يمكن نلتحق بجماعة سليم عبد الرحمن وتوفيق عبد الرزاق وكشافة أبي عبيدة الذين أبلوا البلاء الحسن في مثل هذه الأوضاع. إنهم يرابطون بين حيفا ويافا، مسافة كبيرة، ويبدو أن الصيد هناك مسألة يومية، فغزاة القدس كثيرون، هذا معبرهم المثالي للدخول إلى زهرة المدائن.

قال أحمد العكي وهو يلتفت نحو عاطف نور الملتصق به باستمرار.

- أعتقد أنهم يستطيعون الخروج لأن الأمواج لم تصر بعد بتلك القوة العاتية.

عندما انكسرت الشمس نحو المغيب ماسحة في طريقها الظلال التي امتدت على ساحل حيفا الطويل، تحولت الكثير من الأجسام الحية إلى ظلال باهتة بدأت تفقد أشكالها وحيويتها بما فيها المراكب الثلاثة التي ظل أحمد العكي يراقبها كالنسر ويتتبع حركاتها، كانت تظهر وتختفي، تتبدّى وتنتفي تحت وقع الأمواج التي ارتفعت قليلا، وغابت طيور النورس التي تملأ عادة أطراف الساحل وحواشيه، والباحثة عن طعمها نحو جنوب المدينة باتجاه القلاع والبنايات العالية. حتى الهضاب الصغيرة قاومت الأشعة القليلة قبل أن تلتهمها الظلال وتخبئها هي بدورها وراء الموجات التي زاد عددها وعلوها.

- المركبة لم تعد بعيدة وإذا كان حسابنا جيدا سينزلون في هذا المكان. ليست المرة الأولى التي يتعامل فيها أصحاب القوارب المتواطئون مع الهجرة السرية. وعلى الرغم من الأمواج لن يبتعدوا كثيرا

عن الأمكنة لتفادي التيه والضياع والسقوط بين أيدي الرعاة الذين سيأخذون منهم أموالهم وعفشهم.

- هناك تواطؤ واضح وإلا لما استطاعوا أن ينزلوا في هذه الأمكنة. كل الناس يعرفون ذلك ولكن نفس الناس يصمتون عندما تبدأ الشرطة في عملها. هذيك المرة لكي نقنع الإنجليز رفضوا الذهاب معنا إلى الموقع. نحتاج لأن نثبت للإنجليز أن ما نقوله ليس دعاية ولكنه حقيقة معلومة.

- سيعرفون. هم هكذا. وسنثبت لهم أن مراقبتهم للهجرة السرية ليست قوية وعليهم أن يقتنعوا بذلك وإلا اجتاح اليهود البلد بكامله في ظرف قصير.

- يقولون إن البلاد بلادهم.

- ما بعرف خيوّ؟ كل ما أعرفه هو أن هذه الأرض أرضي وعليَّ أن أحميها. البقية نتركها لكبار الساسة.

رد أحمد العكي على عاطف نور الذي ظل يلازمه مثل ظله. التفت أحمد العكي وعاطف نور الدين وعبد المطلب فضة نحو الشباب وكشافة حيفا المكلفة بحراسة الشريط الساحلي من الهجرة السرية، الذين كانوا يتخفون وراء هضاب الساحل في انتظار وصول المركبة التي كانت تبحث عن مرساها قبل أن يدركها القارب الصغير الذي غاب في عمق البحر سمعنا بعدها صرخات متوالية عندما ازدادت قوة الأمواج. القارب الصغير وجد صعوبة في الرجوع وحتى التقدم وزادت الأمطار التي لم تخف ولم تسهل من الوضع. حرنا ماذا نفعل. الصرخات التي كانت تتعالى وتطلب النجدة زادت كثافة، بعضها كنا نسمعه بسهولة، والبعض الآخر كانت تأكله أصداء سواحل حيفا. لم تكن الأصوات إلا لنساء مرعوبات من موت مؤكد. نظر بعضنا إلى بعض قبل أن يطلب منا أحمد العكي أن نحاول الإنقاذ لكن رد نور كان حادا:

- لنترك الوضع يصفو ونقطفهم مثل نباتات الفطر.

- وإذا ابتلعهم البحر

- يخلصنا من عبء ثقيل. رد جواد الملتحي. من يركب البحر لا

يخش الغرق يا صاحبي. من يركب البحر عليه أن يجس أولا موجه وينتقي مركبه وإلا راح في ستين داهية.

– وهل هذا وقت الشعر يا جواد؟ أنا سأدخل البحر وأنتم راقبوا الساحل جيدا. قال أحمد العكي وهو ينزع ثيابه الثقيلة ليبقى فقط بلباسه البحري.

– لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. صونوا أرواحكم وإلا ذهبت ريحكم.

– هيدا اللي عمبينادي ويطلب النجدة ابن آدم وحواء وليس قطا مشردا؟

عندما ناداني جواد الملتحي لترتيب الحبال معه وربط دولاب الفلّين عليها، كنت قد لامست برودة الموجات العاصفة الأولى التي ضربتني بعنف إلى الصدر ولم أستطع تفاديها. كنت ما أزال منهمكا في وجه خالي الأصغر إبراهيم الذي خرج عن طوع جدي وذهب نحو الحزب الشيوعي وهو الذي كان يريده في أي حزب قومي، أو حتى ليبرالي. أرى محيا خالي الجميل وهو يدافع عن رأيه. خالي لا يجيب مباشرة عن أي انشغال. يذهب عميقا مع جدي قبل أن يوصله لما يريده. حاد الذكاء وطيب القلب. هو الذي عرفني بالشباب والكشافة ووضعني في ظل أحمد العكي. قال له: هيدا ابن أختي لساته مدلع لازم يعرف كيف يحمل البارودة ويدافع عن أرضه. ما ينخاف عليه، عوام متمكن وشجاع، بس ناقص شوية صلابة. أجابه أحمد بابتسامة مشرقة هي أهم ما يطبع محياه: اتركه لي. وحياتك راح أنزع منه كل ما هو بناتي وأجعل منه رجلا حقيقيا. الرجل رجل والمرأة امرأة وهو لازم يطلع رجل من صلب رجل. في البداية أخافني كلامه وبدا استفزازيا وخيل لي كأنه كان يتعامل مع طفل وليس مع شاب، ولكني عندما خلوت به عرفت أنه كان يعرف الصغيرة والكبيرة عني من كلمة واحدة: أبوك كان راجل ونص. لا نعلمك شيئا مهما فأنت تعرف كل شيء. بس الكشافة الشبابية التي ستكون من ضمنها، تعمل باتجاه حماية البلد وما ينتظركم سيكون قاسيا.

البلاد ستخطف من تحت أرجلنا إذا بقينا فاغرين أفواهنا وسنتحول نحن إلى رجال القوارب نمارس هجرة سرية نحو وطن كان ذات زمن لنا. سنمنع من دخول هذه الأرض. ونقتل عند بوابات البحر وداخل المدن. وحياتك ما ينتظركم وينتظر أبناءكم أخطر من مصير الهنود الحمر. افتحوا أعينكم جيدا.

بدا لي وقتها أحمد العكي يبالغ أكثر من اللازم وأنه بحكم وظيفته كان عليه أن يدفع الناس إلى مزيد من الحذر، وأن ما يحدث لا يعدو أن يكون لحظة ظلام سرعان ما تزول. لكن الزمن الذي مضى أثبت لي أنه بحاسته الحيوانية العميقة كان مصيبا ودقيقا.

أقنعني خالي بضرورة التحرك وعدم البقاء مكتوف اليدين وضرورة التفكير في إيجاد مسلك ما ولكنه لم يقترح علي أبدا الدخول في حزب من الأحزاب أو حتى التفكير في ذلك.

- طريقك ستعرفه بنفسك، ويجب ألا تظل ضائعا يا حبيبي. شباب حيفا يحبونك ويقدرون العائلة كثيرا. نحن أبناء عمومة مع عائلة الحسني. عائلة الحسني التي تنتمي إليها من والدك، هي منا ونحن منها. واسم الحسيني من أمك لا يسهل لك الشأن. حمل الاسمين على الظهر مسؤولية كبيرة لا حدود لها.

بسرعة كبيرة أدمجت في المجموعة قبل أن أوضع في الفرقة الشابة المكلفة بحراسة السواحل من الهجرة. ما أثارني هو جواد، طيب جدا ومستميت في التضحية بوقته ولكن مزاجه متطرف جدا يلتقي في كلامه الدين والشتيمة التي لا نتخيلها بسهولة: لا حبيبي ما يصح، الله طيب ولا يمكنه أن يفكر بهذا الشكل البائس... ولك يحرق دين اللي خلقك... شو هالخرا؟ مين رب اللي علمك هيك عمل؟ فكر طيزي هيدا اللي يجعل من اليهود بشرا؟ خيو... لنضعهم في سفينة وندخلهم في البحر وبعدها لا من شاف ولا من دري. كلامه كان مثل الجرافة، يجمع في طريقه كل شيء بلا تردد وبلا ميزان.

- وينك يا روحي؟

- كنت أفكر فيك يا جواد.

- إن شاء الله ما أكون حبيبتك وأنا ناسي؟

ضحكت وأنا ألوي رأس الحبل على عجلة الفرنان ونصفي في البحر.

- بجد كنت أفكر في مزاجك المتطرف.

- عن اليهود؟ أنت شامي ما شايف شي، بكره بتعرف من هم هؤلاء.

أحسست أنه من الأحسن عدم لمسه في نقطة ضعفه ونسيانه. عدت أغرق من جديد في مانيا التي كبرت بسرعة وصارت امرأة من نور. برتقالة. تفاحة. رأيتها وهي منهمكة في رسوماتها مع ماريا التي لم تخلّ سبيلها أبدا. صديقتها وأستاذتها التي كلما زرناها قدمتني لها على أساس أني خطيبها:

- هذا يا خالة ماريا خطيبي، منذ الطفولة وضعونا وجها لوجه واقتنعنا أننا خلقنا لبعض وما بعرف إذا كان لساته علقان فيني وإلا عينه على غيري. مين بيعرف؟ الرجال...

- شو عمبتقولي، هو راح يلاقي أحلى منك... أخرب له بيته إذا راح إلى غيرك.

تصمت مانيا وأجيب أنا:

- أبدا يا خالة ماريا. مانيا عمري وعيوني بس.

- هيك بحبك صح وصحيح.

يحمر وجه مانيا وتغمرها سعادة بدون حدود. وتقول ماريا قبل أن تنشغل بعملها وألوانها وأشكالها التي كانت تملأ رأسها. فقد رسمت القدس في كل الفصول وبكل الألوان:

- يسلم لي هالتم. هيك الرجال وإلا بلاها. شايفة يا مانيا، أنا خايفة على هذه المدينة، سنشتاق يوما المشي فقط في شوارعها وحاراتها. ما يحدث لا يبشر بخير. لقد نسيت كل الأشكال وكل المدن ولم يبق إلا شكل هذه المدينة طاغيا على وجداني وحساسيتي.

- لا أحد يا خالة ماريا يمنعنا من حب مدينتنا ولا من عشقها والاستماتة بها.

لم تكن ماريا أو خالة ماريا مخطئة في كلامها. منذ أن وضعت رجلي في هذه المدينة وفي حي المغاربة بالضبط في مواجهة ساحة بيت المقدس، وأنا أحس بشيء خفي لا أستطيع أن أفهمه ربما كان الخوف من فقدانها. منذ أن دخلت إلى القدس عبرتها آلاف المرات أحيانا عبثا لاكتشاف ما سجلته عميقا ماريا ومانيا: الحي الإسلامي في الجزء الشمال-الشرقي من المدينة ووسطها حيث الحرم القدسي وحيث يقيم المسلمون وجزء من الطائفة المسيحية، مكان بيت ماريا وحارة النصارى في الجزء الشمالي-الغربي من المدينة حيث كنيسة القيامة التي يسكنها إضافة إلى المسيحيين الكثير من المسلمين. توغلت كثيرا في المنطقة الجنوبية الغربية ولم أيأس حتى صرت أعرفها شبرا شبرا وصادقت الكثير من الأرمن، أما حارة اليهود، فقد كنت أعبرها مع خوف باطني، لم أكن أحسه عندما كنت صغيرا وكنا نأتي لزيارة أخوالي. ففي الجزء الجنوبي الشرقي شبه مستوطنة يهودية، ناسها معروفون من هندامهم وأشكالهم التي صارت بارزة. كلما عبرتها، شعرت بعبق الأشياء العتيقة. صاروا اليوم يعلنون عن وجودهم ولم يعد هناك ما يمنع من تباهيهم. شيء ما كان يتغير في المدينة وفي ناسها. البنايات متلاصقة وتفصل بين مجموعاتها أزقة وشوارع مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بعقود تربط المباني على جانبيها كما تتصف الأبنية فيها بسماكة جدرانها المشيدة من حجر الغرانيت. وأما سقوفها فمبنية من الحجر الخالص في شكل أقواس أو قباب. وعلى الرغم من وجود الكثير من المباني الحديثة داخل أسوار القدس والتي كانت قد شيدت في السابق على أنقاض مساكن قديمة، وفيها جميع المستلزمات والمرافق الصحية اللازمة، إلا أن نشوب الحرب العالمية الأولى وفرض الاحتلال العسكري البريطاني على المدينة المقدسة، أديا إلى صدور الإعلان العسكري رقم ٢٤ من قبل حاكم المدينة ستورس الذي قيد كل المبادرات العربية وكسر كل المشاريع

وخوزق العرب الذين سلموه مفاتيح المدينة كما تقول مانيا بالكثير من الحنق والغضب. صحيح أنه كان محبا للفن وتغيير وجه القدس نحو الأحسن مع الحفاظ على معالمها الكبرى، ولكنه ظل في كل هذا، وفيا للمشروع الاستعماري لبريطانيا.

- يلعن أبوهم، ليش سلموه المفاتيح؟ العمى على هيك تصرف، شو صار لهم؟ كانوا عميانين؟ ما كانوا قادرين على المقاومة والموت. يبدو أن الموت صار مخيفا اليوم. خسارة. لو بس يعرف الناس أن بالمقاومة يمكن تفل الحديد وتكسر أكبر الجبابرة.

- والله تغيرت كثيرا يا مانيا، أنا أعرفك مسالمة. الذي أعرفه أن أغلب الناس في القدس وغيرها خرجوا على بكرة أبيهم واحتفلوا بدخول الإنجليز واعتبروهم محررين للأرض المقدسة من الأتراك.

- لم يفرحوا بدخول الإنجليز ولكنهم كانوا طايرين من السعادة بخروج الأتراك الذين لم يلحق البلد من ورائهم إلا الخراب والتخلف. الإنجليز هم اللي جابوا وعد بلفور وفكرة الوطن اليهودي وقصموا ظهر الفلسطينيين، يهودا ومسيحيين ومسلمين وعوضوا هذه الهوية التي نسجتها القرون بهوية طارئة هم خلقوها وساعدهم الإنجليز على فرضها بواسطة القوانين والهجرات المتتالية.

- يبدو أنك مخنوقة.

- مو بس مخنوقة، راح أطق؟ وحياتك مازلت مسالمة بس أكره الظلم... أشعر بشيء غامض نجبر على بلعه كل يوم بالقطارة. يمكن نعيش مع اليهود، وين المشكل؟ ولكن عندما يستقوُون هل يقبلون بنا؟ هل يتركوننا نعيش بجنبهم ولا يخرجوننا من بيوتنا؟ بحسب ما ألحظه يوميا، صار عندي شك كبير في ذلك. لمَّا تؤمن بأنك من هذه الأرض فأنت ستدافع عنها باستماتة، ولا أدري اليوم إذا كان هذا هو شعورهم اليوم.

- يمكن سلموها للإنجليز خوفا من هدمها وتدميرها على رؤوس أهاليها.

- بس دمرونا من الداخل. كلما تذكرت أنه عند التاسعة صباحا من يوم ٩ ديسمبر ١٩١٨ الماطر والحزين والقوات العثمانية تنسحب جماعات جماعات، ما كنا نعرف إذا ما كان علينا أن نفرح أم نبكي؟ توجه عدد من الوجهاء إلى چي الشيخ بدر لملاقاة الضباط البريطانيين وسلموهم مفاتيح المدينة. كيف يحصل هذا؟ مين اللي أعطاهم حق تسليم المدينة؟

- مين كان معهم؟

- تحب تعرف؟

أرتني الصورة التي انطبعت عليها الوجوه بشكل بارد وحزين وارتباك كان يخترق محيّا كل الواقفين.

- هيدا هو رئيس البلدية حسين سليم الحسيني، وابن أخيه توفيق الحسيني، ومفتشا الشرطة عبد القادر العلمي واحمد الشريف، والشرطيان حسين العسلي وإبراهيم الزعنون والكثير من القدسيين وحامل العلم اللي فرجيتك إياه، حنا اسكندر. يا بيّي على هيك صورة، العساكر الإنجليز يتوسطهم الجنرال شي Shea وهم محاطون بأهالينا بطرابيشهم وشواربهم الرجولية وعصيهم والعلم الأبيض، علم التسليم الذي يرفرف خلفهم. بتعرف شو دلالة العلم الأبيض؟ وبعد أن تحقق الجنرال من خلو المدينة بواسطة كشافته، دخلها منتصرا من كافة الجهات عند العاشرة والنصف عدا الجهة الشرقية حيث كانت القوات العثمانية ما تزال مرابطة في جبل الطور وبعد مقاومة أخيرة انسحب الأتراك ودخل القائد العام للقوات البريطانية الشرقية السير إدموند أللنبي سيرا على الأقدام من باب الخليل وأول شيء أعلنه هو الأحكام العرفية وكأنه يسيّر أبقارا في المدينة وليس بشرا.

- هذا هو منطق القوة. منطق المنتصر.

بقيت القدس كما هي، كل يوم يسقط منها جزء وليس لك الحق لا في الإصلاح ولا في الإضافة وفي الامتداد لا طولا ولا عرضا حتى ولو كانت الأرض أرضك. أدى هذا إلى توقيف البناء والإصلاح مما جعل

الكثير من الأحياء عرضة للموت والزوال تحت ركام الأتربة والعوامل الطبيعية. وهذا الاكتظاظ السكاني في المدينة متأت من هذه الصعوبات. تسير في حي وتظن أنه سيرميك في الجهة الأخرى وإذا بك تفاجأ به مسدودا فتعود على أعقابك أو تجد من يردك إلى مكان انطلاقك.

لم تكن بين حارتنا، حارة المغاربة وحارة اليهود حواجز كبيرة. لم يكن ما يفصلنا عنهم إلا المعابر الصغيرة حتى البنايات كثيرا ما تتداخل لتصير كتلة واحدة متكئة على بعضها بعضا. ينتهي حينا إلى المسجد الأقصى أو ينسحب إلى الوراء إلى باب المغاربة، إذا تقدمت قادتك إلى المسجد الأقصى وإذا تراجعت وصعدت قليلا باتجاه حوافي حارة الشرف وجدت نفسك أنفا لأنف أمام باب النبي داوود حيث القبر وظلال جبل صهيون الممتدة بثقلها.

- وينك يا زعيم؟

- أنا معك يا جواد. انتهينا من ربط العجلات.

- ربطاتك يا حبيبي تخدع كل من يلتصق بها. البحر ليس سهلا ويحتاج إلى متانة كبيرة غير التي قمت بها يا روحي. من حظك أنك مع صياد محترف.

عندما كان البحر يقذف بالقارب الأول وبركابه الكثيرين وببعض الأخشاب شعرت برغبة ملحاحة للذهاب نحو الصرخة التي كانت تأتي من أعماق البحر قبل أن يأكلها الموج وتعود من جديد. كان أحمد العكي الذي يشبه خالي في جرأته وشجاعته، قد غاب بين الأمواج رابطا صدره بحزام الحبل الذي أحاطه بظهره وعجلة الفرنان. ترددت قليلا قبل أن أرمي بنفسي في العمق. بينما تقدم بقية الأصدقاء لإغاثة الذين رمتهم الأمواج بعيدا. تذكرت الوديان وساحل بيروت وأغمضت عيني ثم التصقت بعجلة الفرنان، ولم أعد أرى بعدها شيئا محددا إلا الفيضانات والأمواج التي التهمت كل الطاقات. كانت بعض الأصوات تأتيني من الاتجاه المعاكس لأحمد. على الرغم من إلحاح بعض الكشافة وجواد الملتحي بالعودة:

- لا تتهور يا شريف؟ ترمي بنفسك على شو؟ جرذان بكره بتسمم دمك وتقتلك.

عرفت أنها كلمات جواد. أغمضت عيني أكثر ولم أعد أسمع إلا الصوت الحاد الذي لم يتوقف. وجدت صعوبة كبيرة في شق الموجات الأولى. أكدت لنفسي أن الأصوات لم تكن بعيدة. كلما توغلت ازداد الضباب كثافة وقوة وزاد الصوت الصارخ خفوتا وكأنه كان يموت. سكت الصوت قليلا ولم أسمع إلا تمزقات الأمواج ثم صرخت: **أنا هون** بالعربية والعبرية والإنجليزية: I'm here ، أينك أنت؟ كررتها مرتين وفي المرة الثالثة لم أنهها إذ بلعت كمًّا من الماء سد حلقي حتى كاد يخنقني. فجأة سمعت الصوت مرة أخرى كان تعبا ولكنه كان واضحا هذه المرة: ...Please, I'm here. Help me... Help me أنا هون، أنقذني أرجوك؟ كان علي أن أتوغل قليلا فالصوت لم يكن بعيدا ولكنه لم يكن بالقريب مني وكنت أتفادى سماع الصدى حتى لا يتيه مني ولا أجد نفسي في الطريق العكسي. يعتبر صدى الأصوات من أكبر المتوِّهين في البحر إذ لا تستطيع أن تضبط مصدر الصوت لمساعدته، هكذا كان يقول أحمد ونور ويكرر جواد الشيء نفسه. تقدمت أكثر لكي أقتصد أنفاسي بدون أن أضيع طريق العودة فالساحل ورائي لم يعد يرى إلا من خلال أصوات الكشافة التي كانت تصلني لكيلا أضيع الطريق. في المرة الأخير شعرت بالصوت يكاد يلتصق بي لكن ستارا من الضباب كان يمنعني من لمس الكتلة. فجأة امتدت يد نحوي كادت تغرقني بالتصاقها بي ثم جسد شعرت بحرارته في عمق الماء:

- أرجوك لا تتركني أموت. أنت تفهم علي.
- أفهمك جيدا ولكن خففي من التصاقك وإلا سنغرق.

تماسكت لأني كدت أغرق من شدة المفاجأة والتعب. وكان علي أن أطمئنها أولا.

- أرجوك لا تتخلّ عني.
- غامرت بحياتي لأجلك، لا تجعليني أندم. ولا أريد أن أتركك

تموتين. بس تمالكي أنفاسك وأطلقي ذراعي وتشبثي بهذه العجلة وإلا غرقنا أنا وأنت. أرجوك ثقي بي ولا تخافي.

بوداعة تخلت عن ذراعي ومدت يدها كالأعمى إلى العجلة والتصقت بها بقوة. لم أسألها إذا ما كانت هي الوحيدة إذ لم تكن قادرة على الكلام. أحطت الحبل بصدري وبدأت أجرها بمسافة متوسطة ومن حين لآخر أتأكد من التصاقها بعجلة الفلِّين. أسبح وأقاوم الأمواج التي بدا لي في لحظة من اللحظات أنها قد خفت ونزلت قليلا لأن السيدة التي أنجدتها كانت تبدو لي واضحة ومرتاحة في محياها وحتى كتل الضباب التي كانت تفصلنا انسحبت. ضحكت في أعماقي ماذا لو أكلني البحر؟ أي إنجاز عظيم قمت به؟ ثم كيف نقوم بعمل مثل هذا ونحن لا نملك مراكب تساعدنا على القيام بعملنا كما يجب؟ ألهيت نفسي بالأسئلة الكثيرة منتبها إلى صرخات أصدقائي من الذين بقوا على الحافة حتى وصلت.

كانوا قد أشعلوا موقدا عندما جررت الحبل ورائي وسحبت عجلة الفلين. لأول مرة أنتبه بأن السيدة كانت شابة وزهرة في مقتبل العمر. كان جواد يحمل في يديه الأصفاد ولكن نور نزعها منه ووضعها في الخيمة.

- شو؟ تقيد ميتا؟
- هم سجناء.
- لا. أناس أنقذناهم من موت مؤكد.

كان عدد الناجين خمسة رجال وامرأة. تجمعوا حول النار. سجلنا أسماءهم وأعطيناهم بطانيات للتدفؤ. عرفنا من شهاداتهم أن المركبين كانا مملوءين بأكثر من عشرين مهاجرا سريا. بينما ظلت راشيل التي أنقذتها صامتة. كانت تبدو تحت شعلة النار بشعرها الأصفر سعيدة ومشرقة وهي تشرب قهوتها الدافئة وتتحسس حرارتها وهي تنزلق في داخلها. الوحيدة التي لم تضع على ظهرها بطانية ولكنها اكتفت بمعطفي الخشن الذي وضعته على ظهرها وأعطيتها سروالي إذ غيرت لباسها في

الخيمة ولم أجد ما أعطيه إياها إلا بذلتي التي تفننت مانيا في طيها. لم تكن الألبسة فضفاضة كثيرا على جسدها. كانت كلما التفت نحوها، وجدتها تنظر إلي وهي لا تستطيع أن تكتم سعادتها الداخلية التي كانت ترتسم في عينيها. عندما ارتاحوا ونشفت الألبسة تحت موقد النار، توجهنا نحو مخفر الشرطة، بينما بقيت مجموعة ترابط طوال الليل لمساعدة بقية المفقودين الذين لم يظهروا. أوصاهم أحمد بضرورة التحرك إلى أقصى مدى في الساحل. لم يستطع أحمد إنقاذ أكثر من اثنين بعجلته التي التصقا بها وخرج اثنان بجهدهما الخاص، بينما الباقون خمدت أصواتهم على الرغم من مجهودات الجميع. قال جواد الملتحي وهو ينظر إلي بنوع من التساؤل والدهشة:

- ما بعرف إذا ما كان الله قد أكرمك أم سيعذبك بعد أن وضع في حجرك أفعى ستسممك؟

التفتت راشيل نحونا وهي تحاول أن تبتسم ببلاهة لأنها لم تسمع ما كنا نقوله وكان الماء ما يزال يقطر من حين لآخر على وجهها وشفتيها:

- ما سوينا شي سوى أننا أنقذنا أناسا كانوا على حافة الموت.

- أنا صياد محترف ولا أتجرأ أن أدخل البحر في وضع مثل هذا. يجب أن يكون المرء مجنونا مثلك لكي يفعل ذلك. لكني لو تجرأت ودخلت البحر مثلك لا لشيء سوى لإخراس صوتها وبشكل نهائي. أولادها سيحتلون أرضك يا حبيبي يا منقذ، سيقتلون أبناءك يا روحي. أنت لا تعرف ماذا قالت الحية للرسول صلى الله عليه وسلم عندما أنقذها من موت أكيد؟

- لا. وماذا قالت له هذه الحية الفاضلة؟

مع أني كنت أكذب عليه، فالقصة عرفتها في طفولتي، وأنا في الشام من فم إحدى عماتي.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الحية حية، لا هي فاضلة ولا هم يحزنون.

- طيب. نورنا يا سيدي، ماذا قالت الحية للرسول الكريم؟

تربع جواد الملتحي واستوى على الأرض ومسح على لحيته الطويلة التي احمرت من كثرة الملوحة والبحر:

- وضعها في صدره، على لحمه لكي تتدفأ بسرعة وقال لها بردا وسلاما بردا وسلاما. . . كانت على مشارف الموت بردا. عندما سخنت وتدفأت قالت له أشكرك ثم أخرجت أنيابها المسمومة. لا تنقذ أفعى أبدا وإذا صادفتها، لا ترحمها. قالت له: الآن لا خيار لي ولا لك. أقسمت أن أتحايل على بني البشر وأن أقتلهم. أنت الرقم التسعة والتسعون. إذا ضحكت آكلك وإذا بكيت سآكلك. حار الرسول فيما هو فاعله. قال لها فليكن، أنا طوع أمرك. لي طلب صغير. ما هو؟ تساءلت الأفعى بانزعاج كبير؟فقال: إذا كان لابد من قتلى سأختار مكان اللدغة على الأقل أعطيني هذه الفرصة لأني أنقذتك من موت مؤكد. فكرت الأفعى قليلا ثم وافقت: اختر المكان؟ قال الدغيني من مشط الرجل. لماذا؟ ما السر في ذلك؟ قالت الأفعى وهي تتسرسب من على صدره نازلة نحو مشط الرجل. قال: لكي أتعلم وأورث أمتي درسا حتى لا يذهبوا نحو الشر بأرجلهم. ضحكت الأفعى: أمتك ستكرر نفس الحماقة لأنك ستموت وحيدا ولن تجد من يوصل دعوتك إليها ولكن مع ذلك سأفعل كرمى لك. وعندما استقرت تحت قدمه اليمنى تأملت وجهه بعينيها الزرقاوين الحادتين وقالت له جهز نفسك ونسلك إذن. قال أنا جاهز ثم رفع قدمه إلى أقصى ما يمكن ونزل على رأسها بعنف لم يتوقف من محقها إلا عندما سمع عظام رأسها وهي تتهشم حتى صارت ملساء على الرغم من تلويها ولم ينفعها ذلك في شيء. فهل تستطيع يا شريف أن تنقذ نفسك من شر محدق بك وبأفراد أمتك؟

لم أرد ولكني انهمكت مع البقية في جمع جزء من الخيام وترك واحدة للشباب الذين سيقضون الليلة في المكان نفسه ربما تمكنوا من إنقاذ أحد الضائعين في عرض البحر. ثم طلب مني أن أترجم له من الإنجليزية كلام بعض المهاجرين. عرفنا أن بعضهم كان عاملا أجيرا،

وبعضهم الآخر مثل راشيل، كان يعمل ممرضا متطوعا في وكالة الغوث الدولية، وأن الصدفة

وحدها هي التي قذفت بها نحو هذا المكان ولكنها لم تعط أي تفصيل مهم. ولم تكن تهمنا التفاصيل بقدر ما كنا سعداء لهذا الصيد الثمين. وبعضهم الآخر كان عاملا في الأراضي أو مصانع الفولاذ وأنه تعب من الاستغلال والبعض الآخر هرب نحو الأرض الموعودة بسبب ديني وأن ربه هو الذي أوحى له بذلك. لكل واحد كان سببه. لكن الذي أثارني هي راشيل. كيف تترك حياتها وتأتي نحو أرض قاحلة؟ قالت وهي تستجمع أنفاسها للمرة الأولى:

- قيل لي بأن هذه أرضي وأنها تستقبلني بالأحضان وأنه يمكن أن أعلم الناس هنا اللغة الإنجليزية وأن أعالجهم، فهم في حاجة ماسة إلى مساعدتي ولكن الظاهر أن الأمر أكثر تعقيدا.

كانت خائفة وأحسست أني كنت الوحيد الذي كانت تشعر تجاهه بالأمان خصوصا بعدما سلمتها ألبستي. وكلما التفت صوب البحر، وجدتها تقف ورائي وهي تريد أن تقول شيئا لم تكن قادرة عليه. ولكن أحمد العكي ونور طمأناها.

- لسنا متوحشين إلى هذا الحد. كدنا أن نخسر حياتنا من أجلكم. سأدخلك على الحاكم الإنجليزي وهو يتصرف. كان يفترض ألا تأتي إلى هذه الأرض. المؤكد أنك كنت في بولونيا في وضع أحسن؟

- ربما... لكن بولونيا ليست أرضي.

- وفلسطين أرضك؟

- هكذا علموني. مهما يكن يا سيدي هل تعلمون فداحة الإحساس الذي يشعر به إنسان بلا أرض؟ هل يمر بذهنكم هذا الشيء؟ ما الذي يجمعني بهؤلاء البشر إذا لم يكن ذلك الإحساس الغريب بالفقدان المشترك؟ هل نقبل بالموت يا سيدي هكذا لوجه الله؟

شعر أحمد بكل تعب الدنيا ينزل على ظهره فجأة. لم يجد أية لذة في مواصلة الحديث، فقد شعر بثمن الوقت الذي كان يضيعه في

المناقشات التي لا تفضي إلى أي شيء. أمر مجموعته بالرحيل والتوجه نحو المخفر الذي لم يكن بعيدا عن مخيمهم الساحلي. صار الآن لديه الدليل القاطع بأن الهجرة السرية ليست كلاما عاما ولكنها حقيقة مرئية، وسيثبت ذلك للحاكم الإنجليزي وعلى الحاكم أن يعترف بخطأ مسؤوليه وأن يعطي أمرا لمراقبة كل الحدود لتوقيف هذا الجنون، كما كان يقول دائما. فقد امتلأ المتوسط والبحر الميت بالسفن الكبيرة، والعوامات العابرة التي لا تتوقف أبدا عن عبور البحر محملة بآلاف المهاجرين السريين الذين لا يعرف أغلبهم المصير الذي ينتظره.

لم يبد على وجه راشيل أي خوف. كانت تدرك بحاستها الأنثوية أن الذين غامروا لإنقاذها من غرق محتوم ووضعوا حياتهم في عمق الخطر، لا يمكنهم أن يصيبوها بأي أذى وإلا لتركوا البحر يقتص من مغامرتها، ولا يتحملون أية مسؤولية. لقد اخترقتني أسئلة كثيرة وأنا أتأمل وجهها الطفولي وأقلب إجاباتي العديد من المرات خوفا من اندفاعاتها وسذاجتها. ما سر هذه القوة الضامرة التي تدفع بهؤلاء الناس إلى قطع الفيافي للدخول إلى هذه الأرض وهم لا يعلمون أنها تكن لهم عداوة كبيرة، وأنهم بدون هوية؟ اليهودية لا تشكل هوية. المهاجرون السريون كانوا يهودا ولكنهم لم يكونوا فلسطينيين أبدا، أي لم يكونوا أبناء الأرض. هل هي القناعة المجنونة، الدينية والصهيونية بأرض الميعاد؟ أم هو الخوف القاتل من النازية الحارقة التي كانت تأكل الأخضر واليابس وحولت اليهود إلى حطب للمحارق التي كان القليل من الناس يعلم بوجودها؟ أم هي مجرد نزوة لأرض ميتة تبحث عمن يستوطنها ويحييها؟ كانت وجوه المهاجرين متعبة ومنكسرة ومنهكة. كان في المجموعة شباب ضاقت بهم السبل، حتى إن فيهم بعض المرضى الذين سلمهم عاطف بعض الأدوية وطلب من الطبيب الشاب أن يتفحصهم واحدا واحدا.

اقتيد جميع المهاجرين السريين إلى مركز الشرطة وسلموا هناك للضابط الإنجليزي الذي حجزهم قبل أن يبدأ معهم التحقيق بينما اقتيد قائد المركب إلى سجن فلسطيني، على أطراف القدس.

بدا واضحا أن اللجان التي كونت لحراسة السواحل لتفادي الهجرة اليهودية لم تعد نافعة، فقد كانت المسالك تخترق بسهولة. صحيح أن الهجرة قلت كثيرا عما كانت عليه، خصوصا الهجرة الفوضوية، ورُدَّت على أعقابها إلى موانئ أخرى أو سلمت للشرطة الإنجليزية التي اتضح لي فيما بعد أنها كانت توزعها بسرية عبر المناطق الداخلية ولم تكن لتطرد إلا بعضها. هذا كله صحيح ولم يعد سرا، ولكن شيئا خفيا كان ينهك المدينة والبلاد من الداخل ولم تكن الهجرة السرية إلا أحد ملامحه الظاهرة.

-٢-

لقد زاد اليأس ومعه تزايدت حدة الأحقاد أكثر.

«- الإهانة صعبة والحيوان الجريح أصعب من الحيوان السليم. الأول يعرف أنه خاسر ولهذا فهو يأخذ في طريقه كل ما يصادفه، الثاني عندما يرى الهزيمة قد بدأت ترتسم في الأفق، يبحث بذكاء عن المخارج الممكنة. سينتقم الجريح بشكل أعمى بينما العادي يرهن انتصاره للزمن. لقد غلّبوا اليهود علينا ووضعوهم على رؤوسنا ويطلبون منا أن نصمت ويلوموننا على رد فعلنا! لن نقبل... لن نقبل... واضح أننا نعيش نكسة قاسية وما كنا نظنه تحريرا أصبح احتلالا ولا يحمل من التحرير إلا طرد الأتراك. ما كان مجرد ردود فعل طارئة، صار شيئا ثابتا وشبه مكرر في تصرفات الناس. لم يكن إضراب ١٩٣٦ لعبة أو فسحة ولكنه كان حالة قاسية من الدم والألم. لقد افتقدنا الكثير منا. ولولا تضامن المقدسيين مع بعضهم بعضاً، لما حققنا ما حققناه. لقد تكاتف المقدسيون وغيرهم، بكل طوائفهم الدينية، فاستمر الإضراب طويلا. ولم نكن ظالمين أبدا. فقد اعترف المستر توماس، وزير المستعمرات البريطاني في ٢٢ أفريل بأن اليهود هم من بدأ بالاعتداء على العرب في تل أبيب. لم يجد العرب من حل سوى استصدار أوامر لبعضهم بعضاً

بعدم بيع الأراضي، والوقوف بصرامة ضد الهجرة اليهودية المتدفقة للحفاظ على الحد الأدنى من حقوقهم. وقاوموا الجيش البريطاني المكون من اثنين وسبعين ألف جندي. الأمر قاس ومعقد. اللجنة الملكية عندما حضرت إلى فلسطين للتحقيق، طالبت بوقف الاقتتال وحل الإضراب. وفي ١١ أكتوبر ١٩٣٦ عقدت اللجنة العربية العليا اجتماعها الكبير في القدس وقررت وقف الإضراب الذي دام مئة وخمسة وسبعين يوما. كان يجب ألا تفعل. . . كان يجب ألا تفعل. . .»

بهذا الكلام، ختم الإمام الشيخ سعيد بن الشيخ الجماعي الذي انحصرت خطبة المسجد الأقصى في عائلته، مثلما انحصرت خدمة الصخرة المشرفة والسهر عليها، في عائلة الأنصاري، حديثه. هذا الكلام وحده كان كافيا لحجزه لمدة نصف يوم قبل أن يتلقى بلاغا ضده، يهدده البريطانيون بالسجن الفعلي إن هو كرر العملية في خطاباته القادمة. الإمام لم يصمت، ولكنه ذهب نحو الحيلة مسترجعا مثال الرسول الأعظم وصحابته إذ كان الناس يفهمون جيدا بالغمز والرمز. في مرة من المرات نكت الشيخ سعيد كثيرا حتى أضحك جميع المصلين قبل أن ينتبه أنه لم يكن في جلسة الجمعة العائلية التي يتجلى فيها عادة كما يشتهي لنسيان همَّ البلاد والعباد.

- في أي شيء تزعجهم صلاتنا؟ أم يريدوننا أن نصلي ونذكر الله وننتظر الموت ولا حديث عن همومنا وانشغالاتنا؟ هل هذه هي وظيفة المسلم الذي يبحث عن طريقه؟ أقول لإخواني المخدوعين الموجودين بيننا مثل المسامير المزروعة في قلب كل واحد منا، والذين، بعد لحظات، عندما نلتفت صوب بيوتنا، سيتحركون نحو المخفر سرا ويوصلون المعلومات المستجدة. إننا نعيش على أرض تجبرنا على أن نفهمها وأقول لهم الله يهديكم للطريق الأكثر صوابا. نعرفهم من عيونهم وندعوهم إلى ألا يكثروا من أذى إخوانهم وإلا فلن يلوموا إلا أنفسهم. أناشدهم بأن يرجعوا إلى الطريق المستقيم وإلا لن تكون العواقب سليمة أبدا. واللي يظلم، ما يظلم إلا رأسه.

كانت إستراتيجيته فاعلة. من يومها غابت وجوه وحلت محلها وجوه أخرى، لا أحد كان يعرف نواياها.

شيء ما كان يحرك هذه الأرض الصغيرة في الأعماق. لم تكن فلسطين قارة ولكن ما كان يحدث فيها يتجاوز المحيطات والبحار. شيء ما في هذه الأرض كانت له رائحة خاصة وطعم خاص يسحب البشر والأقوام نحوها.

كل شيء كان في حالة غليان. الأخبار التي وصلت بعد إلقاء القبض على سليم عبد الرحمن بك وأعضاء اللجنة القومية لم يكن مطمئنا. فقد تسلح أهالي طولكرم ونزلوا إلى المدينة بقوة وكثافة. وسار سكان نابلس في مسيرة كبيرة بعد الصلاة احتجاجا على اعتقال أكرم زعيتر. لم تتوان يد الشرطة عن الضغط على الزناد العديد من المرات مخلفة أربعة شهداء. كل شيء يتم إخفاؤه في فلسطين إلا خبر الموت فهو ينتشر كالنار في الهشيم. فذاع الخبر ليتحول فيما بعد إلى نار حارقة. ووزعت المنشورات التي كانت تحمل على رأسها الثورة العربية الثانية. وقد أرسل أهالي جبال الخليل رغيفا من الخبز مغموسا بالدم وهذا معناه في عرفهم دعوة للاشتراك في الثورة والانضمام إلى المقاومة والقبول بدفع دية الدم والشهادة. كل فلاحي القرى المجاورة تركوا المحاريث والتحقوا بالانتفاضة الكبرى. بدأت العمليات الأولى ليلا. فتم نسف الجسور لقطع المؤونة على العساكر المشتبكين معهم. عربي من اللدّ يئس من العبور بسبب الرقابة الصارمة، فجَر نفسه مع نسف الخط الرابط بين اللد ويافا. وهوجمت السيارات المخصصة لنقل الركاب اليهود. لم يكد القطار بين كفر جنس ومحطة اللد ينطلق حتى فاجأه الثوار بإطلاق الرصاص بكثافة هائلة مما أرغم سائقه على مضاعفة السرعة وكانت عملية دفع القطار إلى السرعة عملية مخططاً لها، إذ عندما وصل إلى ناحية القضيب المنزوع فوق الجسر اختل توازنه فارتج ونزل من أعلى الجسر إلى وسط الوادي، بكل حمولته الثقيلة.

واتسعت النيران لكي تشمل كل شيء، فتم إتلاف المزارع اليهودية

وقطع خطوط البرق والتليفون ورش الطرقات بالمسامير والأدوات الحادة لإحداث أقصى درجات الضرر وسد الشوارع بالحجارة الكبيرة وقطع المواصلات بالصخور الضخمة التي كانت تطلق من الأعالي على السيارات العسكرية. وتم الهجوم على المستوطنات اليهودية، أحرق الكثير منها. وأخليت معظم المستعمرات اليهودية وحولت الباصات الناقلة لهم والمضطرة للمرور عبر الأحياء العربية إلى مدرعات فولاذية.

كل شيء كان يوحي بحالة غليان بدأ زمامها يفلت من يد السلطات الإنجليزية.

كان قائد حامية يافا الكولونيل باترسون لا يعرف أن مدينته التي تبدو هادئة يمكن أن تنكسر بهذه السهولة، فقد جاءته الهجمات من كل الجهات.

كان الساحل خاليا عندما وصلنا.

كنا قد نزلنا من حيفا بعد أن تم تعويضنا بشباب آخرين لحراسة الساحل من الهجرة السرية واستقررنا بيافا بعد أن التحقنا بسليم عبد الرحمن وتوفيق عبد الرزاق وكشافة أبو عبيدة وكان الهدف هو تضييق الخناق على تجار الهجرة السرية. كنا مرابطين على الساحل وكانت الحرب قد بدأت تكشر عن أنيابها والنار اشتعلت في الكثير من المواقع. جزء منا التحق بالمجموعة التي كانت في السوق تقوم بالعمليات ضد المؤسسات الحكومية المتعاطفة مع اليهود. وكان الطوق يضيق شيئا فشيئا. استطعنا أن نُخرج منها الكثير من رفاقنا الذين ظلوا محجوزين في شوارعها وأزقتها الضيقة خصوصا في السوق. وانسحبنا في جنح الظلام نحو المقبرة حيث كان الكثير من المحتاجين والمطرودين يأتون لها لنصب خيامهم هربا من النيران. كان الإنجليز مصممين على كسر المدينة وتحطيمها عن آخرها بدعوى إعادة تنظيمها ولكنهم في الخفاء كانوا يسمونها الوكر الموبوء بالأمراض والمشكلات. في الظاهر كان يبدو أن الجيش الإنجليزي المرابط في ساحة الشهداء اشتبه في أن بعض العيارات النارية أطلقت عليه من داخل البلدة القديمة، فصوب عليها مدافعه

الرشاشة وكثر في تلك الليلة إطلاق الرصاص وانفجار القنابل فسقطت قنبلة على دار سليم الأبيض فانفجرت وأصابت شظاياها زوجته وابنه وابنته فتوفيت زوجته لساعتها وتوفي الابن في المستشفى أما الابنة فأجريت لها عملية جراحية انتهت بقطع رجلها، فكانت الفاجعة فاتحة لفاجعة كبرى في يافا. في صباح ١٨ جوان ١٩٣٦ فوجئ سكان يافا بطائرة حربية تحوم فوق المدينة وعلى مقربة من أسطح البيوت مخترقة حاجز الصوت. كان القصد هو ترهيب السكان.

حضر حاكم اللواء الجنوبي المستر كروسي وقائد حامية يافا الكولونيل باترسون وعزمي بك النشاشيبي قائممقام المدينة والميجر فولي مدير البوليس وقائد مفرزة المهندسين الملكيين إلى ثكنة البوليس البريطاني البراكس للإشراف على تنظيم عملية نسف الدور التي تقرر هدمها واستلم الجيش زمام المحافظة على جميع الطرق والمنافذ الموصلة إلى المدينة بعد سدها بالحواجز الشائكة وكان يرابط وراءها عدد من أفراد الجيش بمدافعهم الرشاشة. وجيء بصناديق الديناميت التي وضعت في عمق البيوت القديمة والدروب الضيقة وأطلق أفراد البوليس البريطاني والجند المسلح قطعتين من الديناميت إنذارا بابتداء النسف بعد أن سحب السكان خارج المدينة. وفي تمام الساعة التاسعة صباحا بوشر في عمليات النسف. وأخذت الحجارة تتطاير بقوة. كان الناس الذين فجرت بيوتهم يهيمون في الشوارع وحواف المدينة، يجرون وعلى ظهور دوابهم فرشتهم وخزائنهم وأبناؤهم. التجأ الكثير منهم إلى المقابر، وساعدنا الهاربين على نصب الخيام متنكرين في ألبسة الكشافة بتواطؤ مع بعض السكان الذين كانوا يعرفون الحقيقة. الكثير من المباني اهتزت بعنف، تشققت حيطان مسجد الشيخ رسلان وسقط قسم من المئذنة. واهتزت أسطح كنيسة دير الروم فأحرق سطحها وأتلفت مصابيحها أما كنيسة دير اللاتين، أي القلعة، فقد أتلفت محتوياتها وسقطت كل واجهاتها القديمة. كانت المدينة غاصة باللاجئين العرب من المنكوبين الذين أحرقت دورهم في حي المنشية في بدء الاضطرابات.

حولت المدينة القديمة إلى كومة من الأتربة والغبار وغاب وجهها داخل الخوف والرعب والهدم وبقايا البنايات التي فجَرها الديناميت وأتلفها.

كانت الطائرات ما تزال ترمي الأوراق التي تلح على أن عمليات الهدم ليست عقوبة من الحكومة الإنجليزية ولكن لتجديد المدينة المنفتحة على تاريخ آخر كان بصدد الحدوث ولم يكن أحد يعرف نهاياته.

عندما حلت المجموعة الشبابية التي كانت تحرس المدينة من سيلان الهجرة غير السرية ولم يبق لنا أي وضع قانوني، نصحنا أحمد ونور بالعودة إلى مدننا الأصلية في انتظار المستجدات. حزناً كثيرا لأن الهجرة السرية لم تتوقف في أي يوم من الأيام على الرغم من تطمينات الإنجليز.

عدت إلى حيفا. قضيت ليلة واحدة تحت الخيمة التي كانت ما تزال واقفة قبل أن تطوى في الصباح ومنها رجعت إلى القدس التي كان الشوق إليها قد ملأني وبدت الأيام التي فصلتني عنها ثقيلة جدا. كان قلبي منكسرا وأنا أقطع المسافات في القطار القديم الذي تآكلت جوانبه وهيكله الأساسي من كثرة الرحلات وغياب الصيانة.

وأنا أتأمل الضياع والرعاة والأراضي الخصبة، شعرت بغصة في الحلق، وبدت لي القدس بعيدة والوصول إلى حارة المغاربة مستحيلا.

كانت مشاهد النار ما تزال تملأ عينيَ المنكسرتين.

لم تكن مطالبي كثيرة وأنا أنتظر لحظة الوصول إلى القدس، كنت أشتهي فقط أن أرتمي في حجر أمي وأنام قليلا وأبكي لكي أشعر بأني مازلت موجودا على هذه الأرض التي كانت كل يوم تنزلق قليلا خارج حدودنا وأشواقنا المقتولة.

عندما عوى القطار وهو يعبر آخر الأنفاق الطويلة، فجأة وفي خطوة غير مسبوقة، شعرت أني خسرت طفولتي بسرعة غير السرعة التي توقعتها.

زمن كان قد مات نهائيا وحلت محله أسئلة مظلمة ظلت معلقة في الحلق والذاكرة.

-٣-

الحرب العالمية الثانية دخلت إلى البيوت وأجساد الناس وألسنتهم. فقد صارت مدار الحكي في المقاهي والمحلات والبيوتات الخاصة. لم تعد مجرد نزاعات حدودية صغيرة أو تهديدات، ولكنها أصبحت حربا مدمرة بدأت تأكل الأخضر واليابس وأبادت وهدمت ما بقي واقفا من الحرب العالمية الأولى. جدي كان يحمل في عمقه خيبته الكبيرة ولم يكن قادرا على فهم الصيرورة الخفية للأحداث التي كانت تحدث أمام عينيه المتعبتين، كما يقول عنه خالي إبراهيم. المفتي الحاج أمين الحسيني الذي كان حجر عثرة في وجه سياسة بريطانيا تمكن من الإفلات من رقابتها وغادر في جنح ظلام ليلة ١٣ أكتوبر ١٩٣٧ القدس باتجاه بيروت، قبل أن يتركها ويسافر إلى إيران في ٣٠ مارس ١٩٤٠ ثم إلى تركيا وبلغاريا وأخيرا ألمانيا التي حط الرحال بها في ٨ مارس ١٩٤٥. اتخذت بريطانيا ذلك كله فرصة للتنكيل بالعرب. فقد اعتقلت المئات وحكمت على الكثير منهم بالإعدام والمؤبد. وطبقت نظام الطوارئ على الكثير من المدن الفلسطينية وفرضت الغرامات المشتركة والضرائب الإضافية ونظام منع التجول. وصادرت كل ما وجدته عند الأهلين من سلاح وحكمت بالإعدام الذي نفذ في اللحظة ضد كل من وجدت معه قطعة سلاح صغيرة أو كبيرة، قديمة أو حديثة. وتواطأت بالمقابل مع الحركة الصهيونية وساعدتها على تنفيذ مشروع الوطن القومي في البلاد رغما عن الأهالي.

- يا بويْ، كيف بدك إياي أن أصمت على جرائم الإنجليز؟ مو هيك يا إبراهيم حبيبي، مو هيك أبدا. لا أتفق معك. أتمنى الكسر للإنجليز والموت لعساكره وضباطه الذين يبيعوننا يوميا. انتصار ألمانيا

عليهم معناه نهاية الفكرة الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني بكل عناصرها الدينية بما في ذلك اليهودية المحلية التي نبتت على هذه التربة، طبعا، أستثني الذين اختاروا صف الإنجليز.

حك خالي إبراهيم رأسه. تأمل وجه جدي. بدا له مغيما كلما تحدث عن الإنجليز وفلسطين وما يحاك ضدها. جدي على الرغم من تبصره وصدقه، لم يشذ عن القاعدة العامة لسكان مدينة القدس وغيرها، في ردود فعله المتناقضة جدا. الوحيد الذي لم يكن يهز رأسه بالموافقة كلما تكلم جدي، هو خالي إبراهيم.

- أنا لست متفقا معك يا بيِّي. الدنيا ليست بهذه البساطة، الطيبون من جهة، والمفسدون من جهة ثانية. أخطاؤنا لا تقل عن أخطاء اليهود. يناصرون بريطانيا لأن الكثير منهم يعرفون أنه لو انتصر الألمان سيبادون عن آخرهم. تصور الرعب الذي يعيشونه يوميا؟ حالة هستيريا: أذكر أنني عندما كنت في لجنة تخمين ضريبة الأملاك في المدن في كومبانية يهودية، خارج القدس، صادف أن بائع رمل من أهالي الخليل متجولاً كان ينادي بأعلى صوته: رمل... رمل... رمل... عادة استعمال الرمل لجلي النحاس من أوان وصحون وغيرها، تعرفها جيدا يا بيّي. عندما سمع بعض اليهود نداءات رمل... رمل... رمل... خرجوا من بيوتهم في حالة ذعر كلي. اعتقدوا أن رومل دخل إلى المدينة وبدؤوا يتصايحون ويبكون في الأزقة وكان المنظر محزنا ومؤلما والنساء يجرين بشعورهن الهاربة وهن يحتضنّ أبناءهن. إلى أن اتضح للجميع أن الأمر يتعلق بالرمل لجلي الأواني وليس رومل؟ لا يا بيّي، المسالة أكثر تعقيدا مما نتصور. لا يمكن أن يظل العرب دائما في دائرة اليقين والحق المطلق. لن نخطو خطوة إلى الأمام إذا لم نر أنفسنا نحن كذلك في المرايا الأكثر قسوة وصدقا. لا يا بيّي، لا.

صمت جدي طويلا. كان يدرك جيدا صعوبة مجاراة خالي إبراهيم الذي كان شعلة متقدة من الذكاء. كنت أعرف أن الناس الذين مثل خالي إبراهيم، حياتهم قصيرة. هو نفسه كان يقول ذلك.

«إذا نفذتَ من أظفار العدو، يقتلك الصديق الذي يقف معك في الخندق نفسه، لأن رؤيتك تضايقه وتزعجه.»

في عمق جدي، تناقض حاد وقاس، لم يجد له مسلكا أبدا. مرتبك جدا في حبه العثمانيين. يحبهم لدينهم ولنسبهم ولما فعلوه في المدينة على الرغم من أنه يؤنبهم في أعماقه بل يكرههم أحيانا:

«- حملت السلاح ضدهم لأنهم ظلمونا. وعندما دخل الغرباء، لم أفرح كثيراً ولكن قلت يا الله: ذئب خلصنا من ضبع. لكن الذئب تمادى في غيه وجبروته. لو لم يكن في عمق الإنجليز حقد شنيع لما حدث الذي حدث. يخطئ الناس عندما يتحولون إلى عدميين وينكرون كل شيء على الأتراك. لقد خضعت المدن الإقليمية العثمانية لدرجات متفاوتة من التنظيم الحضري، خصوصا الساحات العامة في دمشق وبيروت ويافا وحلب. وتميزت القدس بقوانين هيكلية متعددة بعد إصدار قانون البلديات في سنة ١٨٧٧، إذ قامت السلطات بوضع قيود تنظيم رخص البناء وعلو المباني. زيادة الاهتمام بالنمو الحضري في القدس، في أواسط القرن التاسع عشر، كان من أولويات عملية مركزة السلطة العثمانية في فلسطين. وقد نجم عن إنشاء دار البلدية والمجلس البلدي تفعيل الحياة السياسية في القدس. ومن معالم التنظيم العثماني المدني في تلك الفترة كان إنشاء النصب التذكارية في الساحات العامة سنة ١٩٠١، احتفاء بالعيد الخامس والعشرين لتولي السلطان عبد الحميد الثاني العرش. وأصبحت هذه النصب ذات الأبراج وساعاتها معالم تاريخية في ساحات مدن إقليمية مثل إزمير وطرابلس ويافا والقدس. الحقد يعمي وإلا ليش دمرت سلطات الاحتلال برج القدس في باب الخليل، في سنة ١٩١٨؟ تشويه جمالية المدينة؟ يا عيني على هيك حجة عظيمة. هناك نزعة تدميرية لكل ما يحيل إلى التاريخ الإسلامي الذي أعطى الكثير لهذه المدينة.»

ويكره جدي العثمانيين أحيانا بشكل أعمى لأنه يرى فيهم مصدرا للتخلف والظلم، وأن كل ما لحق العرب من ويلات يتحملون مسؤولية

كبيرة فيه. طغيانهم واستبدادهم دفعه للوقوف وراء نداءات الشريف حسين الذي كان يحبه وانضم إلى المقاومة. عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى لم يغفر جدي تحالف العثمانيين مع الألمان. الحرب العالمية الأولى عجلت بكل شيء، فقد تركت في جدي آثارا كبيرة وعمقت حسه بخيبات انكسارات الثورة العربية التي كان يرى فيها منطلق الأمة في مقاومة التخلف. فقد اشترك في الثورة مرابطا ومنتفضا في فلسطين. وكان من الذين اختارتهم الدولة العثمانية للمشاركة في حملة السويس العسكرية الفاشلة التي كان القصد من ورائها قطع خطوط المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند. لكنه في صباح ١٥ فبراير من سنة ١٩١٥ هرب هو ومجموعته والتحق بالثوار العرب الذين كانوا متجمعين في العقبة.

وقع انقلاب كلي في جدي المتسامح والطيب وبدأت نظرته كل يوم تزداد ضيقا. كلما سمع بعدوان أو بسفينة تنزل في موانئ حيفا أو غيرها أو بالشباب يوقفون مركبة من الهجرة السرية ضائعة في البحر، ازداد قلبه ضيقا وعرف أن ما ينتظر هذه الأرض قاس وقاس جدا. كان النزاع الأخير الذي قام بين اليهود والعرب على البراق أو حائط المبكى وفي المناطق البعيدة عن القدس، قد أثار حفيظته بقوة.

– يا إبراهيم أنا لا أكره أحدا لوجه الله. أنت تتعاطف بشكل أعمى مع اليهود وتحتاج لمن ينبهك.

خالي إبراهيم لم يرد على جدي، وأبو مازن، كبير أخوالي لم يناقض ولا بكلمة واحدة جدي. كان كلما تكلم هذا الأخير هز رأسه بالموافقة ونظر نحو خالي إبراهيم بشكل تنبيهي.

خالي إبراهيم، ينتفض وعندما يرى مسالك الحوار مسدودة يصمت.

عندما اشتعلت الجبهة الشرقية، ما كانت نزاعات صغيرة منعزلة عن بعضها بعضا، أصبحت حربا عالمية كونية مدمرة، لم يكن أمامنا إلا أن نستعد. هتلر الذي أهين بموجب بنود فرساي، دخل في مغامرة لا أحد

كان ضامنا نتائجها. عينا جدي كانتا تبرقان مثل عيني طفل يكتشف فجأة كل ما يبرر فضوله. تمتم وهو يعبر بهو البيت ويشيع الخبر داخل العائلة ويخفف من غضبه الذي أصبح يلازمه منذ أن أصبحت الهجرة اليهودية شيئا ملاحظا ويتم على العلن ؤمنذ أن أصبحت الوكالة اليهودية تقضم الأرض بالشراء والسرقة والتهديد والإغواء:

– خلاص اليوم آخر يوم من أيام اليهود. للظلم دائما قوة تقهره. الله جاب من يسحقهم ويسحق حماتهم الإنجليز ويرفع رأس العرب والمسلمين عاليا.

– يا بيي هيدا ما يبشر بخير. هذه حرب والحرب تأكل الأخضر واليابس.

– فلتأكلهما معا، انجليز ويهود، شو راح بنخسر؟ حقنا ضاع والمظالم زادت على حدها. أنا لا أومن بالتخريف بس أحيانا نحتاج لكي نلتصق بعود ميت حتى لا نقع من الأعالي القاتلة. كل شيء يركض بسرعة كبيرة. يقال والعهدة على من يروي هذه الحكايات إن هتلر حج سرا أو قام بعمرة وتاب وصلى في الكعبة بصحبة إمام مسلم كبير أشرف على شهادته وطهارته ودخوله الإسلام. ويقال إنه مر على حصانه متنكرا وصلى في المسجد الأقصى وهناك من عرفه من شاربيه الصغيرين ونظرته الحادة التي لم يكن قادرا على تخبئتها. قد لا تصدقون وقد لا أصدق ولكن لا شيء بعيد عن إرادته تعالى.

– يا بابا شو هالتخريف؟ كيف تتصور وأنت العاقل، طاغية لا يؤمن إلا بالجنس الآري وبأهليته على بقية الأجناس وبأساطير ألمانيا القديمة وبمنطق الفتك والتدمير، أن يلتفت نحوك؟ مش اليهودي البسيط اللي أخذ أرضك وارض فلسطين، اللي جردنا من حقنا الصهيونية العالمية يا بيي. والصهيونية نظام أخطبوطي. ليس سهلا التعامل بمنطق الخرافات. ستكون الصهيونية سعيدة جدا إن فكرنا فيها بهذا الشكل البسيط.

– هيدي حكايات الشيوعيين مو أكثر يا إبراهيم. تتصور الصهيونية من غير يهود؟ عندما كانوا ضعفاء كانوا ينامون في أحضاننا وبيوتنا

وعندما استكبروا صرنا نبدو لهم كالجرذان التي لا تستحق حتى حق الحياة والحمد لله على عظمته، فقد جاء اليوم من يمحوهم من على وجه الكرة الأرضية. سيغسل هذه الأرض من جرائمهم المتكررة. لقد قتلوا سيدنا المسيح شو راح يضرهم قتل الفلسطيني الأعزل.

– هيدي قصة طويلة وصعبة يا بيي. هذا النوع من العداوات يخدم الصهيونية. نقاوم القتلة ولا علاقة لنا بمن يعيش آلام الحياة مثلنا جميعا. يا بيي ما يصح أن نصاب بعمى كلي بهيك شكل. الله منحنا العقل والتفكير. الفلاح أو الصنايعي الفلسطيني اليهودي ما بيفرق عن الصنايعي أو الفلاح المسلم أو المسيحي. فيه غلط رسخته الصهيونية ودفعت بنا جميعا إلى التفكير بالمنطق الذي شاءته لنا.

– شوف يا ابني عندما تصير الدنيا عمياء والمحيط أخرس لا تطلب من المقتول أن يشكر قاتله وأن يتفهم النوايا التي تختبئ وراءه. قبل مدة قصيرة ما كنت أفكر بهيك شكل لكني اليوم مذبوح في الصميم وقلبي بيوجعني. ما يحدث على هذه الأرض على مرأى البشرية قاطبة غير مقبول. أفسدوا كل تسامح في أعماقنا وغدا سنرمى بالإرهاب والقتل الهمجي لأننا ندافع عن أرضنا، عن حقنا في الوجود. سيأتي زمن يا ابني، لن تتاح لك حتى فرصة الصراخ في وجه الظلم بدون أن تُتهم بأنك تعتدي على حرمة شعب طيب وهادئ. هل تدري أن اليوم هناك من ينادي برمينا خارج حدود أرضنا وتشريدنا؟ حتى إن أحدهم قال: ارموهم في الصحراء ووفروا لهم جملين وبئر ماء وستنتهون من شرهم وتخلفهم وسيتركونكم أحرارا لبناء حضارتكم. هل ألوم الثوار الذين دافعوا عن هذه الأرض وهم يستمعون إلى مثل هذه الإهانات؟ واليهودي الطيب الذي تتحدث عنه لسه ماني شايفه؟ بربك، قل لي وينه وأنا أركض صوبه وأضعه على راسي. أينه؟ فأنا لا أراه حتى الآن.

ردود فعل خالي إبراهيم الحادة لم تكن لتسهل العلاقة بين جدي وبعض أبنائه، بل عقدتها إلى أقصى الحدود وأصبح كلما أثير حديث الألمان انتفض جدي أو أحد أخوالي لوضع خالي إبراهيم في الزاوية

الضيقة على الرغم من أنه كان أكثرهم عقلا ومنطقا وحتى هدوءا.

سنوات الحرب لم تكن أفضل من السنوات التي مضت. فقد سحبت في أثرها كل أشواق البلاد في التحرر وبناء الدولة العربية الكبيرة والعظمى. فقد انكسر الحلم فجأة وكل الأحلام دفنت بين القاهرة وبلاد الشام وأغوار الأردن وفلسطين أو ما تبقى منها. فتحنا أعيننا على حلم الأرض الواحدة فوجدنا أنفسنا داخل أراض مفصولة بالأسلاك الشائكة والألغام وأرض تباع وتشترى أمام أعيننا ونحن لا نملك حيال ذلك إلا الصمت والخوف وأحيانا الانتحار وعندما تدفن أشلاؤنا ولا يبقى لنا أي شيء تنكسر الأشواق المتبقية ويترنح الحزن في الأعماق ملامسا كل حياتنا ويومياتنا. من بعيد ترى العيون وهي تطرف وتخفق محاولة بيأس تخبئة أحزانها الصغيرة. عبثا نحيا ونموت كالأشياء. شيء فينا كان قد اندثر إلى الأبد. جدي لم يكن يحكي من الفراغ عندما قال ليما صفية وهي تحاول أن تخفف عنه وهن الخيبات من رؤية ما كان يحصل بالجوار:

- بيجي وقت يا بنِّي وينتهي كل شيء ويرجع الله الحق الضائع.

- وحياتك يا صفية ماني شايف اللي عمبتشوفيه. كل شيء يفلت من أيدينا ولا طاقة لنا في مقاومة الخسارات الكبيرة واللامتناهية. حديث إبراهيم ما عاد يعجبني. الشيوعيون أعموه عن رؤية الحقيقة. أنا كذلك كنت أظن أن مجتمعا طيبا بيننا وبين اليهود كان ممكنا ولكن يبدو أن كل البوابات قد أغلقت. انظري ماذا يفعلون في محيطنا القريب؟ يأخذون أراضينا، بريطانيا فتحت باب الهجرة على مصراعيه والآلاف المؤلفة يدخلون بطرق غير مشروعة ويزينون لنا صور التقدم والعيش الآمن والتقاسم العادل للأرض. مجموعات الهاغانا؟ كلما ظهر من يناصرنا أو على الأقل يناصر الحق قتلته حتى ولو كان إنجليزيا. القائمة طويلة. سيأتي يوم وسيصبح نظامهم للقتل وسيلتهم لتصفية كل صوت متميز يخرج من هذه الأرض، فنان، رجل دين، عالم، سياسي، سيقحلون هذه الأرض وسينتقمون من الزمن ومن الأديان من خلال أجسادنا.

ستزداد شراستهم مع الوقت بشكل كبير وسيدخلون أدمغتنا وحواسنا، وكلما فكرنا في شيء لا يعجبهم فجروا أدمغتنا وكسروا أسناننا. أدرك جيدا أن هذا الزمن آت لا ريب فيه ولكني أشعر أن كلما طال هذا الزمن زاد يأسنا وتفاقم نسياننا حقنا في هذه الأرض.

- يا بيي هيدا موش أنت. هذه صورة سوداوية إلى أقصى الحدود. أي علماء وأي فنانين ستقتلهم الصهيونية يا بيِّي؟ مازلنا مع مشكلة أرضنا التي لم تحل. مشكلتنا هي بالعربي الفصيح: شو بدنا نساوي اليوم؟

- عدو عدوي صديقي. الألمان يعرفون ماذا سيفعلونه بالقتلة. لا تسمعي لأخيك. إبراهيم ذكي جدا ولكنه ضاع في الكتب. ما بعرف من وين جاب هيك أفكار هدامة، لا من أبوه ولا من أمه ولا من أهله.

- أخويا شاب يا بيي ومولع بالأفكار اليسارية، بس يكبر شوية يغير رأيه في الألمان وفي اليهود. أنا متأكدة أن الألمان سيقلبون الموازين وسيخرج الإنجليز من هذه الأرض مهزومين صغارا، وسيلزم اليهود حدودهم أو على الأقل يعيدون النظر في أخطائهم التي يرتكبونها في حق شعبنا.

- هذا اسمه الطغيان والطغيان لا يواجه بالكلام ولكن بالنار. عندما كانت أحلامنا في الدولة العربية دخلنا الحرب مع الإنجليز على الرغم من أني لم أكن مقتنعا بخوض حرب ضد إمبراطورية إسلامية ولكنها كانت فاسدة وظالمة. شكي كان في محله مع الزمن. كنت خائفا من الارتداد ضدنا بعد الحرب. وبعدما علمت باتفاق سايكس بيكو ضاق القلب وعرفت أن اللعبة نشأت على هذه الأرض وأن كل شيء كان يسير وفق نظام محكم وكنا نركض وراء الحلم بحماس زائد لم يكن له ما يبرره. لو يعود التاريخ على أعقابه، سأحارب الأتراك والإنجليز والصهيونية مجتمعين. ستقولين بأية وسيلة وسأقول لك لا أعلم ولكني على الأقل عندما أقف في مواجهة المرآة سأكون سعيدا بأني قمت بواجبي على أحسن وجه. جيلي الذي خاض الثورة العربية منكسر اليوم لأنه يشعر، كلما تقدم الزمن، بخيبة لا شيء يضاهيها. لقد كان آلة. جئنا بالإنجليز

والفرنسيين واحتفلنا بغزوهم وفتحنا لهم الطرقات المختصرة وسلمناهم مفاتيح مدننا الجميلة، وتركناهم يمزقون أرضنا ويأكلون لحم أبنائنا الطيبين. وحياتك يا بنتي لم نكن نطلب أكثر من شوية كرامة.

كانت العلاقة بين جدي وخالي إبراهيم حادة ومع ذلك، فقد كان هذا الأخير يجد لذة كبيرة في محاورته. عندما خرج خالي للمرة الأخيرة، ترك فراغا كبيرا في البيت وكان جدي كلما شعر بيتم، ردد: آه لو كان إبراهيم معنا! ولكنه اختار جنونه. الوحيد الذي كان يرفض ويعبر عن رأيه بصوت مسموع ولم يكن صموتا أمام جدي مثلما كان خالي أبو مازن، الذي لا يعرف إلا هز رأسه. انسحب بدون سابق إنذار من المشهد المسائي للعائلة وهي تتناقش وتعد أفرادها وتتأمل الوجوه التي صارت ترتجف كلما سمعت خبرا يطعن الهدوء في الصدر.

عندما خرج خالي إبراهيم للمرة الأخيرة، لم يلتفت وراءه لكيلا يشعر بالرغبة في العودة. ترك عمله ككاتب في دائرة العدلية الذي تعب للحصول عليه ولم يكن الأمر هينا وبسيطا، إذ حصل عليه بتدخل خاص من حسين أفندي الحسيني الذي كان وقتها رئيسا لبلدية القدس وله الكلمة المطاعة عند الإنجليز بواسطة المسؤول الكبير حداد باشا. فقد دخل على رئيس المحكمة، علي بك جار الله الذي كان في الغرفة الجميلة من الطابق العلوي من العمارة الثانية بعد الدخول إلى المسكوبية من بابها الشرقي والتي أصبحت في زمن الانتداب: المحكمة المركزية، وسلمه رسالة الوساطة. عندما اختبره، وظفه في اللحظة نفسها وهو ينظر في عيني خالي بشكل عميق:

- شوف يا إبراهيم يا ابني، أهلك من طينة عالية. والناس الذين في سنك أعرفهم جيدا، لا يصبرون على الظلم، جميل، ولكني في هذا المكان أريد عدلا ولا أريد سياسة. مفهوم يا روحي؟

قالها بشكل بارد، فأجابه خالي إبراهيم:

- مفهوم يا سيدي، وسأكون إن شاء الله عند حسن ظنكم.

كنا نظن أن خالي هرب من المدينة غضبا من جدي وأنه لن يلتفت

وراءه أبدا ولكنه أظهر حبا كبيرا لجدي في رسالته الأولى التي جاءت من صحراء العلمين، في عمق الجبهة: **أكتب لك من موقعي المتقدم، لست بعيدا عن ضابط شبه مجنون اسمه مونتغومري الذي يحضر نيرانه نحو طاغية دموي هو رومل. إننا نستعد للهجوم الكبير ولا أدري إذا ما كان ستكتب لي الحياة من جديد، فقد مات الكثير من أصدقائي من بينهم الكثير من اليهود الذين كانوا صدري الواقي وحافظوا على حياتي في أصعب الظروف وأحلكها، لا أريد أن أغضبك ولكن هذه هي الحقيقة. وإذا كتبت لي الحياة مرة أخرى، لن أندم على حبك ولن أتوقف عن مناقشتك. ستأكل طغاة النازية رمال العلمين ولن يعودوا إلى هذه الأرض. قد يعجبك الأمر وقد لا يعجبك، لا يهم ولكني أريد إخبارك بأني أقود فيلقا كبيرا مكونا من العرب، أكثرهم من فلسطين وبعض اليهود الذين اختاروا مسلك الثورة ضد النازية ورفضوا تنظيمات الهاغانا، وهم كثر يا أبي لأنهم يدركون جيدا أن مصيرهم النهائي معلق على انتصار الحلفاء وستكون العلمين مقبرة للنازية وسنكتب أسماءنا بماء الجنة يا أبي. ليس كل اليهود صهاينة فهم اليوم في مواجهة النازية في وضع أكثر سوءا منا نحن الذين سلبت أراضيهم وشردوا في الساحات العامة والخلاء كالوحوش. ليس كل اليهود من عصابات شتيرن المتخصصة في اغتيال البوليس الإنجليزي ولا من عصابة الأرغون المتخصصة في أعمال النسف وبث الألغام ضد المنشآت. هناك أناس مثلنا جميعا لا يطلبون إلا العيش الطيب والطمأنينة. مشتاق لك يا بيِّي وسيثبت لنا التاريخ أن من يزرع الثقة في الآخر سيجدها يوما. واليوم الذي أتحدث عنه ليس غدا أو بعد غد، يمكن أن يكون بعيدا جدا ولكنه أكيد... أشتاق أبوس راسك وعينيك يا بيِّي، وأشم رائحتك الزكية وأطلب عذرك، فأنا لا أفعل إلا ما يرضي ضميري وهذا درسك الذي تعلمته منك وتمنيت، لو تزوجت أن أعلمه لأبنائي وأقول لهم، هذه وصية جدكم.**

بقدر ما كانت الرسالة مؤثرة في جدي إذ لم يستطع منع الدموع التي ارتسمت على وجهه بقوة ظل يتآكل ولم تخرج من فمه إلا بعض الكلمات القلقة: بعد مقتل خيرة شبابنا من العصابات اليهودية التي تريد الاستيلاء على الأراضي بكل الوسائل، لا أدري إذا ما بقي على هذه الأرض يهودي غير صهيوني، يا حبيبي إبراهيم أنت لا تدري أن الحقد يعمي حتى أكثر البشر طيبة. لو عاد اليوم موسى وعيسى ومحمد لتقاتلوا على مشارف المدينة التي يريدون دخولها جميعا ودفعة واحدة وسيذبح بعضهم بعضا بلا أدنى رحمة. لقد تلوث كل شيء على هذه الأرض ولم يزدها الإنجليز إلا مرضا على مرض.

لفلف لباسه الفضفاض، وضع القرآن في كفه ثم صعد إلى غرفته. عادته كلما امتلأ قلبه بما لا يستطيع تحمله. لم أسمع تمتماته في آخر الليل وهي تتكسر مع مياه نافورة البيت التي لا يتوقف ماؤها.

المريح للعائلة بكاملها هو أن رسالة خالي إبراهيم الأولى جعلتنا نكتشف فجأة أنه لم يكن غاضبا على جدي والتحق بالحرب العالمية الثانية لمقاومة النازية على الرغم من اعتراضات جدي الكثيرة، والأهم أنه على قيد الحياة. كان ساخطا على النازية ويراها خرابا للبشرية، على عكس بقية العائلة التي كانت ترى في الإنجليز عدوها الأول وتتعاطف إلى حد كبير مع هتلر مثل الشيخ الحسيني الذي لم يخف إعجابه بتنظيمات النازية وعملها الكبير في ميدان التسليح. كان الغضب كبيرا في العائلة. لم أر جدي يوما في غضب مثل الذي انتابه يومها بعنف. أتذكر جيدا تفاصيل الجلسة الأخيرة بينهما والتي سحبت خالي إبراهيم نحو رمال العلمين الحارقة، ضاربا عرض الحائط بعمله وكل مشاريعه الجميلة التي ظل ملتصقا بها مدة طويلة:

«- أنا لا أصدق يا إبراهيم؟ هيدي مو تربيتي أبدا. كيف تترك عملك في دائرة العدلية الذي يحسدك عليه القاصي والداني وتذهب نحو العدم والموت المجاني. وثقوا بك حتى أوصلوك إلى اختيارك عضوا حيا في لجنة تخمين ضريبة الأملاك في المدن الفلسطينية. لا أفهم كيف

تقف بجانب قتلة شعبك؟ ألم تدر بعد أن الإنجليز يقتلوننا ويبيعون البلاد لأعدائنا؟

- وهل تتصور يا بيّي أني عبيط إلى هذا الحد؟ مش معقول يا بيِّي أن نقبل بطغاة يقسمون البشر إلى أقل من حيوانات لا تستحق إلا الموت والإبادة وبشر فوق بقية البشر كلهم لأنهم ينحدرون من عنصر خاص الله وحده يعلم من أين جاء وإلى أين يتجه.

- عال. صار وينستون تشرشل أفضل لكان؟ اللي سرق أرضك وعرضك وشعبك وسهل الغزو والهجرة أصبح أهم؟ الذي تدافع عنه اليوم، كان من أقسى منتقدي الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ في البرلمان قبل توليه الحكم معتبرا إياه خيانة للعهد Breach of Faith الذي قطعته بريطانيا للصهيونية واعتبر نفسه من ضامنيه الرئيسيين. بعد كل الذي حدث ما يزال الزلمة يشعر أنه قصر في حق اليهود. مو غريبة على وزير المستعمرات إبان الحرب العالمية الأولى، وهو الذي وضع الصيغة الأولى للكتاب الأبيض لسنة ١٩٢٢ الذي يفسر فيه وعد بلفور وكيفية تطبيقه. تتحدث لي عن هتلر وتعاليه على الشعوب، تشرشل كان أوسخ، صاحب نظرة استعلائية ضد كل الشعوب غير الأوروبية. يسمي حربه بيننا وبين اليهود بحرب الفئران Wars of mice وهو مصرٌّ على التقسيم وعلى رفض ترتيبات الكتاب الأبيض. الله يكثِّر خيره، استكثر فينا كتابا يقايض بأراضينا: لابد من تنفيذ مشروع التقسيم مهما تكن المقاومة له، هكذا كان يقول. لا جدوى في أي مفاوضات إضافية مع العرب واليهود، لست أنا من يقول ذلك ولكن تشرشل الذي تريد مساندته يا روحي.

- يا بيِّي، أنت تحدثني عن شخصية تشرشل وأنا غير منشغل به أبدا، ولست مجبرا للدفاع عنه، فهو كغيره من السياسيين، يقوم بما يضمن بقاءه على رأس الوزارة، ولكن النازية، النازية يا بيِّي، كارثة.

- طيب، هيك بتشوف؟ وتشرشل صار هو المنقذ للشعوب وهو اللي بيرجع لنا أراضينا المسروقة؟

- يا بيّي حبيبي، إننا نعيش في عالم كل يوم يزداد تعقيدا. أنا لا

أداوي الشر بشر أكبر منه. هل تتصور يا بيّي أني خال من أية حساسية تجاه هذا السرطان الذي بدأ يأكل أرضنا ويسبي نساءنا وأعراضنا؟ ولكن ماذا نفعل أمام دوامة لا خيار لنا فيها إلا المواجهة بالوسائل الممكنة. الحياة يا بيي كلها صارت على كف عفريت ولم يعد الأمر يتعلق بأرضنا أو بأرض غيرنا، الكرة الأرضية كلها صارت مهددة بسرطان النازية. تصريحات هذا المجنون لا تترك مجالا للتأمل والتردد ولا يمكننا أن نتأخر كفلسطينيين عن المقاومة العالمية لهذا الضرر. يوجد بين الفلسطينيين واليهود أناس عقلاء قادرون على إيجاد صيغ تضمن الحياة للجميع، فلماذا نغلق كل الأبواب؟

– ما تسميه صيغا هو ما لا أفهمه. الأرض جسد لا يمكن أن نقبل بتمزيقه.

– المشكلة ليست في الجسد، فالجسد قد مزق وخلاص، ولكن كيف نضمن حياته بخسارات أقل لنا ولغيرنا.

– حزين جدا على ما آلت إليه أمورنا. حوار مثل هذا، لا يؤدي إلى أي شيء. خاطرك يا بويْ. أنا لا يمكنني أن أقبل أن تفرخ في هذا البيت أصوات تبرئ قتلة شعبها وتبرر فعل الغزاة.

– الفرق بيني وبينك يا بيِّي ليس في الفكرة الجوهرية ولكن في النية. نيتك طيبة وصافية، ولكن للأسف ما يُهيَّأ لنا أفظع مما نراه اليوم. صحيح أن طبخات الإنجليز قاسية ولكن سموم النازية قاتلة في اللحظة نفسها.

– هيك كلام ما بفهمه. خاطرك. طالع أنام.»

شعور جدي بالعجز كان كبيرا. كل شيء بدا له وكأنه يسير عكس الاتجاه ولم يكن يملك لإيقاف الانحدار أية قوة مساعدة للصد. كانت الخيبة تقرأ على وجهه بشكل واضح. فقد صارت ملامحه كابية، منكسرة ومظلمة ولم يعد شيء فيه يشع، هو الذي كانت تسبقه الابتسامة حتى في أصعب اللحظات وأقساها. كلما دخل إلى البيت، حتى في أقصى حالات تعبه، ردد مع ابتسامة مشرقة:

«ما فيه شي يستحق الزعل. يا الله غيروا هالوش يا شباب. . . الحزن يقلل من العمر.»

فجأة بدا وكأنه نزلت على عمره سنوات أخرى من حديد، أثقل من تلك التي عبرها واقفا على قدميه. كان كأنه يكتم صوتا أو عواء عميقا يريده أن يخرج بكل قوته ولكنه لم يكن يملك لا النفس ولا الطاقة.

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل بالضبط عندما تأبط القرآن وانسحب نحو غرفته، في الطابق الأول ونسي أن يقول تصبحون على خير، ولم نعد نسمع إلا تمتمته وتكسر مياه النافورة التي تتوسط ساحة البيت.

في اليوم الموالي غاب خالي إبراهيم، أكثر أخوالي شبابا وجرأة، لينغمس في أتون حروبه العادلة.

-٤-

راشيل.

أول ما رأيتها كان ذلك في المعبر الذي يؤدي إلى المدرسة اليهودية ولم أسأل نفسي إذا كانت هي راشيل أم لا لأني لم أشك دقيقة واحدة فيها، ولكني من بعيد بدا لي كأني شممت رائحة البحر فيها وعطر جسدها الذي كان يومها مكسوا بالملوحة والنعومة. امرأة تركتها في حيفا. في آخر مرة، كانت تضع يدها على خدها، ضائعة، كنت أريد أن أكلمها وربما أشجعها على التحمل، كان ذلك في مخفر الإنجليز عندما جرها عارف وهي تنظر إلى عيني برأفة وتساؤل لكي أمنحها يد النجاة ولكني لم أكن قادرا على فعل ذلك. الزمن لم يمح من ذاكرتي تلك اللحظة.

تركتها في حيفا فوجدتها في القدس.

كنت أراها دائما من بعيد منكسة الرأس عندما تقطع الحي العربي ولم أفكر للحظة واحدة أنها راشيل التي يفترض أن تكون قد أعيدت إلى

القاهرة لترحيلها إلى بولونيا أو ترحيلها مباشرة في أول سفينة عابرة باتجاه المجهول. لا تتكلم وإذا تحدثت فلكي تقول Good morning لا أكثر قبل أن تواصل سيرها منكسة الرأس نحو المدرسة. كان شعرها الذهبي نصف مغطى ولكن ألقه يخرج من غطاء الرأس. لا أدري ما الذي يجعلني أرى هذه المرأة بشيء من الامتنان. أشعر بنفسي دائما بأن حقي عليها كبير ولا يقاس بثمن مطلقا. اشتريت حياتها وكدت أموت داخل بحر لا يرحم على الرغم من صرخات جواد الملتحي. لم أكن أعرف أنها تشتغل بالمنطقة. أنقذتها من موت مؤكد، فوجدتها معلمة. كل صباح أتتبعها من بعيد وهي تقطع مسافة الذهاب من بيتها للمرور إلى الحي اليهودي. إحساس ما ظل يقودني باتجاهها. لا أتذكر من ذلك اليوم العاصف بالبحر إلا عينيها الخضراوين كحديقة وهما تطلبان النجدة أو كحيوان يكاد يفقد أي أمل في النجاة فاندحرت كل أحلامه وأشواقه. شعرت بجسدها وهو يرتمي بكل ثقله نحوي. ثم انسحبت بسرعة ولم أفكر يوما أن أحدثها.

الصدفة خدمتني كثيرا. وربما لم تكن الصدفة، تساءلت في أعماقي.

- مدام. كوفيتك الفلسطينية سقطت على الأرض. لم تلتفت. كررتها بالإنجليزية. التفتت نحوي.

مددت لها الكوفية التي سقطت من المحفظة. شممت بحاسة حيوان، رائحة بدا لي أني كنت أعرفها.

- Thank you very much

- Are you Palestinian?، لم ترد على تساؤلي. زاد شكي بأني كنت على يقين من شيء غامض. عندما حاولت أن ألتفت لكي أرجع على خطواتي تلألأت عيناها الجميلتان وبدا شعرها الناعم ثقيلا بالمياه وهو يلتصق بجسدي.

- راشيل؟ راشيل بكوفية فلسطينية؟

قلتها وأنا لا أدري بأني كنت أفتح جرحا فيها.

رفعت رأسها قليلا. التفتت وراءها. رأت الرجل الضخم الذي كان يحرسها من بعيد.

- هل تعرفني؟ أنا لست راشيل. اسمي ساره. عذرا يا سيدي...

- عفوا... عفوا... المعلمة التي...

- لا... لا... أنا ممرضة أشتغل في مركز الصليب الأحمر. شكرا على طيبتك. أرجوك...

ثم بسرعة انسحبت من مكاني وتفاديت خزرة الرجل الذي كان يحرسها من بعيد. عندما التفت نحوها كانت قد وصلت إلى المفرق حيث تلتقي عادة بصديقتها وينزلان نحو الرابية التي تلتهمهما.

في أعماقي كنت متأكدا من أنها هي. مع ذلك، كنت أود أن أعتذر منها، وأقول لها بأني كنت أظنها راشيل التي أنقذتها من موت مؤكد، في عمق بحر هائج، ولكني بلعت لساني ودفنت كل شكوكي وحاولت أن أنساها وأؤنب نفسي على سخافتي التي كان يمكن أن تودي بحياتي إلى الجحيم أو تقود الحي إلى صراع آخر بيننا وبين اليهود، تغلق من ورائه كل المعابر ويبهدلنا الإنجليز.

عندما فتح عمو أبو الشمايل مقهى الساحة اندفنت فيه بدون أدنى تردد لحظة واحدة لأن رأسي كان ثقيلا ويحتاج إلى قهوة ترجعه إلى وضعه الطبيعي. لم ألتفت إلى الحاضرين، طلبت قهوة ساده التي لم أشربها في حياتي إلا مكسورة بقليل من الحليب الذي يأتي به أبو الشمايل من بقرته الحلوب وبعض الملعونين يقولون من صدر زوجته الممتلئ.

عندما خرجت هذا الصباح باكرا كان في نيتي تصيد الأخبار الجديدة التي بدأت تمس مختلف المناطق. ومثل الشام، كان المقهى هو المكان الوحيد والطبيعي لاستقائها. فعلت ذلك على الرغم من إصرار أمي ومانيا على عدم الخروج خصوصا بعد الاغتيالات الكثيرة التي أصبحت فعلا يوميا بين الأطراف الثلاثة، العرب واليهود والإنجليز والتي كان آخرها حادثة اغتيال ثلاثة يهود في سينما أديسون. كان جمهور اليهود خارجين

من السينما بعد حفلة العرض الأول وإذا بشخص مجهول يداهم الجميع ويطلق النار فيقتل ثلاثة أشخاص بشكل أعمى ويلوذ بالفرار وينقلب كل شيء رأسا على عقب وأصبح كل واحد يتشمم عداوة مضمرة في الآخر. البارح صلى الناس صلاة الغائب على أرواح الشهداء. كان عدد المصلين أكثر من عشرين ألفا. دخل المسجد أحد المشكوك فيهم، أحمد خليل الشايب وكان خارجيا. وهو من عين مكارم. ضربه شابان على وجهه فوقع على الأرض ثم بعد ذلك تم رفسه بالأرجل حتى أفرغت أمعاؤه والتصق لحمه بالأرض ولم يستطع أحد أن ينقذه فقد كانت الصدور مليئة بالضغينة ومحتقنة.

في أعماقي، لم أصدق ما قالته لي راشيل.

لا يمكن إلا أن تكون هي. صممت أن أقتفي خطاها من بعيد وفي منأى عن رقابة الرجل الضخم. تبعتها مرات عديدة وأنا لا أعلم الغرض الذي كنت أبتغيه من وراء عمل مثل هذا. شعرت في أعماقي بقرابة من راشيل لا تحد. أراها يوميا تقطع نفس المسلك ولا تلتفت لا يمينا ولا شمالا كعادتها وكأنها آلة، تغطي فمها وكل الجزء السفلي من وجهها بكوفية فلسطينية. لم تكن إنسانا عدوانيا ولا استفزازيا. كانت دائما تعبر الممر منكسة، لا نسمع إلا صوتها عندما يواجهها العابرون القلائل في المعبر: صباح الخير ومساء الخير بالإنجليزية. كلما انتهت من درسها لا تعود على نفس الطريق، تذهب نحو محطة القطار، تقف على الحواف قليلا ثم تخطو خطوات مقيسة بانتظام قبل أن تغادر المكان. يقول بعض الذين عرفوها عن قرب: إنها كانت تريد العودة إلى بولونيا أو تهاجر إلى أمريكا إن أمكنها ذلك بعد أن فوجئت بعالم غير العالم الذي رسمته لها الوكالة اليهودية للهجرة. شعرت بالضغينة والاحتقان في محيطها المباشر. تنتظر اليوم الذي تترك فيه فلسطين وتعود إلى أرضها الأولى. في إحدى المرات رأيتها تقف على الحافة كالتمثال، أردت أن أكلمها ولكنها بسرعة غادرت المكان ولم تلتفت وراءها ولم ترني. في المرة الأخيرة رأيتها عن قرب من حيث أتصيدها ولا تراني. كانت كمن ينتظر

قطارا للسفر أو للانتحار بين عجلاته. كانت تسير بالموازاة مع القطار وتحسب الخطوات وتسجل المعلومات، تركض ثم تتوقف وتدون تفاصيلها. فجأة تذكرت أنا كارنين، الرواية الساحرة التي جاءني بها خالي إبراهيم، في ترجمة فرنسية وهو يلح علي بقراءتها. أدركت للتو أن ساره أو راشيل، لا يهم، كانت تستعد للانتحار. ترددت قليلا. نظرت يمينا وشمالا. التقت نظرتي بنظرتها ولكنها لم تعرني أي اهتمام، ظلت في مقاساتها وتحاول أن تلتفت نحو كل الجهات كلما اقترب القطار الثاني الضخم. رأيت عينيها وهما تبرقان بالحياة وبانشغال كبير بحالة الموت. فجأة، عندما همت برمي نفسها أو على الأقل هكذا تخيلت، ارتميت عليها ولم أعر انتباها للشرطي الذي لم يكن بعيدا عنا وأخذ يصفر ويركض نحوي. كان القطار يستعد للوقوف وكاد أن يلتهمنا لو لم أسحبها بكل قواي نحوي لدرجة أني رأيت ارتجاف شفتيها وجبهتها وهي تنضح دما، وعينيها وهما تبرقان بنفس البريق الحياتي الذي رأيته فيهما أول مرة عندما أنقذتها على الرغم من الضباب وظلال المساء ورعب البحر. هي ولا يمكنني أن أخطئ. نفس الطريقة التي تشبثت بها وأنشبت أظفارها في لحمي ولم تطلقني. ولو تقدم القطار خطوة واحدة لأكلنا. نظرت إليّ باستغراب وهي تحاول أن تخبئ آلام الصدمة.

- Why?

لم أجبها ونهداها النافران ملتصقان بفمي. كنت مثل المخطوف وأنا لا أصدق أني خرجت من الموت وأخرجت معي شخصا قد يقتلني يوما. تساءلت عن مصدر كل تلك الاستماتة لأواجه في النهاية بسؤال سخيف: لماذا؟ قلت في خاطري كان علي أن أتركها تموت وأريح نفسي من ثقلها. ومع ذلك تشجعت:

- لا يمكنك إلا أن تكوني راشيل؟

- وأنت شريف المرابط على ساحل حيفا.

شعرت برعشة غريبة تسري في كل جسدي.

-غريب تركتك في حيفا وهم يستعدون لإرجاعك إلى أرضك

الأولى وها أنت هنا؟ طيب، لماذا كذبت علي وقلت إن اسمك ساره؟ كذبة مثل هذه ليست ضرورية على الإطلاق.

- مش لازم نقوم أولا من هذا المكان غير اللائق؟ غير مهم. الأسماء ليست في النهاية إلا كلماتٍ لا أكثر ولا أقل. قلت لك أول اسم عبر ذهني وقتها وكنت مرتبكة بسبب موشي الحارس الأمين الذي لا يعرف لغة أخرى إلا استعمال سلاحه وكنت خائفة عليك منه. ساره هو اسم صديقتي التي تعبر معي حارة المغاربة قبل المرور إلى مكان العمل. طيب ولكني لم أفهم ماذا دهاك لكي ترمي بي نحو السكة الحديدية، أنا لا أصدق أنك كنت تريد إيذائي وأنت أنقذتني في بحر لا أحد كان قادرا على دخوله في ظرف مثل الذي عشته يومها، لم أشكرك بالشكل الكافي. أنت لا تدري يومها كم كنت يائسة وصليت كثيرا لكي يصلني الله بك لا لشيء إلا لأقول لك شكرا واقبل اليد التي لامستني وأنا أترك نفسي أتهاوى في قاع البحر. لمستك كانت قوة دفع غريبة أعطتني قوة أخرى لم أكن أتصورها في. ربما كانت الرغبة في العيش هي الدافع.

لم أجد في جيبي إلا منديلا مانيا، مسحت وجهها وأنا أحاول ألا أعمق الجرح الذي ارتسم صغيرا في شكل هلال صغير على الجبهة. سحبتْ المنديل من يدي ومسحت وجهها ثم مسحت ظاهر يدي وقبلتها قبل أن تضع المنديل في محفظتها وهي تبتسم بخبث.

- اشتهيت أن أقبل يدك وها أنا ذي أفعل ذلك بدون طلب إذنك. عذرا.

كان الشرطي يقف على رأسينا ويتساءل عما حدث. التفتت نحوه وقالت بلغة إنجليزية ساخرة:

- شايف يا عزيزي، هذا الرجل مهبول ومجنون، عندما قلت له تزوجني رفض وعندما رميت بنفسي للانتحار ألقى بنفسه لينقذني أو يقتل نفسه معي. الرجال مهابيل يا سيدي ليسوا مثل النساء المليئات بالرزانة.

ثم أشار هو بنفسه للجميع بالابتعاد عن المكان وأن المسألة ليست أكثر من حماقة غرامية انتهت بسلام.

التفتت نحوي بعد أن قامت من مكانها وجلست قليلا على الرصيف تسترجع أنفاسها:

- لم تقل لي لماذا فعلت هذا، كدت تقتلني وتموت معي تحت عجلات القطار التي لا ترحم أبدا.

- حاولت أن أنقذك فقط. تصورت أنك كنت تستعدين للانتحار ولا أعلم لماذا فكرات بهذه الصورة أول شيء مر بذهني هو ألا أفكر، أن أنقذك أولا وبعدها أفكر وهذا ما فعلته. ربما أخطأت في تصوري.

- طبعا أخطأت. من أي شيء تنقذني؟

- من الموت.

- أي موت؟ أنت مجنون. بوف... لا أنت لست مجنونا. أنا ميتة. المؤكد أنه لم يكن في نيتي الانتحار. كنت فقط أقيس سرعة القطار وكيف ألتصق به عندما يقلع وكيف ستكون سرعتي عندما أستقله وهو يقلع من جديد باتجاه حيفا، بسرعة كبيرة ولا يلتقطني حراس المحطة. لو كنت أريد أن أموت لبقيت في بولونيا ولرميت بنفسي مباشرة تحت عجلات القطارات الألمانية المليئة بأهالينا.

التفت الشرطي نحو راشيل للمرة الأخيرة قبل أن ينسحب نهائيا وينتظر إشارة الانطلاق:

- حافظي على حياتك يا بنت، مازلت شابة. عرفت منذ أن رأيتك في المرة الأولى أنك كنت تستعدين للانتحار؟ قلتها لصديقي الذي أحس بنفس إحساسي. جميلة مثلك لا يمكنها أن تنام تحت عجلات صدئة لقطار متهرئ لا ينقل إلا البضائع والبشر المقهورين...

غمزنا وهو يضع قبعته تحت إبطه الأيسر، ثم انسحب بعد أن أقلع القطار ماسحا في أثره أكوام البشر والأغراض المتراكمة التي كانت تبدو كالجبال الرواسي في حواف المحطة.

قالت راشيل وهي تخبئ ابتسامتها الساخرة وخبث خزرتها:

- أرأيت؟ لم تكن أنت الوحيد الذي فكر بأني كنت أتهيأ للانتحار، الشرطي وصاحبه كانا من نفس رأيك. وإذن بدأت أصدق أني فعلا كنت

مقدمة على الانتحار ولم يكن ذلك مجرد وسواس. الصدفة أوجدتني في بلاد لم أكن أعلم شططها وقسوتها وكرهها. كنت خارجة من خيبة قاهرة دفعتني من بولونيا إلى قبرص إلى القاهرة إلى مركبة ضائعة انتهت في حيفا. ربما كنت في أعماقي أبحث عن الموت. لا أدري كيف قبلت الركوب في عبارة مع المزارعين البولنديين، دربتهم حركة الطليعة في بولونيا في ١٩١٧ خصيصا لهذا الغرض وكنت المعلمة والممرضة الوحيدة بينهم. جئت للقيام بشؤون أولادهم وبعض نسائهم ممن يردن التعلم، بعضهم الآخر جاء من بحر البلطيق والاتحاد السوفييتي وكان يمكنني أن أنتظر سفينة حقيقية والوكالة اليهودية لم تقصر أبدا في مثل هذه الأمور. شيء ما رماني نحوك. أستغرب أحيانا منطق هذه الحياة وهذا الوضع الذي أعيشه وكم أشتهي أن أغمض عيني وأتركه إلى الأبد!

رأيت شيئا يتراقص في عينيها يشبه الدمع، ولا أدري لماذا تذكرت ماريكا اسبيريدون؟

سحبتني من يدي نحو مقهى-مطعم جميل يولي نوافذه وبوابته الرئيسية نحو البحر الميت، كان يديره رجل إنجليزي سكن أهله هذه الأرض منذ قرون.

انتبهت راشيل إلى الخاتم الذي كان بيدي:

- متزوج إذن. عندما أنقذتني كانت أصابعك حرة ولينة.

ضحكت وأجبت بعفوية ولم أكن أبحث عن المبررات.

- عندما دخلت إلى البحر نزعتها بناء على عادة قديمة تقول. . .

وقبل أن أتكلم قاطعتني:

- إن البحر يغار من العرسان والذهب يثيره ويمكن أن يودي بالشخص إلى الهلاك تحت فعل الغيرة. ويا ويلك من غيرة البحر فقد يصير موجه مجنونا في ثانية واحدة.

- بالضبط، هذا ما كنت أريد أن أقوله. عادة عربية قديمة.

- عربية أم عبرية لا أعرف بالضبط من يستطيع أن يضع الحدود. سمعتها من جدتي. البشر مجانين بيقين ليس لهم. نحن كذلك نقول

نفس الشيء ونرجعه إلينا، ليكن هي عادة عربية عبرية. ومالو فقد عاشوا قرونا مع بعض. أنت إذن لا تحلم بالهجرة إلى أمريكا مثل الكثير من اليهود والعرب؟

ضحكت ولم أرد. بدا الأمر غريبا ومستحيلا.

- إذن هذا ما حدث لك؟

- طبعا. عندما تدخلت الوكالة اليهودية بعد أن سلمتمونا إلى الشرطة الإنجليزية، خفف الضابط الإنجليزي من لهجته لأن أمرا جاءه ممن هو أعلى منه بألا أعاد على أعقابي مثلما حدث لبعض العمال. لقد احتفظوا بجزء كبير من العمال المزارعين الاختصاصيين. البقية، جمعوهم في سفن جماعية وأرجعوهم نحو أرض افتراضية، الكثير منهم لم يكن يعرفها. تخيل للحظة واحدة أن تنزل أرضا وأنت لا تعرف فردا من الملايين ممن يقطنوها؟ شعرت بجروح ما تنفتح في أعماقي أنا التي كنت أبحث عمن يرتقها. قالوا إن وظيفتي يحتاجون إليها بشكل مزدوج، في الصباح معلمة وبعد الظهر ممرضة. أجد متعة كبيرة في الالتقاء بالناس والاستماع إلى آلامهم من عرب ويهود. أعطي ما أستطيعه. لكن تعبي كبير والقلب امتلأ. وبالفعل أنوي العودة بشكل شبه سري حتى لا أزعج أحدا. أنتظر سفينة يافا لأرحل نحو أمريكا في أي وقت. الأرض التي بلا شعب لشعب بلا أرض صارت مقبرة بلا أموات لأموات بلا مقابر. قلبي ممتلئ. أخي اختار أمريكا وأنا اخترت أرضا كنت أظنها رحيمة. الاغتيالات الكثيرة أكدت لي أني كنت مخطئة. أنا متأكدة من أن أخي الذي في أمريكا سيساعدني.

- طيب ما دمت تعودت على المكان لماذا لا تبقين وتتزوجين هنا وتنجبين أبناء؟

ضحكت. بانت وراء ابتسامتها قطرات مياه البحر التي تلألأت تحت النار التي أشعلناها، وهي ملفوفة في لباسي الخشن وتستعيد حمرة وجهها وابتساماتها التي كادت أن تنطفئ، أو على الأقل هكذا تخيلت.

- نبقى عندما يكون هناك شيء يبقينا في المكان وإلا ما فائدة

البقاء، لا المكان يغريني ولا البشر ولا الكذبات المتتالية. أنت لديك ما يبقيك أما أنا فلا. طبعا، ليس الرجال هم من ينقص في هذه المدينة التي تتجشأ بهم. تلقيت عروضا كثيرة من شاب يشتغل معي في نفس المستوصف، ومن مالك لحقول واسعة للبرتقال في يافا، جاء يزور قبر الملك داوود ويعلق بعض الوريقات على حائط المبكى، آخرها الشرطي الضخم الذي يحميني ولكني أخاف عليه أكثر مما أخاف على نفسي. أقول لنفسي دائما مادمت قد نجوت من البحر فلن يتجرأ أحد على قتل معلمة أو ممرضة ومع ذلك من حين لآخر ينتابني الخوف من الموت الفجائي. لولا العمل، لا توجد لدي أية رغبة في البقاء. ليست البلاد التي تحدثت عنها جدتي وليست الأرض التي زينتها الوكالة اليهودية في منشوراتها التي تغزو بها بولونيا؟

شربنا قهوة تركية مهيأة على الأصول، شممت رائحتها القوية وعطرها الذي يدخل إلى الأنف بقوة. تواعدنا أن نتغدى معا في اليوم الموالي. قالت وهي تبتسم وتستعد لشق طريقها وتؤشر لحارسها الذي اندفن بين الطاولات:

– ما تخاف منه، إنسان طيب على الرغم من خشونته، هو يعرف جيدا دورك في حياتي. حدثته عن ذلك يوم حادثتني في الطريق، لا تنس غدا، يجب أن نتغدى معا، على الأقل أتخلص من الدين الذي على ظهري.

– لا دين على ظهرك، كل ما فعلته جاء مني ومن أعماقي ولم يأمرني أحد بفعل ذلك.

– افعل ذلك من أجلي إذن.

– طيب. سأكون في الموعد وفي نفس المطعم.

– على شو بتحب أستضيفك؟

قالتها بعربية محلية مكسورة قليلا:

– ما أحلى العربية من فمك !

- تعلمتها قبل أن أدخل هذه الأرض ولكني لا أتكلمها إلا قليلا. أستقبل يوميا في المستوصف العشرات من النساء الفلسطينيات العربيات وأنت تعرف اللغة هي كل شيء في مثل هذه الحالات. لم تقل لي ماذا تريد أن تأكل؟

لم أفكر طويلا. طلبت ما تحبه أمي عادة وأنا في أعماقي، أمزح لا أكثر.

- كوسة محشية مع سلاطة فتوش. قلتها آليا وبدون أي تفكير.

- طيب.

مدت يدها إلى شفتيها الممتلئتين وهي تتمتم:

- باي. لا تنس موعد الغد...

عندما غادرت المكان شعرت بفجوة كبيرة تنفتح في أعماقي. أعجبت بصراحتها الكبيرة. عندما قالت حائط المبكى أردت أن أوقفها وأقول بصوت عال: حائط البراق ولكن كلامي بدا لي بلا معنى وربما سخيفا إذ لم تكن كلماتها محملة بأية عدوانية، بسيطة في عفويتها الطفولية الأولى.

ثم اندفنت بسرعة وسط الدروب الضيقة متبوعة بظلها الذي تضخم واسودّ أكثر من أي وقت مضى.

-٥-

عندما رأيتها في المرة الأخيرة، لم يكن الظل يتبعها. كانت وحدها وكانت الرياح الساخنة ترفع شعرها الناعم عاليا وكنت أتساءل هل يعقل أنها المرأة التي تدين لي بحياتها مرتين، البحر والقطار المتوحش؟

كانت الشمس في الوسط وظلال أشجار المطعم صغرت حتى تداخلت مع الشجرة نفسها وبدا صوت القطار الهارب نحو يافا كأنه يخرج من القلب بعويله وأدخنته المتصاعدة. لم يكن في ذاكرتي إلا وجه راشيل وقطرات موجة الحياة التي التصقت بشفتها العليا. كنت قد بدأت

أقتنع أن اليهود يتشابهون على هذه الأرض وأنهم كلهم نسخ مكررة من المهاجرين القانونيين أو السريين، لم يكن الأمر يهم كثيرا.

عندما مدت يدها إلى يدي، شعرت بدفئها الكبير.

جلسنا، فهبت فجأة نسمة خفيفة محملة ببعض الملوحة، التفتت راشيل صوب البحر الميت الذي لم يكن بعيدا عن القلب وذاكرة الخوف والرعشة.

قلت:

- علي أن أشكر الصدفة التي جاءت بي نحوك لأنها لا تحدث إلا مرة واحدة في العمر.

بدا كلامي فجأة شبيها بكلام الكتب والقصص الغريبة، مع أني لم أقل كلاما مثل هذا من قبل لأحد.

- قصدك حادثة الغرق.

- لا. الكوفية التي سقطت منك وسلمتها لك.

تدخلت كطفل ملتبس وخائف.

ضحكت قليلا وهي تخبئ ابتسامتها الملعونة:

- لم يكن في الأمر أية صدفة. منذ أن رأيتك على الحافة، عرفتك وأدركت بلا أي مجهود بأنك كنت طفل الساحل المجنون. كنت أريدك أن تعرف أني هنا وأن كوفيتي فلسطينية وأني مازلت على هذه الأرض الطيبة وأني لا أنوي الموت على تربتها.

- غريب.

ولم أضف كلمة أخرى، فجأة وجدت نفسي في مكان أرضه لدنة وناسه من بخار ونساؤه من ضباب، ما تكاد تلمس الواحدة حتى تذوب يدك في الفراغ، محدثة فجوة بحجم الذراع في الجسد، ولكني كما تفعل راشيل في كل مرة، ولَّيت وجهي صوب بوابة البحر الميت بدون أن أعرف السبب ولا حتى الوجهة الحقيقية لهذا البحر الذي يتحدث عنه الجميع ويسمون محلاتهم به: بوابات البحر الميت، نوافذ البحر الميت،

منظر البحر الجميل، مدار البحر الميت. . . ولا أحد يراه من هذا المكان.

تمتمتْ. بالكاد سمعتها:

- هل ترى البحر؟

لم أفهم. قلت بدون تردد وربما بغباء يخلو من أية شاعرية.

- البحر ليس هنا؟ بعيد.

قالت: إذن أنت لا ترى ما هو مهم في هذه الدنيا، البحر.

- لكن لا بحر في القدس.

- لا. أتذكر شاعرا يونانيا قديما كان يقول: عندما تصيبني لوعة الهوى يصير البحر في جيبي. هكذا العاشق، عندما يعول على الهجرة يصير البحر فيه. في لحمه وفي دمه، في تنفسه وأشواقه المنكسرة، ويفيض الموج في أعماقه كحالة غير محسوبة من التيه.

- ألا تروق لك هذه المدينة؟

- لا. لا يروق لي هذا الوضع الملتبس الذي نمارس فيه حياة مؤجلة دائما. كم أشتهي أن أشرب قهوة على شرفات القدس أو في الحارة المسيحية أو في حارة الأرمن بدون أن أخشى أن يأتي قاتل من الوراء ويقتلني وهو لا يدري أنه يرتكب جريمة في حق نفسه وطبعا في حقي، لأني لا أعني في حسابه الشيء الكثير سوى كوني يهودية وجدت بالصدفة حيث كان عليها ألا توجد.

- مشكلة الناس يا راشيل أنهم لا يعرفون ما في النفوس. عندما تتخطى حدود حارتك تصبح إنسانا مشبوها، معرضا لكل الاحتمالات. أعرف أنه كارثة أن يصير الوطن مجرد حارة صغيرة. عشت في دمشق ومثلك أتساءل أحيانا، ألم يكن من الأجدى البقاء في تلك المدينة بجانب أهلي من أبي واقنع بالحياة كما أعطيت لي؟ فينا نازع ما يقودنا دوما نحو الهلاك أو نحو الصعوبات التي لم نحسب لها أي حساب.

صفقت بيديها الناعمتين. جاءها نادل جميل الوجه، يلبس لباسا أنيقا:

- أمرك آنسة راشيل.

- حبيبي لورانس، إذا كان صحن الكوسة المحشية جاهزا، أريده الآن ساخنا، الأشياء الباردة كالخيبات الجميلة لا تحوي إلا على طعم الماضي المفترض. جعنا وأنا تأخرت كثيرا على ضيفي. شكرا.

- حالا.

- حبيبي... تسلم.

كانت وكأنها تقول جملا حفظتها في البيت. ابتسم لورانس. عرفت فيما بعد لماذا لم أرتح للاسم عندما تذكرت سيدي عبد القادر الصغير وهو يقاوم غطرسة لورانس العربي في مخارج مدينة دمشق قبل أن يسلم روحه للضابط الأسترالي الذي لم يتوان عن قتله وهو جريح. لم يكن لورانس يشبهه إلا في الاسم، ما عدا ذلك فقد كان شابا طيبا وطيعا أمام زبائن المطعم الإنجليزي.

- ما فيه مشكل آنسة راشيل، تكرم عينيك.

ضحكت وأنا أحاول أن أفهم لماذا وقع اختيارها على الكوسة المحشية والفتوش أم إنها أخذت مزحتي مأخذ الجد. فجأة بدأت أكتشف نزعة طفولية في راشيل لم تظهر عليها عندما خرجت من عمق البحر.

- جدتي التي عاشت هنا قبل زمن بعيد، وظلت تربي حلم العودة إلى مدينة أجدادها المستحيلة، كانت تحب هي كذلك الكوسة والمقلوبة وبابا غنوج والكفتة وغيرها، وورثتني هذا العشق. ثم إنك أنت من طلبها. تريد أن نغير الطلبية؟

- لا، أبدا. أنا أمزح. طبعا أنا أحب هذه الأكلات الشعبية.

لم أر الرجل الخشن الذي كان يتبعها عادة كالظل الثقيل:

- أنا ماشايف ظلك... حارسك الأمين.

- صرت في المدة الأخيرة أهرب له من حين لآخر. كلما سأل عني أجابته سارة صديقتي من الطابق العلوي، بأني اليوم لا أشتغل واني أفضل النوم في البيت، فيتبعها وحدها ولا يعود إلا إذا اطمأن عليها. وعندما

يقترب موعد خروجها، ينتظرها في المنحدر الصغير المؤدي مباشرة إلى الحارة اليهودية. أنت تعرف أننا نسلك طريقا وأثناء العودة نعبر طريقا غيره.

لم أكن نبيا ولا ملاكا. فقد شعرت بشيء غريب تجاه راشيل لم أندم عليه طوال حياتي حتى عندما اجتهدت فيما بعد لأقول لمانيا جزءا من الحقيقة. شيء لم يكن يشبه الأحاسيس السابقة، وليس بعيدا عن الرغبة في البقاء أطول مدة ممكنة مع الشخص.

غمت في غفوتي وعاودني الضباب الداخلي الذي أحاطني فجأة ولم يترك لي فرصة رؤية المسالك الصعبة. هذا الصباح، وأنا أحلق وأتعطر، قبل أن أخرج بقليل من البيت، سألتني مانيا:

- حبيبي، لوين رايح؟ الوضع بالقدس لا يبشر بخير والاغتيالات كثرت وعصابات الهاغانا كل يوم تزداد شراسة وقوة. اعذرني، لست أما ولكني خائفة عليك.

- لا. لا تخافي يا مانيا، ما فيه شي بينخاف عليه.

- يخرب بيتك كيف تقول ما فيه شي ينخاف عليه، وغلاوتك يا مهبول؟

- بعرف كويس عواطفك، أنا نازل أشوف شباب يافا، لأرى معهم ما يمكن فعله.

- أنا خايفة عليك من مدينة لا تعرفها جيدا... أو...

ثم نظرت إلي بعينين حادتين مليئتين بالأسئلة.

- كيفها راشيل؟ هل غادرت القدس كما كانت تشتهي؟ هي تدين لك بالحياة مرتين، مرة من الغرق ومرة من قطار غريب كاد يسحقها ويأخذك في طريقه.

صمتت قليلا قبل أن تضيف:

- من الأحسن لها أن تذهب إلى نيويورك. هذه الأرض ليست لها. هي امرأة ذكية وستتصرف بحكمة.

- من قال لك هذا الكلام؟

- وما قلته لي أنت، وما قرأته في عينيك ليس بالشيء القليل. امرأة تدخل من أجلها البحر وتنقذها. . . أمر ليس بالهين، على الأقل من الطرف الآخر الذي يدين لك بكل حياته. ولهذا من الأحسن لها أن تخرج. . . لا أريد أن أحملها علىّ ظهري. جاءت خطأ. . . عرفت خطأها. . . لا مبرر لها إذن لبقائها.

أردت أن أقول لها ولكنها أرض جدتها التي كانت هنا قبل زمن وربما حتى قبلنا نحن كذلك، ولكني خفت منها أن تقول لي: صرت تعرف عن هذه المرأة الصغيرة والكبيرة. لم تقل مانيا أكثر مما قالته وصمتت. شعرت بأن صمتها كان ثقيلا. تساءلت في أعماقي. ما الذي جاء براشيل على لسانها لو لم تكن حاستها السرية هي التي دفعت بها نحو قول ما قالته؟

ارتبكت وشعرت كأنها كانت تقرأ ما كان يرتعش في عمق عيني.

قلت لأطمئنها قليلا:

- أمرها لن يطول كثيرا في هذه المدينة. هي مصممة على الخروج منها مهما كلفها الأمر ولو أغضبت الوكالة اليهودية التي كانت إلى حد ما وراء دخولها إلى هذه الأرض وعملها في الوكالة العالمية للصحة. راشيل لم تتخلص من نظرة السائح، تنتظر اليوم الذي تأتي فيه سفينة إلى حيفا أو يافا لكي تغادر المكان. أنا نفسي لا أدري ماذا تنتظر بالفعل.

- تنتظر أن تسمعها منك: أن تقول لها الله معك.

- إش معنى؟

- لا أدري ولكن هذا شعوري العميق. تنظر فيك خيط نجاتها.

شعرت بنفسي على حافتي الكذب والحقيقة. في أعماقي لم أعرف لماذا كذبت على مانيا وكان يمكن أن أكون صادقا ولا يكلفني ذلك أي شيء، فقد كانت مانيا فنانة وامرأة في غاية المحبة والطيبة.

عندما خرجت لموعد الغداء، لم ألتفت ورائي خوفا من افتضاح أمري. لكني سمعت صوتها:

- حبيبي إذا رجعت بكير شوي من يافا، أنا موجودة بمرسم يا

طانت ماريا. مر عليَّ هناك لتساعدني على حمل اللوحات، فهي ثقيلة جدا. لا تتركني أنتظر كثيرا مثل المرة الماضية.

ثم غبت داخل الزقاق المفضي إلى الساحة ثم التويت في عمق المدينة القديمة ليستقيم أمامي المسلك المؤدي مباشرة إلى المطعم. لم أكن خائفا، فقد كنت أتصرف كمواطن غير معني بالموت، فهو في أرضه على العكس من الوافدين. في الواقع أنا كذلك كنت وافدا على المدينة.

- أينك يا شريف؟ غارق في أي بحر، أنا هنا أمامك.

- إذا بقيت على هذه الحال، ستبرد الكوسة المحشية ويتحول الفتوش إلى سلطة لا ذوق فيها، بحيرة من الزيت وعصير الطماطم والخضروات الأخرى.

قالت راشيل وهي تضع الشوكة والسكينة في يدي.

كان الأكل رائعا وطيبا. ولكن راشيل فاجأتني بسؤال لم أكن أعرف جوابه أو بالأحرى كنت أعرف جوابه بدقة ولكني لم أكن مستعدا وقتها لكي أكون صادقا.

- زوجتك تعلم أنك هنا؟

- مانيا؟ لا أعتقد. تظنني في يافا.

- معناه لديك شك، ولهذا فأنت لست مرتاحا معي.

- لو لم أكن مرتاحا ما جئتك.

- أنت تعرف أننا عندما نبحث عن المبررات، هذا يعني أننا بدأنا نحب، أو أن سرا في علاقتنا بدأنا نخاف عليه من التلف والكشف أو نخاف منه.

صمتت قليلا ثم أضافت:

- هل تحبني يا شريف. . . أو هل أعجبتك؟ تبدو الأمور سريعة ولكني. . . لا أدري لماذا أطرح عليك هذا السؤال؟ شيء ما في عينيك يقول ذلك أو على الأقل يحسسني به؟

شعرت بأن الطاولة تهتز على وقع ارتجافة ركبتي وكأنها أيقظتني من

نوم عميق أو من غفوة طال عليها الزمن. لساني سبقني على الرغم من التباساتي الداخلية. حدث لي هذا العديد من المرات مع راشيل. ولا أدري كيف سبقتني الكلمة التي لا أقولها بسهولة:

- أحبك... أظن ذلك... أظن... استدركت وكأني كنت خائفا في أعماقي من أن أكون قد خطوت خطوة أخرى مبهمة.

ارتبكت. تساءلت في أعماقي كيف كنتُ سأجيب لو طرحت عليَّ امرأة فلسطينية السؤال نفسه؟ لم تكن المسافة التي كانت تفصلني عن راشيل كبيرة، ولكنها كانت عميقة جدا، مثل الهوة المليئة بالارتباك والخوف. ومع ذلك لم أكن قادرا على مقاومة شيء فيها لم أعرفه إلا فيما بعد، إحساسها بوجودها في مكان غريب عنها.

- تظن... قالتها وهي تنظر إلى البعيد، نحو بحر مفترض. هل تتزوجني إذا طلبتُ منك ذلك؟

- صعب. انزلقت الكلمة على لساني. لا توجد صحبة كبيرة بين اليهود والمسلمين.

- لكن بيني وبينك الصحبة موجودة.

- ولم لا إذا تعمقت العلاقة فيما بيننا أكثر. أعتقد أن ما تحسِّين به تجاهي هو مجرد عرفان لا أكثر.

- لا شك في أني أدين لك بالحياة. ربما... قد لا تكتب لهذه التجربة الحياة الطويلة لأني سأخرج من هذه الأرض في أول فرصة. قد يكون كلامي مشوبا بالسخرية لأني بكل بساطة لست جادة فيما كنت أقوله عن الزواج. ومع ذلك، يجب أن تعرف أنه لو كانت الروابط قوية وأحببتك بالشكل الكافي، لن أتردد في الزواج منك ولن أهتم بالدين، سيكون الحب أكبر من أي إحساس ديني.

- أنا كذلك ولكنني على شبه يقين أنه عندما نبدأ في مواجهة مشكلات الحياة وتنتهي شهور وسنوات العسل، يصبح الدين مهربا بائسا يغطي إخفاقاتنا وفشلنا وخيباتنا الحياتية.

- على كل حال ما زلنا في بداية يمكن غلقها بسهولة. المهم أننا

نرتاح لبعضنا وهذا وحده كاف لكي يجعل الحياة بيننا ممكنة. لا يمكن للأديان أن تقف في وجه لحظة جميلة على الأقل.

تساءلت عما كان يحدث لي؟ لماذا كذبتُ على مانيا من أجل هذا الموعد؟ ما هو السر الكامن في ذلك؟ لا أدري ماذا كانت تقول ولكنها تركت يدها تنزلق بهدوء نحوي. شعرت بحرارتها وارتجافها. كنا في مواجهة البحر الميت الذي شعرت به قريبا جدا منا. كان فينا برائحة موجه الهادئ والمستكين التي شممتها في شعرها وفي ملمس يديها وفي شفتيها. ضغطتْ على اليد، ضغطتُ أكثر. شعرتُ بملوحة القبلة، ثم بلذتها ورعشتها، ثم بشيء غريب سرى عبر جسدي كله. كان شعرها يغطيني، تماما كما حدث معي في المرة الأولى مع مانيا. كان طويلا. كنت ما أزال أراه وهي تعصره عند الموقد، عندما خرجت من البحر وهي لا تعبأ بأنها كانت بين أيدي رجال سيأخذونها نحو المخفر الإنجليزي أو ربما سيقتلونها ولن يسمع بها أحد. خفَّت قطراته وهي تبعثره وتنشفه على النار التي أشعلها أحمد ونور بطريقتهما السريعة. وعندما استوت قبالتي، كانت بعض قطرات شعرها، تنزلق من أعالي الجبهة قبل أن تستقر بين النهدين اللذين ظهرت استدارتهما كاملة، وخلتها ترسم خطوطا متعرجة تصل حتى سرتها.

- شو رأيك بكاسة عرق أو شاي عندي بالبيت، يبدو أنك لم تعد مرتاحا في المطعم؟

لم أتردد أبدا. تعلمت من خالي إبراهيم ألا أرفض كأس عرق إذا كان بمحبة. بل كنت أشعر بالحاجة الماسة إلى ذلك.

- يسعدني. يبدو أني اليوم رجل محظوظ.

- أنا كذلك امرأة محظوظة. كنت أنتظر هذه اللحظة. ربما قد لا تمنحنا كل ما نشتهيه ولكنها مهمة.

تدحرجنا داخل السور. كان اليوم هادئا، لم أسمع شيئا إلا هزات خفيفة مثل حفيف الأوراق حين تكنسها الرياح من الشوارع الضيقة، أدركت بعد لحظات أنها كانت فيَّ. قلبي. ربما كنت خائفا. الغريب أني

لم أفكر في الهاغانا إلا فيما بعد. خالي إبراهيم نبهني:

«احذر ولا تضخم كل شيء. ليس كل اليهود هاغاناه وليس كل العرب أوغادا. أحيانا يرسلون نساء جميلات للحصول على معلومات سرية أو بكل بساطة، يستعملونهن كمصيدة لاغتيال الطريدة أو المقايضة بها. هذا كله مرتبط بالشخص الذي نقاسمه ودنا أو حبنا. الحب الذي يعمي قد يكون كذلك دليلنا الجميل.»

عندما انزلقنا داخل غرفتها التي كانت تسكنها مع سارة، شعرت بشيء غريب: فضاء واسع في مكان ضيق. كانت الغرفة صغيرة وخالية من أي عتاد كبير وكان فراشها بسيطا ولكنه كان نظيفا ومرتبا ترتيبا أذهلني ومليئا بشيء غريب يشبه الحياة. مطبخ لا يحتل إلا الجزء الميت من البهو. حتى البلكون كان لا يحتمل أكثر من شخصين، مفتوح على زهريات كثيرة، تعبق برائحة الياسمين الإشبيلي والبرتقال ومسك الليل ونوار البراري والأحراش الجافة.

- هل تدري أني اشتهيت أن أقول لك أحبك، وأن أقبلك طويلا حتى أخنقك، في ذلك اليوم في حيفا، عندما وقفت وراءك وأنت تنظر إلى واجهة البحر، تتساءل في أعماقك إذا لم تكن قد أنقذت عدوا كان عليك أن تتركه يندفن في عمق البحر؟ الكثيرون ماتوا هكذا ولم ينقذهم أحد؟ شعرتُ بك مثلي، تبحث عن شيء غائب ولا تتساءل كثيرا عن بقية التفصيلات. انتابتني رغبة للقبض على خصرك والالتصاق بك وألا أتركك تلتفت نحوي لكيلا أتمادى في حبك ولكيلا تهرب مني، ولكني لم أجرؤ مع أني امرأة لا تعرف كيف تخبئ حماقاتها. يبدو لي أني في لحظة ما، خفت عليك حتى من أن أقول لك شكرا مخافة أن تصبح محط كل الأنظار. كنت رهينة أو سجينة، لا يهم، في انتظار أن يقرر الضابط البريطاني والوكالة اليهودية مصيري.

«- ليتك فعلتِ. ما الذي منعك؟ أية قوة وقفت ضد تدفقك وعنفوانك؟ أنا كذلك شعرت بانجذاب غريب نحوك.»

لم أقل هذا الكلام ولم يخرج من فمي، لكني تمنيت فعل ذلك. وكان صمتي أكبر خديعة مكشوفة.

بدت لي القدس الجميلة بشوارعها ومقاهيها وباراتها وأسوارها وجبالها العالية وقتها غريبة، وناسها مجانين، مسلموها مسيحيوها ويهودها. مجانين يتقاتلون على صخور محنطة وحجارة ميتة وأمكنة قاتلة صنعها لهم الأجداد ثم انسحبوا مخلفين وراءهم الحروب والأحقاد الدائمة، وينسون أن لهم حياة عليهم أن يعيشوها أولا وينتجوا أساطيرهم قبل أن يعيشوا أساطير غيرهم التي صنعوها وعاشوها ثم غادروها. وبدت لي راشيل أكثر جنونا مني. لم أسمع إلا شهقتها وهي تبحث عني وتشد بعنف على بقايا جسد غام نهائيا في تفاصيلها. كانت كموجة هاربة، كلما طوقناها وجدت مسلكا آخر للإفلات من بين أصابعنا. شعرت بها تزداد عنفا كلما توغلت أكثر وحشرجتها تتحول إلى شيء يشبه الصراخ المتتالي المكتوم بينما الموجات الخافتة للبحر الميت تندفع نحو شرفات القدس:

- حبيبي... حبيـ... بـــي... طفلي...

لأول مرة أنتبه إلى أنها كانت تحكي معي في الفراش بخليط من البولونية والإنجليزية وأن على صدرها جرحا مثل الصليب يشق جزءا من نهدها الأيسر وبقية صدرها ليتوقف عند حدود السرة.

- تتساءل كيف بقيت حية بعد كل هذا؟ جرحه. كان يريد قتلي لأني رفضته. لم يستوعب كيف ترفض يهودية يهوديا وتفضل عليه رجلا آخر بلا هوية ولا دين وأقل جمالا منه. كان محقا في ظنه ولم يكن لدي تفسير مقنع ولكني قلت له لن تنال مني. جسدي ملكي وأنا سيدته أ. وفي ليلة من الليالي هددني بالسكينة الحادة التي دخل بها إلى البيت. لم أنصع له، فشق صدري بضربتين سريعتين لم أشعر بهما، فخرجت كالطائر المذبوح، عارية بعدما ضربته على رأسه بكرسي لم أكن أعلم أني كسرت له ضلعين وفقأت عينه اليسرى، لا أدري كيف. وحياتك لم أعرف كيف فعلت ذلك ولم أندم على ما فعلت. سجنت شهرا كاملا وعندما خرجت، قادتني جدتي التي تجاوزت الثمانين من عمرها والتي

كانت ترى نفسها فيَّ، إلى الوكالة اليهودية التي قادتني بدورها إلى القاهرة بجواز مزور قبل أن أرمي بنفسي في العوامة المجنونة. الذين وصفوا لي هذه الأرض كانوا مخطئين. مزيتهم الوحيدة، ربما، أنهم وضعونا في نفس المسالك. ولا أدري ما تخبئه لنا الأقدار؟ أتساءل أحيانا، هل من السهل أن تحب امرأة يهودية، أو يفترض أنها كذلك، رجلا من هذه الأرض ربما كان يعادي حتى وجودها الجسدي في هذا المكان؟ لو كنا في بولونيا، لكن أمري أسهل. غريب؟ كيف بعثر المكان كل المنظومة التي برؤوسنا بكاملها؟

كانت مثل السكران، تتكلم بإنهاك شديد. ومع ذلك كانت الكلمات تطاوعها بسهولة.

لست أدري كيف مر الوقت ولكني عندما فتحت عيني في المرة الأخيرة، كانت حلمة النهد الأيسر ما تزال في فمي، ملتصقة بشفتي التحتية بعد أن جفت. عطر جسدها المسكر كان شبيها بعطر البحر الميت في الأماسي الربيعية الدافئة عندما يهب من بعيد ساحبا وراءه رائحة زهر اللوز وتفاح الحقول القريبة. أردت ألا أوقظها ولكنها تمتمت أو غمغمت فاختلط كلامها بصفير قطار يافا الأخير:

- هل ماحدث بيننا مقبول؟ المهم، حدث والسلام. لنقل أننا اشتهى بعضنا بعضا؟ وعندما تنتهي هذه الحروب الخاسرة والمجنونة سيحب بعضنا بعضا. لابد أن تعود الآن. مانيا تنتظرك. قطار يافا قد عاد منذ فترة وهي بالتأكيد تستمع إلى عوائه وهو يدخل المحطة. بي رغبة كبيرة للبقاء معك، ومع ذلك لن آخذك من. . . مانيا. أنت لها وهي لك ولكنها لا تستطيع منعي من لمسك والإحساس بوجودك. أنا لم آت لآخذك من مانيا ولا من أرضك التي نبتَّ فيها. الدنيا متسلطة، ولا سلطان لنا عليها.

كانت كلمات راشيل ترن في رأسي. كم اشتهيت أن أرد عليها وأن أقول لها الحروب لا تتشابه وليست خاسرة وأن هناك حروبا ظالمة وأخرى عادلة ولكن كل كلامي بدا لي صغيرا. عندما فتحت فجوة الباب

التي دخل منها نور حاد، كانت راشيل ماتزال نائمة على ظهرها، ابتسامتها مرسومة وثابتة وكأنها لوحة فنية عالية القيمة، وجسدها نصف المغطى كان مثل تمثال إلهة يونانية، ممددا على فراش ناعم.

أغلقت الفجوة المضاءة ورائي بهدوء كبير مخافة إيقاظها من غفوتها المخملية وأنا أهمس: أي شوق وأية لذة عنيفة يمكن لامرأة مثلها أن تخبئها في عمقها. أية شهوة لا حدود لها يمكن أن يخزنها جسد صغير كان في مصاف الأجساد الميتة أو الأجساد العدائية على مسلك جواد الملتحي؟ لم أتحمل ضوء القدس الحاد والناصع الذي اخترق فجأة بصري وكاد أن يفقدني النظر، ولكني خرجت ولم ألتفت ورائي مخافة أن يعاودني الإحساس بالخسران الأبدي والضياع وأن هذا الجسد المتمادي في غيه وجبروته الهادئ والصامت، لن ألمسه ولن يكتب لي أن أراه مرة أخرى.

سرت قليلا في شوارع القدس العتيقة وكأني أكتشفها للمرة الأولى. كانت بي دوخة لم أشعر بها إلا هذه المرة ولم تكن نتيجة مرض ما ولا إحساسا بالتمادي في الخسران والشوق، لم يكن في قلبي شيء آخر غير الدهشة التي يمكن أن يفاجئنا بها جسد ليس ككل الأجساد العابرة في حياتنا أو حتى تلك الدائمة. كانت الأشكال التي كنت أصادفها وأنا أعبر المسلك المؤدي إلى مرسم ماريا تتمطى كالأشياء البلاستيكية وتتلون كسماوات شتوية مغمومة.

عندما وقفت وراء اللوحة في مرسم ماريا، وقفت مشدوها. فقد رسمت مانيا القدس التي رأيتها قبل قليل: مدينة تغرق في النور. لم تسألني عن سفرتي المفترضة إلى يافا ولكنها سألتني عن لون النور المنعكس على حيطان المدينة. تذكرت الأشعة المتسربة التي لونت جزءا كبيرا من جسد راشيل:

- قمة البهاء.

- لأنه ينزلق على الأشياء المصقولة كالزيت.

لم أر شيئا في عينيها إلا ذلك النور الذي لم يخفت في أي يوم من الأيام.

نور لم يكن بإمكاني إلا أن أستعيده وأظن أن نور القدس سيعيدني حتما نحو راشيل عندما تغيب عن القدس وتذهب نحو أرض أخرى ناقلة معها خطأ وجودها في مكان كانت فيه أكثر غربة مني أنا القادم من دمشق، أو عندما أنسحب أنا منها ولا أدري إذا كان سيكتب لنا أن يرى بعضنا بعضا كما نشتهي. لم تكن الدنيا سهلة ولم يكن الحب سعادة متاحة.

لكن المؤكد أن ما جرى بيننا، لم يكن حدثا عابرا أو مجرد نزوة هاربة.

-٦-

كنت أتمطى في الفراش وأتلذذ بالدفء، عندما سمعت ضجيجا غير طبيعي خمنت أنه في الحي المغربي ثم اقترب حتى صار في باحة البيت. سمعت شخير محركات سيارت ثقيلة افترضت أنها كانت تحوط البيوتات وجزءا كبيرا من الحي ولم أسمع بعدها إلا صرخات أمي التي غابت مذ أن جئنا إلى هذه الأرض:

- ما إلكن حق تدخلون هكذا. هيدا بيت مو زريبة أغنام. الطريقة هذه لا تليق بشعب متحضر يا سيدي. أسلافكم كانوا على الأقل، يعلنون ذلك قبل وصولهم ويأمرون بفصل الرجال عن النساء قبل الاقتحام وأنتم تدخلون في مكان وكأنكم تدخلون زريبة.

- لا نريد شيئا منكم سوى شريف للتحقيق. الأمر خطير يا سيدتي يمس بأمن هذه الأرض. إنه متهم في قضية اغتيال الممرضتين. هناك شهود رأوه مع إحداهن. شهادته تفيدنا على الأقل. على كل حال ابتداء من هذا المساء سيفرض حظر التجول في كل الحي حتى يظهر القاتل.

سمعت مانيا وهي تصرخ

-لا. مو معقول. زوجي امبارح ما كان هون، كان بيافا وفي المساء كان حدي. اسألوا ماريا. كنا بمرسمها.

- تحرياتنا تقول : إنه تغذى مع راشيل في المطعم الإنجليزي.

- لا. أنا على يقين أنكم مخطئون. عمقولك أنه ما كان هوني. أنا متأكدة أنه كان بيافا. وسيقول ذلك أمامكم ويمكن أن بطاقة السفر لساتها معه وسيثبت خطأكم.

- لا نطلب إلا ذلك.

في البداية انتابني خوف غامض وبعدها بدأت أستلذ بشكل غريب للمحاورة. فجأة ارتعشت وخفق قلبي بقوة. شعرت بضيق كاد أن يسبب لي اختناقا. وبدأت كل فرائصي ترتعش وكأني طير وضع في بركة ماء بارد ومثلج. تماسكت نفسي قليلا وارتديت بسرعة ألبستي. عندما دخلت مانيا علي، كنت جاهزا ومنشغلا بربط خيط حذائي. تمتمت مانيا وهي لا تصدق عينيها اللتين قفزتا بقوة خارج المحجرين:

- لا يمكنني أن أصدق؟ هل كنت معها؟ قل لهم أنك كنت بيافا.

صمت كمن وضع على ظهره كل ثقل الدنيا.

ضربتني على ظهري بعنف:

- هيدي هي جرأتك يا شريف؟ لا؟ أنت لا تقتل امرأة. مش معقول؟ ممرضتين؟ ثم إنك لم تكذب علي.

التفت نحوها وقد شعرت بأن وجهي كان قد فقد لونه وكل ملامحه:

- اهدئي شويه. لم أصب بعد بهذا العمى، قط وسأدافع عن نفسي بأظفاري وأسناني. لم أقتل راشيل ولا ساره. لست مجنونا. لا أقتل امرأة بريئة وليست لدي أية حسابات معها.

شعرت براحة ما استقرت في عيني مانيا وبالدم يعود إلى وجهها.

- الحمد لله. سيعرفون أنك كنت بيافا وأنك عاجز عن أذى نملة.

لم أرد وبدا صمتي أكثر ثقلا من الرصاص.

عندما دخلوا كنت جاهزا للسير معهم. حضرت يدي للقيود عندما

رأيت لورانس الطيب الذي كان محرجا، وشرطي المحطة الغبي الذي ركض نحوي عندما بدا لي أني أنقذت راشيل. هز رأسه بأن الشخص المعني هو أنا. كان بصحبة الضابط وشهود آخرين من بينهم الحارس، الظل الثقيل الذي كان يلوي على صدره شاشا أبيض خمنت أنه جرح وهو يقوم بحماية راشيل وصديقتها. مددت يدي كالطفل الوديع نحو حامل القيود ولم تفهم مانيا ما كان يحدث أمام عينيها ولكنها صدقتني. قرأت ذلك في يدها وهي تلمسني وتتحسس وجهي وعيني الهادئتين الحزينتين.

عندما التفت نحو أفراد العائلة، شعرت برغبة غريبة للبكاء فقدتها منذ كنت صغيرا من كثرة الإصرار على أن الرجل لا يبكي. لم أبك على فراق العائلة كما تكون قد خمنت أمي ومانيا ونساء أخوالي ولكن على راشيل بعد أن تأكدت من أن الأمر كان يخصها وأنها هي التي اغتيلت. ومع ذلك ظللت معلقا على قشة: قد لا تكون هي التي اغتيلت والمغتالة هي ممرضة أخرى ولكني عندما أتعقل أجد كل ما كنت أظنه كان خرافة وأنها بالفعل قتلت. شهود الصليب الأحمر ووكالة الغوث الدولية الذين لم يكونوا بعيدين عن مكان الاغتيال هم من أنقذني. عندما وقفت وجها لوجه أمامهم، كانوا حاسمين في موقفهم: لا ليس هو. الجاني أصغر سنا وجسده أكثر استدارة حتى إنه وجد صعوبة كبيرة في الجري ولو وجد من يركض وراءه لألقي عليه القبض بسهولة. فقد فر ناحية مسجد عمر واختلط مع المصلين الذين كانوا يخرجون من المسجد وذاب بينهم ويكون ربما قد غير لباسه. حتى بعض المارة سجلوا نفس الملاحظات. الرجل الخشن أكد الشيء نفسه واستبعد أن أكون أنا. قال أن الجناة كانوا أكثر من واحد وهم من ضربه كذلك عندما حاول إنقاذ الممرضتين ولم يكن شريف من بينهم، بعدها اشهد أني لم أر شيئا، فقد دخلت في شبه غيبوبة ولم أستيقظ إلا وأنا في المستشفى.

بعد التحريات والبصمات وحجز دام يومين، أطلق سراحي. كانت مانيا في أقصى سعادتها.

قالت وهي توجه كلامها لأمي:

- أنا كنت عارفة أنه ليس هو. لا يمكن لشريف أن يمس امرأة بأذى فما بالك ممرضة ومعلمة، مستحيل؟

أمي لم تقل شيئا ولكن سعادة ما كانت تشتعل في عينيها.

لم أتخلص من حالة الألم وأنا أخبئ جاهدا شعوري بفقدان راشيل. عندما سألت جدي لأقول له إن خالي إبراهيم كان على حق لخوض حرب ضد النازية والظلم، أوقفني في المنتصف وكنت أحاول أن أعمل ضد حالة العمى التي بدأت تنتشر في فلسطين وفي غيرها، أجاب بلا تردد وبصفاء ذهني كبير قلما رأيته فيه.

- مشكلتك ومشكلة إبراهيم واحدة، تظنون أن العالم يسمع لكم. العالم لا يسمع إلا للقوي. وإبراهيم يحارب عدوا بعيدا تحالف مع ناسه وينسى العدو الذي يأكل أرضه. الحروب يا شريف تأكل الأخضر واليابس ولا ترحم أحدا أبدا. ربما كانت راشيل امرأة طيبة كما تقول ولكن جنى عليها الذين أوهموها بالفردوس المفقود.

- ولكن العداء الأعمى لليهودي يا جدي يدفع بنا نحو أعداء ليسوا هم من يفترض أن نتقصدهم.

- هذا الكلام يا حبيبي قديم. منذ أن أخذوا أرضنا صاروا أعداء لنا.

- راشيل يا جدي لا ذنب لها في هذا الصراع وكانت تدفع يوميا ثمن خيبة مجيئها.

- طيب شو جابها إلى هذه الأرض؟ كان عليها منذ البداية أن تأخذ وجهة نيويورك مثلما فعل أخوها، فهي تستقبل المهاجرين بأذرع مفتوحة. نحن في وضع يصعب جدا التعامل معه برأفة وبعقل. ومع ذلك فقد استنكرت اللجنة القومية اغتيال الممرضتين كما استنكره رئيس البلدية ولجنة السيدات العربيات في القدس وتحملنا السلطة التي فرضت علينا نظام منع التجول ومكثنا في بيوتنا وهل كانت ستفعل لو قتل واحد منا؟ لا. نحن في وضع استعماري ولا لغة أخرى وكان على راشيل أن تغير

وجهتها. الفقرة السادسة من صك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي وضع في ١٩٢٢ اعترف أولا بالوكالة اليهودية كمؤسسة عامة يتوجب على إدارة الانتداب البريطاني استشارتها في سائر الأمور الاقتصادية والاجتماعية، تشتمل على تناقض نعيشه اليوم بحزن كبير وندفع ثمنه، حيث تتعهد إدارة الانتداب بتوفير كل الإمكانات للمهاجرين اليهود، دون المساس بحقوق السكان المحليين والمقصود بالسكان المحليين عرب فلسطين. الذين لم يذكروا بالاسم قصدا رغم أنهم يشكلون تسعين بالمائة من سكان هذه الأرض. المرض ليس فينا ولكن فيمن مزق هذه الأرض بدون دراية بحقوق الناس. أين نحن من رسالة جورج الخامس التي بعث بها إلى سكان فلسطين عام ١٩٢٠ والتي يؤكد فيها تعهده بأن الإجراءات التدريجية لإقامة الوطن القومي لليهود، لن تمس حقوقهم الدينية والمدنية ولن تضعف ازدهار سكان فلسطين؟ ألم يكن ملك بريطانيا يخرف؟ نحن لا نعادي الناس عشقا في معاداتهم يا روحي.

- ما بعرف يا جدي إذا ما كان كل من جاء إلى هذه الأرض هو عدو مؤكد. ما بعرف؟ لكنني متأكد من مقتل راشيل لم يكن عادلا وهوغير مفيد مطلقا. الله أعلم ما في السرائر وما تكنه الصدور. لم تكن تنوي البقاء. فقد ظلت تحت وقع أحلام جدتها أكثر مما كانت أحلامها. مجيئها كان لنسيان أزمة أكثر منه رغبة داخلية.

- ولا أنا أعرف أكثر مما قلته لك. الأمر معقد جدا ويتجاوزنا نحن الذين ولدنا على هذه الأرض ومع بعض الحظ سنموت فيها إذا لم نُهجَّر. كل الناس يحكون خيرا عن راشيل وأنها قدمت خدمات كثيرة لليهود والعرب على حد سواء في المستوصف الذي تعمل به وروى الكثير أنهم رأوك معها غير مرة ولكنني أكدت لهم أن ابني لا يقتل امرأة ولا يفكر مطلقا في مس ممرضة بأذى ولهذا كنت مطمئنا ولم يخب ظني فيك. لكن الناس لا يدرون بأننا دخلنا في هذه البلاد حربا سرية ضروسا على الأرض ووجهها الباطني والظاهر وعلى ترابها وبحرها، قد تدوم طويلا وقد لا تنتهي إلا بانطفاء أحد الطرفين المتقاتلين. وإذا لم يتحرك

العرب منذ الآن سيخرجون من المولد بلا حمص. ولا شيء وسيعيشون في المنافي وتنقلب الصورة رأسا على عقب وسنضطر إلى الهجرة السرية لرؤية أهالينا أو فقط للصلاة في الأقصى أو في كنيسة القيامة أيام الأفراح والأعياد. ما ينتظركم يا شريف لا يتحمله ظهر إنسان. الله يعينكم على هيك ثقل.

أردت أن أقول لجدي أنت تبالغ يا جدي، مازلنا نعيش على أرضنا وإن المشكلات التي نعيشها اليوم حالات طارئة ولن تطول ولكني توقفت عندما رأيت وجه راشيل وهو ينضح بمياه البحر التي نزلت من شعرها قطرة قطرة على الرغم من أنها مسحتها وجلست تسخن حول موقد النار فتراقص في عينيها نور غريب كان يشبه عميقا نور الحياة المستعادة، ثم وهي تبتسم من غبائي عندما سقطت عليها وكدت أرمي بها تحت عجلات القطار الحديدية ثم وهي تشرب قهوتها وتصر على أنها ستغادر هذه الأرض في أول فرصة للاستقرار في نيويورك عند أخيها مؤقتا ثم والرصاصة تخترق رأسها فتسقط بلا حراك كقطعة خشب وتموت ابتسامة راشيل شيئا فشيئا في غربة تامة عن محيطها.

جرائمُ التربة والدم

-١-

نزلت كآبة مفاجئة على مدينة القدس وقلت الحركة.

لم يكن الاغتيال الأول في القاهرة أو في القدس ولا الأخير قط، ولكنه كان الاغتيال الأكبر والأكثر أذى للإنجليز ولأصدقائهم من العرب وغيرهم.

نكست الأعلام على أعالي البنايات الحكومية وحلت على الكثير منها أقمشة سوداء كانت ترى من بعيد وهي ترفرف. كان يبدو واضحا أن الحدث جلل. شيء على الوجوه كان يعبر عن انكسار عميق. مسحة غزت الكلمات واستقرت بين انكسارات الوجوه التي كانت عبثا تبحث عن مرفأ لها وسط عالم يجيش بالمحن والخوف. الذين يتصادفون في الشوارع قليلا ما يتحاورون، كلمة أو كلمتان ثم ينفصلون: هل سمعت؟ اغتيال اللورد؟ أيوه. الله يحفظنا مما سيأتي. شو هالجريمة وشو هالقتلة؟ مو معقول أن نقتل كل من يخالفنا الرأي. . . ثم ينسحبون باتجاه مساراتهم الاعتيادية، موزعين داخل شرايين المدينة.

اغتيال اللورد موين Moyne في القاهرة كان حدثا كبيرا. هزة عنيفة أولا في القاهرة قبل أن تتمدد باتجاه فلسطين وتستقر في مدينتنا التي تتلقى كل ما يحدث في الدنيا على رأسها. كانت وجوه الشرطة متوفزة وفي حالة حذر كبيرة مصحوبة بترقب كبير من شيء مبهم. لست أدري من كان صاحب القرار ولكنه فجأة بدا كأن المدينة كلها رحلت نحو

المخافر بعد أن أغلقت أماكن الصلاة المسيحية والمسلمة واليهودية. كان المخفر هو المكان الوحيد الذي حقق إجماعا كبيرا وحضورا لكل الناس. وأخضع جزءا كبيرا من سكان القدس إلى استنطاق طويل. لم تكن الأسئلة كبيرة ولا معقدة بل كثيرا ما كانت تافهة. هل تربطك أية علاقة بمنظمة إرهابية؟ هل تملك معلومات عن هذا الاغتيال وغيره يمكن أن يساعد التحريات للوصول إلى كشف الحقيقة؟ كنت عائدا من مرسم ماريا عندما اعترضت طريقي الدورية التي لم أتنبه لها إلا عندما صارت قريبة مني على بعد خطوة، مع صوت آمر:

- ولا حركة. أين كنت في هذه الساعة؟

- بمرسم السيدة ماريا. هل هناك ما يوجب كل هذه الحركة.

عندما ناداني عمو أبوالشمايل وهو يعبر مع ثلاثة من أقربائه:

- لا تسأل يا ابني، يا الله. الرجل يقتل في القاهرة ونحن نتهم هنا.

لم أفهم جيدا ولكني سرت في وسط الركب المحاط بشرطة المدينة التي كانت مشتركة بين الإنجليز والفلسطينيين واليهود. سرت بشكل طيع. لم يكن لدي ما أخاف عليه ثم إني لم أكن أعرف الأسباب التي على أساسها دعيت فقد بدت لي حادثة القاهرة بعيدة على الرغم من الأعلام المنكسة التي ملأت رؤوس البنايات الرسمية والمؤسسات.

لم ينج أحد من الحملة. فقد تم بحث الصغير والكبير، اليهود والعرب بدون استثناء. خمن البعض أن يكون القتلة قد هربوا إلى فلسطين بينما البعض الآخر ممن وصلته بعض المعلومات كان يعرف أن المدبرين من يهود عصابة اشتيرن وكان البحث عنهم جاريا بقوة، وعن امتداداتهم في فلسطين. لم يكن موين معروفا لدى كل الذين تعرضوا للاستنطاق. في المخفر جمع كل البشر حتى خلت أن المدينة بكاملها رُحلت من طرف البوليس الإنجليزي عن آخرها. أخلي سبيل الجميع ولم يحتفظ إلا ببعض اليهود الذين وفدوا على المدينة منذ مدة قريبة، أطلق سراحهم قبل أذان المغرب.

نادرا ما تعرف هذه المدينة كيف تخبئ أسرارها. فقد عرفت في اليوم نفسه أن الشرطة المصرية ألقت القبض على مغتال موين من جدي الذي كانت لديه صحبة مرضية بالراديو ومن أصدقائه القدامى في الحزب القومي. يظل طوال اليوم عاكفا على سماع الأخبار، إذا لم يكن غارقا في قراءة القران.

لم أكن أعرف موين ويمكن أني لم أسمع به من قبل، ولكنه لم يكن شخصية نكرة. فقد كان وزيرا لشؤون الشرق الأوسط Minister for Middle East Affairs والمشرف المباشر على السياسة البريطانية في المنطقة بأسرها، باسم تشرشل نفسه. وكان صديقا مقربا له. اهتز كل شيء في قناعة تشرشل بالقضية الصهيونية التي كان من المؤيدين الأوفياء لها حتى الحادثة. وأصيب بقهر داخلي، فقد قتل أحد أعز من وثق بهم. لم يتوان عن نعيه في البرلمان في جلسة ١٧ نوفمبر **١٩٤٢** التي عقدت خصيصا لدراسة الوضعية، وهدد مرتكبي الجريمة بكل الكلمات الخشنة وتوعد بعقوبة كبيرة ضد من يقف وراء هذا العمل الإجرامي.

لأول مرة أرى في وجه جدي دم السعادة الذي ملأ محياه. الناس كانوا سعداء لردة فعل تشرشل وهم ملتصقون بالراديو الذي بث الخبر «**إذا كانت أحلامنا من أجل الصهيونية ستتبدد وسط دخان مسدسات القتلة ومساعينا ستثير موجة جديدة من قطع الطرق جدير ة بالألمان النازيين، فكثيرون مثلي سيعيدون النظر في المواقف التي تشبثوا بها طوال هذه الأعوام.**»

لو كان جدي قادرا على الزغردة لما توانى لحظة واحدة:

- كنا دائما نقول إن عصابة اشتيرن مجرمة وتجب مقاومتها بالسلاح ولكن لا أحد استمع إلى صرخاتنا اليائسة ونداءاتنا. ليكن هذا درسا إذا لم يتعلموا منه معناه أن هناك خديعة داخلية وأن هناك قوة طغيان هي بصدد أن تكون أكبر من إنجلترا نفسها.

كان يقود عصابة اشتيرن ويرأسها إسحاق شمير بعد مقتل قائدها المؤسس اشتيرن على يد البوليس الإنجليزي في شباط ١٩٤٢. وكانت

وظيفة العصابة هي تصيد الشرطة الإنجليزية والاستخباراتية على وجه الخصوص لطمس كل الأسرار التي كانت تعرفها عنهم. بينما كان يقود الأرغون البولوني مناحيم بيغين القادم من برد سيبيريا وكانت هذه المجموعة شبه العسكرية تعيش في حالة هدنة مع السلطات البريطانية بعدما أفرجت هذه الأخيرة عن زعيمها المعتقل رازيئيل وأرسلته للعراق لاغتيال الحاج أمين الحسيني وقتل في أثناء حركته. التحق بيغن بالقائد البولوني الذي ألف فيلقا يهوديا لمحاربة الألمان بعد هجوم هتلر على الاتحاد السوفييتي. وترأس الأرغون في أعمال النسف وبث الألغام ضد المنشآت والبوليس.

صار الحديث على كل الألسن وبدأ الناس يعرفون أن خطر الهاغانا لم يكن مجرد كلام عام. فقد توصلوا إلى قتل أعلى رجل في أعلى هيئة استعمارية في ذلك الوقت. كان كبار السن الذين خيبت الثورة العربية آمالهم ينتظرون الفرج من الإنجليز ويراهنون على تناقضاتهم مع يهود الهاغانا لكن الذي حدث هو العكس تماما. الأيام التي تلت لم تأت بجديد وعمقت الخيبة أكثر فأكثر. ولم يصل التناقض إلى أوجه كما كان يتمنى العرب ولكن الصلح سرعان ما استتب. فقد هرعت القيادة الصهيونية في فلسطين عن طريق وكالاتها وأجهزتها إلى تدارك الأمر وتقديم الاعتذارات عما حدث وان الفعل هو فعل أفراد لا يمثل في شيء أحلام الصهيونية. فقررت التعاون مع السلطات البريطانية لعقاب الإرهابيين وتسليمهم ومقاضاتهم.

في الأيام القليلة التي تلت، ألقي القبض على العشرات من المتورطين في هذه العملية وفي غيرها. وكل من كانت عليه شبهة قدم للمحاكمة. وفصلت المحاكم الإنجليزية في الجرائم وبرئ أغلبهم. وبأمر من الحركة الصهيونية، دعا اليهود إلى طرد المنتسبين إليهم من وظائفهم وأماكن عملهم. كان ذلك كله لإطفاء نار الغليان التي اجتاحت تشرشل على فقدانه صديقه وكأنهم تفطنوا فجأة إلى أنهم ارتكبوا خطأ قاتلا بينما كان كل شيء يسير في طريقهم.

عندما بدأ تشرشل يفكر في تعليق الهجرة إلى فلسطين والعودة إلى الكتاب الأبيض، زادت الحركة الصهيونية في نشاطها في الأحياء وفي تأمينها للأوضاع إلى أن استتب الهدوء في المدينة وعادت الحياة إلى مجرياتها الطبيعية.

جدي كان حزينا لهذه النهاية التي كان يتصورها على غير نهاياتها.

-٢-

عندما اختبأ قرص الشمس المسائية في عمق الأتربة الحمراء، والربوات الصغيرة المحيطة بالمدينة واستقرت الرياح الليلية التي كنست ساحة المغاربة وساحة الأقصى، كانت كل المظاهر الرسمية المسلحة التي دامت قرابة الأسبوع قد غابت نهائيا وفك الضغط من جديد عن المدينة وعادت حركة الناس في حي المغاربة إلى طبيعتها مع حيرة ظلت معلقة على الملامح والعيون. وعادت الوشوشات بين الناس ورواد مقهى الساحة الذي يمتلئ بسرعة:

«- خيو؟ بتعرف شو يا اللي صار؟ يقال إن أحد الضباط الإنجليز فكر في ترحيل السكان من هذا الحي وغلقه وتدميره عن آخره وتحرير الطريق أكثر باتجاه ساحة البراق لكي يتمكن اليهود والمسلمون من أن يرتادوا المكان بدون مصاعب تذكر وتفادي القلاقل التي حدثت وتسببت في مقتل الكثير من الناس.

- هيدا الزلمي اللي بيفكر هيك حابب أمه تندبه؟ مين اللي راح بيقبل. حرب أهلية.

- وهو سائل عن الحرب الأهلية؟

- بس ما بيعرف أنها يمكن تأكل رأسه كمان قبل غيره.»

الرياح التي سكنت قليلا بعد ليل عاصف، عادت من جديد لتمسح كل شيء في طريقها وتغرق الحي في غلالة حمراء تشبه الضباب المكسو بغبار الصحاري. كنست الساحة من الأوراق الكثيفة والفضلات وبقايا

الصحف القديمة وأكياس البلاستيك القديمة. حتى بيان الحاج أمين الحسيني الذي يدعو فيه إلى مقاومة مخططات الصهيونية العنصرية ومحاربة الحلفاء الذين باعوا كل شيء مقابل مصالحهم المادية والاستعمارية، لم يسلم من العاصفة الترابية. كان البيان المعلق على الشجرة هو الوحيد الذي نجا من الرقابة قبل أن تنزعه الرياح العاصفة فرمت به عاليا مثل جناحي طائر ميت. حلقت به طويلا على الحي قبل أن يرتفع فوق أعالي مسجد الصخرة ويغيب بعيدا مع كومة الأوراق والأكياس البلاستيكية العتيقة. منذ زمن بعيد، توقفت البلدية عن أداء وظائفها وعوضتها الرياح الموسمية بتنظيف الأمكنة الواسعة التي لا تلمسها الأيادي. تمايلت شجيرات الأرز وشجرة السرو العالية، التي تحيط بمقهى الساحة حتى مست الأرض برؤوسها وجوانبها في البداية بهدوء قبل أن تفعل ذلك بعنف منكسة قاماتها ورؤوسها حتى الأرض.

فجأة بان المقهى الصغير الذي انطفأ تحت كثافة الأتربة الآجرّية.

أدخنة النرجيلة والتبغ الرديء التي انبعثت من الأفواه كانت مثل الأوجه المنهكة والكسلانة التي ارتكنت في زوايا المقهى، تتصاعد بثقل وكسل ظاهرين. كان الحزن والانكسار يقرآن على الملامح بسهولة.

منذ سنوات تحول مقهى الساحة بعد صلاة المغرب إلى ملجأ للآلام التي لا شيء يداويها إلا الكلام واستعادة الأيام التي انكسرت وصارت مطعونة ولا حد لخيباتها ونزيفها. التمتمات المنهكة زادت في الزوايا حتى صارت كلاما مسموعا. الكل صار يتحدث بصوت عال عن الشيخ الحاج أمين الحسيني الذي وزع بيانه في نفس المكان على الرغم من العيون التي تراقبه باستمرار. قبل يومين وجد أحد هذه العيون معلقا على شجرة السرو العملاقة وأغلق المقهى أياما عديدة قبل أن يصار إلى فتحه من جديد بعد أن تأكد الضابط الإنجليزي الذي كان مكلفا بالتحقيق أنّ تعليقه بشجرة السرو لا علاقة له برواد المقهى وان قاتله قد يكون من حي آخر وفعل ذلك لتوريط صاحب المقهى ورواده فقط. لا أحد عرف صاحب الفعل ولا أحد كلف نفسه بالبحث عن الجناة. كان كل الناس

يتمتمون في أعماقهم وكأنهم اتفقوا مسبقا: شو اللي صار يعني؟ خائن. . . يستأهل. جاسوس لسادته الهاغانا والإنجليز.

- ما بفهم شي؟ كيف صمت الفرنسيون على الشيخ الحسيني وتركوه يهرب إلى العراق قبل أن يذهب إلى تركيا وإيران وسويسرا لينتهي به المطاف إلى روما وبرلين حيث قابل موسوليني وهتلر؟ ويبدو أن صداقة كبيرة تكونت بينه وبين هتلر.

قال أبو الشمايل موجها كلامه إلى صديقه الحميم جابر الذي يقضي الجزء المسائي كله بمقهى الساحة الذي يملكه، وهو يصفق بيديه لحاتم النادل لكي يأتيه بالنرجيلة.

- وينك يا ولد؟ وينك يا حاتم، دايخ؟ نار على كيفك ومعسل طراز ملوكي للزعيم جابر. يا الله يا حبيبي الحقني.

- أمرك يا عمي.

قال حاتم النادل وهو يخبئ ابتسامته الماكرة. حنى رأسه على رأس أبو الشمايل:

- بيقولوا عمو أبوالشمايل إن الشيخ الحسيني يحضر لهجمة كبيرة ضد الإنجليز بمساعدة موسوليني وهتلر. كل الملائكة مجندة بجانبه واقسمت ألا توقف حروبها حتى تمحو نهائيا الطغاة يا اللي سلبوا أرضنا وبيقولوا كمان، عمو أبو الشمايل، إن شيخنا الله ينصره، خوزق الفرنسيين والإنجليز على حد سواء بتحالفة مع الألمان لأنه عرف أكثر من غيره أن ألمانيا وحدها القادرة على تدمير سلطان الصهيونية. . سمعان فتوحات الألمان في اليهود عمو أبو الشمايل؟

- لا ما سمعان شي وما بدي أسمع، حرك لي طيزك بسرعة ويكفي ثرثرة فارغة، بعيدين بيسكروا لنا المحل وتجد نفسك في الساحة تحسب الحمام اللي يطير واللي ينزل واللي يزرق على راسك، يا الله فرجيني عرض أكتافك.

- ماشي، بس أنا عارف أن هتلر بيحرقهم حرق.

- من فمك لله. بسرعة. . .

- معقول أن الدنيا وصلت إلى هيك حال؟ تمتم جابر الذي مر بذهنه في لمحة، دخوله إلى دمشق مع جيش الأمير فيصل، وهو يغرس عينيه في كأسه التي عبقت برائحة القهوة العربية القوية. رأى سوادا يشبه الزفت يملأ قلوب الناس.

ثم التفت إلى أبو الشمايل بينما كان حاتم النادل قد ذهب لاستحضار جمرة النرجيلة.

- ما بعرف إذا كان الواحد لازم يفرح وإلا يزعل لهذه الماكينة القاتلة التي تأكل الأخضر واليابس. الفرنسيين خايفين قوي من طمع الإنجليز وكلاهما مرعوب من الآلة الألمانية.

- شو الفرق بينهم في النهاية؟ الألمان يتوسعون، وغيرهم لا يفعل أقل من ذلك وإلا شو جابهم لبلدنا؟

- لا شيء. المصلحة والمصلحة لا غير وبعض الحسابات التي لا نعرفها.

- رحنا في الحوافر يا حبيبي.

- لا أدري ولكني أشعر بأن زمنا سيأتي، ليس بالبعيد، سنصير فيه مثل الهنود الحمر، مجرد حيوانات للفرجة لا أكثر، تسر الناظرين أكثر مما تثير الشفقة. قد أبدو متشائما ولكن وضعا مثل هذا لا يمكنه إلا أن يؤدي إلى مثل هذه النتائج. في كل مرة نرفض شيئا نواجه بعقوبة جديدة تقترح علينا خيبة أخرى أكثر وساخة نجبر على تجرعها. رفضنا مشروع التقسيم الأول، مشروع بيل (١٩٣٧) ثم مشروع اللجنة الملكية (١٩٣٨) المعدل ثم مشروع التقسيم الثاني بحسب اللجنة الملكية الفنية وهكذا ونطالب الآن بتطبيقه وسنظل هكذا كلما ذبحنا، قبلنا بالقليل الذي اقترح علينا ولن نحصل عليه. مين اللي راح يسمع الشيخ الحسيني؟ والله كأنه يتحدث من بئر فارغة، لا يسمع إلا صداه. التعب بدأ ينهك الناس. الرسالة التي وصلت منه في المرة الأولى، من لبنان قبل أن يرحل إلى بغداد وألمانيا لم تفاجئ أحدا. فقد أكد الشيخ عدم نسيان المنفيين وضرورة التنظيم السري لمواصلة المعركة المقدسة لتحرير الأراضي التي

سلبت بالقوة. ولكن المنفيين أطلق سراحهم عندما شاءت السلطات الإنجليزية والفرنسية ولا شيء غير ذلك، ورسالته اليوم لمقاومة الصهيونية والحلفاء وجدت صداها ولكن الناس هنا صاروا يتحمسون ثم ينسون بسرعة ما تعلموه وتحمسوا له. صار الإنجليز واليهود يعرفون جيدا ردود أفعالنا ولهذا فهم يتحركون بما يناسبنا.

- طيب ليش ما بقى الشيخ بلبنان وراح ابتعد إلى العراق؟

- في لبنان أجبر على الخروج منها بضغوطات فرنسية. أما العراق فقصة أخرى. عند اندلاع الحرب قطع العراق علاقاته الدبلوماسية بألمانيا تمشيا مع المعاهدة التي كانت تربطه ببريطانيا منذ سنة ١٩٣٠ وكان يتولى رئاسة الحكومة حينها نوري السعيد. وعلى الرغم من قطعه العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا رسميا إلا أنه كان يميل إلى ضرورة الاتصال بها سرا للتأكد من سياستها العربية وهو ما كان يدعو إليه بقوة الحسيني.

- بس شواللي راح به هنيك وترك أرضه وأحبابه؟

- لقد شب خلاف حاد بين نوري السعيد وحلفائه وعلى رأسهم الوصي الأمير عبد الإله بن علي وبين الكيلاني والحسيني من جهة أخرى، يدعمهما خمسة من قادة الجيش وهم: صلاح الدين الصباغ وكامل شبيب، وفهمي السعيد ومحمود سلمان وأمين زكي. وتطور الخلاف فاستقال الكيلاني وخلفه طه الهاشمي الذي ما لبث أن استقال ليعود الكيلاني من جديد إلى الحكم بمساعدة الضباط الخمسة. أكره الوصي ونوري السعيد والملك الصبي فيصل بن غازي على مغادرة العراق. وتبع ذلك صدام مسلح بين تعزيزات من الجيش البريطاني وفدت من الهند والقوات العراقية أسفرت عن هزيمة هذه الأخيرة وهروب الكيلاني والحاج أمين الحسيني إلى إيران قبل أن ينتهي بهما المطاف إلى برلين.

- هيك لكان...

ثم استلذ الاثنان القهوة التي كان بخارها لا يزال يتصاعد عاليا برائحتها الطيبة.

هبت من جديد رياح قوية حاملة في إثرها غبارا وأوراقا كثيرة ورمالا لتنطفئ المدينة من جديد ويغيب مقهى الساحة وسط غلاف جوي ثقيل. واهتزت الأشجار المحيطة بعنف كبير قبل أن تستقيم ويعود توازنها من جديد.

طلب أبو الشمايل من جديد من حاتم النادل، أن يرتب جمرات نرجيلة جابر التي انبعثت منها رائحة تبغ حاد وكأنه تبن دخلته الرطوبة، اقتحم الأنوف بقوة شديدة.

- يا أبوالشمايل، تبغك ثقيل بس ماكن قوي الشي اللي بيدفع الناس نحو مقهى الساحة.

- فيه تبغ ألطف من هذا، وصلنا امبارح من حيفا؟ ما بدك تجربو؟

هز رأسه بتثاقل.

- على شو؟ كله أخيرتها بيصير رماد يا حبيبي. حتى الرجال يصيرون رمادا مثل الأوراق أو مثل هذه الجمرات الملتهبة. لا حبيبي ما بدي أغير شي كبرت عليه، أنا كويس مثلما أنا. أشعلها يا ابني الله يشعل حسك أمام حبيبتك. أشعل يا حاتم حبيبي ولا تسأل، شو صحّ إلنا في هذا البلد؟ لا شيء. ما نملكه يريدون أكله والتهامه كالحيوانات الخرافية. ما فيه شي يسلم منهم.

- لم أفهم جيدا. سمعت أن القوات العربية تستعد لتعويض الإنجليز، الإنجليز أعلنوا رسميا أن خروجهم صار مؤكدا وقريبا وأن حمايتهم ستنتهي عما قريب.

- وحياتك ما راح يسوون شي. سيخرجون ويتركون الأرض لليهود بعد أن تواطؤوا معهم. إن شاء الله ما إنك تنتظر أن يسلموك ما سلبوه منك؟ نهب الأراضي ماشي على قدم وساق اللهم إلا إذا كنا عميانا. العرب تحت رحمة الإنجليز متى رأيت السيد ينتفض ضد مسوده لكي يسلم له أرضه المسروقة؟

- المشكلة ليست هنا. ولكن العرب وجيش العرب قوة، لسه ما دخل إلى عمق الميدان.

- صح النوم. يا حليلك يا مسكين. ما أطيب قلبك يا أبو الشمايل. صح نحنا ثقافتنا مو كل هالقد بس حافظ كل الأرقام. كل شيء يسير وفق ترتيب مسبق ودقيق. ألم تقرأ تقرير لجنة اللورد بيل[٢] الذي نشرته في يوليو ١٩٣٧ والداعي إلى التقسيم؟ ألا ترى حجم الهجرة اليهودية الذي ارتفع بشكل مقلق؟ من ٤٥٦٥ في ١٩٣١ إلى ٩٥٥٣ في ١٩٣٢ إلى ٣٠ ألفا و ٣٢٧ في ١٩٣٣ إلى ٤٢ ألفا و ٣٥٩ في ١٩٣٤ وإلى ٦١ ألفا ٨٥٤ في سنة ١٩٣٥. شايف؟ هل كفت شرارة الشهيد عز الدين القسام لتوقيف جشع هؤلاء القوم؟ نسف أنابيب البترول وسكك الحديد وشبكات الهاتف والهجوم في الأرياف ضد مراكز البوليس والمستعمرات اليهودية واشتباكات مع قوات الجيش البريطاني، هل فعلت هذه المظاهر شيئا؟ وهل غيرت من موازين القوى؟ ماذا بقي من المتطوعين العرب والألف شهيد الذين أكلتهم النار؟ لا شيء أبدا. عندنا شاطرين، خايفين بس يزعلوا بريطانيا. مين اللي كسر الثمرة غير حكامنا؟ فقد سبق أن طلب كل من الملك عبد العزيز آل سعود وغازي ملك العراق والأمير عبدالله أمير شرقي الأردن من مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى وقائد اللجنة العربية العليا التي ضمت أحزاب فلسطين كلها، طلبوا منه أمام اللجنة تعليق الثورة ريثما تنتهي لجنة بيل من تحقيقها. شفت أنت في حياتك ثورة تعلق؟ الثورة إذا علقت معناها ماتت. كل شيء يعود إلى طريقه الأول بذاكرة أصابتها حالة المحو. الإنجليز يضعون السكينة في أيديهم ويستعدون لتقسيم الأرض. شو اللي بقى من الثورة؟ الرماد. الرماد فقط.

- ليش الرماد يا جابر؟ فيه شي في هذه الدنيا اسمه الشجاعة والتضحية.

التفت أبو الشمايل نحوي كأنه يستنجد بي. لأول مرة أرى حاجبيه السميكين اللذين كادا أن يأكلا عينيه بانسدالهما عليهما. كان وجهه قريبا

(٢) Lord Peel

من وجه جدي، محروثا بالتجاعيد الكثيرة والتفاصيل التي تخبئ أسرارها العميقة.

- والله يا ابني أنا خرجت من رحم ثورة عربية مليئة بالأحلام، ما فيه حدا ينكر الشهادة والبطولة. ما معقول كله يصير أسود. أشعر بأن حزنا عميقا يتربى في دواخلنا كالنار لن تزيله كل سعادات الدنيا. لقد خدعنا وكسرت شوكتنا والآن نُستغبى مثلما استُغبينا في الثورة العربية. مازلنا رهيني حلم وطن عربي لن يرى النور والحال هذه ولكننا ما زلنا نحلم.

- أحلم يا حبيبي؟ إيش اللي يمنع. الدنيا مليئة بالأرقام التي لا تكذب. وهل تدرون فداحة الذي يحدث على هذه الأرض؟ كيف تقسم أرض نسبة اليهود فيها أقل من الثلث بينما لم تزد حيازة الأراضي أكثر من ٥,٥ في المائة من أراضي البلاد. الخريطة الجديدة منحت الجليل بما فيه السهل الداخلي الممتد من خليج حيفا إلى جنوبي بحيرة طبرية كذلك معظم المنطقة الساحلية من الحدود اللبنانية إلى جنوبي يافا، للدولة اليهودية المفترضة. ثم قلب البلاد: القدس ومنطقة واسعة من حولها تمتد إلى الساحل وتشمل رام الله وبيت لحم وعشرات القرى الفلسطينية تبقى تحت الانتداب البريطاني. بهذا صارت الدولة اليهودية تملك ٣,٠٩٨,٠٠٠ دونم بينما صار للعرب ٣,٠٧٤,٠٠٠ دونما وهم أصحاب الأرض والغالبية السكانية. ولم يكتف بيل بهذا فقد طالب بنقل السكان العرب القسري[٣] إلى خارج الدولة اليهودية. طيب، عاجبينك هادول؟

وأشار جابر بأصبعه بعيدا إلى مجموعة الهاغانا التي كانت تعبر التقاطع الفاصل بين حارة المغاربة وحارة اليهود. كانوا يستعرضون أسلحتهم على مرأى من الجنود الإنجليز ورواد المقهى.

تمتم أبو الشمايل وهو يتفادى النظر باتجاههم.

- هؤلاء هم عساكر الغد. فهم لا يحمون اليهود فقط ولكن يتم

(٣) Compulsory Transfer

تحضيرهم للزمن الآتي. جاي اليوم يا جابر، وأنا عارف أنه قريب، لا يمكن أن نظل على هيك وضع في التهتك والإهانات المستمرة. البارودة اللي ما تنتفض حق لها أن تموت أو ترمى في متحف.

- وكل كلامي ليس يأسا بقدر ما هو عين العقل. ألم يكن من الأفضل قبول تقسيم بيل القاسي بدلا من هذه الخسارات المستمرة؟ كل سنة نوضع في الزاوية الضيقة، فنخسر قطعة أخرى. ويبدو أن الأمر إذا استمر على هذه الوتيرة لن نجد لنا مكانا في أراضينا وسندفع إلى خارجها وسيقولون لنا أمامكم الأرض العربية، فهي واسعة وخالية، عمروها وسيجدون من يتواطأ معهم.

- من الجهة الأخرى كأنهم يبحثون عن زجنا في عنق الزجاجة. لم يتركوا لنا فرصة أخرى إلا النار أو الجحيم القاتل. ماذا ترك لنا الإنجليز بعدما حلوا جميع التنظيمات السياسية والأحزاب والنوادي واللجان القومية، واعتقلت السلطات من استطاعت من أعضاء اللجنة العربية العليا ونفتهم إلى جزيرة السيشل في المحيط الهندي. نزعت أسلحتنا وجردتنا من حقنا في الدفاع عن أراضينا. وقوت عصابات الهاغانا بل أخذت في تدريبها ودعمها حتى صارت اليوم تتجاوز العشرين ألفا وسمتها تمويها شرطة المستعمرات.

عندما التفت أبو الشمايل نحوي بعد أن انسحب الهاغانا من الساحة، كنت منغمسا في شرب القطرة الأخيرة من كأس القهوة التي بردت بين يدي:

- وأنت ليش ما أخذوك لجبهة العلمين مثل خالك إبراهيم؟

- ما رضيوا يا عمو أبوالشمايل، قالوا وحيد العائلة وكبيرها. أمي أجبرت جدي على التدخل وسمع كلمتها. كنت في الشبيبة الكشفية المكلفة بمراقبة الهجرة غير الشرعية ولكن الإنجليز أوقفوا كل شيء وقالوا لنا إنهم المخولون وحدهم بالمراقبة. صحيح راقبوا وارجعوا سفنا كثيرة على أعقابها ولكن سفنا أخرى سمح لها بالمرور، ولكن إلى متى تستطيع بريطانيا مقاومة الضغط المفروض عليها؟

- زعلان؟
- ما بعرف بس خالي إبراهيم وجد الطريق اللي أنا فشلت فيه.
- العرب كذابون يا ابني كما قال عمك جابر، بدل ما يحملوا البارودة ويخرجون اليهود من هذه الأرض ينتظرون من الألمان أن يقوموا بعملهم مكانهم. لا أعتقد أن شيخنا الحسيني على صواب ولو أن عدو عدوي صديقي.
- لا يا عمي أبو الشمايل يجب ألا نخطئ في عدونا. الألمان سيحرقون الأخضر واليابس ولن يفلت منهم أحد لا اليهود ولا العرب ولا حتى الحلفاء. ما يظهرونه من عقلية متزمتة ومنغلقة يبين ذلك. النازية يا عمي أبو الشمايل سحقت كل من يقف في طريقها، ليس من الأعداء المباشرين لها، بل حتى من الألمان أنفسهم.
- ما كنا هيك. كان عقلنا مليئا بالحياة والنور. اسأل جدك، يقول لك كيف كانت العشرة بيننا وبين اليهود لكن الهجرة لم تأت ببشر ولكنها أتت بقتلة وبجماعات لا شيء على لسانها إلا استعادة الأرض أو نهب أملاك الغير. ما عجزت الوكالة اليهودية عن شرائه أخذوه بالقوة. المشكل ليس في السكان الأصليين الذين استقروا هنا منذ قرون، وهذه الأرض لهم مثلما هي لنا، ولكن نرفض هذه الصنائع التي جمعوها من كل مكان لينشئوا بها دولة غريبة لم تشهد البشرية لها مثيلا. وخلقوا لها الأساطير التي شاؤوا. تصور الحقد الذي غرسه الإنجليز والصهاينة؟ كانت العائلات تتعشى مع بعض، تحضر أعراسها ومآتمها وأفراحها، عندما نتكلم عن ذلك، كأننا نتكلم عن زمن مرت عليه قرون، اسأل جدك، فهو يعرف كل هذه التفاصيل.

أردت أن أقول لأبو الشمايل بأني سألت جدي وأن فكرته لا تختلف عما كان يقوله لي ولكني تراجعت وانكفأت على وجهي غارقا بين ملمحين هاربين: راشيل التي لم تغادرني ابتسامتها ووجهها الحزين ومانيا التي غرقت منذ أسبوع في رسم لوحة كبيرة عن القدس بمناسبة معرض المدينة القادم وهي تقول:

- ماريا ليست مخطئة. يجيء يوم سنشتاق فيه حتى إلى أن نذهب لساحة الأقصى أو كنيسة القيامة ولا يسمح لنا بذلك.

سمع أبو الشمايل تمتمتي:

- مين هيدي الماريا يا شريف؟

قلت بدون تفكير وأنا عند مخرج المقهى:

- أم سيدنا المسيح الله ينصره على الأعداء والمرتدين على تسامحه وطيبته.



خلف شبّاكنا نهار

-١-

عندما ملأت علينا مايا البيت، بدأنا نستعد لاستقبال المولود الثاني. نسينا بسرعة أن الأقدار لم تكن رحيمة معنا إلى الحد الذي تصورناه. كلما منحتنا سعادة صغيرة بيد، أخذت أضعافها باليد الأخرى. ومع ذلك لم نستسلم لجبروتها ولسلطانها، وراهنا أكثر على هشاشتنا وعوالمنا الصغيرة.

لخالتي نورا التي أتذكرها اليوم بعد كل هذا الزمن محبة كبيرة في القلب. على يدها نزل أطفال حينا بالكامل بمن فيهم مايا. لم يكن المستشفى إلا للحالات الاضطرارية التي تحددها هي بنفسها خصوصا عندما يكون الجنين مقلوبا ولا يستطيع الخروج بسهولة. عندما تدخل يدها وتخرجها وهي تضحك: ابنك يا حبيبتي مدلع ومكيَّف مع حاله، جالس وما بدو ينقلب على رأسه، بدك تنزلي حالا للمستشفى. وتطلب الطبيب والسيارة بنفسها وكـأنها في عيادة. لهذا يحبها كل سكان حي المغاربة. مانيا لم تكن ترفض الذهاب إلى المستشفى لكن الداية، خالتي نورا، ارتأت شيئا آخر غير ذلك. فهي لا تقبل أن يولد أطفال حينا في المستشفيات إلا اضطرارا وعندما تدعو الضرورة القصوى إلى ذلك. وعلى الرغم من سنها المتقدمة، ما يزال نظرها قويا وحركة يديها تملك من الرشاقة ما يجعلها تنقذ سنويا العشرات من النساء من موت مؤكد بلا

مقابل أبدا. يأتونها أحيانا ليلا من حواف المدينة ويطلبون منها التدخل السريع.

- والله يا خالة نورا ما إلنا حداً إياك؟ شوفي لنا حلْ الله يجازيك خيرا.

ثم يتركون المرأة غارقة في دم الولادة، وينسحبون إلى الخارج في انتظار أوامر الخالة نورا. لم يحدث معها أبدا أن قالت: لا أستطيع، حتى في أقصى حالات مرضها وتعبها.

ومع ذلك، لم يكن الله رحيما مع مانيا، في ولادتها الأولى. فقد كانت قاسية وشاقة ولم يعش بكرنا إلا يوما واحدا. ظل يصرخ صراخا مخنوقا وجافا حتى انطفأ. أمي وخالتي هما اللتان دفنتاه في مقبرة المرتفع، في الفجر نفسه الذي فارق فيه الحياة، ليس بعيدا عن شجرة الزيتون الوحيدة التي نبتت في ذلك الخلاء المقفر. والولادة الثانية لم تكن أفضل. خلف ذلك في قلب مانيا وجسدها خرابا كبيرا لم يكن من السهل ترميمه. كلما اشتهت أن تحمل من جديد، تذكرت حملها الأول حيث شارفت على الموت المؤكد لولا الداية خالتي نورا التي بذلت مجهودا كبيرا لإنقاذها وإنقاذ الجنين ليوم واحد. منذ هاتين الحالتين، لم تحمل، وإذا حملت لا يستمر الجنين أكثر من ثلاثة أشهر ويسقط. صارت حالتها مثل القانون. حتى عندما جاءت مايا، لم ينكسر نظام الولادات الخاسرة. ذات مرة قالت وهي تتلمس بطنها:

- الظاهر يا حبيبي لن يكون لنا حظ رؤية ذريتنا العديدة كما اشتهيناها، في هذا الوضع القاسي والعمر يركض. إذا استمرت الولادات بهذا الشكل على دنيانا السلام. يبدو أن يد خالتي نورا لم تكن سخية، فقد مزقت كل مخابئ الأجنة ولم يعد لها ما يظللها. صار رحمي، على ما يبدو، مثل هذه الأرض، مشروخا ومجروحا.

- لا أظن يا مانيا، خالتي نورا حذرة ولا يمكنها أن تفعل ذلك. ثم مايا، ربنا يطول في عمرها، تملأ علينا الدنيا وتنسينا قسوة الأقدار. على الرغم من خيبة الولادات الفاشلة، جاءت هي وعوضت عن كل شيء.

- صحيح، ولكنه جسدي وأعرف ما تمزق فيه واليد التي مسته.

- مش مهم. أنت الأهم، البقية كلها تفاصيل زائدة. الصبي إذا أتى فمرحبا به وإذا لم يأت، فالدنيا لن تتوقف على هذه الحافة. نعيش ويحب بعضنا بعضاً والله رحيم.

على الرغم من جرح راشيل الذي بقي مرتسما في الذاكرة على الرغم من قصر التجربة، فقد حملت معها كل أسئلتي الغامضة التي كنت أريد أن أسألها، لم أكن أبحث عن شيء آخر غير سعادة مانيا. خالي مصطفى، مهندس الخرائط الذي كانت تربطه صداقات عديدة مع بعض الإنجليز الذين كانوا يحتاجون إلى تخصصه، نصحنا بطبيب انجليزي صديقه وتاجر أراض، فعلاقته به متينة وكبيرة.

- أنا ما يجب الإنجليز لكن طبهم متقدم. لن تخسروا شيئا، شوفوه، يمكن الفرج يجي على أيديه، يملكون أدوات وأدوية متطورة تخفف الآلام ويمكن أن تحل كربتكم. الخالة نورا قل بصرها وخانتها حركات يديها وترتكب أخطاء كثيرة.

في المرة الأولى رافقنا وقدمنا له ولكن بعدها صرنا نذهب وحدنا. وبدأنا نزوره بحسب المواعيد التي كان يحددها لنا. فقد اكتشف بالفعل أن الخالة نورة قد أحدثت تمزقا كبيرا في جسد مانيا وأنه كان علينا أن نكون صبورين قدر المستطاع وإلا خسرنا كل شيء. اتضح أن دواءه لم يكن سيئا إذ بدأت تحمل ولو أن ولاداتها كانت دائما محدودة، إذ سرعان ما يسقط الجنين، إلى اليوم الذي أنجبت فيه مجد الذي نور علينا الدنيا بشكل غريب مع أخته مايا لاحقا. الإحساس بالأمومة والأبوة ليس أمرا هينا. كانت ليلة استثنائية وحضر حتى والد مانيا الذي كان يعيش منسلخا عن محيطه المشوش. حمل الطفل بين يديه وباسه على جبهته. ثم بكى طويلا ولم نعرف لماذا، ثم احتضن ابنته وشهق كالمصاب في صميمه.

في الليلة نفسها ومن فرط السعادة، حدثتني مانيا عن مستقبل ابننا. قلت لها:

- إيش معنى مجد وليس مايا؟

- مايا بنت، ما ينخاف عليها وهي جميلة مثل الدمية الصينية. أما مجد. . .

- مجد. . . عندما يكبر قليلا سنبعث به عند أعمامه آل الحسني في الشام لكي يتعلم ركوب الخيل والركض وتتصلب عضلاته ولا يكون رخوا.

وكنت أظن أني كنت أسعدها. اصفر وجهها مثل قشرة ليمون، وكاد يغمى عليها، تمتمت وهي لا تعرف ماذا تقول بعدما تبعثرت الكلمات على شفتيها:

- واحدة من اثنتين، إما أنك تشتهي قتله أو أنك تشتهي قتلي.

- أعوذ بالله! معقول حبيبتي مانيا؟

- إذن إنس هيك كلام فارغ عن أعمامه وركوب الخيل والبارود والحروب. . . الطاحونة أكلت الأخضر واليابس بلا فائدة، بيكفي هيك الله ينصرك.

كانت كلماتي عفوية ولكن جرحها كان كبيرا.

- أنا لا أعرف أين الضرر؟ يقوى ويصير رجلا حقيقيا.

- عاجبتك حالة بيِّي، أمك؟ جدك؟ أخوالك؟ أبوك؟ عمك؟ هل تدري؟ كلما رأيت والدي شعرت بذنب عميق وذنب كبير وحقدت على أمي بشكل أعمى وأقول لماذا لم تتركه يخرج إلى الشام؟ كان يريد أن يغادر مؤقتا لأن وضعنا تعقد ولم نعد نعيش إلا على صدقات جدي وأخوالي وهذا كان يقتله من الداخل. سافر إلى الشام ولكن أمي وأخوالي أقنعوه بالبقاء ومساعدتهم في تسيير أراضيهم. قال أرضنا جفت من كل حياة ولم أعد قادرا عليها. قالت له أمي نحن هنا وأهلي كلهم معنا. وتشبثنا به كلنا لكي يبقى ولا يرحل. وخرج إلى أرضه التي كان المرابون اليهود والإنجليز وبعض العرب، يركضون وراءه لبيعها لهم لأنها كانت تنام على بركة ماء هو لم يكن يعرفها ولا يعرف قيمتها. ومع

ذلك ظل يرفض دائما بيع أرضه. كان يخرج فجرا ولا يعود من أرضه إلا ليلا. خلاص، صمموا أن يأخذوها منه بكل الوسائل. وضعوا في حجره نقودا كثيرة وكانوا يعرفون جيدا أزمته. المرابون هكذا يفعلون، قبل أن يتقدموا إلى الشخص يتأكدون من أزمته وبعدها يسخِّرون كل أدوات الإقناع. قال له المرابي سأقول عنك إنك مع الثوار، قال له بيِّي: طز فيك وفي اللي وراءك. ما صدق المرابي نفسه، راح أوصلها ساخنة للإنجليز. حبسوه مدة أسبوع وعذبوه. عندما خرج كان منهكا. جاءه شخص عربي من حيفا، قال له: خيِّو، آخذ منك الأرض بثمنها وتظل عربية أحسن من أن يأخذها منك الإنجليز. أرض ميتة، تصرف عليها أكثر مما تستفيد منها. لم يفكر والدي طويلا. اطمأن للرجل وفي المساء نفسه وقع على كل العقود وانتهى أمر الأرض نهائيا. وأغلق الملف بدون أن يخبر أحدا. لم ينتظر الرجل طويلا فباعها للوكالة اليهودية بضعف ثمنها. عندما علم والدي بذلك هزم وشعر بالقهر في قلبه ولم يكن قادرا على التحدث عن ذلك لأحد ولكننا كنا نشعر بالعتمة التي غزت عينيه أكثر من عتمة الجوع والحاجة. كان يقضي جل وقته خارج البيت، يجلس على حافة الأرض وهو ينظر إلى الآليات التي كانت تخترقها وتمزقها وتحفرها بعد أن حوطت بسياج شائك. ذات مساء، لما رجع إلى البيت، نام يومين متتاليين وعندما استيقظ كان يرتجف وخائفا ويقسم بالله إنه لم يقل شيئا ولم يبع أرضه. وكانت أمي تحاول أن تخفف عنه. كانت هي الوحيدة التي صدقته وأحست بآلامه. أخوالي قاطعوه لأنه وقع مواثيق البيع التي راجعها خالي مصطفى بنفسه عند الوكيل العقاري وتعرف إلى توقيع والدي. خالي إبراهيم أكد على نفس الشيء في العدلية حيث يشتغل. أمي صدقته ولم تقبل أي حديث في الموضوع. وعندما واجهها خالي بالحقيقة المرة، قالت:

– أرضه وأرض أجداده ولا أحد مسؤول عن الآخر. باعها وبعدين؟ ليس هو الوحيد الذي فعل ذلك. الكثيرون يبيعون أراضيهم للوسطاء الإنجليز وهم يعرفون جيدا أن المرابي الإنجليزي سيبيعها للوكالة

اليهودية. إيش معنى هو الوحيد اللي يدفع الثمن غاليا بهذه الطريقة القاسية؟

- لكن يا خيتي ما إلو حق. الأرض مقدسة ولا يملك حق بيعها للأعداء.

- شو عرَّفو؟ بدكم تجننوه؟ الرجل راح عقله شو بدكم أكثر من هيك؟ صار مجنونا وما بقى فيه شي سوى الخزرة الميتة التي تتقد كلما سمع خبرا جميلا. لم يفعل شيئا مختارا ولكنهم أجبروه وعلى الأهل أن يفهموا ويكفوا عن لومه. لم يبق فيه ما يستحق الذكر، فقد لزم الصمت مثل ميت. ارحموه يا عالم... ارحموه. أنتم عمتقتلوه بالمي الباردة.

قالتها بصرخة عالية يائسة بلغت الأقاصي.

- ويخرج خالي الكبير، مصطفى، تفاديا للعراك مع أخته، تقول مانيا، ولا يعود إلا بعد أسبوع وهو يحاول أن يراضي أخته مرة أخرى. هذه الحالة لم أرها إلا عند أخوالي. الغضب لا يتجاوز أسبوعا. والرجل هو الذي يراضي أخته. بس عند أعمامك رأيت شيئا غريبا. المرأة فيه لا كلمة لها مطلقا. عالمها نسائي كليا. ربما هي عقلية أخرى. الذي كان يؤذي والدي ودفع به إلى الصمت. كان في كل مساء يذهب نحو أرضه التي تغيرت كثيرا وشقت عمقها الماكنات اليهودية وأصبحت الأراضي الناشفة مسقية وخضراء. وكلما رآها التفت نحو السماء ثم بصق على الأرض حنقا. يحني رأسه يأسا ثم يعود منكسرا إلى البيت.

ثم تواجهني مانيا بعينين لم أتذكر إلا طفولتهما:

- والدي مع الزمن صمت وإلى اليوم لا يتكلم إلا نادرا، ينظر إلى الناس بنوع من الوجل والريبة. إذا كان حابب ابنك يكون هيك، فليكن. أنا ما بدي مجد يلحق بيِّي ويعيش هذه المأساة. مجد خلق لعالم آخر، أجمل وأكثر ارتباطا بالحياة. يكفي اللي شفته على هذه الأرض.

تخرج إلى النافذة المطلة على الحديقة والنافورة ثم تترك دمعها ينهمر مدرارا:

- يبدو أن الله غاضب منا إلى يوم القيامة ولا أعرف لماذا؟ وكأننا

قتلنا عزيزا عليه ولهذا لم يسامحنا. ما بدو يلتفت لأحزاننا وآلامنا. لم يعد وجودنا يهمُّه أبدا. كلما ذهبت بعيدا في التفكير، رأيت أبي صورة لما ينتظرنا من جنون وهبل ويأس، وتمزق بلادنا بكاملها وجنونها من انكسار والدي ومأساته.

- ليش ما نقنع بما أعطانا الله. مايا تملأ كل الفراغات الموحشة.

ثم تغرق في نوبة من البكاء واندم على مقترحي. كانت المرة الوحيدة والأخيرة التي طلبت منها ذلك. من يومها لم أفعل شيئا من هذا القبيل مطلقا وتركت الدنيا تسلك طريقها كما كتب لها.

ما فعلته كان غباء مني، لأن مجد نفسه لم تمهله الدنيا أكثر من شهور قليلة وولّى وجهه صوب المقبرة نفسها التي التهمت أجساد من سبقوه وترك مايا وحيدة مثلما جاءت. سعل ليلة بكاملها وفي الصباح هدأ. وتورد وجهه من جديد لكنه في الظهيرة ازرقَ فجأة وارتخت عضلاته وقبل أن يصل الطبيب الإنجليزي، شهق شهقة طويلة وسلم أمره لله. كانت الخسارة فادحة، إذ بدأنا نقتنع بأن الله تخلى عن معاقبتنا وأن مجد سيكبر ويصير رجلا يملأ علينا فراغ الشيخوخة هو وأخته. حتى الطبيب الإنجليزي الطيب الذي فتح أمامنا سبل الأمل كان حزينا ولم يفهم سر هذا الذهاب المبكر لمجد.

الوحيد الذي ظل منحنيا سرير مانيا هو أبوها، يبكي أحيانا وفي أحيان أخرى يلمس وجهها ويبحث في عينيها عن النور الذي غاب فجأة ويحك على شعر مايا النائمة بجانبها في لباسها الطفولي الملون كفراشة. كان من الصعب عليها أن تقوم من جرحها. وأقسمت ألا تجرب مرة أخرى وأن تحاول أن تتفرغ لمايا فقط، فهي حظها وعزاؤها الكبير.

- مثل ما بدك يا روحي.

- خلاص يا شريف حبيبي، لو تماديت في هذه اللعبة سأفقدك وأفقد مايا وأخسر عمري وأنا لم أشبع من وجهك. يكفي، يبدو أن الله غير راض عنّا ورافض حماية هذا المولود الجديد... ما بدي أموت... ما بدي أموت...

أصبح من الضروري علينا أن نقبل بما أعطته الحياة لنا وأن نفكر أكثر في حقنا في العيش.

عندما التفتنا نحو مايا، شعرنا فجأة أن الزمن توقف قليلا فقط ليجعلنا نتأمل خطوط وجهها الهادئة والمتسقة كملامح ملاك لا يأبه بتفاصيل الدنيا وقلقها. شددت على يدي مانيا ولم أتمالك من التمتمة وأنا أعبر داخل عيني مايا التي لم يوقظها بوس أمها وهمهمات جدتها وجدها:

– أي زمن نصنعه لك يا مايا؟ أي حياة تنتظرك؟ وأي أرض ستحتويك؟

-٢-

الشهقات التي خرجت من صدر أمي، شعرت بعمقها وبالفداحة التي خلفها افتقاد جدي.

عندما كان الناس يحضَرون لاحتفالات رأس السنة ويستعدون لأفراحهم السنوية، كنا نحن ندفن جدي ونبكيه بمرارة. في لحظة من اللحظات شعرت أن آخر الرجال الذين يشبهون الأرض والنباتات البرية وسخاء البحر، قد رحل نهائيا ولم نبق إلا نحن رجال بين السماء والأرض، بين التربة والرياح والبرق، وجوه تحرقها النار وتخبزها كل مساء مدارات الخوف واليأس. بشر بين تاريخ يستعاد بشوق وكبرياء وخوف جموح من مستقبل غير مؤكد. كان أكثر الذين بكوه أنا وأمي ومانيا وإلى اليوم لا أدري لماذا ربما كان لذلك الإحساس الدفين بضياع شيء كان يشبهنا في آلامه وصمته. شعرت كأن حائطا عظيما قد سقط وان الأرض ستنسحب من تحت أقدامنا. صحيح أن وفاته كانت منتظرة ولكن ليس بهذه السرعة. كان مريضا، لكن الأذى القاتل لم يكن باديا عليه مثله مثل رجالات زمانه. يتحملون كل شيء حتى ربوا ملكة الصبر وهم كل يوم يتهالكون من الداخل ويفرغون حتى يصيروا مثل الأشجار

اليابسة. في صباح تلك الجمعة الحزينة، أصبح في وضع جيد على غير الأيام الماضية. صلى صلاة الصبح بدون ضرر. لكن كل شيء تدهور بعد صلاة الظهر، عندما جاءه كبير الضباط الإنجليز إلى دكانه وطالبه بضرورة تبرير ملكيته لأراضيه بعقد. كان يعرف أن دوره قادم مثل كل العائلات، خصوصا أراضيه الموجودة في مدخل المدينة لأن هناك من اليهود من يدعي أنها مسروقه من إرثه. ظن جدي أنها مجرد مزحة مثل تلك التي تعودها من أصدقائه، لكن علاقته بالإنجليز لم تكن طيبة لتسمح للضابط بأن يسخر بطريقة غير لائقة. سرعان ما تأكد له أن الوضعية كانت أعقد مما تصور. الرجل الذي كان يتهمه بالسرقة هو من اليهود الذين اشتغلوا في أراضي أجداده بالفعل مقابل الاعتراف لأبنائهم بحق تملك جزء منها. وكان على جدي أن يثبت ملكيته للأرض بالوثائق وإلا فإن الأراضي كان سيتم حجرها حتى تتضح تفاصيل المشكلة. اليهودي أثبت أن والده وأجداده ماتوا وهم يشتغلون على تلك الأرض التي صار ثلثها بحكم ورقة التملك الموقعة من الجد الثالث، والتي أظهروها، من حقه وحق إخوته.

لم يتمالك جدي أعصابه:

- أي معتوه يمكنه أن يستظهر الورقة التي يشاء في هذا الزمن ويجب أن يعاقب هؤلاء الأدعياء بالتزوير. هذه أراض جاءت عن طريق التوريث وعائلة الحسيني معروفة في القدس وفلسطين ويمكنك يا سيدي أن تسأل كل من تعرفهم في المدينة حتى الوكالة اليهودية التي لا ترى الأشياء إلا بعين واحدة. أما هذا الأفَّاق، فصحيح أن أفراد عائلته اشتغلوا في أراضينا أبا عن جد ولكنهم كانوا يأخذون حقوقهم ورواتبهم لآخر مليم ولا يمكن أن تمنح الأرض هكذا مقابل عمل مأجور. أنتم تعرفون أن هذا ادعاء لا أساس له من الصحة.

- نحن نعرف وندرك جيدا ما تقوله والأكثر من ذلك نصدقك إلى حد بعيد، ولكننا للأسف أمام وضع لا يجد حله إلا بالوثائق. لا نثق في غيرها. هذا هو القانون الجديد. أراضيكم غير مسجلة في وثائقنا وقد

فعلنا ذلك مع الكثير من العائلات اليهودية. ويمكنكم أن ترفعوا شكوى للحاكم العام لقضاء القدس.

- منذ متى وأنتم هنا يا سيدي؟ أليس من الأجدى أن تعطوا لأنفسكم مهلة كافية لمعرفة كيف يفكر أهل البلد أحسن من خسرانهم مثلما فعل السير رونالد ستورس الحاكم العسكري بالقدس الشريف؟ كان رجلا حكيما ولم يظلم أحدا وكان أحيانا يا سيدي يناقض أوامر الملك للوقوف بجانب الحق، فترك وراءه إرثا يشرفه ويشرف بلاده. خسرته هذه البلاد إذ منذ ذهابه لم يتداول علينا إلا الذين لا يقرؤون أي حساب للعاقبة. أدرك جيدا أن هذه السياسة الظالمة التي تنتهجها حكومتكم ستنتهي بكم وبنا جميعا إلى الحرب المؤكدة أوالى مغادرة هذه الأرض بهزيمة قاسية تحسب ضدكم.

- باسم القانون الإنجليزي أصبح التعامل مع هذه الأراضي ممنوعا عليكم حتى يتضح وضعها. ابتداء من الغد سيتم تحويطها حتى يثبت وضعها القانوني وأي تجاوز هو اختراق للقانون ويعاقب بصرامة. يمكن أن يجد جلالة الملك لكم حلا ببيعها وتقاسم جزء منها مع شريككم وهكذا تضعون حدا لوجع الرأس.

- لا يا سيدي. أرضي غير موضوعة للبيع ثم إن القانون الفلسطيني يمنعني من ذلك.

- على هذه الأرض لا يوجد إلا القانون الإنجليزي فيما يتعلق بأملاك المستعمرات.

- هي ملك العائلة وقد حاولت معنا بطرق ملتوية، الوكالة اليهودية ولكنها أخفقت في مسعاها.

- بلغتك بكل شيء ودوري ينتهي هنا بالضبط. شكرا على حسن الاستقبال.

- شكرا.

عندما سمع خالي مصطفى بالحادثة، هاج ولم يتمالك أعصابه أبدا. فذهب ليتفقد الأرض أولا ولكنه منع من الدخول إليها. فقد نزلت فيها

قوات إنجليزية وبدأت في تحويطها وتهيئتها لتحويلها إلى مركز تدريب. قيل له فيما بعد عندما أصر على حقه، بأنها أرض عامة وينطبق عليها قانون أملاك العدو.

احتج حتى نشف ريقه:

- هذا ليس عدلا. أنتم تدفعون بنا لحمل السلاح ضدكم. هذه أرضنا ولا حق لكم فيها. هذا اسمه: اغتصاب.

تدخل ضابط شاب كان يشحم بارودته ويراقب حركة الناس:

- الحكومة البريطانية مستعدة لدفع ثمنها إذا تم التراضي بيننا.

- لا نريد بيعها.

- هي على كل حال، من أملاك الدولة الإنجليزية لحاجاتها الحيوية كما يقول القانون. في انتظار أن تبرروا ملكيتها فهي مشمولة بقانون أملاك أراضي العدو.

- لم تكن ملكية للعثمانيين ولكن لها أصحابها وهذه سرقة غير قانونية ومشينة.

ولكن ما حدث لخالي مصطفى بين لنا أن ما ينتظر العائلة كان كبيرا وخطيرا. فقد اصطدم وهو يغادر مقر المفوضية الإنجليزية للأمن، بالجنود الإنجليز المصحوبين ببعض يهود الحارة واليهودي الذي ادعى سرقة أهلي لحقه في الأرض. عندما اقترب منهم أشاروا بأصابعهم نحوه. رددوا عليه نفس كلام الرجل الذي كان يشحم سلاحه وكأنهم كانوا مسخرين لاستفزازه:

- لو قبلتم ببيع الأرض لما حدث الذي يحدث.

- وأنا قلت إن هذه الأرض لأجدادي ولن يؤخذ منها شبر إلا إذا تم ذلك على أجساد آل الحسيني. واذا تجرأ الخنازير على اقتحامها سنعرف كيف نتصرف ولن نضمن العواقب. لم نعتد على أحد ولكننا سندافع عن حقنا بأسناننا ودمنا وإن لم نستطع فبموتنا.

وقبل أن يصل خالي إلى البيت، أعيد إلى المخفر بتهمة قذف الدولة

والتعدي على أحد أعوانها وشتم اليهود بغير حق، شتائم عنصرية ومعادية. وهددوه إن واصل في تعنته، بأنه سيخسر أرضه وربما نفسه. ضرب صفحا وخرج بدون أن يلتفت وراءه.

عندما غادر المخفر توجه مباشرة إلى المسجد، كان يدرك جيدا أن الأيام القادمة ستكون مظلمة ولم يكن يعرف أن الظلام الذي تحدث عنه كان قد حل وبدأت أولى ستائره تغطي البلاد والعيون. ابنه الأكبر، مازن، الذي كان يدير معصرة زيتون صغيرة في المخرج الغربي للمدينة، اعترضته سيارة على متنها مسلحون، عند عودته من عمله، في المساء بعد صلاة المغرب. اقتيد من طرف مسلحين مجهولين ادعوا بأنهم من حرس المدينة. ووجد صباحا عند باب المسجد مقتولا وعلى صدره ورقة كتب عليها موقعة باسم الورثة: **هذه أراضينا وهذا مصير كل من ينكر حقنا. الورثة**. لم يكن لهذا الكلام من دلالة سوى إدخال الفلسطينيين في قتال كانوا بالأصل يرفضونه. عزانا بعض اليهود الذين اشتغلوا في حقول أجدادي وأنكروا ما ألصق بهم بهتانا وزورا. فتح يومها المصحف والتوراة وأقسموا أمام جدي وباسوا رجله وبكوا ولم يكن أمام جدي إلا البكاء معهم. أما خالي مصطفى فقد ظل بعيدا، متكئا على بارودته يفكر في الوعد الذي أعطاه لجدي بألا يمس أحدا لم يتأكد من تورطه في اغتيال ابنه. قال يهودي طاعن في السن، من المعزين:

- لا وألف لا. دم آل الحسيني مقدس ولا يمكن أن نمسه بأذى حتى ولو اختلفنا اختلافنا لا يصل إلى ارتكاب جرائم في حق من وقفوا معنا ومع عائلاتنا وأقاربنا أيام الشدة. ومازن شاب طيب وكريم ويشغل في معصرته بعضاً ذوينا.

عملية خسيسة مثل هذه لا يمكنها إلا أن تكون تدبيرا جهنميا لإدخالنا في حروب لا تنتهي أبدا. لقد تعودوا عندما يفشلون في مغرياتهم على جرنا نحو التقاتل بيننا وبين أهالينا.

جدي لم يرد ولكنه كان ينظر إلى الوجوه وهي تتقلص وتتألم وتتكلم. كان صامتا ومن حين لآخر يهز رأسه تجاوبا مع ما كانوا

يقولونه. عندما انتهى كبيرهم من تقديم التعزية خرج بعد أن سلم على رأس جدي وهو يحاول عبثا أن يكفكف دمعه.

كارثة أخرى حلت بآل الحسيني.

خالي ظل جامدا على بارۏودته بينما بكى جدي على فقدان مازن مثلما يبكي الأطفال. بكى ثم عوى قبل أن يبح ويفقد صوته نهائيا. فقد ملكة الكلام. في اليوم نفسه شل نصفيا ثم شل كليا وبعد يومين جمع كل أبنائه حوله واختلى بهم ولا أحد يعلم ماذا قال لهم وبأية لغة حدثهم في خلوته بهم، أ بالكلام أم بالإشارات؟ في الصباح الباكر تجمعوا كلهم بما فيهم خالي إبراهيم، الذي جاء من الجبهة خصيصا للوقوف على اللحظات الأخيرة من حياة جدي وينسحب بعد يومين من دفن جدي. وإلى اليوم لا أدري من أوصل له الخبر وكيف تم ذلك.

ولم يبق إلا خالي مصطفى أو أبو مازن كما يناديه جدي وغالبية الناس خارج البيت، ولم يفارق بندقيته والقسم الذي أجبره جدي عليه بألا يتعدى على شخص لم يتأكد من ضلوعه في الجريمة. ظل خالي يشرف على المعصرة وعلى الأهل ويسهر على حاجاتهم اليومية ولا يتغيب إلا لضرورات العمل والعودة سريعا.

كان ضباب كثيف يلمع في الأفق الذي انكسر. وفجأة شعرت بالموت قريبا أكثر من أي زمن مضى.

جدي وحتى خالي كانا مقتنعين بصعوبة الأيام القادمة لكن لا أحد كان يعلم أن الزمن كان يسير بسرعة كبيرة خذلت جدي نفسه على الرغم من تجربته الواسعة.

الأيام القليلة التي قضاها خالي إبراهيم في إجازته السريعة معنا، كانت كافية لكي تقنع الكثير من سكان حارة المغاربة وحارة اليهود بأن يسيروا في ركبه.

كانت الحرب العالمية الثانية في أشرس حالاتها القاسية.

عندما جلست مع خالي إبراهيم في خلوة طارئة في بيتنا، شعرت بأن قناعته كانت صارمة وأن كلامه كان مقنعا أكثر من كلام غيره، بل

كان أكثر الجميع تحمسا بالمشكلات الكبرى. جدي على الرغم من غضبه من خالي إبراهيم لم يكف أبدا عن حبه حتى آخر لحظات عمره الأخيرة. قال وهو يبرم شاربيه اللذين صارا أكثر شقرة من حدة شموس الصحراء:

- شوف يا شريف يا ابن خيتي، بابا مات الله يرحمه وهو واقف على قديمه ولم ينحن لأحد وهذا وحده كاف لكي نضعه في أعيننا. ابن خيي مات الله يرحمه ولكن يجب ألا نعمى عن الحق. لا يمكننا أن نحارب في فلسطين بأسلحة سيئة تضع الصديق والعدو في نفس الصف على أساس ديني أو عرقي. في اليهود مجرمون وعملاء وعنصريون مثلما هو الحال بين العرب أنفسهم. الذين باعوا بلاد الشام وقبضوا ثمنها، كانوا عربا أقحاحا ولم يكونوا أجانب، وفي العرب رجال خلص كما في اليهود رجال حموا هذه الأرض وناسها بصدور عارية ولا يمكن يا حبيبي أن نضع الكل في سلة واحدة. فأنت عندما تضع الكل في سلة هي أصلا سلة فاسدة لا تترك أي حل للناس الذين يرفضون أن يكونوا داخل تلك السلة. بعملك يمكنك أن تدفعهم نحو آخر أبواب التطرف.

سألته سؤالا أربكني لأني في لحظة من اللحظات شعرت أني لم أكن أختلف كثيرا عن جدي ولا عن خالي مصطفى:

- بس يا خالي تقف مع الإنجليز الذين يشترون أراضينا لصالح الوكالة اليهودية؟

- قد لا أملك جوابا مقنعا وشافيا لأنك صغير وقد لا تفهم كلامي جيدا، ولكن بين الفاشية المدمرة والاستعمار فارق ليس في الفعل ولكن في الدرجة، الأولى تستهدف البشرية والكائن من حيث هو بشر بينما الثاني تقوده الأطماع ويمكن أن ينتفي وجوده بمجرد وعي الناس ومقاومتهم له أو حتى سقوط تلك الأطماع.

شعرت بأن خالي كان محقا على الرغم من أني لم أفهم الشيء الكثير مما كان يقوله وقتها.

خالي مصطفى، أبو مازن، الذي لم تغير الأيام عتمة وجهه منذ

اغتيال مازن، غيَّر البندقية بالمسدس الذي اشتراه سرا من شخص كان يريد أن يرحل إلى الشام، وكان كلما خرج من بيته باتجاه المعصرة أو باتجاه الحقول لمسحها في إطار عمله الرسمي كمهندس خرائط، وضعه في سرواله، في مكان لا يعرفه إلا هو واتجه نحو عمله وهو يتمتم كلاما صار يقوله بعد اغتيال مازن:

«الله يرحمك يا مازن حبيبي. اللهم ارزقني صبرا جميلا وأمتني مؤمنا صادقا.»

يخرج ولا يعود إلا عندما تنزل أولى علامات الليل.

-٣-

الحدث غير المحسوب كسر مؤقتا كل حساباتي.

عندما يتكاثف على شبابك البرد وآلام الفقدان لا شيء أمامك إلا أن تتحمل قسوة الدنيا التي لا ترحم. رتبت كل شيء أثناء الزيارة الأخيرة لخالي إبراهيم للالتحاق بوحدته في صحراء العلمين مع مجموعة من شباب القدس المتحمسين وكشافة يافا، لمحاربة النازية. كنت أشعر بميل كبير إلى أفكار خالي إبراهيم وسعيا لنسيان شيء ظل يحرقني عميقا على الرغم من حبي الكبير لمانيا. لم يستطع شيء أن يذوب الحالة المبهمة التي كنت أشعر بها تجاه راشيل. يبدو أن الحب المبتور لا يموت ولكنه ينزل إلى الأعماق ويستقر هناك ولا يستيقظ إلا بمشيئته. كنت أريد أن أنسى وجه راشيل بأدنى الخسارات الممكنة، وكانت الحرب إحداها.

لم تقل أمي شيئا. ولم تكن مانيا متحمسة لقراري ولكنها قبلته على مضض خصوصا عندما زكاه خالي مصطفى وهو يمسح على لحيته التي تدلت طويلا على غير العادة:

- ينقصك بعض الإيمان مثل خالك إبراهيم، وتصبح مجاهدا كبيرا. ولكن ما عليهش، الحروب تعلمنا ما لا نعلم. الله يحفظك.

الثلج الذي سقط طوال الليل كان كثيرا. فقد غطَى كل المنخفضات

والمرتفعات وأصبح كل شيء أملس وبمستوى واحد. انمحت كل المعالم وسط هذا الغطاء الذي أعطى للدنيا التي بدأت تضيق، امتدادات لا حصر لها ولا حدود. حتى الحمامات التي كانت تسميها أمي ملائكة الرحمن، التي تعودت أن تقضي نهاراتها على أعالي الكنيسة وعندما يحين المساء تنفصل عن بقية الطيور وتتجه نحو الزوايا المفتوحة في دار جدي وتقضي ليلها هناك ولا تظهر إلا عيونها المدورة المليئة بالرأفة والطيبة، غابت ولم يعد يسمع صوتها ورفرفات أجنحتها الواسعة والصافية البياض.

صوت جماعي منكسر يأتي من بعيد مخترقا البرد والثلوج والبياضات المخيفة ليستقر بحزن في القلوب. يذكر بزمن منكسر في القلب والذاكرة.

... المسيح قام من بين الأموات

ووطئ الموت بالموت

ووهب الحياة للذين في القبور...

تأكدت مرة أخرى وأنا في الفراش، أن الصوت كان يأتي من الكنيسة التي لم تكن بعيدة عن البيت. كان الصوت حنونا ينحت القلب من الأعماق، بأناشيده وانكساره العميق.

ناح الحمام على تشتت أهليها...

لهفي على أمة قتلت راعيها...

لم تُنْس السنةُ المسيحية الجديدة الناس جديَ.

الناس الذين يحبونه كثر. أنقذ الكثيرين من موت محتوم وتصدق على الفقراء والجياع. الناس في حارتنا والحارات المجاورة يتذكرون حادثة الطاحونة عندما هجم خمسة أعراب على عائلة مسيحية مكونة من أب وبنتيه الصغيرتين سبع وعشر سنوات وزوجته انتقاما لأخيهم الذي قتل في ظروف غامضة وكل الشهود يقولون إن الإنجليز هم الذين قتلوا الرجل خطأ ومسحوا الجريمة في مسيحي كان عابرا بالمكان وأخبر عن

الجريمة التي ألصقها الإنجليز به وعن الذين كانوا من ورائها. أصاب الإخوة العمى وأقسموا أن ينتقموا من أي مسيحي يلتقون به في طريقهم. ولولا جدي الذي كان السكان يهابونه ويقدرونه، والذي رفع عصاه عاليا وصرخ فيهم: أي تعَد على المَرأة وأولادها هو تعَد على عائلتنا. من يمس شعرة واحدة فيها ستبكي أمه قبل أن يُبكى عليها. ثم التفت نحو أخوالي الذين كانوا يحيطون به فاستعدوا للقتال. تراجع الإخوة والشرر يتطاير من مناخيرهم وكان أخوالي قد رفعوا البواريد عاليا واستعدوا للموت بجانب جدي. في المساء التقى جمع من العائلات المسيحية والمسلمة وأقنع الجميع بأن ذلك مجرد مكيدة مدبرة لتدمير هذه الوحدة التي تكونت عبر القرون وأن المرأة التي هدَدوها لا علاقة لها بما حصل. ولم يخرج أهالي الميت إلا عندما اقتنعوا بأنه إذا كان هنالك من مجرم يستحق العقاب، فهم الإنجليز.

الثلوج محت كل المعالم، ثم الضباب غيب نهائيا الكنيسة الصغيرة المتربعة على القرن الجانبي من حارتنا. لا مسلك نحوها إلا رنات الأجراس المتتالية وصوت الأطفال الذي كان يردد النشيد.

دعوت باسمك يا ربي،
اسمع صوتي
لا تحجب أذنك عن استغاثتي
اقترب يوم أدعوك.

داخل البيت، كان الإحساس بالفقدان والوجع لا حدود له. أول احتفال سنوي يغيب عنه وجهان طيبان. جدي ومازن الذي كان صورة وفية لطيبة والده، خالي مصطفى. شيء مثل الهواء والفراغ يملأ الدواخل وكأننا كنا ننزل معاً

نحو هوة عميقة. النشيج الذي يخفي تلويه وآلامه يختلط عميقا بحدة الأصوات الناعمة والحزينة التي كانت تخترق الضباب وتدخل من الأبواب والنوافذ شبه المغلقة وتنزل في عمق الحديقة، على حواف النافورة التي توقف ماؤها ولم يعد يسمع صوتها منذ ذهاب جدي.

قامت مريم بنت داود إزاء العود
تندب ابنها المصلوب بأيدي الجنود
حبيبي يا ولداه خاطبني

بعد الصلوات فوجئ الأهل بوفد مسيحي يهودي يدق على الباب مصحوبا بأطفال كثيرين كانوا يحملون ورودا. لم يكن خالي الوسط زكريا الذي التهمته التجارة بين البحرين وعمان وفلسطين وخالي يحيى المورد للبرتقال باتجاه الشام والضفة الغربية وبيروت، متحمسين لاستقبال الوفد ولكن خالي الأكبر ألح على استقبال كل الناس ونهر أخويه مثلما كان يفعل جدي.

- تظنون أنكم تسعدونه في قبره أو تخففون من آلامي؟ مازن كان ملاكا، وبيِّي كان إنسانا كريما، ممتلئا حبا للناس ولم يكن قاطع طرق فلا تتصرفوا كقطاع طرق. لقد سخر حياته لحماية الناس من مرض الصراعات المجنونة، فلا تخيبوه.

- هؤلاء قتلوا بيَّك وابنك وأنت تعمل على حمايتهم!

- ليسوا هؤلاء من قتل. اللي قتل الله وحده بيعرف مين؟ هؤلاء مؤمنون بسطاء، لا يكنون إلا المحبة والتقدير لوالدنا أما اللي قتل ابني فأنا عارفه كويس مين وأنتظر يومي لآخذ منه حقي. يا الله، غيروا لي هذا الوجه واستقبلوا الناس وبلاش حركة بلا طعمة.

- لم يطلب منهم أحد فعل ذلك.

- خير والدي سابق. كثيرا ما وضع حياته في خطر فقط لينقذ أناسا من هذا العمى الديني الذي بدأ يدخل إلى بلادنا بقوة ولم يكن موجودا بهذا الشكل المرضي.

- نقبل بالمسيحيين ولا نقبل باليهود.

- في يوم الغفران؟ هذا هو الجنون بعينه وهذا هو العمى الذي لا دواء له؟

ثم فجأة، وكأنهما اتفقا بشكل مسبق، خرج خالي من الباب الخلفي

دقائق قبل دخول الوفد ومن يومها، لم نعثر لها على أثر. كان المرض وحالة العمى قد استفحلا. وتحمل خالي كل شيء على ظهره وحيدا مع أنه كان أكثرنا تألما وإحساسا بالفداحة.

لم يطل مكوث الوفد كثيرا. قدم عزاءه وأشاد بخصال جدي مذكرا بخيره تجاه المحرومين وكيف راهن بحياته مقابل إنقاذ من كان يخالفه في الدين وألح على ضرورة الحفاظ على السلم بين كل الناس. ثم سرعان ما تمزق الوفد في عمق الشارع فانسحب المسيحيون باتجاه الكنيسة الوحيدة في المنطقة بينما غابت البقية في عمق الحي اليهودي باتجاه الكنيس المحاذي لحدود حارتنا، وهم يضعون أيديهم على أفواههم.

أشياء كثيرة تغيرت بسرعة. تقلصت الوجوه فجأة بعد احتفالات رأس السنة وضاقت قلوب الناس. توغلت الخيبة في الأعماق المهزومة، وصارت كرة من الحقد. الكثير من المعابر أغلقت ومنع على اليهود العبور منها حتى للصلاة ولولا أن الإنجليز فتحوا طرقات كثيرة لتفادي المشاحنات لتعقد الأمر أكثر. في المعبر المؤدي إلى الشارع الذي يتوغل عميقا في الحي اليهودي، رميت ثلاث جثث ليهود كانوا مع الحامية الإنجليزية، يرافقونها في كل تحركاتها، وكتب عليها:

إلى الجحيم. كل من يتعرض بمكروه لآل الحسيني سيلقى نفس المصير.

وبدا واضحا أن المدينة صارت تغلي داخليا. غاب الكثير من الناس فجأة.

أمي ومانيا وخالتي زهية وبقية نساء العائلة، أُصِبن فجأة بحالة هستيريا. لا يرتحن إلا إذا دخل كل سكان البيت واطمأنن على بقية العائلة. وبدا لأمي كأنها أخطأت حينما تركت أرض الشام. لاحظت ذلك في عينيها الصافيتين عندما نادتني بعد العشاء. عرفت بحاسة شمي الخاصة، أنها كانت تريد أن توصل لي مسألة في غاية الأهمية:

- قولي يا يما صفية، وحياتك أنا حاسس بك.
- مين غيرك يحس بي؟ وحياتك يا شريف لا أدري ولكني بدأت

أتساءل، ما الذي قادني إلى هذا الخراب؟ أحيانا أندم على كل ما صدر مني. لم يكن من الضروري ترك دمشق فهناك أحبابنا وأهلنا. حتى خالتك بعد وفاة الوالد بدأت تفكر جديا في الرحيل إلى أمريكا عند أخواتها هناك. وجدت سببا وجيها لخروجها: البحث عن وسيلة لشفاء زوجها خصوصا بعدما قيل لها: إنه ليس حالة مستعصية أو مستحيلة. ولكن الأعماق أعرفها، بدأت مثلي تفقد الأمل في الحياة في هذه الأرض التي ستأكل أبناءنا وتأكلنا واحدا، واحدا.

- من حق خالتي أن ترى مسلكا لحياتها الصعبة. شابة وتستحق أن تعيش حياة أفضل. بس أنا، هذه كذلك أرضي وأرض أجدادي يا يما؟ أنت لم تفعلي شيئا سوى العودة لذويك.

- نادمة يا حبيبي. نادمة موت. كانت أرضنا هناك أرحم من هنا.

كنت أدري ما كانت تخبئه أمي وما كانت تقصده. لم تكن قادرة على نسيان مقتل مازن وهي تراني فيه، وعز الدين الذي تركته يموت وكان بإمكانها إنقاذه. يبدو أن ذاكرتها ماتت على صور افترضتها ونامت فيها.

- شو رأيك نعود عند أعمامك للشام؟ الدنيا صارت فيها أكثر هدوءا ودارنا ما تزال هناك؟ شو معنى البقاء هنا إذا صار العيش على هذه الأرض جحيما؟

- وزوجتي مانيا وخالتي وأخوالي؟

صمتت قليلا ثم التفتت نحو الحائط قبل أن تجد كلماتها الهاربة:

- يا روحي، مانيا زوجتك وتروح معك، أنتما صاحبا الشأن في حياتكما لكن خالتك لها زوج وقد اختارت طريقها إلى نيويورك نحو أخواتها وأخوالك لهم أراضيهم وأعمالهم ويصعب عليهم ترك كل شيء للذئاب والفراغ.

فهمت بدقة تماما ماذا كانت تريد مني.

- وأنت يا يما ماذا ستفعلين؟

- أنا؟ ما فيه مشكل. أبقى هنا مع أهلي وإخوتي، ومن حين لآخر أزوركم في الشام. الشام يا روحي على مرمى حجر ومو بعيدة أبدا.

- إذن فهمتك كويس، أذهب أنا ومانيا وأنت تبقين هنا.

- عين الصواب. أرضك هناك وبيتك وتلتقي بأعمامك وذويك وتعيد ربط صلة الرحم معهم.

- طيب ومين قالك أن مانيا موافقة على هيك مقترح؟ مانيا بنت القدس، كبرت وعاشت فيها ومن غير العدل أن تتركها كرما لي.

- اسألها أنت بنفسك.

من خزرة مانيا عرفت أن كل شيء كان قد تم بين أمي ومانيا. لم أسأل مانيا ولكني التفت نحو أمي ولا أدري لماذا تكلمت بتلك القسوة. أنبت نفسي في سري.

لم يكن من الضروري أن أشبه والدي في ردات فعله. شعرت بنفسي أني كبرت فجأة:

- لا يا يما. أهلي لم يربوني على الهرب. أنا باقي هنا مع أخوالي وسأموت معهم وأحيا في أحضانهم إذا كتبت لنا الحياة. وهذه يا يمّا أرضي مثلما هي أرضهم. أنا ما أفكر أرمي اليهود في البحر أو في صحراء سيناء والعقبة ولكن لا أحد يملك حق طردي خارج تربة أجدادي.

- لا أرض للصهاينة يا روحي، فهم يسرقونها بالقوة. وكل من يسرق شيئا فهو متيقن في أعماقه أن الشيء المسروق ليس له وإلا ليش عميسرقه؟

- يسرقون ما يسرقون، لهم حق في هذه الأرض. سكنوها مثلما سكناها. يا يما خلقنا وخلقوا كثيرا من الأساطير ونمنا فيها مثل الأموات بعد أن أمدتنا بكل الحلول الوهمية التي كنا ننتظرها. نحنا لساتنا أحياء يا يما، عمو عز الدين لم يكن ينطق عن الهوى. ما خرب عقولنا يا يما إلا هذا العالم الوهمي الذي نخلقه ونظن أنفسنا أننا الوحيدون المحقون به. ليش ما نتصرف بشكل عاقل؟ إذا فهموا أننا يمكن أن نعيش مع بعض

كويس وإذا ظنوا أنهم الوحيدون الذين لهم الحق، سننتزع حقنا منهم بالقوة.

- أنا خايفة يا روحي من هذه القوة التي لن تترك شيئا حيا على هذه الأرض. متأكدة أنها ستأكل الأخضر واليابس ولن تعمل إلا على ترميل جيل آخر من الناس الذين وجدوا أنفسهم في حروب لم يصنعوها ولكنها حضرت لهم لكي يموتوا بدورهم في أتون النار. متى نرث الحياة؟ يا الله جيل واحد على الأقل يمكن أن يورث للناس الرغبة في الحياة بدل الموت الدائم. أنت فاكر أنا أقدس الموت؟ حرام عليك. يكفيني أني خسرت من أعزهم في هذه النيران التي لن تتوقف عن طلب الحطب البشري.

- لهذا سأبقى هنا يا يما حتى يرث الله بشره وترابه.

لم أكن أفكر في شيء. كان خالي إبراهيم يأسرني بحسه وعنفوانه وشجاعته وكان عمي عزالدين وسماحته وشجاعته يدفع بي عميقا نحو البحث عن مسلك يوصلني إلى حقول النار للدفاع عن أرضي. أحيانا أقول في خاطري، لو كانا حيين لحدثتهما عن راشيل وعن قلبها الطيب وعن سماحتها وجرأتها في الاعتراف بخطئها ورغبتها في السفر إلى أبعد نقطة لكي تنسى ما حصل لها في فلسطين ولكن الأيادي العمياء لم تمهلها لكي تستجمع أدواتها وتلتصق بإحدى عربات قطار حيفا.

ربما لهذا السبب اشتهيت أن أكون بجانبها في اللحظات الأكثر صعوبة.

مانيا ومايا اللتان لم تكونا تفهمان ما كان يدور في الدار، كانتا تنظران إلي بعيني عصفور يتيم في قبضة شيء يشبه الموت بينما أمي لم تملك مسك دموعها. ندمت على حديثي مع أمي بتلك الطريقة ولكني شعرت في لحظة من اللحظات بأني كنت على حافة سفر أو خروج ما، على الرغم من أن إشارة خالي إبراهيم طالت علي ولم يظهر ما ينبئ بمروره لكي أصحبه نحو الجبهة.

-٤-

لم نخرج منذ يومين.

المطر. لا شيء غير السيول التي تضبب الرؤية والرياح الغربية التي كنست كل شيء.

عادت مايا التي أرهقتها الحمى ليومين إلى شقاوتها المعهودة وإلى أسئلتها الطفولية المحيرة، وعادت النافورة إلى غيها وموسيقاها ولكن البيت الكبير كان فارغا وحزينا. سفر خالتي زهية أو المازوزية كما كان يسميها جدي، وزوجها وابنها جاد إلى نيويورك خلف فراغا مهولا. قال لها الطبيب الإنجليزي الذي كان يتابع حالة زوجها وخالاتي من هناك إن حالة زوجها غير ميئوس منها، صدمة ويمكن أن يستفيق منها بفضل الأدوية التي جربت على الكثيرين ممن هم في وضعه وأعطت نتائج طيبة. لا أدري إذا ما كان هذا هو سبب سفر خالتي ولكننا اتفقنا جميعا وبشكل عفوي على أنه هو الداعي الأول لهذه السفرة. لم نكن نريد التفكير كثيرا وكنا في حاجة ماسة لسبب يزرع بعض الطمأنينة ولا يوقظ الجروح والمدافن المزروعة في الأعماق كالقنابل الموقوتة.

التحقت أصغر خالاتي وأطيبهن واقلهن حظا، وختمت منفى النساء. كلهن صرن من وراء البحر ونجحن إلى حد كبير تجاريا. فقد التحقت بأخواتها هناك وسمعت أخيرا لكلام جدي الذي ظل يوصيها بالارتكان إلى أختها الكبرى دنيا التي كان يقول عنها إنها تساوي سبعين رجلا، على العكس من أمي التي كلما فتح جدي الموضوع أمامها، خشنت رأسها وأجابته بصرامة وبلا تردد: «لا يا بيي، أنا مليحة مع ابني وزوجة ابني وأخواتي. ما أقدر أفارق هذه الأرض، لي بها ما يربطني يا بيّي». خالتي زهية هي كذلك ظلت رافضة بحدة لأي حديث عن السفر والغربة قبل أن تنصاع. الوحيدة التي يقبل جدي منها لغتها الحادة هذه. يقول عنها آخر العنقود. المازوزية أو المعزوزية، أي الأكثر معزة:

- شو مليتني يا بيي. خلاص انتهت محبتك الزائدة لزهية؟ للمعزوزية؟

- حاشا أن أمل حبيبتي وروحي. مين اللي يمل روحه وعمره؟ بس أنا قلت أخواتك هناك ويمكن أن يفتح الله عليك وعلى زوجك. لقد سرق منكم الصهاينة كل شيء، حتى صحة عماد الله يشفيه من صدمته. وأخواتك ما راح يقصرن في الواجب. في كل رسائلهن دعوة دائمة لك ولزوجك. الله ميسر لهن في كل شيء. أنا قلت يا بنتي فرصة يجب استغلالها قبل فوات الأوان. حالة عماد عجبتك؟ طبعا لا. إذن افعلي شيئا من أجله ومن أجلك، من حقك أن تكون حياتك أفضل.

- يا بيي، أخواتي، كل واحدة تبعت زوجها، اللي زوجها الحسيني واللي النشاشيبي واللي الخالدي، وأنا يا بيي أتبع مين؟ زوجي على قد حاله ومريض وما إلنا مال قارون حتى نقدر نعيش في نيويورك؟ حياتي على هذه الأرض مع ابنتي وزوجها وإخوتي وزوجاتهم.

- في هيدي ماني موافق معك يا روحي. أنت كمان مو شغله هينة؟ من عائلة الحسيني من نسل بنت الرسول الأعظم التي ملأت الدنيا بنضالها وأعمالها الكبيرة. وهذه الأرض أرضها بامتياز. أنت تعرفين أن معابر باب المغاربة وطريق البراق، ملك من أملاكنا الموثقة ومع ذلك خوفا من تعميق المشاكل سكتنا على الشيء الكثير وسنعود إليها عندما تستتب الأمور. الأمير سعيد مش مقصر في الدفاع عن هذا الحق المغربي القديم والعظيم. يقاتل من أجل استرداده.

- الله يعينه على هيك شغل مستحيل.

أمي رفضت بصرامة، وأغلقت أبواب المنفى نهائيا، ربما لأنها عاشت دائما بعيدة عن العائلة وعن إصرار جدي لإنقاذ بناته من الاعتداءات اليهودية والإنجليزية، وكونت أحاسيس خاصة بها تجاه الأمكنة وحسمت خياراتها في وقت مبكر بينما آخر خالاتي قاومت فكرة المنفى ولكنها في الأخير استراحت لكلام الأطباء ولنصائح أخوالي الذين نجحوا حيث فشل جدي وليأسها من كل شيء.

لم نخرج منذ يومين.

المطر يجمع لأول مرة كل أفراد العائلة باستثناء خالتي زهية المعزوزية، أم مانيا وزوجها وجاد.

سفرها المفاجئ خلف فراغاً حول الطاولة في جنينة البيت مما أعطى الإحساس بالفقدان والوحدة. الانشغالات اليومية تنسينا كل هذه التفاصيل ولكن المطر والوحدة والخوف أحيانا يذكروننا بهذا الفقدان الذي لا يعوض أبدا ولا يجد ما يملؤه إلا النار التي تأكل في الروح، يابسها وأخضرها.

ويبدو الشتاء داخل هذه العزلة كأنه يأتي متقدما قليلا في القدس على غير عادته، عنيفا وحادا وممطرا على القمم المحيطة ولم تمنع رطوبة البحر الميت الثقيلة من تكدس الندف الثلجية على حواف القدس.

بمجرد انتهاء رياح أواخر الخريف الصفراء المليئة بالغبار والأوراق الميتة التي تكنس المدينة كليا، تنزل البرودة بشكل فجائي ويغير المقدسيون من عاداتهم اليومية وحركاتهم المتكررة، فيتهيئون في ملبسهم إذ تميل أجسادهم نحو الشراويل الفضفاضة من الكتان الخشن والأحذية الجلدية والجزمات التي لا يدخلها الماء من جوانبها. ويتغير حتى نظام غذائهم إذ يكثر الاعتماد على المونة من تين وزيتون والخضر التي جففوها طوال فصول السنة حتى يتفادوا الخروج المجاني والسقوط في الحاجة. وتكثر حركة الناس في المقاهي الشعبية وينزوي الحكواتي في المساءات الباردة، في مجلسه الداخلي المعتاد بعد أن تغلق الأبواب الخارجية للاستفادة من أنفاس الحضور لتدفئة المقهى ويبدأ نسج قصصه التي تُعلَّق نهاياتها إلى اليوم الموالي في ذروة أحداثها ولا يتراجع الحكواتي عن قراره ولا يلين لاستعطافات الزبائن لمعرفة البقية. تربت على رؤوسهم ويتمتم:

- عودوا بكره وستعرفون البقية.

- بدي أعرف بس إذا تزوجت الجارية من دياب الخشن وإلا لا...؟

- يا حبيبي كم من امرأة رقيقة وناعمة وقعت بين براثن طاغية! إذا أحببت أن تعرف، ما عليك إلا أن تأتي غدا وتشرب لك شي كاسة قهوة مضبَّطة، وبعدها نشوف شو اللي راح يحصل لهذه المسكينة، ما رأيك في هكذا مقترح؟

- جيد. . . بس. . . تزوجت وإلا ما تزوجت مع هيك وغد.

- بكره، خليك من الأوائل حتى لا يذهب عليك نصف القصة الأوَّلاني.

وعندما يفشلون في إقناعه وييأسون تماما من جره نحوهم، يتضاحكون ويتبادلون الفرضيات. أحيانا يدخلون في مراهنات وكل واحد يفترض شيئا ويصر على أنه هو النهاية الحقيقية: تزوجت. . . لا والله ما تزوجت. . . ثم يتبعثرون كل واحد في اتجاه بخطاهم الثقيلة التي تغوص في الأوحال ولا تخرج إلا بمشقة زائدة.

في البداية هبت رياح قوية، ثم تقوَّت أكثر حتى صارت عواصف جلبت معها رمال البحر الميت ورائحة ملوحته الثقيلة قبل أن تنهمر الأمطار بقوة محدثة فجوات كبيرة في المدينة القديمة التي انهارت فيها الكثير من البنايات المتهالكة التي لم تلحقها الصيانة على الرغم من إلحاح جمعية محبي القدس Pro-Jerusalem Society التي أسسها ستورس في سنة ١٩١٨، والتي أصر أعضاؤها على أولويات عمليات الترميم. حتى نهاية العهد العثماني لم يكن هناك أي مخططات للمسطحات المدنية في القدس. فقد اقتصر عمل الباب العالي والسلطات المحلية على الإشراف على إدارة المدينة ولأسباب أمنية غامضة، تم تطبيق قانون عثماني يمنع بناء أية منشآت ضمن مساحة تقل عن ٢٥٠٠ فرسخ (١,٥ كلم). كانت أهداف جمعية محبي القدس هي الحفاظ على المباني التاريخية وإعادة إحياء المدينة اقتصاديا. وقد استطاع ستورس أن يجند معه مجموعة كبيرة من نخبة المدينة في مجلس إدارة الجمعية، منها رئيس البلدية موسى كاظم الحسيني، وحاخام إشكنازي وآخر سفاردي ثم البطاركة الثلاثة الأرثوذوكسي واللاتيني والأرميني ومطران الطائفة

الإنجليكانية وغيرهم من وجهاء المدينة. وقد ارتكز التخطيط للمدينة على مهندسين رائدين هما وليم ماكلين الذي أتى به ستورس لوضع مخطط هيكلي لمدينة القدس، وتشارلز آشبي الذي رسم التصور العام لمستقبل القدس القديمة/ الجديدة. جاء بآشبي في البداية لإحياء الصناعات الحرفية في فلسطين إلا أنه سرعان ما تجاوز هذه المهمة المحدودة ليصبح سكرتير جمعية محبي القدس ثم المنسق العام لها. واستطاع أن يبلور حلولا كبيرة لمشكلات القدس العصرية من دون أن يتخلى عن مخططات المحافظة على الطابع المعماري للبلدة التاريخية، وعلى خصوصية الأماكن المقدسة. فقد استطاع أن يجمع بين الرؤية الرومانسية للنموذج الشرقي للمدينة وبين التخطيط العملي لمتطلبات المدينة اليومية. ولإحياء الحرف التقليدية في المدينة، فقد جلب للقدس خزفيين مهرة من مدينة كوتاهية في الأناضول وأتى من الخليل بصناع الزجاج. رمم سوق القطانين في البلدة القديمة وجدد قيشاني قبة الصخرة مع دائرة الأوقاف ورمم مدارات أسوار المدينة التي بناها سليمان القانوني في القرن السادس عشر، وقلعة البلدة القديمة في باب الخليل. لم تسر الأمور دائما بسهولة. فقد حدث أول اصطدام فعلي بين مجلس بلدية القدس وجمعية محبي القدس بشأن التخطيط الحديث للمدينة. ففي سنة ١٩٠١ كانت السلطة العثمانية أمرت ببناء برج الساعة الشهير داخل ساحة باب الخليل، في المدخل الغربي للمدينة وذلك احتفالا باليوبيل الخامس والعشرين لاعتلاء السلطان عبد الحميد العرش. اتخذ آشبي قرارا بإزالة النصب التذكاري وتدميره لأنه كان يتعارض مع الطابع التاريخي لسور المدينة وكان مهجنا من عدة أنماط معمارية. وعلى الرغم من المعارضة، تمت إزالة النصب التذكاري. لقد قضى آشبي وريتشموند وقتا كبيرا في أعمال الترميمات الميدانية في منطقة الحرم الشريف وفي إصلاح سور المدينة.

كنت وراء النافذة المطلة على الحديقة أتأمل تلك السيول وهي تضرب الزجاج بقوة وتسيح باتجاه النافورة قبل أن تجد مساربها الطبيعية

وتندفن في جوف الأرض. كانت الرياح الخارجية قوية ولكن شجيرات المسك الشامي كانت تقاوم بقوة بالانحناء والصعود بحسب قوة السيول الكبيرة والرياح. الشمس التي بزغت لفترة قليلة ومحدودة لم تكن كافية لتدفئة الجو.

بعد الظهر عندما انسحبت الأمطار، نزل فجأة ضباب ثقيل أعمى الطرقات والممرات. تذكرت الشام وأعالي قاسيون، عندما ينزل الضباب القادم من فجوات الزبداني والجبال المحيطة وطريق بيروت. تغمرني سعادة نادرة وأجدني فجأة خفيفا كالورقة الطائرة. أبحث عن مانيا وسط الضباب الكثيف. تهرب مني كالماء وتغيب وسط كثافته اللدنة. لا أسمع إلا صوتها الذي أحاول أن أجمعه في كف يدي من قطرات الندى وأضعها عند أذني فيأتيني قريبا من قلبي مسكونا بأشواق لا حصر لها:

- وينك يا مجنونة؟ أخاف عليك أن تخطفك عفاريت الضباب.

- أنا هون... هون... بقلبك يا مهبول. بس مد يديك.

أمد يديَ كالأعمى فتقطفان فراغا وبقايا صوت انساب داخل ذرات الضباب. فجأة يقترب صوتها ويتمادى في حفيفه الذي أشعر به في ممسك يدي، حتى يختلط جسدي بجسدها وسط كتل من الضباب لا يحبها الناس كثيرا ولكنها كانت بالنسبة لنا مثل الغطاء الجميل الذي يلفنا عميقا في أحضانه. هوني... لا... لا... هوني... بس مد يديك وأغمض عينيك... أمد يدي وأغمض عيني فأحس بها تعبر جسدي في لمحة كالشعاع وتخرج من الجهة الأخرى، تلف خصري وتلتصق به طويلا قبل أن أتأكد أنها هي حقيقة، ألمس يديها المرتعشتين، وجهها ثم شفتيها.

- ياه؟؟؟ هذه هي أنت بكل هذا البهاء؟

- هذه هي أنا كما تحسني.

يخف صوتها ويصير ناعما كالحفيف.

- كيف تفعلين حتى تنسابني وسط هذا الضباب الآتي من بعيد؟

- لا شيء. أتحلل... أختلط مع ذراته ثم أنساب فيه. كويس هيك كلام... هاها...هاها... هاها...

ثم تغرق في ضحكتها التي لا حدود لها.

كنا في دمشق وكانت طفولتنا في أقاصي المتعة والبهاء.

فجأة سمعت حركة أخرجتني من غفوتي وأبعدتني من النافذة. جريت نحو أمي التي سمعت نشيجها.

أمي عندما رأت خالي زكريا وخالي يحيى وخالي إبراهيم، كاد يغمى عليها.

لم نكن ننتظرهم. كنا نعرف أن خالي إبراهيم انضم إلى صفوف المقاومة السرية ولم يكن أحد يعرف عنه ذلك ولكننا لم نكن نعرف أن بقية أخوالي انضموا للمقاومة المضادة لعمليات الهاغانا. أمي لم تفاجأ إلا بمجيئهم ولكن أخبارهم كأنها كانت تعرفها بتفاصيلها. كانت تستمع وتكمل بقية أحاديثهم. كانت الوحيدة التي تعرف سبب زيارتهم. لم تكن موافقة على مقترحاتهم التي كنت أجهلها تماما.

قال خالي يحيى:

- خاطرت بحياتي وبحياة الناس الذين يرافقونني وعليك أن تتخذي موقفا نهائيا.

- شوف يا خيي بحبك وبحب قلبك وعواطفك وخوفك علينا وعلى شريف، بس هيدا مو حل. ابني سيبقى معي. لا، لن يرجع إلى دمشق، خوضوا حروبكم وحدكم وافرحوا بفتوحاتكم أريد ابني. يكفيني أني خسرت أباه في حرب مجنونة لا أدري بالضبط ماذا ربحنا من ورائها. الأرض كل يوم تسرق وعلى مرأى من الجميع، فماذا فعلنا لإيقاف هذه الطاحونة؟ وماذا فعلوا لإنقاذ أرضنا من التلف والضياع؟ موتوا إذا شئتم ولكن اتركوا لي ابني.

- هل تريدين الحقيقة المرة؟ ابنك سيقتل إذا بقيت على هذا التعنت.

- لا. أنا مسؤولة عن ابني وزوجته.

صرخت أمي ببرود لم أعهده فيها. ثم تشبثت بي ولم تتركني لحظة واحدة بينما قبضت مانيا على يدي وهي لا تعرف ما كان يجري في البيت.

أغلق خالي يحيى فم أخته ليحد من صوتها العالي:

- شو مجنونة بدك تودينا في ستين داهية. أنا ما أخيرك. سآخذه وإلا ستقتله الهاغانا أمام عينيك. أنا متأكد من أنهم سيأتون الليلة لزيارة البيت. عيوننا في مقهى الساحة عرفوا كل ذلك. اخرجي أنت ومانيا واذهبا عند أختك زهية، بيتها في مأمن وفارغ منذ سفرها.

- لن أخرج من بيتي ولن أترك بنت أختي لحالها.

- يبدو أنك لا تسمعين. أنا قلت لك اخرجوا جميعا من هذه الدار. خذوا كل ما هو ثمين ولا تبقوا هنا خصوصا بالليل. أبناء الكلب يتصيدون البيوت الآهلة بالنساء فقط. مثل الكلاب المسعورة يريدون الانتقام من مجزرة المسجد ومن المخبر الذي علقه الثوار على شجرة السرو. وقد قدمنا شكوى للإنجليز ولكننا نعرف جيدا أن الإنجليز على الرغم من كرههم للهاغانا لن يفعلوا شيئا يغيظ الوكالة اليهودية.

- طيب، شو بيعملوا هوني هالإنجليز؟ يرحلوا عنا. اللي فينا يكفينا.

- حتى هم لم ينجوا من عمليات الهاغانا. صاروا مثل العميان، يضربون يمينا وشمالا. أيام فقط يبتعد فيها شريف عن هذا المكان حتى نتدبر أمره ويعود إلى بيته. ما راح أرحله إلى الشام ما دمت غير راضية.

خالي لم يكن مخطئا، في الصباح كان جزء من الدار رمادا، فقد أشعلت فيه النيران ولم يسأل أحد عن الناس النيام. نية القتل كانت ظاهرة للعيان ولولا تدخل الجيران لإطفاء الحريق لأتت النار على كل شيء. في الصباح عندما ذهب خالي مصطفى باتجاه الشرطة الإنجليزية. سجلوا الدعوى ضد مجهول ووعدوه بالمرور ليلا والبحث عمن كان وراء الجريمة. هذا هو رد فعل الإنجليز المتكرر دوما. التحيز أصبح

واضحا. يكفي أن يعين مسؤول من أصول يهودية أو متعاطف معهم ليتغير كل شيء وتنهار حيادية السلطة النظامية.

منذ ذلك اليوم، كان عليَّ أن أنسى الطفل الذي عشق الكتب والموسيقى لأنه انضم نهائيا إلى ما كان يحدث داخل وطنه والى المقاومة السرية التي كانت تحضر حربها خصوصا مع نغمة تخلي الإنجليز عن الانتداب والانسحاب. كان أغلب أخوالي والجيران والمنتمون إلى أحزاب واللامنتمون ورجال الدين، يعرفون جيدا أن الانسحاب هو لعبة مكشوفة لتسليم أرض فلسطين لليهود بعد أن حضروها لهم وحضروا الهاغانا عسكريا ودعموهم بالأسلحة ودربوهم وكثفوا الهجرة المتحمسة لإعادة الأرض المسلوبة. أصبح كل شيء واضحاً ولم يعد يثير أية شبهة. كان على المقاومة أولاً أن تعمل على تجميع كل الأسلحة الممكنة حتى ولو كانت العقوبات الإنجليزية للحائزين على السلاح قاسية، تنتهي بسلب الأرض والاضطرار لبيعها لدفع الغرامة التي تثقل كاهل العائلة والسجن وأحيانا حتى الإعدام للتخلص من حامل السلاح.

كنت أشتهي أن أكون مع خالي إبراهيم لكن الأشياء سارت بسرعة. زمن آخر كان قد بدأ.

لا لوزَ في نيسان

-١-

عندما توقفت السيارة عند باب المعسكر ونزل منها خالي إبراهيم الذي كان يشبه أمي كثيرا، شعرت بسعادة غامرة. لم يكن وجهه مضاء كما هي العادة كلما رأيته. هذه الحالة صاحبته منذ أن التقى مع الوفد الذي عاد من القاهرة بعد أن حضر اجتماعات جامعة الدول العربية. لم يكن سعيدا إذ كانت الحيرة تقرأ بسهولة في عينيه وعلى ملامح وجهه الذي لم تضببه حتى حرب العلمين.

كنت منكفئا على الجريدة ومنشغلا بالأخبار التي كانت تحتوي عليها. لم يكن الأمر مطمئنا. خروج الإنجليز المفاجئ لم يكن يبشر بأي خير. عندما جلس خالي بقربي بعد أن حيا الجميع. أردت أن أقوم له كما يفعل الناس معه عادة ولكنه وضع كفه على كتفي ومنعني من الحركة.

- ارتح. خلص قراءتك لا تشغل بالك. ما في الجرائد أهم بكثير مما سأقوله. كلها تتحدث عن خروج الإنجليز المبكر ونحن نيام على آذاننا. خيبة وراء خيبة ولا حركة طن تنادي. ما يزالون غارقين في نواقض الوضوء والماء دخل إلى سراويلهم.

كنت أعرف الألم الذي كان يعانيه داخليا من الخيبات العربية.

- خيبة كبيرة، الإنجليز استسلموا إلى هذا الحد لضغط الحركة الصهيونية؟ قلتها وأنا أحاول أن أفهم صمته وهو منكفئ على الجريدة.

- لا مناص من الخيبة ولكن مع ذلك يبدو لي أن حرب العلمين ومخادع الغاز القاتل لم تكن كافية لكي يتعلم البعض من أخطائهم في التقييم، وأنهم البارحة فقط كانوا ضحايا فكيف يصبحون جلادين. أتساءل أحيانا كيف يقبل إنسان كان على شفير الموت والفناء أن يتحول في لحظة واحدة من ضحية إلى مجرم؟ إذا استمروا على هيك وضع سيضاهون القتلة في جرائمهم ومقاتلهم.

- قصدك شلومو.

- شلومو وغيره. لا يهم الفرد بقدر ما تهم الحالة الصعبة. لم يمنعه أحد من الاعتزاز بيهوديته ولكن السقوط في براثن الصهيونية التي هي الوجه المقلوب للنازية هو ما يحير. كم كنا نحلم جميعا ونحن نواجه نيران العمى بمجتمع ديمقراطي يفتح أمامنا وأمام أبنائنا سبل الحياة وليس الموت ويوفر لهم فرصا تجعل من الحياة مبتغى وهدفا منشودا. أن نورثهم شيئا من الحب وليس أساطير خاوية يتقاتلون من أجلها. كم كنت أشتهي أن أجعل من قصتك مع راشيل نموذجا لهذه اللحظة الإنسانية الممكنة التي تقع خارج بؤس الأديان، ولكن مانيا بنت خيتي وحبيبتي، وفنانة رقيقة وتستاهل كل خير. يبدو أن ما حدث بينك وبين راشيل، على بساطته كما رويتَ لي، لن تكتب له الحياة ولا طول العمر مثل المولود الذي جاء قبل وقته ثم اندثر. ليس من السهل أن يتنازل الجميع فجأة عن قرون من الأسئلة المؤجلة والبدء من الصفر.

- معك حق يا خالي ولكن حكاية شلومو معقدة وليست بهذه البساطة، مش لدرجة الانتساب إلى الهاغانا. فهو متبوع بتهمة محاولة اغتيال ضابط بريطاني. يقال إنه صار على رأس مجموعة من الأرغون ومعجب كثيرا بقادته الذين يتلقى منهم الإشارات مباشرة.

- يظن أنه يؤسس دولة مصطنعة ولكنه ينسى أن لديه وطنا اسمه فلسطين هو ملك لليهودي والمسلم والمسيحي وليس حكرا على أحد. نظن بأنه يمكن تشييد وطن انطلاقا من هذه العراقة. قاومت النازية وأقاوم عنصرية الصهيونية. في هذه الحالة ليش رفضنا التقسيم وليش نظرنا بنظرة

الريبة لتصور نوري السعيد الذي يعتبر رجل الدولة العربي الوحيد الذي كانت له رؤية؟ فهو الذي قدم الكتاب الأزرق الذي وجهه في سنة ١٩٤٣ إلى وزير الدولة البريطاني المقيم في القاهرة وفحواه، كما تعرف، قيام وحدة لدول سورية الجغرافية (سوْرية، ولبنان، وشرقي الأردن وفلسطين) يتبعها اتحاد فيدرالي بينها وبين العراق، على أن يمنح الوطن القومي اليهودي في فلسطين حكما ذاتيا في مناطق اكتظاظ اليهود وكذلك بالنسبة إلى موارنة لبنان. وقامت جامعة الدول العربية لتحل محله وتفجر حلمه الذي سبق أن رفضناه. حتى شلومو رأى فيه أداة لتمزيق فلسطين التي قاومت زمنا طويلا وبقيت حية. فكرة نوري عندما خرج من اجتماع جامعة الدول العربية: دول الجامعة غير جادة في التصدي للصهيونية، فالتفت نحو بريطانيا لتحديث جيشه. رئيس حكومة شرقي الأردن توفيق أبو الهدى لم يكن أفضل من غيره فهو لا يعارض تقسيم فلسطين مثلما جاء في مذكرته التي بلغها لبريطانيا منذ ١٩٤٤ ولا يمانع من ضم المناطق العربية الفلسطينية إليه. وقبل قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة بأسبوعين وتم اللقاء بين الملك عبد الله وغولدامئير عن الوكالة اليهودية في مستعمرة نهرايبم في الضفة الشرقية قرب بحيرة طبرية، تمَ التفاهم على مبدأ التقسيم وعلى مقاومة الحاج أمين الحسيني. والتزمت عمان بعدم دخول جيشها في الفيلق العربي، المناطق اليهودية وحضر اللقاء قائد الفيلق العربي غلوب باشا Glubb البريطاني الذي دوَن محضر اللقاء بينه بين توفيق أبي الهدى ووزير الخارجية البريطاني بيفن Bevin في لندن. كل شيء ينذر بوضع خطير ليس شلومو فيه إلا صفحة صغيرة من كلٍ معقد ومركب.

– والحل.

– رجالنا هم ملح هذه الأرض. سنبذل مجهودا لنجعل من هذا الزمن زمنا يحبه أبناؤنا وإذا لم نستطع سيأتي من هو أفضل منا لا محالة. الوقت الذي بين أيدينا لم يعد كافيا. قرار الانسحاب البريطاني وضعنا أمام حقائقنا التي نرفضها ولا نقبل بمواجهتها.

خالي إبراهيم كان محقا. فقد تسرب خبر مغادرة الإنجليز وانسحابهم كالنار في الهشيم. وكل الناس يتساءلون في حيرة، بين السعادة والخوف عما يضمره هذا الانسحاب.

- المسألة لا تحتاج إلى تفكير. إنهم يتهيؤون لمنح فلسطين للصهاينة وليس لليهود. لم يمض على قرار التقسيم أسبوع حتى أعلنت بريطانيا أنها ستسحب إدارتها المدنية وجيوشها من فلسطين وتنهي انتدابها عليها نهائيا في ١٥ مايو ١٩٤٨ وبذلك حددت الساعة الصفر لذلك. هل لديك شك فيما ينتظر هذه الأرض الطيبة؟

في لحظة غفوة رأيت الناس، كل الناس، يشحذون الهمم ويتهيؤون للموت الأكبر. كل واحد كان يسنُّ سكينته الطويلة على صخور الصوان لتصبح حادة مثل الخوف.

- شايف يا خالي اجتماعات الجامعة العربية شو بتجيب معها؟ لا شيء أبدا. الكل يتحدث عن ذلك وكأنه حدث مهم مع أني أشك في قيمته البعيدة؟

- يمكن ما بتجيب شي مهم ولكن اللواء صفوت الذي كنت معه قبل يومين ليس مطمئنا بل إنه يرى التحضيرات ليوم الفصل في غير المستوى. هو يعرف جيدا ما يحضره الهاغانا. فقد نبه العرب إلى شيء في كل مرة ينسونه، أو يتناسونه كلما أقدموا على حرب. ما قاله اللواء إسماعيل صفوت في الاجتماع لم يكن كلاما عاما ولكنه كلام رجل مختص وهو رئيس اللجنة الفنية. فقد أعاد ما قاله في تقريره الأول الذي قدم لمجلس الجامعة عند انعقاده في عاليه من ٧-١٥ أكتوبر قبل قرار التقسيم من أن ليس للعرب في فلسطين ما يقبل القياس بما لدى اليهود من القوة عددا وتنظيما وتدريبا وسلاحا وعتادا وقوات احتياطية وإمدادات من وراء البحار وأن التغلب عليهم بقوات غير نظامية أمر شبه مستحيل. يجب التسلح بشكل حديث والانتفاع إلى أقصى الحدود من القوات الفلسطينية وأن عنصر الزمن في صالحهم. المهم هو مناداته بإنشاء قيادة

عربية موحدة تخضع لها جميع القيادات الفرعية واقترح بشكل عملي بأن تهيئ الدول العربية قوات تدخل على النحو الآتي: فرقة من ثلاثة ألوية أحدها آلي بمصر وفرقة من لواءين زائد القوة الآلية بالعراق ولواء معزز زائد كتيبة آلية زائد كتيبة خيالة بسورية، وفوج معزز مع ما تيسر من مصفحات بلبنان على أن يتم تدريب لواء نظامي فلسطيني.

- شو اللي صار؟

- شيء خير من لا شيء. فقد استلمت اللجنة الفنية ٧٠٠ بندقية من سورية و ٣٠٠ بندقية من لبنان و ٢٥٠ متطوعا فلسطينيا التحقوا بمعسكر التدريب وأرسلت سوريا بعثة إلى الخارج لشراء ٨٠٠٠ بندقية. وناقشت اللجنة السياسية تقرير اللواء صفوت بحضور محمود فهمي النقراشي (مصر) والأمير فيصل آل سعود (السعودية) وسمير الرفاعي وزير خارجية شرقي الأردن، وصالح جبر (العراق)، ورياض الصلح (لبنان) وجميل مردم بك (سورية) وعلي المؤيد (اليمن)، وعزام باشا (الأمانة العامة) وكان أهم قراراتها إحباط مشروع التقسيم والحيلولة دون قيام دولة يهودية في فلسطين والاحتفاظ بفلسطين عربية مستقلة موحدة. وإمداد اللجنة الفنية التي أصبحت هي اللجنة العسكرية الدائمة حالا ب: ١٠ آلاف بندقية توزع على الدول العربية كالآتي: شرقي الأردن ١٠٠٠ بندقية، سورية ٢٠٠٠ بندقية، العراق ٢٠٠٠ بندقية، مصر ٢٠٠٠ بندقية، لبنان ١٠٠٠، على أن تصحب كل بندقية ب ٥٠٠ طلقة على الأقل وإرسال ٣٠٠٠ متطوع على الأقل إلى معسكر التدريب في سورية كاملي العدة قبل منتصف شهر يناير موزعين على كل الدول العربية منهم ٥٠٠ على الأقل من فلسطين. واختير اللواء إسماعيل صفوت قائدا عاما لجميع قوات عرب فلسطين ومتطوعي البلاد العربية. وكل الأخبار تتحدث عن دخول الحاج أمين الحسيني وبحوزته ٢٠٠ بندقية و ١٠ رشاشات وكره لا يضاهى لليهود ونصف مليون طلقة وثلاثة أطنان من المتفجرات ونظم خمسين خلية تضم كل منها عشرة مجاهدين مسلحين متفرغين للقيام بأعمال الحراسة في يافا وحيفا والقدس. لكني أشعر بأن الكثير من

العرب لم يوفوا بوعودهم وأن الالتزام الأدنى من طرف كل جهة إلى الآن ما يزال محدودا وناقصا.

– طيب ومقابل هؤلاء البشر، كيف حال اليهود؟

– الأمر سيكون حتما مغايرا وإذا دخلوا الحرب سيزن التنظيم والتسليح كثيرا في مصير المعركة. حتى حركة الإنجليز غير مطمئنة وأشعر كأنها تحضر المسالك الصعبة للهاغانا. الهجرة التي اتبعتها الحركة الصهيونية لسنوات طويلة دفعت بعدد من السكان اليهود القادرين على الخدمة يفوق كل تصور. تبين من إحصاء أجرته الوكالة اليهودية في نهاية سنة ١٩٤٧ أن عدد الذكور اليهود الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٥٠ عاما هو ١٨٥٠٠٠ وفي اليوم التالي لصدور قرار التقسيم دعت الهاغانا فئة الأعمار بين ١٧ و ٢٥ عاما إلى الخدمة العسكرية. وتعينت أماكن حشد ألوية الهاغانا التسعة وكانوا يومها يملكون الأسلحة التالية: ٨٥ مدفع هاون ثلاث بوصات، و ٦٧٠ مدفع هاون ٢ بوصة و ١٦ بندقية مضادة للدروع و ٩٣٢ مدفع رشاش و ١٧٥٠٢ بندقية و ٣٨٣٠ مسدسا و ٣٦٦٢ رشاشا صغيرا و ٥٣٠٠٠ قنبلة يدوية وأعلنت الوكالة اليهودية بأنها ستقوم بحملة لجمع ٢٥٠ مليون دولار تبرعات من الجالية الأمريكية. وكان ابن غوريون قبيل قرار التقسيم قد أصدر أمرا إلى الصناعة العسكرية التابعة للهاغانا التي كان قد جلب آلاتها من الولايات المتحدة بإنتاج ٢٠٠٠٠ بندقية و ١٠٠٠٠ رشاش صغير و ١٠٠٠٠ مسدس و ٤,٥ ملايين طلقة بأسرع وقت ممكن. وكانت الهاغانا أعدت خططها المعروفة الخطة ج Gimmel والتي كانت مبنية على افتراض وجود القوات البريطانية في البلاد وعدم وجود قوات عربية من خارج فلسطين، وهدفت إلى ضرب القيادات الفلسطينية والتجمعات الشعبية والنوادي والمقاهي والقرى والمزارع والمنشآت الحيوية كخزانات المياه والمطاحن، والخطة د Dalet والتي تفترض غيابا للقوات البريطانية في البلاد ووجود قوات عربية نظامية، وفور صدور قرار التقسيم شرعت في تنفيذ الخطة الأولى.

- شيء لا يبشر بخير. أفترض أننا دخلنا المرحلة (د) ما دامت الأعمال الأولى قد تمت.

- عين الصواب وعلينا أن نقاوم هذا الموت الذي بموجبه تسرق أرضنا بتواطؤ واضح من الإنجليز.

لم يكن المعسكر كبيرا ولكنه كان يتوسع باستمرار وكل يوم يزداد اتساعا والناس يلتهبون حماسا لتوقيف المظالم والدفاع عن أرض فلسطين على الرغم من عدم توقف الاغتيالات التي كانت الهاغانا تقوم بها وتواجه بنفس الأفعال التي كانت تمس أحيانا أناسا مسؤولين عن مجريات الأحداث وفي أحيان كثيرة كانت تمس أناسا لا علاقة لهم بما كان يجري من حروب وينشأ من أحقاد.

لست أدري ما الذي وضعني وجها لوجه أمام ملامح راشيل الطيبة عندما قام خالي والتحق بالاجتماع بينما التحقت أنا بمركز التدريب حيث كان علي أن أسترجع كل ما تعلمته في الحركة الكشفية ومن خالي إبراهيم وضباط المعسكر لأورثه للآخرين الذين لم يكونوا يملكون إلا إرادتهم وحبهم للأرض.

تساءلت وأنا أسترجع معلومات خالي إبراهيم إذا كان حب الأرض يكفي للدفاع عنها؟

-٢-

كانت الزاوية خالية، بالقرب من الخيمة، وكنت جالسا أعد تقريري.

هواء بارد كان يحمل رائحة البارود التي كانت تأتي من مكان لم يكن بعيدا. عندما حاولت أن أحدد الجهة المتأتية منها، لم أشم شيئا.

كنت منهمكا في كتابة مسودة التقرير وجمع الملاحظات الممكنة للتقرير النهائي الذي طلبه مني قائدي المباشر لتحسس أوضاع التدريبات وحالة القدرة القتالية والمشاكل الناشئة عن ذلك وكيفية حلها. لكن

الصوت المرتفع للضابطين فؤاد ووسام منعني من أي تفكير.

- لست مطمئنا لهذه الحالة من الترقب والفوضى.

- المهم أن جيش الإنقاذ وصل وهذا وحده كاف لأن يثير الرعب في نفوس الصهاينة.

- المؤكد أنهم بدؤوا حربهم المقدسة وسنجبر على الدخول فيها ونحن غير مستعدين لها بعد أن مزق الإنجليز كل النسيج الإداري والحياتي والقبلي الذي كان موجودا في السابق. من الهبل أن تقسم بلدا بالمسطرة وتضع خطوطا حمراء وزرقاء وكأننا بصدد لعبة أطفال.

كنت أستمع للضابطين وهما يتحادثان وأنا منكفئ، على الأوراق بدون دافع واضح بعدما أفلت مني خيط التفكير ووجدت نفسي في دائرتهما بدون إرادة مني:

- ماذا تفعل الآن؟ قال الضابط فؤاد.

- دعه يخطط لحربه، لا تزعجه. إنه ينظم حربا كلاسيكية على الورق لمقاومة حثالة صغيرة سنقصم ظهرها في الهجوم الأول. سترى سيهربون بضربة الهاون الأولى. اليهودي مثل النعجة.

علق الضابط وسام المتأكد من كل شيء والذي يشعر كأن اليقين يخرج من منخريه كالبخار الشتوي.

توقفت عن التفكير في التقرير. كنت أعرف جيدا أن سلاح الهاغانا لم يكن كما كان يتصور الضابط الثاني وان المحارب الذي يدافع عن قضية وجود يزداد ضراوة أكثر من الجندي الذي يدافع عن أرض متأكد أنها ستعود له وأن قوته لا تقاس بقوات العدو وأن البشر الذين وراءه لا حصر لهم. لم يكن العدو حثالة ولكن جيشا منظما ومدربا وجزء منه جاء مباشرة من جبهة العلمين. هرّبوا عددا خطيرا من الأسلحة. ما كشف في تل أبيب وميناء حيفا يعطي صورة تقريبية عما كانوا يحضرون له. لم أكن أشتهي الكلام ولكني كنت خائفا من الحماس الفارغ.

- وأسلحتهم يا سيدي؟

- أي سلاح يقف أمام هذه الإرادة الصلبة وهذا المد البشري الذي ينتظر على الحدود الإذن له بالدخول في قلب المعركة؟ قلت لك سنقصم ظهرهم في الهجمات الأولى ولن تكون بحاجة إلى كل هذا التخطيط الذي قد لا يفيدك في مثل هذه الحُرب المحسومة سلفا.

- أنت تعرف كمية السلاح الذي تلقوه؟ هل تدري بأن الإنجليز لن يرحلوا بكل آلياتهم؟

- الإرادة تفل الحديد يا روحي، ونحن أصحاب قضية وما قضية اليهود؟ وإلا بلشنا نخاف من هلَّق؟

- لا شيء سوى الدفاع أو الموت.

- قل الموت وخفف على حالك. ما إلهم طريقِ ثاني.

ثم انفجر ضاحكا ومقهقها من ملاحظاتي التي بدت له سخيفة ولا تستحق أي اهتمام جدي.

أردت أن أقول له ما يقوله خالي إبراهيم لكل جنوده ومحيطه، أن لليهود قضية هم مقتنعون بها بعد أن وضعوا نفسهم في داخلها، ومن حقهم أن يفكروا في لم شملهم والتفكير في نظام يضمن حمايتهم ولكن ليس على حساب أناس سكنوا هذه الأرض مثلهم ولهم نفس الحقوق عليها وان فلسطين للعرب واليهود معا وأي اختلال في المعادلة سيولد حربا لن تتوقف أبدا، ولكني خفت أن يتهمني بالخيانة العظمى ويأمر بإعدامي لأكون عبرة لمن يعتبر.

فضلت أن أتمتم كعادتي كلما انغلقت أمامي سبل الكلام:

- رايحين دغري نحو الحائط السميك. سنفقد الأنف والوجه والأسنان و. . .

- شو قلت؟ ما فهمت عليك، الكلام يخرج من فمك بالميزان. الظاهر أنك خايف من اليهود، نم حبيبي على أذنيك، معك أخوك فؤاد وأخوك وسام بيحموك. بس شو قلت؟

تساءل الضابط وسام وهو يستفسر عن تمتمتي:

- قلت: معك حق يا سيدي، لا قضية لهم سوى الفوضى والزعرنة وما إلهم أي حظ في الانتصار. المعركة محسومة. قواتنا ستأكلهم وتأكل أنصارهم إذا لم يلتزموا بحدهم.

صمت وانسدت بعدها شفتاي بينما انتشى الضابط بانتصاره على ترددي:

- هيك بتفكر مثل الرجال. لا تشغل بالك يا روحي. أنت ابن مدينة وسترى ماذا سيفعل الجبليون في بني إسرائيل الذين طغوا ونسوا حق الضيافة الذي يمنحه لهم العرب. لو سمعنا لديننا الحنيف، ما كنا تسامحنا معهم. خانوا نبيهم وباعوا سيدنا المسيح للرومان، فهل ستزعجهم خيانة بشر مثلي ومثلك. سنكسرهم مثلما تكسر ضربة السيف جذع شجرة ميتة في الأصل. بهدلناهم في كل المواقع. انتصرنا عليهم بقوة وسيطرنا على كل خطوط المواصلات بين المستعمرات اليهودية واخترقت فرقنا التدميرية تحصينات الوكالة اليهودية في القدس ونسفتها وقتلنا ١٢ يهوديا وجرحنا ٨٦ من أفراد الهاغانا التي يتغنون بقوتها. قوات الجهاد المقدس أوقعت قافلة الهاغانا في مكمن في قرية عرطوف قضاء القدس وقتلت ١١ جنديا. القوات المشتركة بين الإنقاذ والمجاهدين الفلسطينيين كمنت لقافلة ثانية في الجليل الغربي وقتلت فيه ٤٥ يهوديا وفي اليوم ذاته أوقعت قوات الجهاد المقدس قافلة للهاغاناه في مكمن جنوب القدس وقتلت سبعين عسكريا. ولولا تدخل الجيش البريطاني في كل مرة لكانت النتائج شديدة المرارة على الهاغانا. أمازال الشك يساورك في قوتنا وبطشنا. نحن طيبون ولكن للخائن سنوكله الزقوم. تعرف الزقوم. نبتة جهنم المرة.

كنت أتمنى أن يصمت، فقد بدأ رأسي يؤلمني.

صمت لأني خفت من أن تتسع الهوة الفاصلة بيني وبين رجل سأحارب معه في نفس الخندق. وبدأت في إضافة هذه النقطة الخطيرة إلى تقريري، اليقين غير المؤسس، ولكنه لم يصمت وواصل.

- شخص تحت لواء عبد القادر الحسيني لا يخاف إلا الله.

سيمحوهم واحدا واحدا بيديه الكريمتين وببركاته العظيمة. لن نخلص إلا لربنا في هذه المعارك فنحن جيش الله يا حبيبي وجيش الله لا يقهر.

اعتذرت وقمت من مكاني بينما بقي الضابطان يتناوبان البطولات الكثيرة ويتندران على الشبابْ الذي يدخل معارك مصيرية وهو خائف ومرعوب.

رحت أنزوي من جديد وانتهيت من كتابة التقرير عن أوضاع الجيش والتدريبات وقدمته لنائب القائد. شيء واحد في داخلي ظل يغلي كالبركان. نائب القائد أخذه مني مثلما يأخذ أية ورقة عادية بينما رسمت في التقرير كل الصعوبات والمخاطر المحدقة بنا. لم أشعر أبدا بأنه أعاره اهتماما خاصا.

قال بصوت آمر ليجيب عن دهشتي وتساؤلي:

- ماشي الحال. سأسلمه للقائد. التحق الآن بمجموعتك.

التحقت بكم بشري كان خليطا من الأقوام ولم يكن هناك ما يوحي بأنه جيش سيواجه زمرا منظمة ومسلحة وخريجة مدارس أسلحة، ولا تنتظر إلا فرصتها لكسر كل الآمال. كانت تنقص تدريباتي القناعة الداخلية ومع ذلك بذلت مجهودات كبيرة لكيلا يظهر ذلك على وجهي.

لا أدري إذا كان خالي إبراهيم قد أحس بذلك ولكنه نبهني إلى حدة النظام:

- يجب أن يعرفوا أن الاستقامة في التدريب لا قيمة لها سوى أنها شكل من أشكال الانضباط. في الحروب لا نطلب منهم أن يظلوا في صف واحد ومستقيمين، ولكن أن يسمعوا للأوامر.

عندما انتبهت للصفوف، لم تكن لا منظمة ولا مستقيمة، فاستعدت قليلا من رباطة جأشي.

كنا نستعد بصحبة جيش الإنقاذ والقوات المشتركة المتوجهة للانتشار في ضواحي القسطل الذي حوطته قوات الهاغانا واستولت على أجزاء كبيرة منه حتى لا نترك لها منفذا يمكنها أن تهرب منه، ولكن تنظيمنا لم يكن يوحي بوجود خطة مشتركة واضحة للمقاومة. كانت

مجموعات جيش الإنقاذ تخطط وحدها وفلول المجاهدين التابعين للجهاد المقدس المنتمين جميعا إلى الهيئة العربية العليا، تعمل بشكل مستقل ولا تتلقى أوامرها إلا من قياداتها المباشرة.

الفيلق المتقدم لم يكن يحمل أخبارا سارة على الرغم من حماسه. المعارك الضارية ليلة البارحة لم تترك مجالا للشك أن الهاغانا كانوا مصممين على ربح المعركة. وأن جيش الإنقاذ الذي التحق بفلسطين لم يكن قويا ولا منظما ويحتاج إلى تدريبات تأهيلية. معظم الوافدين لم يكونوا مجندين محترفين ولكن متطوعين تركوا كل شيء وراءهم والتحقوا بالثورة بحماس وعيون مغمضة.

ونحن نتحرك، نظر نحوي فؤاد ووسام. لم يقولا شيئا ولكنهما ابتسما بمكر.

عاودني الخوف لكن قناعتي بالموت كانت كبيرة.

-٣-

الضربات لأولى صوب القسطل كانت اختراقية لإخراج المحتلين من جحورهم.

- إما المدينة أو الموت.

لا يدري كيف اندفع في ذاكرته صوت العظمة الذي جاءه صافيا من الوديان والأحراش.

- القسطل هي القدس.

عندما نظر القائد عبد القادر الحسيني صوب القرية بالناظور بدت له هادئة هدوءا مريبا. شعر بثقل المهمة بعد أن صار قضاء القدس تحت مسؤوليته. هل هي المعركة الأخيرة؟ تساءل وهو يدقق في حركة البلماح الذين كانوا يطوقون المدينة. تذكر أيام العز والأحلام التي انكسرت بسرعة ولم ينكسر ولم يقبل بالهزيمة، لا المعارك الخاسرة ولا البطولات الكبيرة ولا الخسارات القلقة أزالت عن عينيه تلك الغشاوة وتصلب القلب

الذي كان منكسرا. مرت تفاصيل حياته سريعة أمام عينيه كشريط متسلسل الحلقات. طفولته القدسية التي لم تزده إلا التصاقا بتلك الأرض والناس الذين صاحبوه في رحلته والشهداء الذين ماتوا تحت الرايات العالية. تجربته الكبيرة كانت سنده الأسأسي في ثورته. فهو الابن الحي للمدينة، فقد عجن بترابها. انضم إلى ثورة المجاهدين خلال ثورة ٣٦-٣٩ وجرح خلالها جروحا بالغة مرتين نقل على إثرها إلى لبنان. ثم انضم إلى حركة الكيلاني في العراق في ١٩٤١ وقاتل ضد القوات البريطانية واعتقل في العراق قبل أن يهرب ويلجأ إلى السعودية ويعود إلى فلسطين في مارس ١٩٤٨ بعد غياب عشر سنوات ليقود قوات الجهاد المقدس التابعة للهيئة العربية العليا. وأوكلت إليه اللجنة العسكرية في دمشق برئاسة إسماعيل صفوت، قيادة منطقة القدس بقراها وضواحيها المحيطة. ووضعت اللجنة تحت تصرفه ٥٥٠ مجاهدا فلسطينيا. كما وضعت حامية القدس من قوات جيش الإنقاذ تحت تصرفه. قوامها ١٢٨ متطوعا.

الملاسنة الأخيرة بينه وبين ضباط دمشق كانت قاسية وقوية. فقد حاول عبثا إقناع اللجنة العسكرية بإمداده بالمزيد من الأسلحة. خصوصا بالمدافع التي كان الهاغانا يملكونها ويهددون بها أقضية القدس.

- وماذا نفعل يا سيدي. الإمدادات المنتظرة قد لا تصل أبدا والذخائر يا سيدي صارت محدودة جدا ولا تعويض لها. ننتظر حلا يا سيدي. وقريتا خلدة ودير محيسن قد سقطتا.

قال القائد كامل عريقات وهو يمسح العرق الذي اسود على وجهه من كثرة الغبار والخيبة.

- يجب ألا ننتظر كثيرا، ما هو عندنا كاف على الأقل لطرد البلماح التي احتلت كل القرية. يجب تنظيم الذخيرة الموجودة وكأنه لا يوجد لدينا غيرها.

هو يعرف جيدا لماذا قال لقائده كامل عريقات ذلك. يعرف جيدا ثقل حركة القيادة العليا. وهو يغادر دمشق مساء ٥ أبريل مسرعا إلى ميدان المعركة وهو في أقصى حالات الانزعاج والخيبة والحزن. كان

يدرك أن الوضع لن يكون سهلا. لم يحصل على ما طلبه من دمشق. عاد وهو مصمم على الدفاع عن المدينة وضواحيها وقراها بوسائله الخاصة، وترك للآخرين أن يتعلموا من الدرس، أن التحرير لا يتأتى بالنوايا الحسنة ولكن بالرجال والمقاومة. يتذكر جيدا أنه وهو عائد من دمشق، لم يتكلم حتى وصوله فجر ٧ من نفس الشهر إلى القدس، إلا مرة واحدة مع مرافقه وصديقه الأعز ومرافقه الدائم المجاهد إبراهيم أبو دية:

- هل أخطأت عندما وثقت باللجنة العسكرية يا إبراهيم؟

- أنت لم تخطئ ولكن اللجنة العسكرية نفسها في حالة يرثى لها وهي في وضع لا تحسد عليه أبدا.

- ولكن هل يعلمون مقدار الخسارات التي سيجنونها من ترددهم؟

- لا أظن يا سيدي أنهم يفكرون هكذا. لا يوجد اتفاق عربي لتحرير الأرض والحفاظ على ما تبقى منها حرا. إنهم يا سيدي يفكرون طويلا قبل تدعيم جيش الإنقاذ في وقت تنتظم فيه بصرامة أكثر، قوات الهاغانا.

- والإنجليز في كل هذه المعمعة، ما رأيك في حيادهم؟ لست مرتاحا لكل تحركاتهم؟ ماذا لو سحقنا قوات الهاغانا، فهل سيتركوننا نفعل؟ قلبي يقول لي شيئا آخر؟ هذه سياسة Wait and see

- أنا أعرف أن الكثير من الإنجليز لا يحبون غطرسة الصهيونية والوكالة اليهودية ولكنهم لا يستطيعون أن يزعلوا الرئيس الأمريكي ترومان ويسترضون العرب؟ بدؤوا يتخلصون من وضع هم من صنعه وحضر له. أي حياد؟ المعركة الكبيرة التي يقودها فوزي القاوقجي وقادته يا سيدي تبين أنه لا سلطان للإنجليز إلا على العرب وعليهم أن يرفضوا هذا الوضع وألا ينتظروا الكثير من الإنجليز. تجربتكم منارة لنا يا سيدي. الثقة العمياء في الإنجليز معناها الموت المؤكد. ما يريح في هذا كله أن حضرتكم وسيدي فوزي تعرفون ذلك كله.

- التجربة وحدها لا تكفي. لم أجد نفسي أبدا في وضع مأزوم كهذا. فوزي نفسه في عنق الزجاجة. شارك في ميسلون وكتبت له

الحياة، وقاد حملة المتطوعين العرب في أثناء ثورة فلسطين المسلحة ١٩٣٦ ولم ينكسر، وشارك في الحركة الكيلانية في العراق في ١٩٤١، قاتل الإنجليز وجرح جرحا بليغا كاد يودي بحياته وظل في عنفوان نضاله. واخلي إلى ألمانيا حيث بقي هناك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ولم ينكسر شعوره لحظة واحدة بضرورة تحرير الأرض واستعادة الكرامة التي هدرها الاستعمار الإنجليزي. عاد إلى سوريا في ١٩٤٢ قبل أن يكلف من طرف اللجنة العسكرية بقيادة جيش الإنقاذ على الجبهة الوسطى، أي جبل نابلس ودخل البلاد في مارس ١٩٤٨ على رأس قوة قوامها١٠٠٠ متطوع مدعومة بأربعة مدافع ميدان. وقرر بدء عملياته أياما قليلة قبلنا، في ٤ نيسان ضد مستعمرة مشمار هعيمك الواقعة في منتصف الطريق ما بين حيفا وجنين بغية احتلالها. ألحق أضرارا كبيرة بالمستعمرة بعد أن قصفها بكثافة ولكنه لم يستطع احتلالها فالأخبار التي وصلتنا تؤكد شجاعته واستماتته. وعندما بدأ يدخلها من جوانبها المهدودة ظهرت مصفحات الإنجليز بقيادة الكولونيل بيل Peel الذي طلب من القائد العربي أن يوقف القصف لمدة ٢٤ ساعة وهو يدرك سلفا أنه لو كان العرب في ذلك الوضع، لما دعا الكولونيل إلى توقيف الهجوم. اليهود رفضوا تعهدا بالكف عن إزعاج حركة النقل العربية. مختار المستعمرة طلب منهم ٢٤ ساعة للتشاور وكان يدرك جيدا أن هذه الساعات كافية لتلقي الدعم من الهاغانا. الإنجليز؟ شيء ما يتم طبخه في الخفاء. أسألك لأني أشك في أنهم يلتزمون الحياد إذا رأونا قد استقوينا.

نظر عبد القادر الحسيني من جديد إلى القرية التي بدت له هادئة بشكل مريب بسكانها الثلاثمائة ألف الذين اختلط عليهم كل شيء ولا يفهمون حالة العجز العربي. كانت القسطل تبدو من الأعالي كجرح متعدد الخطوط بعدما سيجتها قوات البلماح التي اقتحمتها بالأسلاك الشائكة والحواجز وطردت سكانها وحفرت خنادقها استعدادا للمكوث فيها. لم تكن هناك أية صعوبة لرؤيتها وتتبع الحركة داخلها. القسطل تقع على قمة تل يرتفع نحو ٧٩٠ مترا عن سطح البحر ويشرف على الطريق

العام بين القدس والساحل. ولا يزيد ارتفاع الطريق أمام القسطل على ٥٠٠ متر فوق سطح البحر وفي أعلى قمة القسطل، دار المختار ومسجد صغير ومقبرة وبقايا قلعة بينما تنحدر الأرض من القمة نحو الشمال والجنوب والشرق على شكل مدرج. وفي الجهة الغربية حَرَج كثيف تتناثر في محيطه منازل القرية على المنحدرات الشمالية والشرقية والجنوبية. تطوق القسطل، مستعمرتان: مستعمرة موتسا على بعد كيلومتر شرقا ومستعمرة كريات عينافيم غربا وهي مقر البلماح الضاربة في قضاء القدس.

عطس الحسيني. شعر بالألم يعتصر أعماقه وهو يعد حامية القدس من جيش الإنقاذ.

- هل يعقل؟ هل يدري ضباط الشام أن القدس محاطة بالأرغون وليحي ومجرمي الهاغانا الذي لا يرحمون لا بشرا ولا شجرا ولا حجرا؟ هل تكفي الشجاعة لمواجهة هذا السرطان المستشري؟ لقد سيطرنا على المسالك والطرقات وحتى على طريق القدس المؤدية إلى الساحل. ولكن شيئا ما يكسر كل الإرادات حتى الفولاذي منها...

- الليل يا سيدي، الليل هو المسلك الوحيد لكسرهم وبعدها سنرى ماذا نفعل بالقرية.

- يجب أن نجد حلا طويل الأمد لا حل رجال الإطفاء.

- كل شيء منظم يا سيدي. ثغورهم الأولى قصفت. رأيناهم يغادرون الخنادق ويدركون أن ضربتنا القاصمة للظهر ستكون في الليل أو فجر الغد.

قال كامل عريقات الذي كان يشرف على العمليات مباشرة.

- منتصف الليلة يجب أن يسوى كل شيء. لا أعتقد أن الأمر سيكون هينا عليهم بأربعة مدافع هاون، و ٢٠٠ مجاهد مدرب بشكل جيد والقنابل التي ستشتت صفهم.

ثم التفت عبد القادر الحسيني نحو أبو دية:

- على كل لا خيار لدينا إذا تركناهم حتى الصباح ستلحق بهم قوات الدعم وسيتغير وجه المعركة.

لم أكن بعيدا، كنت في الصفوف الأمامية. ناداني كامل عريقات وأعطاني الأمر بالاندفاع والتوغل عمقا. بدأت العمليات الأولى بالقصف بمدافع الهاون، والرشاشات وبدأ التقدم على ثلاثة محاور. نجم عن ذلك انسحاب القوات اليهودية من المنحدرات لتتركز في قمة القرية حتى تكون ليلا في موقع قوة. كنت في قوات القلب، برفقة أبو دية الرجل الشجاع وكنا قريبين من الأعالي. كان زحفنا قويا ولكننا كنا في مرمى رصاصهم ومواقعهم التي ارتبكت تحصيناتها. الليل كان في صالحنا لكن الفجر كان سيكشفنا ويضعنا تحت رحمتهم. عندما حاولنا الاقتحام، لم نستطع الدخول. فقد فشلنا في تحطيم تحصيناتهم على الرغم من الثغرة التي أحدثناها فيها.

عندما كلفني أبو دية بالاتصال بالقيادة لتبليغها بآخر المستجدات، كان علي أن أقطع مسافة الكيلومتر ونصف الكيلومتر التي كانت تفصلنا عن القيادة العليا لأبلغ عبد القادر الحسيني بالصعوبات التي كنا نعانيها ولحث الميمنة على التقدم لمساعدة القلب. فقد بدا الوهن على قواتنا واضحا خصوصا بعد الفشل الكبير في اختراق التحصينات. الليل كان غطاءنا لكن الليل كان في نزعه الأخير ولم نفعل شيئا مهما.

كان عبد القادر الحسيني منعزلا في الزاوية، يحسب من وراء كاس القهوة المرة الساعات المتبقية لبزوغ أولى أشعة الشمس. كان محاطا بقليل من الإداريين والضباط بعد أن دفع بالجميع نحو الجبهة حتى يستفيد بكل عنصر من عناصره. حتى حارسه الخاص محمود ألحق بأبو دية. عندما أبلغته بأن أبو دية يطلب منه ضرورة تحريك قوات الميمنة. التفت نحو الإداريين وضباطه القلائل ولم يستطع أن يخبئ خيبته:

- يبدو أن حساباتنا كانت غير دقيقة هذه المرة كذلك. ألم تقولوا إن تحريك الميمنة هدر للطاقات وأن القلب وحده قادر على الاختراق والدخول في عمق العدو كالسكينة في السمن.

- ولكن يا سيدي لم نكن نتصور هذه الشراسة.

قال الضابط وسام الذي يبست شفتاه فجأة ولم يعد يتكلم إلا قليلا ودخل الخوف قلبه. كان يتفادى النظر إلي ويلتفت نحو أي شيء آخر.

- في الحروب يجب أن نضع نصب أعيننا كل الاحتمالات، حتى الأتفه منها.

رد الحسيني بصرامة وجفاف.

عندما التفت نحوي كان ضائعا، بدا لي ذلك من عينيه المتعبتين اللتين فقدتا ألقهما بسرعة.

- لا يوجد حل آخر.

- سيدي أبودية يقول بضرورة تحريك الميمنة قبل الفجر وإلا انكسر كل شيء.

عندما بدأ فجر ٨ نيسان يلوح في الأفق، كنا قد تراجعنا إلى الوراء وكانت الإمدادات اليهودية قد وصلت إلى المكان. الذخيرة بدأت تتضاءل بشكل ملحوظ. حتى قذائف المدفع لم تكن كافية إلا لتغطية انسحابنا. وكان عبد القادر الحسيني قد ترك مركز القيادة واتجه مباشرة صوب الميمنة لتحريكها ولكن حركتها الثقيلة ومقاومة القوة اليهودية جعلته يغير من هجومه خصوصا بعد ارتباك القلب بسبب مدافع الهاون وتعرية القوى.

كانت انحداراتنا نحو التلة تزداد تسارعا وضرب القوات اليهودية يزداد عنفا ودقة. كنا تحت وابل من النار حتى بدأ الكثير منا يفكر في الانسحاب أحسن من الموت المجاني وإعادة تنظيم قواتنا من جديد.

في لحظة اليأس هذه، رأيت ضابطا يعبر مباشرة باتجاه أبو دية الذي ارتسمت على وجهه أولى خطوط الفجر، ويتمتم في أذنيه لدقائق. وضع أبو ديه رأسه بين يديه وشعرت به يريد أن يصرخ بأعلى صوته. التفت وراءه، لم ير إلا جنودا كانوا يزحفون نحو موت كان يتأكد أكثر فأكثر كلما زاد الفجر اتضاحا. بانت علامات اليأس على وجهه على الرغم من اغبراره وضياع ملامحه الحية.

- هل يعقل يا شريف؟

التفت من جهتي وهو يبحث عن كلماته الهاربة:

- خير إن شاء الله يا سيدي.

- الخبر ليس مؤكدا ولكنّ الميمنة صارت بدون قائد ومركز القيادة لم يعد يستطيع الربط بين مختلف القوى. يبدو أن عبد القادر الحسيني استشهد.

- هل هناك ما يؤكد ذلك؟

- لا. ولكنه لم يظهر طوال هذا الهجوم الذي نحتاج فيه إلى حضوره الحقيقي.

الرسل الذين سبق أن أرسلوا إلى القدس ورام الله، والخليل والرملة استطاعوا أن يجمعوا المجاهدين على الرغم من نقص التدريبات. وصلوا إلى عين المكان مع الصبح بأيد عارية، فظلوا في الخلفية في حالة نشوب الحرب الجسدية على المرتفعات. كانت الشمس قد اتضحت عندما بلغ الهجوم ذروته. مما دفع بقوات الليحي والهاغانا إلى التراجع. كان عدد المهاجمين منا ١٢٠٠ مقاتل تقريبا، صمموا على الموت بدل التراجع. رأيت كيف تحولت أجساد الرجال إلى طعم للنار ولشظايا المدافع. بفضلهم استطعنا أن نصل إلى قمة القرية ونحررها. لكن كل القادة والضباط والجنود الصغار، كانوا يسألون عن عبد القادر الحسيني لتقاسم الفرحة. وسرى الخبر كالنار في الهشيم. فقد جاء من يقول بأن عبد القادر وجد جثة هامدة بالقرب من دار المختار في أعلى التلة، بعدما اخترقت خاصرته رصاصة عمياء وسلاحه ما يزال بيده: رشيش ستين Sten بكاتم صوت وفي جيبه الأمامي دفتر عليه خطط حربية وملاحظات. التحق بالتلة الضابط البوسني شوقي بك وحمله على المصفحة، وبجانبه صديقه الذي أصيب بجراحات بليغة أتلفت بعض فقرات ظهره، وتحت تغطية كبيرة من قواتنا الباسلة، توجه بهما نحو القدس للصلاة على القائد في الحرم الشريف في القدس، تاركا وراءه

الجيش بلا قيادة. بينما ترك الكثير من المجاهدين المواقع الأمامية وذهبوا ليشتركوا في تشييع الجنازة.

صرخت ولكن صراخي كان بلا صدى وقلبي خسر حياته:

- والمواقع الأمامية؟ من يتولى حماية الثغور المحررة.

- دوركم الآن أيها الشباب، لم يبق لكم إلا الدخول، لا يمكن أن يدفن قائدنا العظيم بدون رجاله.

قال الضابط وسام وهو يسبق فيلقا ليصطف وراء المصفحة وينظر نحوي وكأني كنت المعني بكلامه.

- خلاص، شوكة اليهود انكسرت.

كان أول العارفين بأن كلامه لم يكن صحيحا.

- شو العمل هلق؟ ننسحب كلنا بعدما وصلنا إلى أعالي القرية. كل شيء صار في مرمانا.

صرخت في وجه القائد أبو غريبة الذي أعاد ترتيب الأربعين مقاوما الذين بقوا تحت إمرته. بالإضافة إلى الضابط المصري الذي خرج من جيش الإنقاذ مع ثلاثة أفراد والتحقوا بنا في القسطل وأقل من مائة متطوع كانوا في حاجة إلى حماية أكثر من رميهم في أتون معركة لم يستعدوا لها إلا بالصراخ والحماس الذي ذاب أمام أولى طلقات المدافع المصوبة نحو معسكرنا.

- ليست لدي أية فكرة. يجب فقط ألا نبقى في هذه الأمكنة وإلا رحمة الله علينا جميعا. إما أن ندخل القسطل أو نتراجع قليلا نحو مراكزنا الخلفية ونترك الوضع كما كان وكأننا جئنا لنموت فقط وليس لنحرر قرية من نير القتلة. فالأمور ستتغير بسرعة إذا لم نبادر.

في فجر الجمعة ٩ نيسان كان كل شيء قد تغير والموازين ارتبكت. وبدأ القصف الشديد بالمدافع والمصفحات مما اضطر أبو غريبة ومن معه إلى الانسحاب من القرية عصر اليوم ذاته باتجاه المواقع الخلفية التي كانت بها وسائل الدفاع والإمدادات تصل بشكل شحيح.

كان الصمت المخيم هو سيد القلق والهزيمة وزاد انكسارنا عندما

وصلتنا الأخبار الأولى عن فوزي القاوقجي وجيش الإنقاذ. فقد تحركت قوات البلماح ليلة ٨ نيسان واستولت على قرى عربية مجاورة. وانسحب الكولونيل بيل بعد أن تأكد من كثافة القوة اليهودية التي تدعمت بهاغانا حيفا والمستعمرات القريبة.

كان القتال على أشده ولكن مصير المعارك كان قد خط سلفا.

لم نكن مهيأين للمعركة التي فاجأتنا، ولم يكن الإنجليز عديمي المسؤولية في كل ما حدث فيما بعد.

-٤-

عندما لاحت أولى تباشير الفجر لم نر القدس كما تعودنا أن نراها من التلة المشرفة عليها من الأعالي. كنا انتهينا من دفن موتانا ووضعنا العلامات الأولية على قبورهم لكيلا تظل مجهولة.

ازدادت القهوة مرارة في الأفواه. كانت تمر بصعوبة كأنها حسك حائل لأسماك خشنة. الأخبار النهائية التي وصلت عن دير ياسين لم تزدنا إلا انكسارا. فقد هوجمت من كل النواحي. لم تكن إلا على بعد كيلومتر ونصف من ضواحي القدس الغربية اليهودية. ولم يعد يفصل إلا واد سحيق القرية عن هذه الضاحية. وقعت في كماشة الأرغون وليحي والهاغانا الذين كانوا يريدون السبق إذ أخبر قائد الهاغانا في القدس شلتيئيل Shalteill مسؤولي التنظيمين العسكريين في ٨ نيسان أن احتلال دير ياسين يقع ضمن مخططات الهاغانا والضرورة تقتضي توحيد العمل العسكري. وهاجمت ليحي من الشمال بينما هاجمت قوات الأرغون على محورين أحدهما من الشرق عبر الطريق الذي يوصل عفعت شاؤول بدير ياسين. عند الساعة الرابعة فجرا التقوا عند مدخل القرية العارية من أية مقاومة، فأخذوا يتنقلون من منزل إلى آخر ويلقون القنابل اليدوية عبر النوافذ والأبواب ويطلقون النار على كل حي. كان الدفاع ذاتيا والمجموعة الوحيدة التي تحصَّنت في المنازل في أعالي القرية تمكنت

من إيقاف الهجوم عند الطرف الشرقي مما اضطر اليهود إلى جلب البارود، وأخذوا ينسفون البيوت بيتا، بيتا. وعندما وصلت قوات البلماح المدعمة بمدافع الهاون كان كل شيء قد انتهى إذ سقطت القرية على الساعة الرابعة من يوم الجمعة ٩ نيسان ويبدأ يوم آخر في الارتسام. كانت الحرب قد بدأت ووجد الموت ضالته في البيوت والوديان المنسية. وأبيد أكثر من ٣٥٠ من الأطفال والنساء في ساعات قليلة.

يبدو أن الشيء الوحيد الذي نفشل في تخبئته هو أخبار الموت. فلم يكن من الممكن التغاضي عن شيء صار ناسه يأتون لمعسكرنا لطلب النجدة والمساعدة. فقد انضم إلينا الكثير ممن نجوا من المجزرة وحكوا عن كل التفاصيل.

من بعيد تبدو حواف مدينة القدس كأن لا شيء فيها لولا تلك السحابة من الغبار الأصفر التي كانت تغطيها شيئا فشيئا حتى لتكاد تتلف ملامحها. ما تبقى في حوزة أبو غريبة لم يكن كافيا لمقاومة يوم آخر أو للذهاب بعيدا في أتون المعركة. العدة كانت هزيلة. بعض العتاد المحدود الذي وزع على المجاهدين كان مضحكا ويدل على خسارة حتى قبل المعركة. كنت حزينا أن أعطي لكل واحد عشرين حشوة مع التوصية على الحفاظ عليها خصوصا بالنسبة للمتطوعين الذين لم يكونوا قادرين على فهم أننا لم نكن نصنع الذخيرة ولكننا كنا نتلقاها وفق سبل ملتوية، إما من دمشق أو عن طريق بعض التجار اليهود الذين لم تمنعهم مناصرتهم للهاغانا من مدنا ببعض الذخيرة الخفيفة بأثمان باهظة. أما المدافع فلم يبق معنا إلا مدفع رشاش صغير ومدفع ميدان يتعطل بعد كل قذيفة.

على التلة المطلة على مشارف القدس، التي صارت الآن ملفوفة داخل غلالة صفراء امتدت حتى المكان الذي كنا فيه نحسب موتانا وجرحانا وننتظر جواب اللجنة العسكرية أو الهيئة العليا ولكن لم يصلنا أي شيء من ذلك وأصبح من الصعب تخبئة اليأس عن المئة وخمسين مقاوما.

- معقول ما فيه حدا بيرد علينا؟

- ربما كان ضباط دمشق وجامعة الدول العربية منشغلين بشيء آخر أهم أو يحضرون لضربة قاصمة لظهر اليهود والإنجليز في الآن نفسه.

ابتسم أبو غريبة بمرارة:

- حبيبي، المكتوب مبين من عنوانه... ما فيه شي نتكل عليه إلا أنفسنا.

كان موت عبد القادر الحسيني قاسيا على الجميع ولكنه لم يفكك العرى الداخلية. كان اليأس هو أخطر المهالك في الحروب وما يزال. خبأنا على الجميع صعوبات فوزي القاوقجي وانتظاره الميئوس للذخيرة الحربية ولكنني كنت أتساءل دائما إلى متى ستظل هذه الأخبار مدفونة؟ شعرت كأن الناس غير معنيين بالخطر الداهم وأنهم متأكدون أنهم في أرضهم منذ قرون ولا توجد أية قوة في الدنيا قادرة على إزالتهم. لم يكونوا يدرون أنهم كانوا ينامون على كف عفريت وان كل شيء كان مهددا بالتلاشي، حتى تفكيرهم.

نزلت الأتربة وهبت ريح باردة قليلا على حواف القدس، أشاعت نوعا من الراحة سرعان ما انطفأت لتعود الرياح من جديد مسودة الأفق الذي انغلق فجأة. لم يكن يبدو أي وجه للربيع سوى الخوف الذي كان يكبر في دواخلنا ليس من الموت ولكن من هزيمة وشيكة، والظلام الذي نزل في وقت مبكر.

كنا نرابط وننتظر الأوامر لكن الأخبار التي كانت تصلنا لم تكن مريحة.

لأول مرة تخترقني فكرة العصيان أنا الذي أعطى دروسا للمتطوعين وعلَّمهم كيف يحترمون ضباطهم. شيء كان يتنامى في أعماقي لم أكن قادرا على مقاومته. حالة الجلوس وتأمل تلونات الغيوم وأشكالها وتتبع اتجاهات الريح والاستماع إلى الأخبار كانت تقلقني.

بدأت أفكر في الالتحاق بفوزي القاوقجي. أبو غريبة لم يقبل أية

حركة قبل أن يتلقى أوامره من القيادة العليا. كنت أتساءل في أعماقي كيف نتحدث عن قيادة ولم يبق أمامنا إلا القلة القليلة من البشر والبقية انسحبت في أثر وفاة عبد القادر الحسيني، وعزلتنا كانت تزداد كل يوم أكثر.

موفد فوزي القاوقجي كان صريحا ولكنه مصممٌ في كلامه ويريد رأيا نهائيا من أبو غريبة الذي ظل لا يعرف ماذا يفعل وهو لم يتلق أية إشارة من قادته. الوقت كان ضيقا ولم تكن هناك أية مهلة لأن هجمات الهاغانا وشيكة ولا يمكن مواجهتها بالتردد.

- يا إخواننا أنتم لا تدرون ضرورة أن تنضم إلينا قوى مساعدة، في هذا الوقت العصيب بالذات؟ أي انتظار معناه انسحاب آخر ولنقل هزيمة عربية أخرى. إذا انتظرتم وصول القوة العربية، سيكون ذلك بعد فوات الأوان. وفوزي القاوقجي شبه يائس من قيادات هذه القوى. لهذا فهو لا يحسب أي حساب لها ويعتمد أكثر على القوات الموجودة بين يديه. استطعنا أن نحصل على الكثير من متطوعي القرى المجاورة لكن المشكلة صارت الآن مشكلة سلاح وذخيرة وتدريبات وليست مشكلة بشر.

أوصل لنا الموفد حتى الملاسنة العنيفة بين فوزي القاوقجي واللواء إسماعيل صفوت عندما أبرق يعلمه بالوضعية الحالية للجند وللجبهة وللصعوبات التي كانت تواجهها. قال له:

«- الحرب يا سيدي تحتاج إلى دعم حقيقي، ما بين أيدينا لا يكفي إلا للدفاع عن الذات ونحن نريد أن نهجم بقوة قبل أن تنتظم قوات البلماح والهاغانا.

حتى البرقية التي وصلت في ١٤ نيسان لم تكن مطمئنة لفوزي القاوقجي، بل دلت على عدم معرفة حقيقية لدى إسماعيل صفوت بضرورات الميدان والحاجة الماسة للتوغل التي لا تكفي فيها الشجاعة والانضباط والتضحية. لم يكن صفوت قادرا على معرفة أن كل ما كان يحيط بنا، كان يقود بشكل حتمي إلى هزيمة مؤكدة. وعندما وضع

فوزي القاوقجي أمامه تفاصيل الوضع اليائس، رد عليه ويا ليته سكت وتركنا نواجه الموت بصدور عارية كما تعودنا أن نفعل في الوضعيات الأكثر يأسا.

- يلوح لنا أن معركة مشمار هعيمك انقلبت إلى معركة استنزاف ويظهر من مجرى القتال أن وسائطكم لا تكفي لاقتحام المستعمرة، أليس من المستحسن إنهاء المعركة منعا لصرف العتاد؟

اسود وجه فوزي القاوقجي حتى صار شبيها بالرماد، يقول الموفد، وتصلبت شرايينه وتصلب من فعل الخيبة والحل المهزوم الذي اقترح عليه. كان رجاله قد بدؤوا يواجهون بصدور عارية هجمات الهاغانا المتكررة. لم يعد له ما يخسره ولهذا كان رده عنيفا. كان أكثر الناس إدراكا بأن الحرب المقدسة بدأت تتخلى عنه كما تخلت عن غيره. الأخبار التي وصلته من القسطل أكدت له أن ضباط دمشق كانوا بعيدين ليس فقط عن النار ولكن كذلك عن مجريات الأحداث والقوة التنظيمية للهاغانا. كانت فلسطين تتضاءل كالنجم الهارب وتفلت من بين الأيدي على مرأى الجميع الذين لم يكونوا يصدقون ما كان يحدث:

في ١٦ نيسان وهو على شرفات الموت، رد على صفوت:

- إن المعارك الجارية هي مع النخبة الممتازة من الهاغانا. منها معارك اختيارية ومنها معارك نرغم على خوضها. فإذا كان لا يوجد عتاد عندكم كيف تطلبون منا الدفاع والصمود؟ إن الجامعة قررت الحرب وهي ملزمة بتأمين وسائل الحرب. الحرب ليست لعبة وليست قرارا ولكنها نار واستمرارية في أتعس الظروف. لن نسلم في شيء، سننتحر ولكنكم تتحملون مسؤوليتكم جميعا أمام التاريخ.

يومها تأكد لي أن تقسيم الأرض انتقل من الورق إلى الأرض. صار حقيقة.

التحاقنا بفوزي القاوقجي لم يكن كافيا لتغيير الموازين. تخلى مضطرا عن مواقعه، وعرفت يومها أن كل شيء قد انتهي. حتى مجموعة الخمسين متطوعا التي كنت على رأسها لم تكن كافية للدفاع عن القرى

العربية ولا عن نفسها في حالة الهجوم عليها. بمجرد التفاتنا صوب الفراغ، سقطت عشر قرى عربية.

عندما أطليت على القرى المحيطة من الأعالي وأنا أقاوم انكساري، رأيت فوزي القاوقجي يبكي ويعض على أصابعه. تذكرت فجأة محمد الصغير وهو على تلة حسرة المغربي الأخيرة El ultimo souspiro d'el Morro ولا أدري لماذا لعنت في أعماقي محمد الصغير وحقدت عليه وتعاطفت مع فوزي القاوقجي أكثر على الرغم من هزيمته، بل إني بكيت معه وأنا ألتفت صوب القدس التي لم تبد منها إلا رؤوس الصوامع والكنائس وهي تخترق سماء لا وجه لها ولا لون.

تمتمت في أعماقي ولا أعرف بقية ما كان ينتظرنا:

- ماذا ينتظر الآن المدينة المقدسة وهي عارية ولا تغطي جسدها إلا هذه الغلالات الرقيقة من الصفرة؟

التفت نحو هواء البحر الميت كي لا أختنق.

أقاصي الخيبة

-١-

مريم... مايا... ميرا... كبرت بسرعة كالنوارة البرية.

عندما لمستها بكت. وعندما رفعتها إلى الأعلى وقذفتها في الهواء الطلق لساحة البيت كاللعبة الملونة، خافت في البداية ثم ضحكت واستأنست للعبة وصارت تطلب المزيد:

– والله وكبرت يا ميرا حبيبتي. وبكره يجي لك حبيبك وخيك عز الدين وتعود نينا من بلاد برا وتضعك في صدرها وحجرها وتغني لك أحلى الأغاني:

نامي نامي يا ميرا...

يا روحي يا أميره.

بكره أشتري لك هدايا.

وأسكنك في السرايا...

لأول مرة ومنذ زمن بعيد، أنتبه لملامح مايا ولوجهها الصبوح وكيف أنها كبرت ونبتت كالنبتة البرية. كلما عدت إلى البيت فهي إما نائمة أو في المدرسة أو في مرسم ماريا تتعلم مع أطفال آخرين رسم الطبيعة الميتة والأشكال المختلفة. أمها هي التي لاحظت اهتمامها بالألوان. كنا في الحديقة عندما بدأت تبكي بأعلى صوتها ولم أعرف ماذا كانت تريد. وعندما جاءتها مانيا بالنوارة الصفراء التي كانت كلما

هبت الرياح تبعثرت أوراقها الخفيفة في عمق الدار، سكتت وكأن شيئا لم يكن. ذات مرة بكت حتى غرق وجهها ولم ننتبه لها إلا عندما رأتها وهي تثبت عينيها على الورق المبعثر. عندما التقطته مانيا وجاءتها به، سكتت.

عندما رأيت مايا في المرة الأخيرة، شعرت أن الزمن الذي كان يفصلنا، كبير وواسع ومخيف مثل الفجوة. فعندما حملتها بين يدي، بدا لي أنها لا تعرفني وأني لا أعرفها جيدا. تأملت ملامحها وتأملت ملامحي. كنا نكتشف بعضنا بعضا بدهشة. كانت تشعر براحة مع عليان Alyane طفل طانت ماريا الوحيد، الذي كان يذهب معها إلى المدرسة أكثر من ارتياحها إليَ وكنت أحتاج إلى وقت كبير لأسترجع أبوتي التي لم تكن أمرا هينا ولا سهلا. مشكلة مايا أنها لم تتخلص من وجه لينا التي ماتت قبل ولادتها وكانت ترى فيها روحا بجانبها وصديقة دائمة لها.

لاحظت مانيا انشغالي:

- هوَن حبيبي على نفسك، بكره بتعرف ميرا... وتشبعها وتشبعك.

قالت مانيا وهي تمسَد على بطنها الذي بدا نافرا قليلا على غير العادة.

- ويشبعك عز الدين كمان. الطبيب الإنجليزي لا يخطئ أبدا والقابلة الخالة نورا الداية، تعرف من حركة الجنين، الذكر من الأنثى. كلهم يقولون ذكرا. اسم عز الدين. سيسعد يما صفية، أنا على يقين. خسرت عزيزا، ستجده أمامها ذات يوم وسيكون متحالفا مع آلامها وذاكرتها الحية.

قبل شهر عندما عرفت أن مانيا حامل بعد كل الخيبات المتواترة تأكدت أن الدنيا بقدر ما هي قاسية، فهي رحيمة ومليئة بالخير. شيء في مسارنا الحياتي لم يكن موفقا. ولدت مايا بعد يأس كبير ويستعد عز الدين للخروج إلى الدنيا وارثا ذاكرة أحد أطيب الناس وأعظمهم وأنقاهم.

الحروب تعمي أحيانا ولكنها تمنحنا حسا غريبا بالمقاومة والارتباط

بالحياة بشكل هبلي وجنوني. ربما كان الإحساس بالفقدان مؤلما، والخسارات النهائية هي السبب الأول.

تسربت من بعيد رائحة الياسمين القدسي ورائحة النرجس الأصفر. كانت تأتي من عمق الحارة الأرمينية أو ربما اليهودية، هكذا تخيلت لكن شيئا مهما وثمينا في القدس بدا لي قد مات أو هو في طريقه إلى ذلك. لم تعد القدس، كما تعودت، تنام على أجراس الكنائس وحنين الآذان المنبعث من صوامعها العتيقة. صارت تغفو مجبرة على الصمت والخوف، وكان ذلك كافيا لإدراك أن شيئا ما انكسر أو تغير في عمق المدينة.

كانت زيارتي هذه المرة شبه سرية وخاطفة، قبل التوجه إلى جبهة القتال. فقد قتلت عصابات الهاغانا الكثير من الأصدقاء حتى صارت العائلة كلما رأتني اهتز قلبها وزاد خوفها وتمنت في أعماقها لو مكثت في مكاني حيث أنا في أحد منافي فلسطين وعلى قيد الحياة. عصابات الهاغانا لم تكن لترحم أحدا. فقد كانت تتصيد الأفراد المتميزين. الأساتذة، رجال الدين، الفنانين، السياسيين. ولهذا فقد انتسب معظم أخوالي إلى المقاومة والبقية التحقت بالعائلة التي سافرت إلى نيويورك منذ زمن بعيد. الوحيد التي ظل يحمي البيت بكل ما أوتي من قوة وذكاء وبدون اصطدام مباشر مع الإنجليز، هو خالي مصطفى الذي ظل في عمله كمهندس خرائط وفي محيط العائلة ومعاصر الزيتون ولم يكن أحد يعرف عمله مع المقاومة. علاقته بالإنجليز لم تكن سيئة، على الأقل في ظاهرها. فقد حافظ على الجانب المحافظ كما فعل جدي دائما ولم يدخل معهم في سجالات كبيرة. كان يعرف جيدا أن موازين المنطق انكسرت ولم يعد أحد يعمل بها أبدا.

قالت مانيا وهي تصفف شعر مايا، في ذلك المساء الربيعي المنكسر، وكانت تجلس بالقرب مني، مقابل النافورة التي كان جدي يرتاح لتكسر مائها طويلا قبل أن ينسحب نحو غرفته في يده مصحفه ومسبحته. كانت تنظر في الفراغ لكي تتفادى البكاء والارتباك، وتكفكف

دمعة هاربة عندما عرفت أن الزمن محدود وان ذهابي ليافا لن يكون أبعد من غد.

- ما بعرف شو بدي أقول لك؟

- ما شبعت من وجهي... ما مليت مني ومن ملاحظاتي التافهة؟

تنظر طويلا إلى مايا التي نامت بين يديها وهي تمص إبهامها:

- ياه لو تدري! ولكنك لا تدري، ككل الرجال. كيف أشبع منك وأنا الجائعة لك دوما وباستمرار؟!

- المهم أننا مع بعض ونحتاج إلى أن نفهم أن أي ثانية تضيع هي جزء من عمر لن يعود أبدا ولهذا علينا أن نكون مثل المجانين ألا نعير المحيط الكثير من الانتباه ولا نضيع الوقت إلا في ما يعطي للحياة دفعا آخر، أكثر حيوية وأكثر قوة. الوقت الذي يمر اليوم لم يعد يمنحنا ما منحتنا إياه الطفولة. سيأتي زمن نشتاق فيه أعين بعضنا بعضاً ويصبح كلامنا مستحيلا وربما نادرا ومحروسا.

- ما بعرف شو بدي أقول لك؟ ابكي أم أسعد لوجودك بيننا؟ أعرف أنك بعد شويه حتروح وتتركني لوحدة وخلوة لم أخترها. أتساءل أحيانا إذا لم تكن أمك على بينة وصدق عندما اقترحت علينا الذهاب إلى الشام. نستطيع على الأقل أن نعرف نعيش. كلما حاصرني توحش الأمكنة تذكرتك وملأت القلب بابتساماتك فأشعر أن الدنيا بخير. هل تدري أن هذا الوضع يهبلني، يخرجني من عقلي. أشعر كل يوم أن بلادنا تزداد هربا من أيدينا. لقد سرقوا كل ما يحيط بها ويتهيأون للانقضاض عليها... وحياتك هذا ما أشعر به، وأكثر، كأننا جميعا نسير نحو تهلكة لا نملك حيالها أية قوة. هل أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في ذلك؟ هل أستطيع أن أمنعك من الذهاب؟

- لا أدري يا مانيا ولكني أشعر كأن شيئا فينا انكسر. نحاول أن نغمض العيون وألا نرى شيئا وألا نفكر إلا في الدفاع عن حقنا في البقاء على هذه الأرض وأن نتمادى في التناسي حتى نستطيع العيش والدفاع ولكن... الجيوش العربية لم تصل وكل ما يبعث لنا، متطوعون طيبون

ولكنهم عبء أكثر من نفعهم. علينا تسليحهم والبحث لهم عن مأوى وتدريبهم. بعضهم لا تقوده إلا غريزة البقاء وحب الأرض فقط.

- يجب أن تحذر. العصابات بدأت تنتظم بقوة. أشعر بأنهم يتصيدونك. أعرفهم وأشم رائحتهم من بعيد. في كل مرة نسمع باغتيال نعرف بسهولة علاماتهم. حقدهم كبير ولا يرحمون من ينوجد بين أيديهم. يأتون في هيئات ناس عاديين ويسألون أصحاب الدكاكين والمقاهي والحارات الشعبية وقد سألوا عنك. أرجوان تحذر قدر ما تستطيع ولا تزورنا إلا عندما تتأكد من أن عيناً لم ترك.

- وهل وجودك في التنظيم النسائي الفلسطيني يعفيك من الخطر؟

- ليس نفس الشيء. يبدو لي أنهم إلى حد الآن لم يتجرأوا على لمس نساء حارة المغاربة. ثم لست منتسبة ليس عن خوف ولكن عن رغبة في البقاء بعيدة عن التأثيرات. رؤية ماريا تعجبني. تقول إن التزامها بهذه الأرض هو التزامها الكبير بتخليدها وتخليد حياتها الجميلة لتظل حتى عندما ننطفئ نحن. صرت أكره الخطابات والبلاد تسقط. كل خطاباتنا وتجمعاتنا لا تساوي حبة عرق من جبينك وجبين المجاهدين الذي يدافعون بيأس كبير عن هذه الأرض التي يموت فيها جزء بدون أن نتوصل للدفاع عنه.

لست أدري كم دام الوقت وأنا بصحبة مانيا. كثيرا ما تذكرت راشيل ولكن في تلك الليلة كل شيء كان صافيا، فقد ملأت عيني بكل تفاصيل جسدها حركاتها حتى خلت بأني سأفقدها بعد دقائق. قالت بدهشة وهي تحاول أن تكتم ابتسامتها الجميلة:

- شو صار لك؟ كأنك ما بتعرفني أو بتشوفني للمرة الأولى. أنا مانيا يا مجنون. ما. . . . نـ. . . يـا. . . ها أنذي أمامك، لك بكلي، أشبعني بدل أن تقضي وقتك حائرا في وجهي. . .

- مهبولة؟ هل يشبع مجنون من مجنونة إلا إذا صار عاقلا وأنا أرفض العقل الآن. أريد أن أراك. . . أن أشمك كأي حيوان بري لأحفظ عطر جسدك في عمق دماغي. . . أن ألمسك لأتذكر حرير جسدك. . .

أن أدخل بؤبؤ العينين حتى أستقر نهائيا في عمقهما... أن أنام بين ذراعيك واتركيني أغفو بشكل لا ينتهي...

- بيكفي راح بتقتلني يا خيي بهيك كلام.

ثم ترتمي على صدري. أشعر بجسدها الحي وبنعومة بشرتها وصدرها ورشاقة جسدها. كل شيء غام ورائي كالسراب. كنت داخل كومة بنفسجية من الغيوم الهاربة. لم أكن أسمع شيئا إلا تقطعات جسدها الذي كان ينزلق من بين أصابعي ككمشة من النور. كانت زئبقا وحصانا جامحا لا يوقفه إلا صهيل الداخل الذي كان يشتعل بقوة. كنا نغتسل بعرق الجسدين وكأنها الحالة التي تسبق الفقدان الأبدي والأخير.

ما يزال الليل في جزئه الثاني حيث تتوسط الأشياء دهشة الحياة بين شهوة البدايات ورعشة النهايات التي تنتظر في الأفق بأكفانها وخوفها.

عندما سمعت الدقات السبع على الباب الخشنة، موزعة ثلاثاً، ثلاثاً فواحدة، كانت مانيا ما تزال بين ذراعي في كامل عنفوانها وحيويتها. لم نمارس الحب في حياتنا بفوضى مبهمة وبشكل جنوني مثلما مارسناه تلك الليلة الأخيرة. الأشياء الجميلة كثيرا ما تأتي دفعة واحدة قبل الانطفاء.

تمتمت وهي تمد يدها نحو شعيرات صدري القليلة:

- لسه بكير حبيبي... خليك بس شويه... نتفة واحدة... ما شبعت منك يا روحي.

- هذا هو الدق المنتظر. سنمشي إلى يافا لحمايتها ما دامت المسالك لم تغلق. خليك لا تقومي. إن شاء الله كلها يومين وبعدها الله يفتح...

- تظن...

صمت.

لم تقل شيئا ولكنها قامت من فراشها وتدحرجت معي وعندما واجهتني أمام النافورة، اختلطت وشوشاتها بتكسر المياه بالدق من جديد على الباب بشكل مسموع أكثر:

- أعرف أن الوضع صعب والأمر كل يوم يزداد خطورة عليك وعلينا جميعا. حبيبي، خذ بالك من نفسك، من أجلي ومن أجل مايا وكل العائلة ومن أجل اللي في بطني، عز الدين.

لم يكن الكلام سهلا ولكني انسحبت بهدوء من شفتيها وذراعها ولم ألتفت مرة أخرى. فتحت الباب وأغلقته ورائي بنفس الحركة الجافة، بصمت وكأني غريب عن المكان واندفنت في عمق ظلمة الفجر مع المجموعة.

كان أذان الفجر قد خرج من أقرب مئذنة المسجد الصغير، في عمق حارة المغاربة.

-٢-

لم يكن مهما أن نربح المعركة ونخسر المدينة ولكن أن نخسر كل شيء ونحافظ على المدينة. خسارة حيفا كانت تعني فتح الأبواب على مصراعيها للهجوم النهائي على القدس.

كان يفترض أن نستميت في الدفاع عن حيفا، فقد كانت المركز التجاري الصناعي والاقتصادي لسكان فلسطين مثلما كانت القدس مركزهم الروحي ويافا مركزهم الثقافي والرياضي. لم يكن عدد العرب قليلاً في المدينة، فمن بين ١٤٠٠٠٠ نسمة يكاد النصف يكون عربيا والنصف الآخر يهوديا. المدينة مغرفة، تحمي أطرافها جبال تشكل درعها الأساسي ومنها تتزحلق الأحياء لتنتشر على كل المنحدر الشمالي لجبل الكرمل، قبالة الميناء؛ بينما الأحياء اليهودية، فقد كانت تقع في أعالي الجبل هدار هكرمل وتشرف كليا على الأحياء العربية بما فيها البلدة العربية القديمة. لم نرب أوهاما غير مؤسسة، كنا نعرف أن ذلك كله سيصعب من مهام الدفاع عن المدينة في حالة اندلاع حرب مفتوحة بين الصهاينة والعرب كالتي حدثت في أمكنة أخرى، وكنا نعرف كذلك أن المدينة كانت تقع ضمن الخطة (د) التي نظمتها الهاغانا للاستيلاء على

فلسطين وتهجير العرب منها وفق مخطط التقسيم. بل وصلتنا حتى الترتيبات الهجومية واسم العملية مسباراييم Misparajim التي حضرتها الهاغانا والتي كان توقيتها ما بين ٢١ و ٢٢ نيسان مثلها مثل عملية حميتس Chametz (الخميرة) للاستيلاء على يافا التي كانت بها لجنة قومية أكثر تنظيما بإشراف الهيئة العربية العليا بعد قرار التقسيم وحامية بلغ عدد عسكرها قرابة ٦٠٠ مقاتل تضاف إليهم قوات الإنقاذ المكونة من ٣٠٠ مقاتل. لجنة الدفاع عن يافا أوكلت للشيخ حسن سلامة القائد الذي انتدبه الحاج أمين الحسيني لإدارة دفة القتال عندما تزف الساعة في يافا واللد والرملة وفي كل القطاع الغربي.

اختيار ٢٢ نيسان للهجوم على حيفا ويافا لم يكن مصادفة. فاليوم يصادف عيد الفصح عند اليهود وهو العيد الذي يسبقه بموجب الطقوس اليهودية شهر تام تطهر خلاله ربات البيوت منازلهن من كل ذرة من ذرات الخميرة أينما وجدت. الأمر إذن لم يكن يتعلق فقط بالاحتلال بل أيضا بتطهير الديار من سكانها العرب وتهجيرهم خارج أراضيهم وبلادهم الأصلية.

لم نكن نعرف كيف نستغل المعلومات التي وصلتنا ولم نكن متأكدين ما إذا كان ذلك فعلا حقيقة أم مجرد مناورة من طرف الهاغانا لتمزيق قواتنا. ولكن هذا لم يمنعنا من الاستعدادات اللازمة والضرورية. أبلغنا القيادة من خلال رسالة مفصلة بعثناها وأوضحنا فيها أن ما يبدو مجرد مشادات صغيرة من حوادث قنص وتفجير بين الحين والآخر، سيتحول لا محالة إلى حرب حقيقية.

كنا في مركز قيادة الحامية العربية ننتظر وصول الموفد الإنجليزي الذي طلب رؤية قائد الحامية العربية أمين عز الدين. كان يحمل رسالة من طرف الجنرال الإنجليزي ستوكويل Stockwel القائد البريطاني في حيفا. سلم الضابط الإنجليزي الرسالة ثم انسحب ولم يترك لنا حتى فرصة سؤاله. عندما فتحها القائد أمين عز الدين، التفت نحونا بشكل آلي وهو يتمتم بشكل منفعل:

- لا أدري كيف أفسر هذه الدعوة؟ ولكن الأمر لا يبشر بخير. لهجة الرسالة تشبه الأوامر.

- ماذا تقول يا سيدي؟

قال جورج معمر ضابط الارتباط الذي لم يغادر القيادة منذ أن أصبح هجوم اليهود وشيكا. تأمل الرسالة بدوره وقلب كلماتها مثلما فعل أمين عز الدين وفعلت أنا بدوري. نظرنا قليلا إلى بعضنا بعضا. سجلت بعض الملاحظات والمعلومات وأرجعت الرسالة لقائد الحامية.

- الجنرال ستوكويل يطلبني إلى مقر قيادته، ماذا نفعل؟

- ولا يقول ما يريده منا؟ ربما يريد أن يتكتم حول مسألة مهمة.

- لم يفصح ولكنه يمكنني تصور ما يريد. الأمر يتعلق بالوضعية المتفجرة. سيهددنا وسيهدد اليهود بنفس الطريقة، وسيطلب منا ضرورة احترام الآجال وعدم إحراج بريطانيا.

- لا أدري إذا ما كان هذا هو السبب يا سيدي ولكني أتصور أن الأمر أعمق وأكثر تعقيدا.

قلت وأنا لست متأكدا مما سأقوله من معلومات على الرغم من إحساسي بأن شيئا مهما كان بصدد الحدوث.

- مثلا؟ إيه اللي راح يحصل يعني؟ حيطلب منا مغادرة المدينة؟ في شيء أخطر من هذا؟

قال القائد.

- الإنجليز صاروا يتواطأون بشكل واضح مع اليهود، سقوط مدينة طبريا يشهد على ذلك.

- كلام غير دقيق والوقائع تكذبه يا شريف. يجب ألا نعمى عن الكثير من الحقائق. أخطر الأعمال الإرهابية اليهودية وضعت الهاغانا في وضع لا تحسد عليه مع الإنجليز. انظر ماذا فعلوا في ٢٥ فبراير ١٩٤٦، أية دولة لا تقبل بذلك. فقد هجموا على ثلاثة مطارات عسكرية وفجروا ٢٢ طائرة حربية إضافة إلى الاغتيالات المتتالية للعسكر البريطاني ونسف الجسور الثمانية الرئيسية التي تربط فلسطين بالأقطار المجاورة في ١٧

جوان ١٩٤٦ وكانت القيادة العسكرية البريطانية تصر على الحل الجذري بينما تلح السلطة الانتدابية على تفادي الاصطدام حرصا على العلاقة مع واشنطن. إلى أن خطف ثمانية ضباط بريطانيين في ١٨ حزيران فلم يعد الصمت ممكنا. فحاصرت القوات العسكرية البريطانية تل أبيب وفتشتها بيتا بيتا وتم اعتقال ٢٦٧٥ مشتبها فيهم. كما داهم الجيش مقر الوكالة اليهودية في القدس واعتقل أربعة من أركانها بمن فيهم شرتوك وهرب بنغوريون إلى باريس. واستولت على كل الوثائق. أخطر المداهمات كانت على أحد مخازن الهاغانا الحربية الواقع تحت الأرض وكان يحتوي على ٣٢٥ بندقية و ٩٦ مدفع هاون وعشرة رشاشات ثقيلة ونحو نصف مليون طلقة و ٨٠٠ طن من المتفجرات. وردَت منظمة الأرغون بقيادة مناحم بيغن على اقتحام الوكالة اليهودية بنسف مقر سلطة الانتداب ذاته في فندق الملك داود في القدس في ٢٢ جويلية وذلك خلال انعقاد جلسات الخبراء. وكانت حصيلة الاعتداء الإرهابي ٩٣ ضحية معظمهم من المدنيين من موظفين وزائرين منهم ٤١ عربيا و ٢٨ بريطانيا و ١٧ يهوديا.

- طيب وماذا كان رد بريطانيا ضد هذا العمل الإرهابي الذي ضرب الانتداب في عموده الفقري؟ تم حصار تل أبيب لمدة أربعة أيام اعتقل فيها ٨٠٠ مشتبه بمن فيهم إسحاق شمير مدير عمليات ليحي (شتيرن) بينما أفلت بيغن من الاعتقال. تخيل الآن لو كان العرب هم من نفذ هذه الأعمال!

- مع ذلك، فقد أحدث هذا خللا كبيرا في العلاقة مع الوكالة اليهودية، لو عرف العرب كيف يستغلونه لو لم يبقوا رهيني الخطابات الكلية أو لا شيء، لاستفادوا كثيرا من هذه العداوة. هذا الخوف دفع بحاييم وايزمان إلى أن يصرح للمندوب السامي البريطاني في فلسطين الجنرال كننغهام Cunningham: **لقد أعلنت بريطانيا الحرب لا على الجالية اليهودية في فلسطين فحسب، بل أيضا على اليهودية العالمية بما في ذلك الخمسة ملايين يهودي أمريكي. وفي اعتقادي أن**

الإمبراطورية البريطانية أعجز من أن تستمر في مثل هذه الحرب. هل هناك عداوة أكثر من هذه لو استغلت كما يجب؟ العرب ينقصهم عقل داهية، يفكر بشكل ذكي وحاسم. يا الله، خلينا نشوف أولا ماذا يريد منا الجنرال وبعدها يتضح كل شيء.

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد الموافق ل ٢١ أفريل كنا في مقر قيادة الجنرال ستوكويل. رحب بنا وكان يعرف جيدا ضابط الارتباط جورج معمر الذي تبادل معه بعض النكت التي كانت مدسوسة ببعض الجدية:

- إن شاء الله ما راح تطردونا من حيفا يا جنرال ستوكويل.

- أبدا. مجانين بعض الشيء ولكن ليس إلى الحد الذي يعمينا عن أصدقائنا. مدينتكم هي مدينتنا ومدينة كل سكان المنطقة، ولا نريد لها إلا الخير.

- الحمد لله، طمأنتني.

ثم ضربه على ظهره كأي صديق قديم، وجرنا نحو مكتبه الواسع الذي خفتت إنارته وبدا كمكتب هادئ يحتاج فيه المرء إلى أن تكون أعصابه باردة. حرك رأس آلة الفونوغراف بعد أن وضع شوكتها على الأسطوانة الفحمية فخرج صوت رقيق وناعم كأنه صدى لروح مشروخة في الأعماق.

- الدانوب الأزرق.

خرجت الكلمة مني لا إراديا.

- صحيح. الدانوب الأزرق، أنا وشتروس صحبة قديمة. حتى لا تقول يا أستاذ شريف أننا بدون ذوق إنساني وأننا أولا وأخيرا مجرد عساكر لا تعرف إلا التدمير والقتل.

لا أدري لماذا وجه كلامه إليّ مع أني لم أكن أعرفه. ربما ارتكز أكثر على ردة فعلي، أو كان يعرفني جيدا بواسطة عيونه الحادة ومستشاريه الذين قدموا له ورقة مفصلة عن ضيوفه.

وبدون مقدمات كبيرة كان الجنرال ستوكويل هو من أخذ الكلمة

أولا على خلفية موسيقية كانت تزداد خفوتا كلما تقدم في الكلام. لم تكن في مكتبنا في الحامية، موسيقى. كانت وجوهنا منقبضة، منكسرة وباردة تنتظر شيئا لم تكن تعرفه.

- الوضع صعب علينا جميعا. أتمنى أن تجد هذه المدينة الوسائل التي تخرج بها من محنتها بسلام على عكس المدن الأخرى. ولهذا فأنا أرى من واجبي أن أخبركم أنني أمرت قواتنا المرابطة بين الأحياء والمناطق العربية واليهودية، في خطوط التماس، بالانسحاب التدريجي. وأضمن لكم، كيفما كان الحال، بأننا لن نتدخل في أي صدام يقع بين الطرفين وان كل ما يعنينا هو الحفاظ على سلامة وحداتنا قبل جلائها خلال ما تبقى من أيام الانتداب. الأمر سيوكل إليكم يهودا وعربا وعليكم أن تتفاهموا بالوسائل الأكثر عقلانية وألا تحرقوا هذه المدينة الجميلة وتغرقوها في أحقادكم التاريخية. لن يفيد ذلك في أي شيء. فهي متعبة من الخلافات وليست في حاجة إلى ذلك. مجرد نصيحة لا أكثر، ولم يوكلني أحد على ذلك.

- أفهم من هذا أن القرار نهائي ولا رجعة فيه؟

تساءل قائد الحامية العربية أمين عز الدين بوجه علته فجأة سمرة داكنة وبرودة ارتسمت على تفاصيل محياه المنكسر. لم يستطع أن يخبئ خيبته العميقة.

- أنت وضابط الارتباط تعرفان علاقتي بالعرب. منذ أن عينت هنا وأنا أسعى إلى التقارب. بمبادرة مني تم إنشاء مكتب ارتباط بين الجيش البريطاني واللجنة القومية المحلية لخلق علاقات صحية وتفادي كل التوترات الممكنة وسوء التفاهم وأتمنى من القلب أن تجدوا خطوط تماس مع اليهود وإلا ستظلون في حرب المئة سنة ولن يخلي الناس سبيلكم، اليوم بريطانيا وفرنسا وغدا ربما ألمانيا وأمريكا، من يدري؟ العالم يمكن أن يجن في أية لحظة وتصبحون أنتم، يهودا وعربا، لحم المدافع.

رد الجنرال ستوكويل بشكل هادئ ومتزن وهو يسترق السمع إلى

حنين المقطوعة الذي صار رقيقا وعميقا وحافرا في تفاصيل الذاكرة. الذين يعرفون ستوكويل يقولون عنه إنه بإمكانه أن يكون في الظل وفي الشمس، في الظلمة وفي النور، في النار وفي الماء ولا يتأثر أبدا. في لحظة من اللحظات تخيلته هو المايسترو الذي كان يحدد كل مسارات المقطوعة بحركة يده وهو يتحدث أو عندما يحني رأسه ويضع رأسه في كفه اليمنى أو وهو يمشي داخل المكتب عابرا جوانبه ذهابا وإيابا بحثا عما يهز الأعماق.

التفت نحونا جميعا وكأنه كان يودعنا للمرة الأخيرة:

- فعلا سأكون حزينا لو تسببتم أنتم أو اليهود في حرق هذه المدينة. قلت لهم نفس الكلام الذي أقوله لكم الآن ونصحتهم بنفس النصائح وعليكم أن تجدوا قنوات الاتصال وهي موجودة إذا شئتم.

- المشكلة أعمق يا سيدي من مجرد العواطف. أنا مستغرب من مغادرتكم الآن لفلسطين بعدما تركتموها على بركان! يبدو لي أن كلامكم يناقض تصريحات بريطانيا المتتالية بأنها وحدها المسؤولة عن النظام والأمن كما يناقض جميع الترتيبات المتفق عليها في لجنة الارتباط.

تململ ضابط الارتباط معمر جورج في مكانه في الزاوية في عمق كرسي لم يُظهِر إلا جزءاً من صدره ورأسه. لم يكن يبدو عليه أي حماس للكلام.

- للأسف، رد ستوكويل، لا أستطيع أن أغير أي شيء في الترتيبات المتخذة. أنت عسكري وتعرف أن القرارات العسكرية تنفذ ولا تناقش ولكن نحاول أن نجتهد داخل المساحة المعطاة لنا لا أكثر. أنا تلقيت أمرا بالمغادرة ولم أصنعه.

كانت الخيبة بادية على الجميع. لاحظ ستوكويل ذلك فحاول أن يخفف الثقل:

- سأحاول أن أبذل قصارى جهدي لكيلا يصاب أحد منكم بأذى وأن نحافظ على وحدة المدينة المهددة بالتمزق. إني أشم ذلك من بعيد. الأفضل للعرب واليهود أن يتفقوا الآن في مثل هذه المدن المتساوية في

سكانها وإلا فإن حروبكم لن تتوقف وخرابكم سيكون كبيرا. ليس أكثر هبلا من الحروب الدينية التي تعطي لنفسها شرعيات لا علاقة للبشر بها وفيها.

لم نحصل على الشيء الكثير ولكننا أحسسنا بخطر ما ينتظر المدينة. كل واحد كان يشعر بأن ما كان مجرد تخمينات حول اقتراب هجوم الهاغانا صار حقيقة بدأت ترتسم ملامحها وأن الإنجليز سيكررون نفس الموقف الذي كان لهم إثر سقوط طبرية، الخروج والتسليم بكل شيء.

جدية الوضع وصعوبته دفعت بقائد الحامية العربية إلى إحداث لخبطة داخل رتابة النظام. فقد طالب بالتفكير في إعادة ترتيب الجيش وتفحص العدد والعدة وفهم النقائص عن قرب. فهو منذ البداية كان مع فكرة الجيش النظامي ولم يكن راضيا على الوضع، ولكنه كان على يقين من أن اللجنة العسكرية ستقوم بتأدية ما عليها من واجب الدفاع والتعلم من الدروس السابقة التي أفرزتها الهزائم أمام عصابات الهاغانا العسكرية المنظمة بشكل محكم. جملة واحدة ظل قائد الحامية العربية يرددها:

- النفس تموت هاربة. لسنا أقل قدرة منهم وعلينا أن نعرف كيف نسير خططنا الحربية. لدينا الشجاعة والقوة ليست قدرا ولكنها تصنع وتبنى. السلاح سنحصل عليه بالطرق الشرعية وغير الشرعية مثلما يحصلون عليه هم. لا يوجد شيء مستحيل أبدا.

كان التعب باديا على الجميع على الرغم من أنهم لم يتفاعلوا كثيرا مع كلام ستوكويل أما أنا فقد قرأته بشكل درامي ومخيف وكنت على يقين بأني كنت في عمق الحقيقة. رجل بنباهة الجنرال ستوكويل لا يستدعي مجموعة الحامية وضابط الارتباط ليخبرهم فقط بمآل مدينة.

عندما سألني القائد أمين عز الدين عن رأيي، لم أخبئ ما كان يشغلني:

- أراك صامتا ولا تفعل شيئا سوى تسجيل المعلومات.

- وظيفة السكرتارية الحربية يا سيدي.

- ولكن رأيك يهمنا كثيرا.

- كلامه يا سيدي يعني بكل بساطة، على الأقل في حدود ظني: سنخرج نحن البريطانيين من المدينة، نظموا أنفسكم حتى لا تهاجمكم قوات الهاغانا على حين غرة، وهو يعرف جيدا رأي قواده وضباط الرتب العليا المتواطئين. لا أعتقد أنه كان مجبرا على إخبارنا. صحيح أن الوقت محدود ولكن، مع ذلك مهم ألا تسقط علينا الحرب ونحن مازلنا في حروب المناوشات الصغيرة. أنا على يقين أن الرجل كان يمرر لنا خطابا علينا أن نأخذه بجدية. ولا يمكن أن يكون ما قام به مجرد جلسة حبية مليئة بالمودة والطيبة.

- هو فعل ذلك مع اليهود كذلك؟

- لا أدري ما قاله لهم، ولكن ما سمعته منه لا يمكن إلا أن يفسر بهذا الشكل.

كان فريد السعد العضو البارز في اللجنة القومية يتتبع كلامي ومن حين لآخر يهز رأسه بالموافقة، قبل أن يتابع في نفس السياق:

- شريف يا سيدي، على حق تماما. لقد طلبت مقابلة الجنرال ولكنه لم يعطني موعدا إلا يوم ٢٢ نيسان بدءا من الساعة التاسعة وهو اليوم الذي بلغنا أن الهاغانا حددته للهجوم على الأحياء العربية للاستيلاء على المدينة بكاملها. أقرأ في كلام الجنرال نفس الإشارات ولهذا علينا أن نستعد لخوض حرب ضروس وأن نتخذ إجراءات تنظيمية جادة أكثر مما اتخذناه حتى الآن. ما ينتظر هذه المدينة قاس وقاس جدا.

الذي عقد الأمور أكثر هو مغادرة أمين عز الدين الحامية، لأنه بعد قراءة دقيقة وشكاوى متعددة لم يجد مسلكا آخر غير الاحتجاج بقوة على رئيس اللجنة العسكرية وضباط دمشق الذين لم يحركوا ساكنا، وأكد للقريبين منه أنه ضيع كل المسالك وأنه لا يريد أن يكون سببا في هزيمة يصنعها الذين لم يتحركوا. فخرج باكرا هو ومجموعة من حرسه المقرب وبعض الجند باتجاه بيروت بينما بقي طاقم الحامية في مكانه. فعوض بنائبه يونس نفاع الذي كان يشعر بثقل المسؤولية على عاتقه. حاول ألا

يقطع الاتصالات مع الإنجليز لإيجاد مخرج وكأنه كان يطبق خطة رسمت له من بعيد وهي محاولة إيجاد حل وسط يحافظ فيه على أرواح السكان ومصالحهم وتقبل الانتصار اليهودي كحالة ثابتة. لأول مرة ينتابني الخوف بذلك الشكل، فقد قرأت الهزيمة في عيني القائد. وعين القائد لا تكذب حتى عندما يشاء هو فعل ذلك.

شعرت كأن الهزيمة كانت قد التصقت بملامح وجهه، بينما بقي الكثير من الضباط يراهنون على اللجنة العسكرية والتحاق الفيالق القدسية والكتيبة المغربية التي تحدث الكثير من الناس عنها ولكنها لم تظهر.

كل واحد كان يحاول أن ينام داخل أمنية الانتصار لكيلا يموت قهرا من صمت الطوق العربي الميت.

-٣-

كانت الساعة السابعة مساء من يوم الأربعاء ٢١ أفريل عندما سمعنا رشقات أولى ظننا أنها المناوشات الاعتيادية قبل أن تردف باهتزازات عنيفة لتفجيرات متأتية عن مدافع الهاون، ليس بعيدا عن الميناء. أدركنا لحظتها أن هجوم الهاغانا كان قد بدأ. زادت التفجيرات حدة واقترابا مصحوبة بصرخات كانت تتأتى من أمكنة لم تكن بعيدة عن المكان الذي كنا فيه. هذه المرة كانت التفجيرات التي رددها جبل الكرمل تأتي من البراميل التي كانت تقذف من الأعالي محملة بالبارود والمتفجرات باتجاه الأحياء العربية التي كانت تقع في المنخفضات وتتسلق بوجل أقدام الجبل العالي. كلما انفجر برميل، تطايرت الأخشاب والصخور واللحم البشري الذي يصادفها في طريقه إلى آلاف الأجزاء. بدأ الناس يتداخلون في كل الاتجاهات مثل النمل، قبل أن يتمركز الكثير منهم بالقرب من الحامية وهم يصرخون: يا عالم شو هذا اللي عميحصل؟ أعطونا أسلحة حتى ندافع عن أنفسنا واخرجوا إذا شئتم، اهربوا. . . نحنا ما بدنا نهرب. . .

كان اليأس والخوف باديين على الأوجه المنهكة من توجسات الشهور الأخيرة.

حاولنا أن ننظم جهودنا ونسلح من يمكن تسليحهم بدون حساب دقيق لهوية الأشخاص وطلبنا منهم الابتعاد عن الأماكن الحساسة. وطلبنا من الحامية الإنجليزية التي كانت ما تزال في مواقعها بإرسال سيارات إسعاف لنقل الجرحى ولكن بدون جدوى. كان الناس يداوون في العراء أو في الخيام التي نصبت وراء الحيطان السميكة لتفادي سقوطها بسبب الانفجارات الكثيرة. ليلة الخميس كانت من أقسى الليالي. انتشر الجيش بعد أن تقسم إلى وحدات دفاعية صغيرة لدرء الخطر الداهم عن الأحياء العربية.

واصل الهاغانا هجومهم وصعدوه أكثر، فهرب الآلاف من النساء والأطفال والشيوخ وهم يبحثون عن الطرقات المؤدية إلى الميناء. قتل العشرات منهم على مداخله برصاص القناصة اليهود. المشهد وحده كان يوضح بأننا كنا بصدد حرب غير متوازنة. كان يجب إعادة ترتيب هذه الفوضى التي بدا من الصعب السيطرة عليها. اقتربنا من الميناء لتنظيم الفارين وطمأنتهم بأن الوضع سيتغير ولكن بدون جدوى. لم يكن من حل أمام القوات البريطانية إلا وضعهم في القوارب والمراكب. هذا كان أقصى ما يمكن أن تقدمه لهم.

- لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك. كنت أتمنى حلا غير هذا، لكن إصرارهم على القتال سيقود هذه المدينة إلى الهلاك.

قال الجنرال ستوكويل الذي خرج من بين الأدخنة على رأس سرية من العسكر الإنجليزي التي كانت تجوب في حدود خطوطها الفاصلة التي حددتها، وهو يسعل بشكل متقطع. لم ينس أن يذكرنا بالموعد المتأخر بعد بدء الهجمات الأولى من حرب التدمير.

- بئساً لأدخنة الحرب. ظننت أنها انتهت مع هتلر وهاهي ذي تخنقنا من جديد. سنبعث بالمهجرين مبدئيا إلى عكا، سيكونون هناك في مأمن على الأقل. أنتظركم مع ضابط الارتباط لتدارس ما يمكن فعله

لتفادي اتساع المجازر. لقد أبلغت الجهة اليهودية بذلك. أتمنى أن يحافظ الجميع على حيادية الميناء وإلا لن تتردد القوات البريطانية في الرد بحزم على الجهة المعتدية. أتمنى ألا نجبر على ذلك. لقد قلت هذا لقوات الهاغانا والتزمت مباشرة به.

لم ينتظر فريد سعيد، عضو اللجنة القومية، طويلا. فقد استقبله ستوكويل هو والوفد المرافق له ليس كما في المرة الأولى. لم ينكت. وجهه كان كوجه ميت، لا تجري فيه قطرة دم واحدة، منقبضا وضيقا غابت فيه ملامحه المريحة.

- نريدكم يا سيدي أن تعيدوا النظر في قراركم وتوقفوا هذه المجزرة. قال فريد سعيد. أنتم المخولون قانونا فعل ذلك. العرب الآن في وضعية المدافع عن نفسه ووجوده. إننا نقتل يا سيدي بالمتفجرات ومدافع الهاون. كنا نتمنى رؤيتك قبل أن تنطلق المعارك ولكننا لم نحصل منكم على موافقة.

- الأوضاع المعقدة لا تمنحنا دائما فرصا كبيرة للتأمل والتفكير الجيدين. القرار صار ساري المفعول وأنا لا أستطيع فعل أي شيء ما عدا المستوى الإنساني الذي لا يتعدى إنقاذ الأرواح، وهو ما تسمح به مهمتي العسكرية. ليس من حقي أن أتدخل في الصراع العربي اليهودي. يمكنني ربما السعي معكم ومع اليهود للتوقيع على هدنة. أنا مستعد للتوسط من أجل هذا العمل الخيري. ما عداه، ليس في مقدوري.

- الأمر يا سيدي لا يتعلق بهدنة ولكن بتوقيف اعتداء ضد المدنيين العزل. إنها مسؤوليتكم ولا يمكنكم أن تظلوا تتفرجون على شعب يقتل وهو لم يطلب سوى العيش بسلام على أرضه وبين أحبابه وإخوانه لا أكثر.

- لقد صار الإنجليز خارج اللعبة، المسالة تتجاوزني ولكن يمكنني أن أكون وسيط خير على الأقل. تأملوا المقترح وأخبروني. سأترككم قليلا وأرجو أن أحصل على نتيجة الآن لكي أتمكن من التحرك فورا.

خرج ستوكويل قليلا ليفسح المجال أمام الوفد للتداول حول قرار

ما. المشاورات بين الوفد لم تدم طويلا، كان الإجماع هو الحفاظ على أرواح الناس من موت صار أكيدا ووشيكا. وبدا واضحا للجميع أن الإنجليز تخلوا عن كل شيء ولم يعودوا معنيين إلا بأمن عساكرهم. دخل ستوكويل وهو يعرف سلفًا أن الوفد لابد أن يكون قد وافق على الوساطة والتفكير في توقيع هدنة.

- طيب، ما هو القرار؟ هل مازلت صالحا للقيام بشيء نافع قبل الانسحاب؟

- إننا موافقون على الهدنة، نريد فقط معرفة الشروط اللازمة لذلك.

غاب ليتمكن من مكالمة الجهة اليهودية التي كان قد دخل معها في حوار مواز منذ بداية الاعتداء. مكث قرابة ربع الساعة في المحادثة قبل أن يعود بوثيقة مكتوبة كانت قد أمليت عليه من طرف ضباط الهاغانا لاعتمادها والتوقيع عليها إذا وافق الطرف العربي على بنودها.

- ها هي ذي شروطهم مدونة في هذه الوثيقة. تجريد العرب من كل سلاح وتسليمه في ظرف ثلاث ساعات على أقصى تقدير. يجمع كل الذكور الأجانب في مكان معين ويغادرون فلسطين في ٢٤ ساعة. يمنع التجول في المدينة. يسمح للعرب بعد استقرار الوضع بممارسة حياتهم الطبيعية والمهنية.

التفت سعيد نحو بقية أعضاء الوفد. فقد شعر الجميع بأن البنود كانت قاسية ومهينة. كان الرفض جماعيا ولكيلا يسدوا الأبواب نهائيا ويطلقوا العنان للحرب فقط، فقد طلبوا من الجنرال ستوكويل أن يضاف شرط عربي إلى الوثيقة: إن التوقيع لا يتضمن أي اعتراف بقيادة الهاغانا للمدينة. أو بأي تغيير في الوضع السياسي للبلاد.

- سأوصل ذلك لقيادة الهاغانا ولكني مازلت مصرا على ضرورة اللقاء بينكم وبينهم عندي في المكتب. اقترح الساعة الرابعة بعد الظهر. لا يوجد وقت، للوصول على الأقل إلى نتيجة وتتفادون الوساطات التي

إذا كانت جيدة في البداية لتسهيل التواصل لن تصبح كذلك مع الوقت لأن كلا من الطرفين سينظر لها بعيون الريبة بحسب استجابتها لمصالحه.

وحدث ما تمناه ستوكويل وتم الاجتماع بيننا وبينهم. كان الجو مشحونا من شدة القلق والريبة والإحساس بضياع المبادرة. أصر اليهود على شروطهم وأصر العرب على إضافة شرطهم. طلب الوفد العربي استشارة إخوانه في مدينة حيفا قبل التوقيع على أية وثيقة خصوصا في وضع كهذا فيه الكثير من الخطورة.

قال فريد سعيد موجها كلامه مباشرة للجنرال ستوكويل، محاولا أن يتفادى الحضور اليهودي في الجلسة:

- نحتاج يا سيدي إلى ٢٤ ساعة لترتيب أمورنا والتوقيع إذا وافق الجميع.

- لا. قال رئيس الوفد اليهودي الذي كان يتابع المشهد من بعيد، ببرودة تامة وقد قرأ حالة الضعف التي تجلت على وجوه الوفد الذي بدا مرتبكا وغير واثق من نفسه.

- لا. أضاف ستوكويل. إذا أردتم أن تتفادوا وقوع مجزرة أخرى يجب التوقيع الآن. الوقت ليس في صالح الجميع، وليس في صالح العرب تحديدا. يهمنا جدا أن نترك وراءنا وطنا آمنا وليس أرضا يبابا.

- نريد تأجيل اجتماع التوقيع إلى الساعة السابعة من مساء اليوم على الأقل، لنتمكن من التحادث مع من هم أعلى رتبة منا. إنها حرب تشن ضدنا نحتاج فيها إلى رأي رؤسائنا. المسألة مصيرية يا سيدي. وعلينا أن نعرف رأي الشعب ووجهاء المدينة في ظرف ملتهب وقاس كهذا.

- لكنهم فوضوكم وتستطيعون التوقيع على شيء هو في النهاية في صالح السكان.

- ولكنه اعتداء يا سيدي. يجب ألا ننسى بأن هناك حربا تشن على السكان لإرغامهم على مغادرة البلاد.

- طيب سأجتهد لإقناع الطرف الآخر، أرجو ألا تتجاوزوا الساعة السابعة.

- وهو كذلك.

وخرجنا بدون أن نحسب أي حساب آخر سوى ما يقوله السكان ويتخذونه من قرارات كيفما كانت.

وتمت دعوة كل الناس الممثلين لمجتمع المدينة للتشاور فيما آلت إليه الأوضاع، من المحامين والأطباء والموظفين والتجار وأصحاب الأملاك والفلاحين البسطاء والحرفيين وغيرهم. كانت الجلسة واسعة. سئل نائب قائد الحامية يونس نفاع الذي خلف أمين عز الدين في منصبه بسبب مغادرة عز الدين المدينة، عن الوضعية العسكرية للجيش المؤهل للدفاع عن المدينة:

- نريد أن نعرف أولاً هل يملك العرب قوة كافية للدفاع عن المدينة والاستمرار في المقاومة؟

- هذه مسائل عسكرية ليس لدي الحق الخوض فيها علنا. أنتم تعرفون أن المسائل العسكرية لا تكشف هكذا بسهولة. نحن أمام عدو يقتفي ليس فقط خطواتنا ولكن تنفسنا. رد يونس نفاع بتردد كبير وبارتباك لم يستطع أن يخبئه، ومع ذلك أستطيع أن أقول إننا سنستميت في الدفاع عن حقنا حتى الموت إذا أجبرنا على ذلك.

- نريد أن نعرف لكي نتمكن من اتخاذ موقف عاقل من مشاهد الخراب التي تكتسح البلاد.

قال أحد المحامين في المدينة.

صرخ آخر في نهاية القاعة:

- ما يحدث لا يبشر مطلقا بخير. أنتم لا تخبئون الانتصار والمعلومات العسكرية، ولكنكم تخبئون الهزيمة في أعينكم أيضا. ستحاسبكم هذه المدينة يوم القيامة إذا تخليتم عنها في وضع بائس مثل هذا. المشكلة ليست فقط مشكلة عتاد ولكنها أكثر من ذلك، مشكلة إرادة غائبة وهزيمة صارت تقليدا دارجا في السنوات الأخيرة. العرب لا يستجيبون لهمومنا ويلوموننا أننا تركنا فلسطين تموت وحدها.

تدخل أحد الملاكين وإمام مسجد وعساكر متقاعدون من الفترة العثمانية وانتهوا إلى اقتراح تولية اللجنة مسؤولية اتخاذ ما تراه مناسبا لتفادي مجازر أخرى بما في ذلك توقيع وثيقة الهدنة.

لم يكن الوفد مؤمنا بضرورة التسليم في الأمر الواقع بذلك الشكل المشين.

عندما التحق الجميع بقاعة الاجتماع عن الساعة السابعة مساء، كان شيء واحد يطن في رؤوسهم: اختيار أقل الحلول سوءا، أي مواصلة ترحيل الفارين من نيران الهاغانا والدفاع في الوقت نفسه عن المدينة.

بانت علامات الخيبة على وجه الجنرال ستوكويل الذي لم يخبئ حزنه:

- طيب... نرحب بترحيل الفارين نحو عكا ونحو الأماكن الأكثر أمنا، لكن... والتوقيع على الوثيقة...؟

- نقرأ في الوثيقة طغيانا كليا للهاجانا وإهانة لنا ولهذا نرفض التوقيع على صيغتها الحالية. عليهم هم كذلك أن يتنازلوا قليلا.

بدت علامات الخيبة واضحة على وجه ستوكويل.

- كنت أتمنى مسلكا غير مخرج الحرب المدمرة لكل ما أنجز. خسارة...

- ليس هناك ما يجبرنا على توقيع وثيقة مهينة، ولا ما يلزم سكان حيفا العرب بالاعتراف بسلطة الهاغانا العدوانية مع كل ما ينجم من وراء ذلك من نتنائج سلبية وقاسية. نطلب فقط من السلطات الإنجليزية بوصفها حامية أمن السكان جميعا بأن تستمر في إجلاء السكان من مواقع الخطر، عبر الميناء.

- هذه مشكلة نظام، اعتبروها محلولة.

قالها ستوكويل وهو يدخل أصابعه الناعمة وسط أسطواناته بدون أن يختار أي واحدة منها. أغلق الفونغراف، ثم عاد ليجلس في مكانه مواجها للوفد اليهودي الذي كان يقوده رئيس بلدية حيفا:

- متأسف جدا. يبدو أن هناك عدم تقدير للعواقب الكبرى التي تنتظر المدينة. فالتدمير سيكون كبيرا والأرواح البريئة الكثيرة ستزهق. نحن مصرون على تطبيق قانون التقسيم بحرفية. وبالتالي فنحن داخل القوانين الدولية ولم نخترقها.

ظل الوفد العربي صامتا، يتتبع التهديدات المبطنة التي كان يمررها رئيس البلدية في كلامه.

وعلى الرغم من إصرار ستوكويل للوصول إلى نتيجة، اضطر في النهاية إلى تعليق الاجتماع وتأجيله إلى اليوم الموالي، يوم الجمعة ٢٣ أفريل حيث قدم الوفد العربي مذكرة كنت قد صغتها انطلاقا من كل المقترحات التي قدمها الوفد العربي. قرأها الجنرال ستوكويل وعندما وصل إلى الجملة: **على الرغم من أن الجلاء يجري بناء على طلبنا لكن الدافع الأكبر لهذا الطلب هو رفضكم اتخاذ أي إجراء لحماية أرواح الأهلين وممتلكاتهم**. توقف قليلا ثم أعلن عدم قدرته وأهليته على استلام وثيقة ترفض فرصة السلام. ثم قدم الوفد مذكرة ثانية إلى الطرف اليهودي كانت عبارة عن احتجاجات ضد اختراق اليهود بنود وقف إطلاق النار المؤقت في انتظار الوصول إلى نتائج، وهجومهم على البيوت الآمنة وتقتيل العرب وسلب متاجرهم وسياراتهم واعتقال المئات منهم، بدون معرفة مصير المعتقلين. وطالبت المذكرة بأن يتمتع كل عربي يختار البقاء بحرية الإقامة والعمل والمحافظة على أملاكهم الخاصة وعدم السطو عليها.

قال رئيس الوفد اليهودي:

- كل الأملاك المستعادة تدخل في نظام أملاك العدو الذي طبق إبان الحرب العالمية الأولى وينظر فيه في وقته. وإن أملاك السكان المنقولة وغير المنقولة تنطبق عليها أنظمة حراسة أملاك العدو.

- وهل يعني هذا أن كل سكان حيفا من العرب صاروا أعداء؟ وهذا يعني أن الهاربين من قنابلكم ورصاصكم، سيحرمون حتى من أخذ أمتعتهم الخاصة.

- لم نقل هذا ولكننا مازلنا داخل نظام إنجليزي وعلينا تقديره واحترامه.

تململ ستكويل في مكانه بدون أن يقول أية كلمة. كان يعرف جيدا أن رئيس الوفد اليهودي كان يكذب. فالصدامات بينهم وبين القوات الإنجليزية كانت كبيرة واغتيالات الشرطة وتفجير المواقع الإنجليزية كان فعلاً يومياً، وكان من مهام الهاغانا اليومية، تخويف هذه القوات بالتهديدات المتكررة، خصوصا في الأماكن التي كانت لها فيها سيطرة سكانية.

عندما خرج الوفد العربي، كانت النيران قد عادت. خياراتنا صارت منعدمة. تموقعنا في أمكنتنا للدفاع عن مدينة بدأت فجأة تخوننا. جزء من الحامية ظل يطوق الهاربين ويوجههم نحو السفن، بينما احتلت باقي القوات، الأماكن الاستراتيجية على طول خطوط التماس في المنطقة التجارية وعلى حواف الميناء.

الرصاصات الأولى التي صارت قريبة أخافتنا، بعدها صارت صدفة الحياة والموت هي السيدة. فجأة انهارت إحدى البنايات على بعد خطوات من مركز القيادة، ثم أخرى كان بها أكثر من عشرة مقاتلين، غابوا تحت الردم. عندما حاول أحدهما جاهدا أن يخرج من بين الركام المحترق. صرخت بأعلى صوتي بأن يلزم مكانه بسبب القناصة الذين لم يكونوا بعيدين عنه ولكنه لم يسمعني تحت قوة دوي المدافع.

- لا تخرج. خليك بمكانك. القنص.

لم يكد يتخطى العتبة حتى اخترقت رصاصة مصوبة صدره، فسقط. حاول أن يقوم ولكن رصاصة ثانية ألقته أرضا. فتدحرج في مكانه قبل أن يسقط ويسحبه صديقه نحوه بينما حاولت أن أصوب كل رصاصي صوب القناص لتغطية الجريح وصديقه. التحقت بهما من الناحية الخلفية. كان الدمار في داخل البناية عنيفا وكبيرا. تلمست الوجوه. أزلت الركام قليلا بمساعدة جورج معمر ضابط الارتباط. ميتان وثلاثة جرحى أخرجناهم

من البوابات الخلفية المواجهة للإنجليز بينما غيرت وحدتنا الموقع باتجاه بناية أكثر أمنا. حسنا فعلت، لأننا ما كدنا نغادر المكان حتى كانت البناية قد انهارت كليا بقذيفة مورتر جديدة. فتطايرت الحجارة في السماء ولم تعد إلا حجارة محروقة.

قذيفة الموتر الثانية نزلت قريبة من الحامية الإنجليزية، فردت عليها بعنف بخمس قذائف متتالية سقطت في عمق حي هدار اليهودي. فصمت القصف قليلا قبل أن يعود ولكن هذه المرة كانت القذائف تسقط في عمق الحي العربي، بعيدا عن الميناء، وعوِّضَ القذف بالقنص الموجه الذي زادت قوته وحدته.

معركة الحي القديم والميناء كانت قد بدأت بأقصى أشكال العنف وكان على أعضاء اللجنة أن يعطوا المثل الأعلى في عدم قبول التسليم وألا يكونوا من أول الهاربين.

غيرنا خطتنا بالصمت الذي يعطي الإحساس بالتسليم واحتمينا بالبنايات والحيطان الصلبة والحفر. بدأت قوات الهاغانا تتسرب نحو الميناء فرادى ومجموعات. وكنت على رأس فرقة القنص وفق التقسيمات الجديدة. عندما أصبح الكثير منهم في مرمانا، لم نرحمهم. لكن كثرتهم جعلت عددا لا بأس به يتسرب باتجاه الخطوط الأمامية للميناء.

فجأة تذكرت راشيل التي غيبتها الليلة الأخيرة مع مانيا عني. شعرت بالزمن يتسارع. بدت ابتسامتها ونظرتها التي تماهت مع النور المتسرب من فجوة الباب، جميلة ولكنها أخذت فجأة تنطفئ حتى غابت نهائيا. تأملت من وراء النافذة المكان الذي جلست فيه راشيل تعصر شعرها وتلحس بشفتها السفلى الماء المتسرسب على وجهها. بدا المكان واضحا في الظلمة تحت الإنارة الخفيفة. فجأة وقف في وسطها عنصر من الهاغانا بلباس عسكري وسيارة جيب صغيرة وبدأ يدور عينيه وينظر عبر الفجوات بواسطة ناظوره حتي بدا لي داخل الناظور وبدوت له في نفس الموقع ولكن أصبعي كان على الزناد بينما حاول هو أن يصطادني.

وقبل أن يفعل خرجت من أحشاء البندقية رصاصة واحدة كانت كافية لإحداث فعلها. لم يتحرك بعدها.

- قتلته؟ سألني جورج معمر.

- أظن. اجتهدت لكيلا أخطئه، لأنه لو حدث عكس ذلك لرأيتني الآن بجوارك جثة هامدة.

- علينا أن نغير المكان إذن، لقد صرنا مكشوفين.

ازداد وابل الرصاص صوبنا، فاقتربنا أكثر من ناحية الميناء حيث كان الناس يرحلون والخطوط الإنجليزية المؤمنة لم تكن بعيدة. الميناء كان يوفر قدرا كبيرا من الحماية ثم إن الكثير من بناياته كانت ما تزال واقفة وكان الهاغانا يخافون من قصفها كسبا لود الإنجليز وخوفا من ردة فعلهم. مقابل قذيفة كانت تنزل عليهم، كان الإنجليز يردون عليها بعشرة أضعاف.

من وراء الحائط السميك رأيت مشهدا جرحني في الأعماق وقربني أكثر مما كان يقوله المرحوم جدي. شعرت بأن هذه الحرب كانت ظالمة وأنها ستزداد ظلما، على العكس من حروب القرن التاسع عشر التي كان فيها قدر من الأخلاق والاعتراف للخصم ببطولته وتحييد من لا سلاح له. رأيت جندا من الهاغانا يحاولون التعدي على امرأة في يدها طفلة بشعر طويل، ويمنعونها من الوصول إلى الميناء. يعترضون سبيلها ثم يقبضون على ألبستها وينزعون ملايتها وهي تردها على رأسها ثم يعاودون وهي تحاول أن تهرب لكن كل الأماكن كانت مغلقة. زوجها قتل منذ اللحظة الأولى عندما حاول أن يعترض سبيلهم ويحمي زوجته وابنته. لم يكن المشهد مريحا ولا وضعي كان جيدا. على الرغم من الرصاص الذي كان يأتي من زوايا مختلفة من عمق المدينة باتجاه الميناء، استطعت أنا وجورج أن نخلي المكان الذي كنا فيه. وعلى الرغم من صعوبة الموقف، أطلقت عيارات صوب الهاغانا فابتعدوا إلا واحدا، ظل يبحث عن مصدر الطلقات، وقبل أن يصوب وكنت وراء الحائط، صوبت قبله فمال باتجاه اليسار وكأن الرصاصة اخترقت خصره، وقبل أن يرفع رأسه

كان جورج قد أطلق عيارا آخر أوقعه أرضا. في اللحظة نفسها رأيت المرأة تقبض على رأسها وتنكسر على ركبتيها متبوعة بابنتها التي رفرف شعرها للمرة الأخيرة تحت الأضواء مثل شلال من النجوم المحروقة. همدت الأم على وجهها بينما قامت الطفلة بصعوبة داخل الحرائق، رفعت رأسها نحو السماء قبل أن يِسمع صوت عيارين جافين فتتدحرج قليلا في مكانها وتتهاوى على جسد أمها لتغطيته نهائيا بعيدا عن أبيها الذي التوى حول نفسه ومات في وضع جنيني.

زاد الرصاص أكثر وصارت ضربات مدفع الهاون تقترب أكثر فأكثر. فجأة ارتسم على الجانب الأيمن من صدري خط أحمر تدفق منه دم كثيف وبدأت الدوخة تنتابني. لم أشعر بأدنى ألم ما عدا شيئا يشبه لسعة إبرة. لم أنتبه، لولا ضابط الارتباط جورج معمر الذي دفع بي إلى الزاوية المظلمة، لأتت علي الرصاصة الثانية.

وضعت رأسي على الجزء الخلفي للبناية التي كان مدفع المورتر قد حطم قسمه الأعلى وجلست متكئا على السارية الكبيرة التي ردت العديد من الرصاصات التي اخترقت الجانب الهش من الحائط.

- يبدو أنها النهاية يا جورج. انفذ بجلدك وقل للذين نحبهم إننا رغم الهزيمة متنا والبنادق في أيدينا. قل لصديقك الجنرال ستوكويل إن أحلامه في مدينة أفلاطونية، لم تجد مسلكها وإن الحقد يزداد كلما سال الدم أكثر واليوم سال دم كثير وإذا لم يوقف سيزداد الحقد إلى أن يصير بحرا لا أحد يستطيع توقيفه. وكلما حاول أحد الخيرين فعل ذلك، قتل بلا تردد.

- لا ألن أتركك تموت.

لست أدري ما الذي ذكرني بفوزي القاوقجي ربما رائحة القهوة الممزوجة برائحة الدم والخيبة. شعرت بأن وضعيته في يافا كانت أكثر تعقيدا من الوضعية التي كنا فيها. لم يكن يرد على أي شيء وعلى أية دعوة وعلى أية نجدة. تخيلته يضع بين يدي اللواء والمسؤولين كل رتبه العسكرية ويعتذر عن القيادة.

بدأت أتمادى داخل مسلك ضيق لم يكن به إلا بصيص صغير من النور، رأيت فيه يد ضابط الارتباط الذي صار الآن مقاتلا، ترفع رأسي قليلا لكي يملأ النور عيني من جديد مقطوعا بموسيقى الدانوب الأزرق التي بدأت تذوب وتخفت حتى صمت معها كل شيء على الرغم من أن ستوكويل لم يمد يده للفونوغراف الذي ظلت الأسطوانة تدور فيه بدون أن أسمع أي صوت. بدأت الأشكال تتمادى في سرعتها وتداخلها، حتى دقات القلب التي شعرت بها تتخلى عني، ارتبكت وفقدت نظامها. ربما كان الموت على الأبواب. بعدها رأيت من جديد، وبعينين مرتبكتين الأسطوانة الفحمية وهي تدور في الفراغ ولا تحدث إلا الخرخشة التي تدل على قدمها.

فجأة صار كل شيء مظلما وضاقت الطرقات والمسالك وانطفأت آخر نجمة رأيتها تعبر السماء بسرعة جنونية. قلت في أعماقي: تلك نجمتي تغادر الآن المكان قبلي وتفرش لي معبر القيامة بمسار من النور.

جفاف الدانوب الأزرق

-١-

كانت الأسطوانة الفحمية ما تزال تدور... وتدور...

ينسحب صوت البارود المصحوب بطنين المدافع الحاد، شيئا فشيئا مخلفا وراءه موسيقى خفيفة وهادئة أحسستها في لحظات الغفوة أنها كانت قريبة من موسيقى الدانوب الأزرق التي كانت تنبعث من فراغ ما لم أكن قادرا على تحديده وضبطه. ربما كان ذلك كله يأتي من دماغي المتعب ومن جسدي الثقيل الذي صرت عاجزا عن تحريكه كما تعودت أن أفعل بسهولة. رائحة الأدوية التي كانت تنبعث من أمكنة متعددة لم تساعد ذاكرتي على الفهم، بل أضمرتها أكثر ودفعت بها نحو الأفول والاضمحلال. لكن قبل أن تصمت المقطوعة التي كانت تهدهد وكأنها موجة صيفية جميلة تتثاءب على القرص الفحمي، تناهت إلى مسمعي أصوات مبحوحة تشبه التمتمات. لابد أن تكون هذه الأصوات المخنوقة هي بقايا كابوس منعني حتى من فتح عيني براحة، هكذا خمنت. حاولت أن أنسى كل شيء وأهدأ قليلا.

شعرت فجأة بالألم في الجانب السفلي من ذراعي الأيمن. كان ثقيلا كالرصاص ورأسي يدور مثل الرحى بلا توقف وبشكل مجنون، ولكن سمعي كان ما يزال يقظا ولم يفقد طوال هذه المحن حدته وحاسة شمي زادت قوة مثل حواس حيوان بري. شممت رائحتها قبل أن أسمع صوتها يأتيني من بعد سحيق.

- بابا. . . بابا حبيبي. . . هل تسمعني؟

عرفت الصوت ولم يكن ممكنا أن أخطئ فيه، بل كان من المستحيل أن أكذب حاسة شمي التي كانت تقودني نحو مايا وبشرتها الطفولية الناعمة ونحو قهقهاتها الصغيرة التي تسمع من بهو البيت حتى مع اختلاطها بمياه النافورة، خصوصا عندما تعود سعيدة من درس الموسيقى مع أمها. فتحت عيني بصعوبة. حاولت أن أحدد موقعي وأني لم أكن في حالة كابوسية أو حلم هارب من بين الأصابع. عندما تسرب النور الحاد إليهما أغلقتهما بسرعة، شعرت كأن وخزا دخل عميقا فيهما. فتحتهما من جديد ولكن هذه المرة بهدوء حتى أعطي لنظري الوقت الكافي لكي يتعود قسوة البياض والنور. خيل بعدها إلي أن أحدا أغلق النافذة إذ بدا النور بعد ذلك أقل حدة وصار باردا قليلا وصار بإمكاني فتح عيني بلا قلق وحساسية. فتحتما من جديد، ارتسم فجأة وجه مايا بملامحه العامة مثل لوحة من لوحات رامبرانت الداكنة وهي تحاول أن تقترب مني وسط مجموعة من الوجوه والبشر في صالة خفت نورها حتى بدت الأجسام بها كأنها مجرد ظلال متحركة. أغمضت عيني من جديد كي لا أصدق، إذ خلتني في لحظة من اللحظات في الجبهة وفي حالة كابوسية، أضمد جراحات غيري وأنسى أني كنت أنزف بقوة. ولم أرد أن أصدق أن ابنتي مايا كانت تقف على رأسي، في مكان لا ملامح له وتبحث بيديها الناعمتين عن بقايا وجهي المنكسر إلى آلاف الشظايا.

- بابا. . . بابا. . . بابا حبيبي. . . أنا مايا. . . مايا. . . مايا يا بابا.

هذه المرة كان صوتها هو الذي عبر جسدي وكل ذرة في مخيلتي. لم أكن في حالة هذيان أبدا. مددت يدي نحوها. لمستها. أحسستها. هي بجسدها الصغير اللدن المدور مثل رسم من رسومات الحقبة الرومانسية، الذي كنت أرميه في الهواء أتلقفه بينما تضحك بأقصى قواها عاليا وتتلذذ للعملية بعد أن كانت تخاف منها. قربتها من أنفي كالتفاحة، شممتها كخبير يبحث عن تاريخ نبيذ معتق. هي. هي بلا شك. بشرتها الناعمة الهشة كجناحي فراشة، رائحة زهر البنفسج والرمان ومسك الليل

التي نبتت بشكل متوحش في الحديقة ولم يغرسها أحد.

- بابا أنا مايا. . . مايا. . . هل تسمعني؟

صار الآن وجهها واضحا وملاصقا لوجهي. أشعر حتى بتنفسها المتقطع الذي يتناوب مع صوتها المتموج القريب وكأنه كان يأتي من بعد سحيق ومجنون.

وضعتها بين يدي، حاولت أن أتحسسها لأتأكد منها لحما ودما، ولكني شعرت بألم كبير في ذراعي اليمنى، تحملته مقابل معانقة ابنتي، وحيدتي في انتظار مجيء عز الدين الذي بدأ يمارس دلعا كبيرا قبل خروجه على الدنيا. لقد صار يلعب في بطن أمه ويركل كما يشاء وكأنه يريد الخروج قبل الأوان. الطبيب الإنجليزي قال لنا بشكل يقيني: إن مولودكم القادم سيكون صبيا والقابلة خالتي صفية أكدت ذلك من حركة رجليه وعنفه في بطن أمه، قالت لا يمكنه إلا أن يكون صبيا، الأنثى أكثر نعومة وهدوءا من الذكر. فجأة عاد إليَ بعض صحوي وذاكرتي. هذه المرة رأيت بعض تفاصيلها: هي. كان وجه مايا بنور غطى على كل ملامحها ولم يترك إلا عينيها وبعض علامات شفتيها القرمزيتين. مايا ترتدي قبعة حمراء صغيرة أهدتها إياها ماريا في عيد ميلادها، وكبوطا زهريا كالذي تشتهي مانيا أن تراه عليها دائما. تفرستها قطعة قطعة. لم أتمكن من رؤية حذائها ولكني تخيلته حذاء جلديا بلون هادئ، بقفلين مضغوطين على الجانبين. تساءلت: ما الذي جاء بمايا إلى هذه الأرض الرجراجة؟ أ هو الموت أم هي الحياة التي بدأت تنأى بعد الجرح البليغ؟ فجأة تذكرت أني جرحت وأن طنين المدافع لم يكن مجرد كابوس. جرحت أو مت على حواف حيفا وأن جورج قضى وقتا كبيرا لكي يربط الجرح بنعل حذائه ولا يتركني أنام وهو يصرخ:

- شريف، أرجوك لا تنم. خليك مثل ما أنت.

كانت ضبابة قد نزلت على كامل وجهي وصارت مثل اللفافة بيني وبينه:

- جورج. . . حبيبي. . . لابد أن تنفذ بجلدك. أنا سأبقى هنا.

اترك البندقية أمامي وضعها جيدا بين يدي وسأدافع عن نفسي وعن الهاربين باتجاه الميناء.

- كيف ستدافع عن نفسك يا مجنون وأنت تنزف؟

- أوصيك أن تقول لمانيا: إن زوجك مات ميتة رجل والسلاح في يده وإنه مات من أجل فلسطين ولا شيء آخر غير هذه الأرض الطيبة التي كان يفترض أن تكون أكثر الأراضي تسامحا ولكني لا أدري كيف دخل المرض إلى عروقها ليحرق كل شيء؟

- بدأت تخرف. لا تجهد نفسك. مين اللي قالك راح تموت. ستعيش طويلا أنت وابنتك وزوجتك والفارس القادم، عز الدين. بس أرجوك قاوم ولا تترك النوم يغلبك. خل دمك حارّ.

كان يسندني على ظهره لكي يخرجني نهائيا من ركام البيت المحروق بقذائف الهاون والحائط المتآكل، قبل أن أدخل عميقا في كومة من الظلمة القاسية. وبعدها لم أر إلا السواد الذي عتم كل شيء أمامي حتى وجوه الهاغانا الذين كانوا ينسحبون من حين لآخر كالسهام باتجاه أمكنة أكثر أمنا، لم أكن أراهم ولكني كنت أحسهم من وراء غلالة السواد.

مسحت يد ناعمة على وجهي بمنشفة مثقلة بالمياه الدافئة. عندما فتحت عيني عرفت أنها الممرضة. تململت في مكاني قليلا وفتحت عيني على وسعهما، فرأيت هذه المرة خالي الكبير وفؤاد غصن وممرضة غير التي مسحت على وجهي و... ماريكا... ماريكا إسبريدون بلحمها ودمها. هل كنت أحلم؟ ما كاد يعاودني الإحساس بالحلم حتى مدت يدها نحوي من جديد فشعرت بدفئها. أحسست أنها كانت حقيقية. سمعت تمتمتها الخافتة وهي تمزح كعادتها. كلمات ماريكا لم تتغير أبدا. من شدة ما عرفت الكثير من المصريات اللواتي كن يشتغلن في نفس الحرفة معها، صارت لهجتها مصرية:

- كده يا شرير، بتعملها من ورانا وتروح تموت وحدك؟ حرام عليك يا بيه.

ضحكت بصعوبة. ماريكا، سيدة الطيبة والمحبة. ولكن ما الذي جاء بكل هذا العالم دفعة واحدة إلى هذا المكان الذي يلفه البياض والذي يشبه الموت؟

- الموت مو حفلة زفاف؟

- يا سيدي بس لا تكون أناني، خلينا نموت معك. أشركنا في جنونك.

قال خالي مصطفى، أبو مازن، بعد أن جر في يده مايا.

- أخليك مع ماريكا لحظة فهي تريد أن تحدثك، وأعود لك بعد قليل. نحن في بيروت. آخذ مايا تتجول قليلا معي، فقد وعدتها، تكتشف مدينة من مدن أجدادها التي لا تعرفها. سألتني عن مدارس الرسم في بيروت، فقلت لها يوجد منها الكثير. سأريها بعضها.

تمتمت وأنا أشعر بحزن غير مفهوم:

- نحنا ببيروت إذن؟

أردف خالي مصطفى وهو في حالة نشاط تام.

- هيك عالم موش ممكن يوجد إلا ببيروت يا حبيبي: أنت جرحت في حيفا فأتى بك الأصدقاء إلى بيروت. ونحن جئنا من القدس لرؤيتك. العائلة كلها بخير والحمد لله. سأنزل إلى المدينة لقضاء شغل عاجل أنا وفؤاد ونتجول قليلا بمايا ونعود إن شاء الله بأقصى سرعة ممكنة. أنت بين أيد أمينة. ماريكا ما راح تقصر.

- طيب، ومانيا؟ ليش ما جات؟ وأمي؟

- لا تشغل بالك. أنت تعرف صعوبات رحلة القدس، فهي قاسية في الظروف الحالية، نصف السكك الحديدية صار مدمرا وغير صالح والقطار يجد صعوبة كبيرة في تجاوز المسالك الوعرة ومعظمه مخصص لنقل العسكر الإنجليزي. وقضية الحصول على إذن من الإنجليز، للتحرك أو السفر خارج المدن، يطرح مشاكل كثيرة وعويصة لا تسهل تنقل الأشخاص. عقدوا علينا كل شيء بس... جبنا القمورة مايا... هي كل شيء...

فؤاد غصن سلم علي من جديد قبل أن يخرج عندما ناداه خالي بأن يسرع:

- يا الله يا فؤاد الله يرضى عليك. الزلمة ينتظرنا ومايا تعبت.

- طيب. رد فؤاد. الحمد لله على سلامتك يا شريف. سأعود مع خالك ومايا بعد الظهر. أعرف أني سأتركك بين أيد ما ننحرم منها. ماريكا ستهتم بك جيدا، أحسن مني ومن خالك. الرجال مو شاطرين يا حبيبي في جبر الخواطر. سنعود بعد قليل.

انتشلت ابتسامة ميتة من الأعماق بينما كان الجميع قد انطفأوا وراء الباب الذي انغلق بعد خروجهم بشكل جاف، ولم تبق إلا ماريكا. كان كل شيء يمر ثقيلا وموحشا.

كنت أشعر كأني كنت أعيش طقسا غريبا لم أتعوَد عليه في حياتي.

-٢-

عندما فتحت ماريكا البرادي على وسعها، اتضح كل شيء وانكشحت الضبابة التي نزلت بقوة على عيني.

صارت الغرفة خالية إلا من رائحة الأدوية وماريكا. تسربت الأنوار التي أغرقت الغرفة الضيقة بفيض من البياض، عرفت المكان جيدا وتذكرت كل تفاصيله الدقيقة. تمنيت أن أنهض من مكاني وأن ألمس كل ما يحيط بي قطعة قطعة لأتأكد من أني لم أكن أحلم ولا أهذي في الفراغ وأني لم أكن أعبر دهاليز الآخرة. لكن جسدي المنتهك لم يسعفني، شعرت به ممزقا إلى ألف قطعة. تذكرت تفاصيل الذين كانوا يحيطون بي قبل قليل، وحركات ماريكا.

هل يعقل؟ يااااه... عرفت الآن. كنت في بيتها الذي زرته العديد من المرات. في البيت الذي أحببته دائما وعشقت اتساعه الذي لا يحد.

- عرفت مكانك الآن وإلا لسه؟

- أنا في بيتك ما في ذلك شك.

- صح النوم، قالتها بسخرية ظاهرة، كعادتها، يكثر خيرك على هيك اكتشاف.

- يبدو أني جرحت في معركة حيفا واقتادتني يد طيبة إلى أرضك وطيبتك. لا أعرف بالضبط ماذا حدث لي ولكني كنت على حواف ميناء حيفا حيث كان يتم ترحيل السكان العرب من مدينة وجدت نفسها فجأة تحت قذائف الهاون ورصاص الرشاشات الثقيلة، في صراع مستميت ويائس من طرفنا، لحماية حيفا وقلبي على يافا والقدس اللتين كانتا تحت نيران الأطماع. وأتذكر أني رأيت الدم يسيل على صدري، في الجهة اليسرى وتحدثت قليلا إلى صديقي جورج معمر، قبل أن أدخل في غيبوبة اختلطت في رأسي بالموت والالتصاق بالحياة بالأنياب والأظفار.

- المشكلة لم تكن أبدا في المدن، فهي لا معنى لها بدون رجالاتها الذين يسمعون نداءاتها العميقة. حيفا سقطت بصعوبة ورجالاتها قاوموا لكن يد العون لم تكن كبيرة وكافية. وظل سلاطين العرب يدورون في أماكنهم ويطلبون إذنا من الإنجليز، هل يتدخلون بمجموعات متطوعة أم بجيوشهم النظامية؟ وكأن المعركة لعبة تنتظر أمزجتهم المتهالكة، حتى سقطت المدن الفلسطينية الواحدة بعد الأخرى. أتساءل أحيانا إذا لم يكن ذلك مقصودا؟ وفي أحيان أخرى أجرد السلاطين حتى من هذا القدر من الذكاء وأقول إنهم كانوا ضحية سذاجتهم التي لم تقدمهم خطوة إلى الأمام. ويشاع أنهم سيتدخلون لحماية القدس. الله وحده يعلم ماذا بإمكانهم أن يفعلوا؟ لست متأكدة من هذا الفعل وإذا تأكد سيكونون قد حموا آخر القلاع الدينية التي يريد اليهود الاستحواذ عليها.

- وهل بدأ اليهود حربهم على القدس؟

- حاولوا اختراق خطوط التماس الإنجليزية ولكنهم صدوا من حيث أتوا من طرف الإنجليز والمقاومة. سيبلغك خالك بكل التفاصيل، هو جاي من هناك. لا تهتم، المهم أنك بخير وابنتك وعائلتك كذلك. المهم أن تقوم بخير وتعود على أحبابك الذين ينتظرونك.

- إن شاء الله. مشكلة العرب يا ماريكا أنهم مش راضيين يزعلوا

الإنجليز. رفضوا كل التقسيمات من الكتاب الأبيض حتى آخر تقسيم بدون أن يفعلوا شيئا لحماية مواقفهم. كله كلام في كلام. اليوم اللي يكبروا فيه ويصيروا رجالْ قادرين على إدارة مصائرهم بأيديهم، وقتها نقول إنهم صاروا أحرارا في قراراتهم. منذ قرابة نصف القرن ونحن نعيش على هيك عقلية وقد نعبر قرنا بكامله ونحن نعوم ضمن نفس الواقع بدون أن يتغير أدنى شيء. لا أدري إذا ما كان ذلك قدرا ولكني أومن أن البشر سادة أقدارهم.

كل المدة التي كنت أحكي فيها وأنا أبحث عن كلماتي التي ازداد صفاؤها مع تنامي الحديث، وحتى عندما غيرت لي الممرضة الثانية الضمادات والمصل، لم أترك يد ماريكا، فقد كانت كفها تنام في عمق كفي بحنان متعاظم. دافئة كعصفور وسخية. كنت أشتهي أن أسألها عن حياتها ولكني عدلت. لا يبدو أن حياتها مع استيفان استمرت طويلا وإلا لرأيت علامات حياة أخرى في البيت، وماذا عن التأبيدة والمنفى؟ المرة الوحيدة التي تركت يدي كان ذلك عندما غابت في عمق المطبخ لتأتيني بكأس الزهورات وتعود إلى وضعها الأول لتضع هي بنفسها بشكل شبه آلي، يدها في يدي وترشق عينيها على الكلمات التي كانت تخرج من شفتي.

- اشرب... اشرب يا روحي... إن شاء الله مطرح ما يسري، يمري.

- تسلمي يا ماريكا. لا أدري ماذا سيحدث لي لو لم تكوني.

- كانت امرأة أخرى ستهتم بك وربما أحسن مني. شاب وممتلئ بالحياة...

كان استفزازها واضحا وغمزتها مليئة بالمعاني:

- بس ماريكا... ما فيه منها اثنين في الدنيا.

صمتت قليلا ثم قالت:

- يعني... تعرف يا شريف أصعب شيء في الدنيا هو أن تشق جبلا وبعد قرن من الزمن تشعر بأن كل عملك كان هباء وكان يجب

عليك أن تسلك مسلكا آخر تماما. كيف يفكر اليوم الذين دخلوا في أعماق النار فقط ليحصلوا على اعتراف بأرضهم وقوميتهم، ليكتشفوا فجأة أن أرضهم مزقت إلى آلاف القطع والأجزاء وشلوا ولم يعودوا قادرين على فعل أي شيء؟ لا شيء تغير في هذه المدينة سوى أن جرعة اليأس زادت حبة أخرى. مرات عديدة فكرت في مغادرة هذه المدينة لكنّ لبيروت سحرا كبيرا، بقدر ما نكرهها نرتبط بها عضويا ونلتصق بها بلا هوادة. هذه حالي مع بيروت. كلما رغبت في الهرب منها، زدت التصاقا بحوافها. في حياتنا لا شيء تغير. ما يزال فؤاد الغصن يعبر المواقع ويخاطر بحياته كلما كانت الحاجة إليه ماسة. استيفان يأكله المنفى. كان يراسلني في كل أسبوع وبعدها في كل شهر وبعدها مرة أو مرتين في السنة ومنذ زمن بعيد لم أعد أسمع أخباره. المنفي مثل الميت، نتذكره في البداية ونحزن عليه بعد ذلك وفي كل جمعة أو أحد نزوره بباقة ورد، ثم نزحلق الزيارة من الأسبوع إلى الشهر وبعد الشهر ندخل في عملية التعود على النسيان وتأخذ الحياة مجراها ونتذكر من نحب عندما توقظ الذاكرة حواسنا النائمة. رسائله صغرت حتى انتفت نهائيا وضمرت ولا أسمع صوته إلا بالكاد. قال لي في آخر مرة إن ابنة خالته تزوره ومازالت تنتظر خروجه وقد كتبت طلبا للسماح لها بالزواج منه في السجن. قلت في خاطري سأبتعد عنه لكي يتمكن من رؤية الحياة بشكل دقيق وواضح.

- استيفان فنان ولا يمكنه أن يعض اليد التي امتدت إليه هكذا بسهولة.

- بوووووف... الإنسان لا يعض فقط اليد التي تمتد إليه، قد ينزعها بسبب الأنانية المفرطة. وأحيانا يقتل من أجل لاشيء. آفة الإنسان ونعمته الكبيرة في الآن نفسه هي النسيان. ولن يشذ استيفان عن هذه القاعدة. غريب... أنا أناقش وموجود في مدينة لا أعرف أبدا كيف عبرت جدرانها السميكة وكيف وصلت إلى بيتك؟

- كما قلت لك، أنت كنت بين الموت والحياة. القناص أخطأ

قلبك بأنش واحد. يقال إن جورج معمر هو من أسعفك وأخرجك من عمق الخراب وأنزلك حتى الميناء تحت وابل الرصاص وطلب النجدة من الإنجليز وأن الجنرال ستوكويل هو الذي أنقذك من مخالب الهاغانا بعد أن أدخلك في عمق السفينة مع المهجرين. تعرف ماذا تذكر فيك الجنرال ستوكويل؟ عندما رآك سال جورج معمر: أليس هذا هو الشاب الذي عرف اسم المقطوعة الموسيقية أول ما سمعها؟ قال له بلى. أمر سرية من جيشه أحاطتك بالرعاية وأنت في غيبوبة تامة. ثم سهل لك الرحيل إلى ميناء بيروت بعد أن أسعفت في السفينة نفسها من طرف أطباء إنجليز بتوصية من الجنرال نفسه. لو كنت في ظروف غير هذه لكنت قد مت. جورج الذي أنقذك وجرك من حطام البناية حتى خطوط التماس ثم الميناء عاد إلى القدس بعد أن اطمأن عليك. جاؤوا بك مثل الميت إلى مستشفى بيروت. خالك وفؤاد غصن كانا على رأس من تولاك بالرعاية بعد أن أخبر جورج الجميع بوضعك. زارك أعضاء كثيرون من اللجنة العسكرية ولكنهم اكتفوا برؤيتك من وراء الزجاج. عندما أخبروني أنك هنا في المدينة، شعرت كأني كنت أرى أمامي ستيفان وقد عاد. تركت كل شيء وجريت نحو المستشفى. لا أدري بالضبط السبب مع أن الدنيا وقسوتها تصلب العواطف مثلما تصلب الشرايين. ثم صممنا بتواطؤ مع خالك وفؤاد أن نرحل بك إلى بيتي وسهرنا عليك مدة طويلة لكي تعود إلى الحياة مرة أخرى. يجب أن تشكر فؤاد غصن والفريق الطبي الذي رافقه في المستشفى. جرحك تعفن إلى حد كبير بشكل كان يهدد الجسم كله بالتسمم وربما بالغنغرينا. الحمد لله الخطر الآن صار بعيدا وأصبحت في حالة جيدة.

عندما مرت الممرضة الثانية، نزعت كل شيء وقالت الآن تستطيع أن تقوم وحدك. سنساعدك. لا أدري كيف فعلت ولكني بالفعل قمت على الرغم من أني شعرت بالدوار ولكني التصقت بكتف ماريكا الأيسر. مشيت خطوات اكتشفت فيها عالما كنت أعرفه. لم يتغير كثيرا سوى أنه صار أكثر تواضعا وموحشا قليلا. الغرف، البهو، المطبخ، غرفة الأكل

ثم الفيراندا. رأيت من تحت النافذة اللافتة التي علق بها اسم ماريكا بالفرنسية، ما تزال مثبتة على الحائط وشارع المتنبي بحيوته المعهودة.

- شايف؟ لا شيء تغير إلا بعض التفاصيل غير المهمة.

- صرت أكثر تواضعا. أين ذهبت تلك الأواني الغالية والأفرشة الجميلة والبرادي الحريرية والطاولات المعشقة بزجاج دمشق وماس الخليج وخشب جزيرة كريت؟

- داخلي لم يتغير كثيرا. مازلت أحب الحياة والأناقة. ولكن جزءا مهما من أموالي أعطيته لتسيير بيوت العجزة، ربما نستطيع أن نحصل على مكان يتحملنا قبل الموت عندما نشيخ. أو على الأقل أجد يدا طيبة تضعني تحت التراب. الأشياء الجميلة أهديتها لأصدقاء أعزاء أو للمتاحف. راكمت مالا معتبرا ولم يعد يهمني كثيرا اليوم بعد أن خمد كل شيء حي فيَّ، المنفى سرق آخر أسلحتي الكبيرة، استيفان. حتى الجسد بدأ يخونني على طريقته، كل يوم يتخلى عن جزء حيوي فيه لا أدري إذا كان عامل السن هو السبب أم الخسارات الكبيرة في الحياة؟ المرأة ليست مثل الرجل، عندما تفقد حبها الكبير لن تجد غيره لأنها غير قادرة على النسيان. يتصور الناس البلداء أن المومسات بدون قلب ولا جسد لهن وهم لا يدرون أن المومس إذا أحبت، تحب بجنون وصدق. هي من أكثر الناس ارتباطا لأن تجربة الحب لديها لا تكرر دائما، ولهذا فعندما ترتبط برجل ترتبط به حتى الموت.

- لا يا ماريكا ما يزال فيك أهم شيء، تلك القدرة اللامتناهية على العطاء والحياة. خيرك لا ينفد وطيبتك لا تفنى ولا تموت. وستجدين دائما من يحبك لأجلك. امرأة من خير وأناقة.

- المشكلة يا شريف ليست في الزبون، الزبون إذا غادرك، احترافيتك ستأتي به على الرغم من أنفه أو تأتي بغيره. لا توجد مومس تعشق زبونها حتى ولو كان من أجمل مخلوقات الدنيا، فالزبون في عينيها رجل لا يحب ولكنه يشتري اللذة ويخرج ليعوضه غيره. المشكلة

في هذا المحيط البشري الذي لا تعني له الأجساد الشيء الكثير سوى كومة من اللحم يعجنها ثم يرميها جانبا وعندما يستيقظ فيه الحنين يعود إلى هذه الكومة، يعجنها من جديد ثم ينسحب باتجاه كومة أخرى أكثر نضجا وألقا وحيوية. الإنسان وسط كل هذا غائب. ولهذا صممت أن أقوم بعمل خيري أحس به. سألت إماما وقسا، هل يجوز استعمال أموالي لتسيير بيوت العجزة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. كلاهما قال حرام وأموالك لا يجوز استعمالها في أي عمل خيري، بينما ينسى هؤلاء الأوغاد أن بشرا كثيرين يموتون لنقص في الرعاية والأدوية، في اللحظة التي كانوا يرفضون فيها مساعدتي. . . يتصورون أنهم بخطبهم الأسبوعية أو اليومية وبرفضهم لمالي، يتقربون من الله. بعدها ذهبت مباشرة إلى بيوت العجزة القريبة وحدي وطلبت رقم حساباتهم وسلمت لهم أموالي بشهادة خوري أرثوذوكسي يوناني طيب لم يكن معنيا بالخرافات التي ما تزال تكبل هؤلاء الفقهاء المظلمين والميتين.

شعرت بالمرارة التي تأكل لحمها مثل النار ولكنها وجدت حلها.

نظرت إلى عينيها، كانتا تنبضان بالحياة على الرغم من الغمامات الداكنة التي كانت تظللهما.

-٣-

حينما عاد خالي مصطفى وهو يجر وراءه مايا التي كانت في قمة سعادتها على الرغم من التعب الذي كان باديا على وجهها، اتضحت ملامحه أكثر. كانت باردة وحزينة. أعرف أن خالي يشبه جدي في الكثير من أوامره وملامحه. صفاؤه الذي عهدته فيه، كان قد انسحب نهائيا وصار يشبه تماما يوم فقد ابنه ثم يوم وفاة جدي وحتى يوم سفر خالتي زهية مع زوجها عماد وابنها جاد إلى نيويورك حيث لم يكتب لها أن ترى ثانية ابنها حمودة الذي كان قد التحق بكتائب المقاومة في غور الأردن قبل أن تغتاله عصابات الهاغانا. خمنت أن تكون متاعب السفر والخوف

هي السبب. بدل أن أسأله عن حاله سألته بغباء عن فؤاد غصن. تململ في مكانه كأني أحرجته بسؤالي:

- لا، هو راح على المستشفى، تعرف، عمله اليومي. حالة استعجاليه أجبرته على ذلك ولكنه سيعود. الرجل مشغول طوال اليوم ما عنده دقيقة تنفس واحدة. الله يعينه على هيك مسؤوليات. بيحبك كتير.

- عشرة عمر يا خالي، أفضاله كبيرة علينا. رافق الوالد حتى آخر لحظة وهو الذي رافقنا إلى الشام في أتعس الظروف وأقساها. رجل من طينة خاصة. لولاه لظننا أن الله تخلى عنا نهائيا.

وفجأة، بدون سابق إنذار، عاد الجو الغريب من جديد الذي أعطاني انطباعا بمسرحية كان لكل واحد فيها دور يلعبه إلا أنا، ولكني كذبت أحاسيسي التي قليلا ما تخطئ. انسحبت ماريكا نحو المطبخ بعد أن سحبت في أثرها مايا وهي تغريها بالشكولاطا وبدا واضحا كأن مايا لم تكن تريد الذهاب. لم تقل شيئا. تمنيت أن أناديهما ولكن الأمر بدا لي مكشوفا ومثيرا للريبة والشك أمام خالي الطيب، الذي لم يتخلص من عقله المحافظ. أحيانا أجده أكثر التصاقا بالتفاصيل الواهية التي علمت الحياة جدي كيف يتخلص منها نهائيا.

اقترب مني خالي أكثر حتى صار عند رأسي ثم قال لي في شبه تمتمة:

- كيف تشعر بنفسك الآن؟ هل تسمعني جيدا؟

- هذا الطنين الذي يشبه قذائف الهاون لم يتغير إلا قليلا. بس، الحمد لله، بدأت أتحرك على غير العادة وحدي. طبعا، سمعي جيد. صحيح في الأيام الأولى بدا لي كأني فقدت سمعي بسبب الانفجارات كما قال فؤاد ولكن الحمد لله، كل شيء على ما يرام الآن.

صمت قليلا وهو يتأمل قسمات وجهي وعيني اللتين كانتا تغمضان وتفتحان على الفراغ. أدخل يده في جيب جراب صغير كمن يفاجئ صغيرا بهدية. ثم أخرج جوازين ووضعهما على الفراش.

- لم أفهم يا أبو مازن.

لأول مرة أستعمل هذا الاسم وكأني فجأة شعرت به بعيدا عني.

- شو اللي لازم تفهمو؟ جوازان، واحد إلك والثاني لمايا ميشان تطلعوا من هالبلد.

- ميشان نروح فين؟ يا خالي أنت تخيفني بهيك كلام. مين اللي قالك أني حابب أطلع من هالبلد. أنا كويس مثل ما أنا. هذه أرضي وترابي وبمجرد شفائي سأعود إلى رفاقي.

صمت قليلا ليسترجع أنفاسه ثم التفت نحو بياض الحائط:

- لا أخيفك ولكن القصة وما فيها هي أن هذا جوازك وجواز ابنتك وبداخلهما، بطاقتان للسفر إلى نيويورك.

ضحكت مرة أخرى، كانت شفتاي باردتين مثل مياه المطر. شعرت به غير جاد في كلامه.

عندما التفت إلى الوراء لكي أتفادى وجهه الذي ظل يلوح لي بالموت، واجهني حائط بارد مثل قبر واصطدم أنفي برائحة الرطوبة والعفونة التي نزت منه فجأة.

- يا خالي، قلت لك، أنا لا أنوي الخروج، أنتظر فقط أن أقوم وأعود إن شاء الله إلى القدس، أرضي وأمي وزوجتي هناك كيف أخرج؟ وحياتك صار مخي معطلا، أنا لم أفكر يوما في ذلك. أغلب خالاتي في نيويورك، أعرف ذلك وأعرف أن جدي لم يجبر أحدا لا على البقاء ولا على الخروج حتى في أصعب الظروف وأقساها، فلا تجبرني يا خالي على ترك أرضي وعائلتي.

- أنت إيه؟ أنت ممنوع من العودة إلى القدس. ستوكويل الذي ساعدك على الخروج بفضل مساعدة جورج معمر ينصحك بذلك. الإنجليز يريدونك والهاغانا تريد ذبحك، حتى الفرنسيون لو يعرفون بوجودك لن ينصبوا لك تمثالا في المدينة. عائلتنا رحلت من حارة المغاربة، فقد انسحب جزء منها نحو حارة المسيحيين والجزء الآخر سار نحو الشام. لن تستطيع العودة إلى القدس. رزئت في مازن ولا أريد أن

أخسرك. ربما ستعرف يوما ما معنى أن تكون أبا وما معنى أن تفقد عزيزا، من لحمك؟ مازن كان كل حياتي. عملي كمهندس للخرائط حماني من غضب الإنجليز وحمى العائلة ولكنه لم يكن كافيا لرد أذى الهاغانا.

ثم صمت قليلا ليسترجع أنفاسه. شعرت بوجهه يزرق مثل وجه الميت الذي يقاوم الموت الملتصق بحلقه. كان وهو يتحدث، يكز على أسنانه بصلابة وينظر إلى الفراغ لكيلا أكتشف الكذبة التي كان يتفاداني لكيلا أكشفها. وهو يقسو على نفسه أكثر مما كان يقسو علي، كنت أشعر بأنه كان يخبئ شيئا مفجعا، كنت أشمه بدون أن أتوصل إلى لمسه. مسح على وجهه كمن ينتهي من دعاء أو صلاة ثم تمتم: أستغفر الله.

- يا خالي هل وصل الوضع إلى هذه الحالة من الخطورة؟

- أكثر. القدس على عتبات السقوط يا حبيبي. الله وحده بيحميها. كل شيء ينذر بكارثة صارت اليوم مؤكدة. صحيح أنه خلافا لما سمعناه، لم تقض معركة دير ياسين التي انتهت إلى مجزرة ٩ أفريل ولا سقوط حيفا، على روح المقاومة العربية في القدس. فقد حاولت مثلا قوات الهاغانا استغلال ما حدث في دير ياسين لتعزيز قواتها المعزولة في جيب على جبل المشارف Scopus في القدس الشرقية الذي يضم مستشفى هداسا والجامعة العبرية اللذين توقفا عن العمل بعد التقسيم وتحولا إلى قاعدة للهاجانا شنت منها غارات على الأحياء المقدسية العربية المجاورة. وبعد دير ياسين بأيام أرسلت الهاغانا إلى جبل المشارف وعبر حي الشيخ جراح العربي، قافلة مكونة من عشر مركبات: باصات مصفحة وسيارات شحن محملة بالمؤن وسيارتي إسعاف ومصفحتي حراسة وكان على متنها جميعها أكثر من مئة شخص. وكمن لها المقاومون وكانت النتيجة تدمير معظم الآليات وقتل ما لا يقل عن ٧٧ من ركابها وجرح أكثر من عشرين واعتقال الباقين.

- لكن القدس ظلت بعيدة عن هذه الخطط، على الأقل مؤقتا.

فمن الهبل طبعا أن نعتبرها خارج الدائرة. ومع ذلك، فلن تكون أمورهم سهلة مع المسيحيين والمسلمين. نسيج المدينة مركب ويمنع حدوث أية حرب، وقد يتوقف الأمر عند حدود المناوشات.

- يا عيني عليك، ولكن الأمر، كما قلت معقد. الذي يتعود الهزيمة يقنع نفسه دائما بقبول الحلول السهلة أو تعليق الشماعة على الآخرين. فقد كانت القدس مستهدفة بموجب الخطة (د) ووضع لها اسم يبوسي Jevussi وجعل توقيتها متزامنا مع يافا. في ٢٣ نيسان. في اليوم الذي كنت تواجهُ فيه الموت في حيفا، كانت قوات الهاغانا والأرغون تشن هجوما عنيفا على أربعة محاور: الأول شمالا في اتجاه قرية صموئيل المشرفة على القدس بأسرها من أعاليها كما تعرف، وكذلك على طريق المواصلات بين القدس والشمال. والثاني من جبل المشارف جنوبا في اتجاه جبل الزيتون المشرف من الشرق على البلدة القديمة وعلى طريق المواصلات بين القدس وشرق الأردن. والثالث على حي الشيخ جراح، الوقع شمالي البلدة القديمة والرابع جنوبا من الأحياء اليهودية الغربية في اتجاه أحد أهم الأحياء العربية في القدس الغربية، حي القطمون، تمهيدا لاحتلال سائر الأحياء العربية فيها. الهجوم صد في المحورين الأول والثاني بقوة وبالوسائل المتوفرة، وقد أبلى المجاهدون بلاء حسنا وهذا ليس كلام نشرات، ونجح على المحور الثالث إلا أن القوات البريطانية تدخلت وطردت القوات اليهودية من الشيخ جراح لأن هذا الحي العربي كان يقع على خط انسحابها الرئيسي، عند انتهاء الانتداب. بينما في المحور الرابع دارت أفظع المعارك التي انتهت في ٣٠ نيسان لمصلحة الهاغانا إذ تمكنت القوات اليهودية هذه المرة من احتلال حي القطمون ومنه انطلقت لاحتلال الأحياء العربية. المقاومة كانت كبيرة وعظيمة.

- طيب يا خالي، وماذا فعلت الجيوش العربية التي كانت تهدد بالهجوم الجماعي المدمر. فرصتها التي لا تعوض لكي تثبت للعالم وحدتها العميقة والأصيلة وتدفع الظلم عن إخوتها. يبدو أن خالي

إبراهيم كان على حق، يجب ألا نحسب كثيرا من هذه الناحية. الذي يتعود الهزيمة، يستلذ بالمبررات مع الزمن.

- لو قالها لي وقتها خالك إبراهيم لشتمته ولكني لو ألتقي به الآن سأحني رأسي، أنا كبير العائلة، وأقول له أنت عل حق. الملوك العرب ظلوا يهددون بتدخل الجيوش العربية النظامية إذا لم تنسحب قوات الهاغانا، ولكنهم كانوا حبيسي الموافقة الإنجليزية، بينما كان الإنجليز يهيئون أنفسهم للانسحاب ولم يكونوا معنيين كثيرا بسقوط فلسطين بين أيدي القتلة، بل كانوا يعملون على ذلك في الخفاء. فقد سمحوا للهاغاناه والبلماح بحشد القوى الضخمة على حدود التماس وخارج الأسوار. صرنا نعرف بما لا يدع مجالا للشك أن المرحلة الثانية كيلشون Kilishon أي عملية المذراة ذات الأسنة الثلاثة، يتم التحضير لها بقوة وهي أخطر من الأولى وقد وصلت الأخبار للهيأة العليا للدفاع أنها كانت موزعة على ثلاثة محاور: محور الشيخ جراح، وهو ما يقطع عرب القدس عن الشمال وإحكام حصار البلدة القديمة، المحور الثاني يمس كل المناطق المؤمنة من طرف الإنجليز، والمحور الثالث في اتجاه سائر الأحياء العربية في القدس الغربية وأهمها البقعة الفوقا والبقعة التحتا والطالبية. لم نكن نملك وسائل دفاعية كثيرة وكانت لنا الأسوار القديمة حصنا حقيقيا قد يسمح بالمقاومة حتى وصول الجيوش العربية وإلا فالمنطقة العربية لن تقاوم أكثر من أسبوع في أحسن الأحوال. الحماية ما تزال إنجليزية، لكن لا أحد يضمن الوضع بعد نهاية الانتداب في ١٥ أيار ١٩٤٨.

- طيب ياخالي... بس شو وضع العائلة؟
- وضعها صعب وليس على ما يرام.
- خالي لم أعد أفهمك... كلامك يزرع فيَّ خوفا كبيرا؟
- ستفهم ما دمت مصرا على معرفة كل ما جرى.

أخرج من جيبه قصاصة صغيرة من صحيفة قدسية لم أنتبه وقتها لاسمها بقدر ما ذهبت عيني باتجاه العنوان الذي احتل بالأسود الجزء

الغليظ من جانبها العلوي: [**الهاغانا تعتدي على عائلة الحسيني.**]. في اللحظة نفسها ارتعش كل شيء في ولم أعد أتماسك وضاق تنفسي فجأة وزادت دقات القلب حتى خلته سينفجر. انزلقت مباشرة نحو بقية النص الموجود داخل مربع صغير مجلل بالسواد [**القدس. حارة المغاربة. البارحة ليلا وكعادتها الجبانة، هاجمت عصابات الهاغانا بيت عائلة الحسيني العريقة التي قدمت قافلة من الشهداء لتحرير الأرض العربية بحثا عن المجاهد ش.ح ابن القائد العظيم سليم الجزائري. ولكنهم لم يجدوا إلا الزوجة التي رفضت دخولهم وقاومت غطرستهم وعندما تدخلت الأم بالوسائل التي توفرت لها وقتها لحماية زوجة ابنها، أطلق عليها أحد مجرمي الهاغانا النار بينما صعدت السيدة إلى الطابق العلوي وعندما اقتربوا منها رمت بنفسها من الأعالي حتى لا تدنسها أيديهم وكانت حاملا في شهرها السابع. أما ابنته الصغيرة والوحيدة فقد قضت الليلة عند عائلة مسيحية قامت برعايتها رعاية تامة وحمتها من موت مؤكد. إنا لله وإنا إليه راجعون.**]

شعرت بشيء يتجمد في أعماقي وبالأشياء تفقد أشكالها الطبيعية. كل شيء في زاد ثقلا ومرارة. كم اشتهيت يومها أن أبكي بصوت عال. لست أدري ما الذي ذكرني بوجه أمي لحظتها وهي ترى والدي يصعد بشجاعة كرسي الشنق ويرفض أن تغادره ابتسامته. ظلت متجمدة وصلبة. لم تكن لدي شجاعتها ولا قوتها ولا توازنها. تضاءلت حتى صرت لا شيء.

عندما التفت خالي نحوي، كان وجهه مثل وجه ميت تماما كما رأيته في المرة الأولى وهو يتلعثم ويبحث بصعوبة عن كلماته قبل أن يتكئ على كفه اليمنى التي غطت نصف وجهه.

- شوف يا شريف يا ابني، كل شيء يخبأ إلا سلطان الموت فلا يمكن دفنه بدون مواجهته بقوة. الأعمار بيد الله. عندما كنت في جبهات الموت تقاتل بيأس مثلنا جميعا وتدافع عن حقنا في العيش وفي الأرض، كنا نحن نقاوم بوسائلنا ولم نكن مهيئين لحرب الموت التي فرضت

علينا. الهاغانا زارونا مرتين متنكرين في زي عربي. كانوا يعملون على تصفية المجاهدين بحسب القائمة التي كانوا يحملونها. اغتالوا الكثيرين وفي كل مرة كانوا يبتدعون طريقة، عمال بريد، رجال صيانة، بدو يبحثون عن شخص من العائلة وهكذا حتى يتعرفوا على الشخص المقصود. وكنت أنت واحدا من أهدافهم الأساسية. فهم يملكون معلومات من الدقة بحيث أننا نحن أنفسنا لم نتوصل إلى فهم المصدر ولا الطريقة. قلنا ربما بتواطؤ من الإنجليز، ولم نكن ندرك أن معظم قادتهم كانوا من خريجي مدارس عسكرية محترفة وشاركوا في الحرب العالمية الثانية واختبروا جيدا ميادين العمل العسكري والمخابراتي. لعبة النعامة التي تدفن رأسها في الرمال، التي مارسناها ونمارسها لم تعد نافعة. ولا غرابة في أن بعضهم اشتغل سريا مع الغيستابو والكاجيبي وغيرهما ومنهما استعانوا بكل وسائل التحري وتكوين ملف عن الأشخاص الذين يتقصدونهم. سنظل نقول إنه عمل إرهابي ونقنع أنفسنا المنكسرة بكل ما يوفر لها بعض الراحة والاطمئنان الكاذب، ولكن لو فعلنا الشيء نفسه في حروبنا ونقلنا الرعب إلى فراشهم، لما تجرؤوا علينا ولما أنكروا حقا بيّنا وظاهرا حتى للعميان.

- ... ...؟

كانت لغتي ميتة.

كنت أغلي في داخلي. لقد شعرت بأن النار والحطام والرماد الذي كان يحكي عنه خالي انتقل فجأة إلى داخلي واحرقني كالورقة اليابسة. شيء في أعماقي كان قد انهار نهائيا. فجأة لم أعد أنا. شعرت بكل قواي تتبعثر في فراغ لم أكن قادرا على لمسه ومن حين لآخر أحاول أن أقنع نفسي بأن الأمر لا يعدوان يكون مجرد كابوس لا سلطان لي عليه. كنت أتتبع كلماته وأحاول جاهدا أن أفهم ما كان يقوله:

- في المرة الثالثة تسللت فرقة على ثلاثة محاور، الحديقة للتغطية الكلية للعملية، السطح لمنع أية فرصة للهرب والدخول بعنف عبر الممرات التي كسرت بعنف. عندما اقتحموا الباب، صعدوا مباشرة إلى

غرفتك وكأنهم كانوا يعرفون كل شيء. فتشوا الغرفة وأدخلوا كل شيء في كل شيء. قلبوا الأواني على الطاولات، على الكراسي، على مئونة البيت. سألوا مانيا المثقلة بحمل في شهوره الأخيرة، بعد أن أخرجت عنوة من سريرها، عن مكانك ولكنها لم تجب وتلبكت من كثرة الرعب. هددوها فلم تتكلم. حاول أحدهم أن يعتدي عليها بالشتائم الساقطة، ثم استعمل يديه لنزع ملايتها النيلية، تملصت منه وحاولت أن تهرب ولكنه قبض عليها. كانت أمك قد صعدت إلى الطابق العلوي وفي يدها سيف جدي الذي لم يبرح غمده منذ حروبنا الأخيرة وكان والدي هو الوحيد الذي يبرده وينظفه بالزيوت مرة في السنة. هددت به العسكري ذي اللحية الطويلة والحادة عند الرأس. أقسمت بأغلظ الإيمان أنه إن لم يطلق سراحها، ستفلق دماغه. تضاحك عاليا وقهقه وسخر بأعلى صوته. وقبل أن يرفع عينيه، كانت قد نزلت عليه بكل ما أوتيت من قوة وهي تصرخ بأعلى صوتها: يا ابن الكلب. فطيرت رأسه وجزءا من كتفه الأيمن، الذي تدحرج على البلاط مثل اللعبة المكسورة. وقبل أن ترفع السيف ثانية باتجاه الثاني، كان أحد الهاغانا الذي اندفع من سطح البيت، قد أطلق سيلا من الرصاص، فسقطت في مكانها كالحجرة اليابسة، بينما فلتت مانيا من يد العسكري الخشنة الذي لم يصدق المشهد الذي كان يعيشه وركضت نحو النافذة المطلة على النافورة وقبل أن تصرخ: **اللهم اغفر لي ذنبي يا رب**، ألقت بنفسها من أعلى الطابق لتسقط على النافورة التي قذفت بها بعيدا في الباحة بين شجرتي المسك الشامي. وتم حرق البيت. الصرخات في الحي العربي أثارت انتباه الإنجليز الذين أطفأوا النيران وطوقوا المكان وقتلوا عنصرين من الهاغانا تأخرا عن المجموعة لصب البنزين وإحراق البيت، الأول مات في اللحظة والثاني مات بين المخفر والمستشفى بعد يوم، بعد أن روى تفاصيل الحادثة بالضبط كما حدثت. أما أنا فقد كنت ليلتها أرابط على أسوار البلدة القديمة مع بقية المقدسيين، فالأنباء التي وصلتنا كانت تقول إن اليهود سيأتون عن طريق مسالك هذه البلدة نظرا لضيق دروبها وتعدد معابرها السرية. ولكن

للأسف خدعنا لا أدري كيف؟ فقد جاؤوا المدينة من أماكن وزوايا لم نكن ننتظرها.

كانت كلمات خالي تصلني متقطعة. شعرت بكل شيء يغادرني حتى قدرتي على مواصلة الحياة. خرجت مني كلمة لا أدري كيف؟ ربما كان شجني وشقائي الذي أنهكني دفعة واحدة هو السبب:

- ومايا؟ هل صحيح ما قالته الجريدة يا خالي؟ أم إنك تريد أن تخبئ عني مأساتها هي الأخرى؟

- ابنتك رأيتها بعينيك وهي بخير والحمد لله ولم يمسسها أي مكروه وهي لا تعرف شيئا عن القصة. مايا كانت عند ماريا. والحمد لله أنها كانت هناك إذ لم تكن مانيا مرتاحة لما كان يحيط بنا من أحداث. حتى أثناء مرورك العابر لم ترد أن تحرك خوفك ومواجعك، الأوضاع لم تكن طيبة وعساكر الهاغانا كانوا قد بدأوا مناوشاتهم ضدنا. كانت مايا كما تعرف، كلما تأخرت تقضي الليلة عند ماريا مع ابنها عليان، في عمق الحي المسيحي. وعندما تعقد الوضع صارت مانيا تطلب من مايا أن تبقى عند ماريا لتفادي المسالك التي بدأت تصير وعرة وخطيرة. كل أمل مانيا كان أن تواصل مايا الحياة في ظروف أفضل وأن تعطي ابنتك فرصة للحياة. نعرف أنك لن تقبل الخروج ولكن لا خيار لك. لقد وضع الهاغانا والبلماح اسمك في القائمة السوداء. ابتعد قليلا ولو لفترة، ثم عد لنا. أو على الأقل أوصل مايا عند خالاتها في نيويورك وعد بعد سنة إذا شئت.

- تحدثني عن قارة وكأنك تحدثني عن حارة من حارات القدس؟ هيدي نيويورك يا خالي وليست القدس. لا أعرف لا مسالكها ولا بشرها.

- أنت تعرف أن خالاتك هناك. لقد طلبن من الوالد أن يرحلن ويلتحقن بالأهل هناك. الحياة كانت قاسية ولم يطقن تحملها. لقد تزوجن من بيت الحسيني وبيت النشاشيبي والخالدي، عائلات متصارعة على الجاه والرخاء ومع ذلك اختار الجميع مكانا يوحد بينهم على أن

يظلوا داخل أرض كانت تأكلها الصراعات القاسية. ويمكن لابنتك أن تعيش في كنف جدتها وجدها الذي تحسنت صحته قليلا وأن تجد في جاد رفقة طيبة. الأخبار التي وصلت من هناك طيبة. لا يمكنك أن تعيش ابنتك في يتم مزدوج.

- يا خالي هن اخترن ذلك ومن حقهن، ولكني أريد أن أظل بالقدس. كل عرقي يا خالي كان من أجل هذه الأرض وإلا ماذا ربحت من أحزان أجدادي وآلامهم وحروبهم وجبروتهم وشجاعتهم؟

- لو جئتني قبل أشهر وقلت لي: إنك تريد أن ترحل إلى أراضي الغربة، لقلت لك لا ولكن الآن كل شيء تغير، وجودك لا معنى له وقد تقتل بغباوة. لديك طفلة صغيرة لا أم لها وليس من حقك أن تتركها للفراغ واللاجدوى واليتم.

لا أدري إذا كنت لحظتها واعيا ولكني شعرت بنفسي في عمق كابوس فظيع. من حين لآخر أغمض عيني وأحاول أن أفتحهما بهدوء وأحاول أن أقنع نفسي، بأن ما حدث لا يعدو أن يكون مجرد هزة كابوسية غير حقيقية ولكني كلما فتحت عيني وجدت خالي قبالتي بصمته الكبير وجبروته على تحمل ويلات العائلة وقسمات وجهه التي لم تتغير وكأنه كان بدون ملامح تماما. أردت أن أصرخ في وجهه لماذا لم تحم العائلة في غيابي؟ أين كنت يا خالي؟ ألم يكن من الممكن أن تزاوج بين الحراسة وسلامة العائلة؟ ولكن كل شيء كان قد انتهى، حتى نفسي شعرت به انقطع فجأة وصوتي خفتَ.

كان الجوازان مثل جثتين، ما يزالان مرميين على الفراش. تأملتهما. وعندما قرأت الاسمين انتفضت كالذي وجد فجأة ضالته ليتخلص من الكابوس الذي فرض عليه:

- خالي... هذا الجواز ليس لي وليس لمايا؟ جميل اسكندر ومايا اسكندر؟

- جوازان مزوران طبعا. هل تريد أن أبيعك للهاجاناه بالمجان؟ أريدك أن تعبر نحو القارة بسلام وكل شيء قد رتب لك ترتيبا جادا.

تقضي أياما في نيويورك وبعدها ستجد من يساعدك للذهاب إلى ديترويت للعمل في مصانع السيارات، اليد العاملة مطلوبة هناك بقوة.

قلت ببرودة لم ينتظرها خالي:

- سأدخل معك إلى القدس. هذا قراري.

- ستقتل بالمجان.

- لست أفضل ممن سبقوني. التاريخ سيحفظ لنا حقنا وهذا وحده كاف.

- مثلما حفظه لخالك إبراهيم الذي لا نعرف عنه شيئا. فكر جيدا وسترى بأني أقول لك هذا الكلام وأنا منكسر الصدر وكأني أقر بالهزيمة قبل حدوثها. ومع ذلك التخلي المفجع للعرب وتواطؤهم ضد أنفسهم وتاريخهم وإخوانهم لم يعد يثير أي واحد. كل واحد صار يخاف على عالمه الصغير.

- أفضل أن أعود إلى القدس للوقوف على أهلي.

- شغلك. أنت سيد شأنك. ما علي قمت به وفاء لأختي وابنة أختي وابن أختي. أنت لن تعرف القدس الآن وما آلت إليه ولن تعرفك هي كذلك ولن تكلف نفسها للسؤال عن وضعك. وإذا لم تلحقها الجيوش النظامية العربية سنفقد حارة المسجد الأقصى وباحة الحرم الشريف وكنيسة القيامة في الجزء الشمال الغربي من المدينة. سنخسر كل شيء.

فجأة دخلت ماريكا بعد أن تركت وراءها مايا تلعب في المطبخ وكأنها كانت تنتظر دورها لتدلي بدلوها. كانت نظراتها حادة كنظرة نسر ينتظر لحظة الانقضاض. كانت في حالة غضب مبطن شديد. جاءت مباشرة ولم تبحث أبدا عن كلماتها. لم أر البشاشة التي تعودت عليها. الحياة علمت ماريكا قدرا كبيرا من القسوة والصلابة. لقد تغيرت كثيرا وانسحب الصبي الصغير الذي ظل مدة من الزمن يتأرجح داخلها مخلفا وراءه رجلا صلبا وباردا.

- يجب أن تقلل من رومانسيتك الفارغة وتتوجه للحياة كما هي. ما

قتل الثوار الكبار إلا رومانسيتهم الزائدة. عليك أن تكون عاقلا يا جميل اسكندر لأن شريف عليه أن يموت اليوم نهائيا، وسيفعل ذلك من أجل ابنته. فترة وجيزة وبعدها عد إذا شئت. جدتها هناك ولا أحد يضعها في القلب مثل الجدة والجد. السفينة ستصل بعد أقل من أسبوع وعليك أن تتخذ قرارك. يمكنك أن تخدم أرضك من المكان الذي أنت فيه. أتمنى أن تكون قادرا على المشي بشكل جيد وإلا لن نتركك تذهب. لو كنت وحدك مثلي ومثل فؤاد لقلت لك اذهب حتى إلى الجحيم إذا شئت وليس إلى القدس فقط، ولكن وراءك إرث كبير وطفلة بحجم النور. يا أخي خذ نيويورك كمنفى مؤقت ثم لست وحدك، كل رجالات العالم الحر فعلوا ذلك عندما أصيبوا بالغبن.

- هل يوجد منفى مؤقت يا ماريكا؟ أنت سيدة العارفين، إن المنفي عندما يحط رحاله فلن يكون ذلك بشكل مؤقت ولكن بشكل نهائي. جئت هاربة من أمك وعشيقها فوجدت متنفسك في شارع المتنبي مؤقتا. ما دخلك والمتنبي لتمنحيه كل عمرك؟ عندما نغادر أرضا في الظروف الأكثر صعوبة هي كذلك تغادرنا وتنسانا بسرعة. المنفى ليس لعبة مؤقتة نفككها ونرتبها كما نشاء، صيرورة تتحكم في ذواتنا أكثر مما نتحكم فيها. تأكلنا الحياة ولكن عندما يطل علينا الموت من شقوق النوافذ تقفز في أذهاننا أرضنا الأولى، حبنا الأول وتربتنا الأولى. ربما صيغت الدنيا بشكل غلط ولكنها هكذا، تؤخذ بالكل أو تترك كما هي.

- كلامك صحيح وربما يحركني أكثر من غيري، ومع ذلك فالأرض التي تمنحنا سماءها وحبها هي نفس الأرض وليست الزهرة أو المريخ أو عطارد. ما هي خياراتك أمام أجهزة فتاكة وضعت على رأس اهتماماتها قوائم من تجب تصفيتهم؟ عواطف الهاغانا محدودة يا حبيبي، ولا يتوانون عن قتل كل من يقف في وجه مشروعهم. إذا أردت أن تموت بغباوة لا تشبه مطلقا ذكاءك، فاذهب لكي تموت في قدسك. ارم بنفسك في أحضان الهاغانا، فهم لا ينتظرون أحلى من هذه الخدمة المجانية. اذهب... اذهب لكي تموت بغباوة إذا شئت، بدءا من هذه

اللحظة لن يمنعك أحد. على الأقل، أنا لن أمنعك من خياراتك. لو استطعت أن أجلس مع ستيفان وأعيد شريط الحياة إلى الوراء سأقتل نفسي لأقنعه لكي يهتم بالحياة قبل الموت وإذا تمادى وتخطى العتبة لن أمنعه ولكني لن أرجع له مطلقا ولو عشت وحدتي في العزلة التامة. لا أدري من أين أتيت بهذا الحق الذي أحاسبك به ولكني أشم فيك رائحة ذلك المجنون الذي انقطعت أخباره نهائيا في منفاه المخيف، ولا شيء بيني وبينه إلا مياه البحر وحجارة الخوف.

كانت جمل ماريكا بصدقها، تسقط على رأسي مثل المطارق الخشنة، لم أكن قادرا على مقاومتها. كنت في ضياع مميت. للمرة الأولى أشعر بأن ماريكا كانت كذلك قاسية مثل الأخريات، ولم تكن ملاكا وأن مخزونها العنيف لم يكن أقل من مخزوني.

انغمست في آلامي الداخلية. كنت لا أستيقظ إلا على الكوابيس المتكررة. كابوس واحد ظل يلازمني ويتكرر باستمرار، هو غرق القدس في قيح أحمر ومختر، وخروج مانيا من حي القطانين مبللة بالدم والعرق وهي تصرخ بأعلى صوتها، وفي يدها مايا تحاول أن ترمي بها نحوي وتنادي بأعلى صوتها: خذها وابتعد عن المكان أرجوووووك... بينما مست يدي يد مايا، كانت يد مانيا تبتعد شيئا فشيئا باتجاه أعماق سوق القطانين الذي تحول إلى وادٍ وأقواسه العالية إلى أنفاق مغلقة. بينما كانت هي تندفن في عمق السوق الذي يشبه النفق الطويل. كانت صرختها تتعالى: أرجوووووك لا تقترب... لا تقترب... لا تقترب... كان صوتها يزداد حدة حتى يصير عواء يصم الآذان. كنت أشعر بالاختناق في صوتي الذي لم يخرج أبدا. وعندما أستيقظ أجدني مقطوع النفس والعرق يسيل من كل أطرافي.

عندما أحكي لماريكا عن تلونات كابوسي اليومية، تصرخ بأعلى صوتها:

- وحياتك، هيدا غباءك عميتفض ضدك.
- يا ماريكا أشعر كأنك تقسين على آلامي.

- مش أكثر من قسوتك على نفسك. خذ يا حبيبي، اقرأ جرائد اليوم وبتعرف ليش خالك حب يهربك. على كل حتى ولو عدت لن تجد المدينة التي تبحث عنها والتي ملأتك، ستجد الهاغانا ينتظرونك وستمنحهم فرصة لم يحلموا بها. اليوم إذا كُتِبَ لي أن أشق طريق أثينا حيث كانت تقيم أمي وعشيقها، سأجن لأني لن أجد إلا أصدائي التي لم تعد تهم أحدا. الكثير من الذين أعرفهم يكونون قد ماتوا. أحيانا، حتى نرتاح من غطرسة الذاكرة، يجب علينا أن نتجرأ على حرق بعض الصفحات من كتاب العمر. لن أقول لك شيئا آخر. سفينة نيويورك ستصل بعد أيام وعليك أن تجد مسلكك الذي تبحث عنه أنت وابنتك. هناك خالتك زهية، جدة مايا وهي برتبة أمها وأكثر، لا تطلب أكثر من رؤيتها فهي تذكرها بابنتها مانيا، فلا تكن غبيا أرجوك. مايا تستحق مستقبلا أفضل من هذا الذي تحاول أن تورثه لها، وربما أبا أقل أنانية من الشخص الذي أعرفه. فكر جيدا، وارم بعدها كلامي في المزبلة إذا شئت.

كانت الجملة الأخيرة قاسية ولكني بلعتها بصمت. كنت عاجزا ومنتهكا في أعماقي. اكتفيت بأن تأملت الحيطان التي بدت لي ضيقة والسقف الذي بدا حانيا أكثر مما تعودت على رؤيته، خفتُ أن أقوم، فأضرب رأسي بانحناءاته وتعرجاته.

أغمضت عيني، حاولت عبثا أن أتكلم. أن أقول ما كان يملأني سوادا وحزنا وخيبة. كانت معركتي خاسرة وحسدت ليلتها الذين ماتوا على بوابات دير ياسين أو على مرتفعات حيفا لا دفاعا عن المدينة فحسب ولكن رغبة في إيجاد مسلكٍ يستطيعون فيه تفادي قذائف الهاون واليأس المطبق.

ونمت بدون أن أرى شيئا واضحا. كنت داخل ضباب حليبي كثيف، كلما سرت فيه ازداد الطريق غموضا وتيها وكلما تلمسته لم تمتلئ يداي إلا بالفراغ.

كنت أسير في الفراغ وأكمش الضباب.

كنت مفخخا في الأعماق كقنبلة موقوتة وكان يمكن أن أنفجر في أية لحظة وبأية لمسة.

ليلتها وليلتها فقط، قبلت أن أموت طوعا وأن أشل كمن أصيب بسم عقرب. لم أفكر في شيء، تفاديت حتى وجه مانيا الذي عبرني ولبسني وصرخاتها الأخيرة وهي ترمي بنفسها من أعالي البناية ولا حتى صوت ابني عز الدين الذي لم أفرح به ولم يفرح بدنياه التي لم يرها، إذ انكسر على حافة نافورة البيت العائلي. لم أفكر إلا في مايا اسكندر وسفينة نيويورك ونسيت حتى إن أفكر في نفسي. تمنيت ليلتها، وكنت أمزح مع القدر ولكنه أخذ كلامي بجدية متناهية: يوم أموت، أرجو أن أدفن في قلب محرقة مشتعلة عن آخرها. أتمنى أن يحرق جسدي لا عن قناعة دينية، فأنا لست بوذيا ولا مجوسيا ولا أملك مطلقا شجاعتهما، فأنا من ثقافة تؤمن بالعودة وبعث الجسد وتملك حدا من الاستمرارية تجعلنا نتفادى عبثية الوجود، ولكن لكي أذهب مع زمني نهائيا وأرحل به من هذه الأرض، بلا عودة، فلم يكن زمنا سعيدا ولا جميلا.

لم يكن زمني ولا زمن مانيا الطيبة.

لم يعد شيء يملأ دماغي المتعب إلا تلك الخطوة الأولى التي تدخلني في عمق سفينة راحلة نحو مدن عديدة قبل أن تبلغ مرفأها في نيويورك، مدينة المنفى والمبهم، ونظرات مايا اسكندر وهي تبحث عن إجابات لأسئلة لم يكن جميل إسكندر قادرا على توفيرها لها.

للمرة الأخيرة، أغمضت عيني لكيلا أرى شيئا، لكن الأشياء كلها كانت فيَّ، تغلي في دمي ولحمي.



III - خريف نيويورك الأخير

سيمفونية الحرب الغامضة

-١-

كان ينتظر تليفون فيليب غلاس الذي وعده بلقاء خاص. بعد عودته من طوليدو، وضع جاز بين يديه رغبته في تطوير العمل السيمفوني بالمعطيات الجديدة التي جاء بها من رحلته الأخيرة. فيليب لم يبد أي استغراب، أكثر من ذلك، وعده بترتيب موعد والحديث حول الموضوع براحة بال أكثر وربما إيجاد ممولين جدد للمشروع بصيغته الأخيرة.

كان النهار في منتصفه عندما شعر جاز بثقل في رأسه.

لم يرتح طوال الأيام التي تلت سفرته الأخيرة إلى طوليدو. ما كان يظنه انتهى ومجرد مسألة شكلية، بدأت تبعاته الحقيقية تطرح وحلولها تبدو صعبة. فإضافة إلى ترميم الفراغات الجديدة في عمله الموسيقي، أحزان الكراسة النيلية وتفاصيل جده، كان لابد من تنسيق ذلك كله في شكل تهجيني مع الصور بكل ما يترتب على ذلك من إضافات مالية غير تلك التي رصدت للسيمفونية في الأصل.

تنفس قليلا ثم عاد إلى عمله. كان غارقا في الوثائق والأوراق التي خربشت عليها مئات النوتات الموسيقية المتداخلة. أحاطت به من كل الجوانب في مكتبه بأوبرا بروكلين. من حين لآخر ينكفئ على بيانو قديم جر إلى مكتبه من تحت منذ أن بدأ عمله السيمفوني. ولم يتخلص من غبش الليالي الماضية إذ ينام ويستيقظ على الكراسة النيلية التي فتحت

جرحا آخر في أعماقه ولكنها أعطته دفعا كبيرا للانتهاء من المشروع، وفاء لآلام أمه ولذاكرة بابا شريف كما كانت تسميه أمه وورثته التسمية.

أعاد تأمل أكثر من مائتي صورة منحها له جده، فأدخلها في جهاز الكمبيوتر الواحدة بعد الأخرى. وأعاد طباعتها وبعث الأصول إلى جده كما وعده في طوليدو. كان وهو يتأملها، يتوقف عند بعضها. الذي بقي في ذهنه تلك الابتسامة الأخيرة لسليم وهو يسخر من الموت مع أصدقائه المحيطين به. كان وهو يتذكر كل تفاصيل الرحلة، مندهشا من صفاء ذهن جده الذي لم ينس ذكر أية لحظة من تجربته.

«- المشكلة هي: كيف يمكن نقل هذه التجربة في غياب الصورة؟»

تمتم وهو يتعمق الصور ويقرأ تفاصيلها الخفية.

مكتبه في الأوبرا ضيق قليلا بعد أن أكل ربع مساحته البيانو الثقيل، لكنه حميمي ويمنح إحساسا لا يحسه جاز في المكاتب المؤثثة والواسعة. يحتوي على الكثير من مقطوعاته وتوزيعاته وكتبه التي يقرأها كلما كان لديه بعض الوقت. يستقبل فيه بعض رفاقه في الأوبرا أو يرتاح عندما يكون لديه متسع من الوقت بين فسحة وأخرى، يخربش بعض النوتات قبل أن يعود إلى عمله أو انشغاله الأساسي.

وهو يتأمل الصور والوثائق اكتشف جاز فجأة أن بياضات السيمفونية اتسعت أكثر بالعناصر الجديدة التي أضافها. بل صار ترميمها شبه مستحيل وعليه أن يجد اللحظات المفصلية الرابطة لتفادي التمزق والانحلال في السيمفونية. في لحظة من اللحظات أحس أنه كان بصدد تكسير كل ما بناه منذ أكثر من سنة وأن عليه أن يفكر عميقا فيما كان بصدد فعله إذ عليه أن يسابق الرياح العنيفة بشراع قديم وغير مهيأ لدرء العواصف القاتلة. لغة جده غيرت كل النظام العام وبنية السيمفونية. شعر بأن دماغه لم يعد قادرا على الاستيعاب بعد أن امتلأ بالفراغ. التقسيمات الأولية التي أضافها على السيمفونية الجديدة بينت له نقاط الضعف ولكن كذلك إمكانات الترميم الموسيقي الكثيرة. أصبح واضحا أن الإيقاعات وحدها لم تعد كافية وأن عليه أن يمر عبر التهجين وهو صعب القبول

موسيقيا. أن يجد صيغة بين السيمفونية والأوبرا، لا تثقل كاهل العمل ولا تسطحه، بل تمنحه إضافة حقيقية.

عندما فاتح فيليب سريعا وسلمه الملف الجديد الذي يحتوي على التغييرات المحتملة، بدت المسألة ضخمة وجادة وتحتاج إلى وقت كاف للحديث فيها. وعده باللقاء في أول فرصة. فقد كان فيليب غلاس مقتنعا بما كان يقوله جاز ولكن كان عليه إقناع مراكز التمويل التي لا ترى إلا المردود النهائي.

نظر جاز إلى الورقة للمرة الأخيرة، بدت له أكثر وضوحا. لم يجد صعوبة كبيرة في تقسيمها على الرغم من حاجته إلى ملء البياضات الموسيقية وترميمها، إذ إن النظام الجديد الذي اقترحه جاز، أوجد قصصا تاريخية ولكنه خلف وراءه بياضات لا تحصى هي عبارة عن عناوين وانشغالات وتحبيرات موسيقية أولية، ويحتاج العمل إلى تأليف كبير وإلى عمل مجهد ليسد الفراغات التي يجب أن تتحول إلى موسيقى وإيقاعات متجانسة وليس إلى سلاسل ونوتات ما تزال متفرقة ومبعثرة هنا وهناك.

«للحرب إيقاعها وضجيجها وصراخها، قال جاز في خاطره وهو يخربش على أوراقه جاهدا في إيجاد روابط لسلاسله الموسيقية الكثيرة التي أنجزها في طوليدو، وعلى السيمفونية أن ترتكز على ذلك كله وإلا ستتحول إلى إيقاع رومانسي قد لا يهز الناس. يجب التفكير في إعطاء مساحة للطبل لم تكن له من قبل. تعميق التراجيدية بكل الآلات النفخية التي تجعل الإحساس حادا وصافيا. فوق هذا كله، الخيبة لها إيقاعاتها والثورة لها إيقاع خاص، وموسيقى الانتصارات يجب أن تعكس حالة السعادة الاستثنائية ولموسيقى الهزائم أنين عميق يحيل إلى هبوط وإلى اشتغال على داخل المقطوعة.»

بعد طول تأمل وإعادة تنظيم في مجمل السيمفونية في صورتها الأولية، بدت حركاتها بارزة بكل الوقفات الضرورية وبياضات الترميم وإعادة التشكيل الموسيقي. تمفصلاتها كانت ناقصة ولكن أجزاءها

واضحة ومتتابعة، تعطي نوعا من الاستقلالية، فاصلة في الوقت نفسه بين الجزء والكل. أربع حركات جوهرية مع بريلود افتتاحي ومقطع اختتامي:

- **بريلود افتتاحي.**
- **الحركة الأولى،** مشانق الربيع الدامي.
- **الحركة الثانية،** خيبات تربة ميسلون.
- **الحركة الثالثة،** رماد الشرق اليتيم.
- **الحركة الرابعة،** شبابيك إليس آيلند.
- مقطع اختتامي.

أغمض عينيه من جديد لكن ضجيج المحيط لم يمنحه فرصة للذهاب بعيدا في خياله. عندما هدأ الخارج وأغلق الباب، عزف على البيانو اتضحت أكثر الحركات في الترتيب السلمي للسيمفونية. شعر ببعض الفراغات التي بدت حواجز أمام الانسجام والهارمونيا. كان على جاز أن يجد الوصلات الرابطة فيما بينها، التي تعطي بانزلاقها الخفيف والخفي، دخولا سهلا للمقطع الموالي. فجأة بدأ ثقل الكتلة التي كانت جاثمة على صدره ينزاح شيئا فشيئا ويخف عما كان عليه في الأيام الأخيرة. كانت مشكلة التهجين شغله الشاغل، وهذه وحدها قد تأخذ منه زمنا لم يكن قادرا على تصوره: كيف يمكن دمج الصورة والموسيقى في إيقاع مساند وليس منفرا لمجمل السيمفونية؟ فكر في الكثير من الاحتمالات: صور مفصولة، معرض مواز للصور، ملصقات ولكن ذلك كله بدا له خارج وحدة النظام الموسيقي وهو لم يكن من اختصاصه. في الملف الذي قدمه لفيليب غلاس نبهه إلى ضرورة التفكير في حل هذه المعضلة برصد إضافة للميزانية الأولى، في مستوى الحاجات المستجدة. لم تعد الصور والوثائق تكميلات ثانوية وتنميقية، ولكنها ضرورات تدخل في صلب السيمفونية لإحداث الوقع الفعلي والمؤثر في المشاهد. لكن ذلك كله كان في حاجة إلى يد ماهرة في نظام الصورة

وعملية الدمج الموسيقي، مما يستدعي الاستنجاد باختصاصي من خارج الأوبرا.

بعد ترتيب أجزاء من المقطوعة على الورقة ومحاولة دمجها في الكل، ضغط من جديد على ملامس البيانو، شعر بالإيقاعات سلسة على الرغم من قلقه المتزايد. لم يعد يشعر بثقلها مثلما كان يحس في الأيام الماضية إذ ارتبك أمامه كل شيء واختلط في ذهنه ما بدا له واضحا وتاما. ترك أصابعه تنزلق عليها متتبعا بعينه ما كان قد سجله. أحس بانسيابية للمرة الأولى وبتأثيث جعل ما كان خفيفا وهزيلا، مثقلا بالمعاني والتفاصيل. كلما تمادى، زادت الانسيابية أكثر ولم تكن هناك إلا بعض العثرات، حدد سلفا مواقعها. أغمض عينيه قليلا. رأى كل الصور التي كانت تعبر أمام عينيه الواحدة تلو الأخرى وفق التقسيمات، الحروب العالمية، وجه سليم وهو يسخر من الموت ثم عندما وصل إلى المفصل التالي، رأى القدس تفقد نعومتها فجأة بأفواج الذين كانوا يرحلون من بيوتهم جماعات، جماعات يجرون ذاكرتهم ودمهم وخيانات ذويهم. رأى حارة المغاربة وهي تمسح نهائيا بعد هزيمة ٦٧، فطغى السواد والنعومة على الإيقاع. تولد لديه فجأة الإحساس بالألم الضاغط. توقف قليلا وهو يردد بصوته وفمه اللحظة التي شعر فيها بالفجوة والنقص. أضاف سلسلة رابطة جديدة سبقته إليها أصابعه إلى ملامس البيانو من جديد ولم يكن بعد قد قيدها في اكتمالها على الورق.

كان غارقا ولم يتفطن لليد الناعمة التي نزلت على ظهره بدفء:

- غريب كيف دخلتِ؟ لم أنتبه لك. كنت بالفعل غارقا.

- دخلت منذ لحظات. وقفت وراءك طويلا قبل أن أتجرأ على توقيف انسجامك. كنت منغمسا إلى أقصى الحدود. نادرا ما رأيتك هكذا في الأيام الأخيرة المليئة بالحساسية والارتباك. أرجو ألا أكون قد أوقفت اندفاعك وفيض إبداعيتك.

- على العكس من ذلك، فقد جئت في وقتك. بدأت غيوم العجز تهبط وتذوب وتحل محلها إرادة أقوى. صار تقريبا كل شيء واضحا في

رأسي على الرغم من الثقوب الموجودة هنا وهناك. إني أحس كل شيء وألمسه. أراه مشيدا بكل قواه وعنفوانه الذي يموت. أريد أن أسميها السيمفونية الهجينة. لا يوجد اسم آخر لها. هجينة في كل شيء، في تاريخها وفي تفاصيلها التكوينية. سيمفونية ولكنها تقع على حافة الأوبرا. العمل سيسير على محورين، محور التأليف الموسيقي البحت الذي قطعنا فيه شوطا مقبولا، ونعرف على الأقل نقائصه ونملك وسائل ترميمها، ومرحلة التوليف بين الإيقاعات والصور والأحداث والوقائع المصاحب للسيمفونية، وهذه ما تزال غير واضحة وتحتاج إلى إقناع. أوبرا بروكلين ليست مغلقة ولكنها تحتاج إلى دليل جدوى. الفكرة ما تزال ملتبسة وتحتاج إلى وضوح أكثر، وربما كانت غير سليمة أصلا. نحتاج إلى كل القوة الباطنية فينا للإقناع لجعلها فعلا ممكنة التحقيق. الذي يقابلك ويملك التمويل، لا يعرف جيدا ما برأسك ولا يتحرك وفق مقياس النوايا ولكن من خلال ما يلمسه ويحسبه.

- أشعر بقلقك ولهذا فضلت، هذه الأيام، أن أبقى بعيدة عنك قدر المستطاع لأني أعرف أنها لحظات حاسمة. فأنت ما تزال تحت وقع ما عشته مع بابا شريف. أنا لا أصبر عليك ولكن علي أن أعوّد نفسي على هذا الغياب حتى تتضح الصورة النهائية لعملك. يحدث معي أن أمر على بيتك في ليتل-إيطالي. أرى الضوء الذي يملأ غرفة البيانو. أتحسس وجهك من بعيد. أشعر بحزنك ووحدتك. أسمع الأنين الذي يخرج من البيانو أو هكذا يُخيَّل إلي. لا أقاوم. أصعد المصعد بطوابقه العشرين في لمحة البصر. أقف عند الباب قليلا. لا أسمع إلا صوت موسيقاك ومن حين لآخر نحيب ماريا كالاس في الزاوية التي أعرفها جيدا. أبقى قليلا. أتخيلك في كل حركاتك الداخلية وانشغالاتك. أرفع يدي للدق عليك، ثم أغير رأيي. أسحب المفتاح من حقيبتي اليدوية الصغيرة. أضعه في العين. لا. أقاوم شهوتي نحوك. لا أريد أن أخرجك من جبروت اللحظة العظيمة، لحظة الخلق. فأتسلل من جديد نحو المصعد وأعود على أعقابي مثلما دخلت. أركب سيارتي وبي قلق وسعادة غريبة في

الوقت نفسه، فأنطلق بسرعة جنونية لا أعرف مصدرها نحو برودوي المليء بالأنوار المتداخلة، استمتع بالمطر والأغاني التي تنفلت هاربة نحوي، من زاوية ما في مخابئ مانهاتن الجميلة.

- مجنونة كالعادة. هل تتصورين أن شوقي إليك أقل؟ صحيح، أشعر بقلق شديد يسري فيَّ ولا أجد حياله أي حل سوى العمل الدائم والاستماتة للانتهاء منه. إنها حالة غير عادية تقارب الجنون ويحتاج المرء إلى ميترا لكي تفهم هذا التحول وهذا الحس الجهنمي وإلا ستغرقه في الأسئلة السخيفة: أنت تتركني... لا تهتم بي... تهتم بأمورك الصغيرة... هناك امرأة تأخذ حياتك كلها... أناني... نعم، في قلب كل فنان أنانية خاصة ولكنها ليست الأنانية التافهة. أنانية نتيجتها ما يدمر الأنانية نفسها: عمل تتقاسمه مع مدينة بكاملها ومع أجيال لا حصر لها. كيف كانت حالة بيزيت[٤] مع معشوقته وهو ينغمس في تفاصيل كارمن المجنونة؟ ماذا فعلت زوجة فاغنر[٥] الأرستقراطية وهي تراه يتلاشى في أعماق بارسيفال؟ هل كان فاغنر يركض وراء عشق مجنون لماتيلد فيشيندوك[٦] زوجة صديقه وحاميه وهو يؤلف إنجازه الغنائي: تريستان وإيزول[٧] في العزلة القاتلة؟ كيف تصرفت صديقة ريمسكي كارساكوف[٨] الناعمة كوردة، وهي تراه كل صباح يخرج وحده في الحديقة الغارقة في الثلوج ولا يعود إلا بعد الظهر، ليندفن عميقا وراء البيانو ويسد كل الأبواب بحيث لا يسمع حتى الذبابة من حوله ليتمكن فقط من رؤية وجه شهرزاد الذي ظل يهرب من بين يديه كالماء القليل، ويلمسه كما كان يشتهي أن يفعل؟ أنت حساسة وفنانة ولا يمكنك أن تكوني مثل أي شخص آخر. سأذهب نحو مسعاي ولو كلفني ذلك دفع

(٤) Bizet

(٥) Wagner

(٦) Mathilde Wesendonck

(٧) Tristan et Isolde

(٨) Rimsky Korsakov

ثمن التقنيين من جيبي لتوليف الصور مع الموسيقى. السيمفونية كما افترضتها في البداية، كانت عملا ناقصا، بل وبدائيا، ولن أقبل به على تلك الصورة. سيبدو لي مسطحا قبل أن يبدو كذلك لغيري. في الموسيقى، الحساسية المفرطة مهمة والأخطاء لا تتخفى بسهولة.

- حبيبي... أشتهي أن أستمع إليك طويلا ولكن الآن جئت فقط لأبلغك بأن تستعد لأن فيليب غلاس سيطلبك بعد قليل، هذا ما أبلغتني به سكرتيرته، مارينا. أشعر بك متعبا حبيبي وأريدك أن ترتاح قليلا. أقترح عليك أن نخرج في نهاية هذا الأسبوع بعيدا قليلا. نذهب إلى كايكوت(٩) بهودسون فالي ونعرج بعدها عند أمي بنيوجرزي ونعود إلى مانهاتن مهيئين لمواجهة كل المستجدات والصعوبات، ما رأي حبيبي؟ المكان مريح وتستطيع أن تستمتع بالمنظر وبالوقت، تؤلف وتكتب. أنا متأكدة من أن قليلا من الراحة لن يؤذي مشروعك.

- غريب، كلما تذكرت كايكوت قفز روكفلر إلى ذهني. الحدائق مذهلة ونحتاج فعلا إلى قليل من الراحة. أظن أننا نستحقها؟ ولكن يجب أولا الانتهاء من هذا القلق المادي الإضافي الذي لم نجد له بعد ممولا.

- تستحق ذلك. ثم إن بيت أمي في نيوجرزي يمنحك فرصة الاعتزال قليلا والتفكير في الكتابة والارتياح. نهاية أسبوع ستكون جميلة، أنا متأكدة من ذلك. لا يمكنك أن تسير على هذه الوتيرة لأنك بكل بساطة إذا واصلت هكذا ستنكسر. تهمني صحتك كثيرا.

- معك حق. سنبرمج هذا. لكن في الوقت الحالي، الذي يشغلني هو الوقت، طبعا والتمويل. أمامنا أقل من سنة بحسب العقد. المهم. أنا هكذا. أخاف من الوقت أن يضعني في الزاوية الضيقة لمشروع تعرفين أن حياتي الموسيقية وربما مستقبلي بكامله مرتبط به. هذا التعذيب الداخلي الذي يأكلني، يجب أن يؤخذ كشيء طبيعي وهو ضغط سينفرج عندما تتضح الأمور.

---

(٩) Kykuit

- دعوة فيليب لك دليل على أن الأمور تسير في مسلكها الطبيعي.

صمت جاز قليلا وهو يتساءل: ماذا لو قال فيليب لا؟ التفت نحو ميترا.

- لا أدري ولكن علي أن أهيئ نفسي لسماع رفض الأوبرا للزيادة في ميزانية الإنجاز.

- فيليب لم يقل شيئا من ذلك. ذكَّر بصعوبة إقناع الممولين فقط. هو ينتظرك، وهذا وحده كاف لجعلك تنظر إلى الأمر بإيجابية. لا يوجد سبب مقنع لرفض الزيادة، في صالح العمل ويعطي للسيمفونية حيوية جديدة. صحيح أن الهاغانة التي تقترحها قد لا يروق حراس الموسيقى الكلاسيكية لكن يوجد في نيويورك من الحرية ما لا يوجد في مدن أخرى، وهذا وحده مطمئن للغاية. نيويورك فريدة في كل شيء ولا أتصورني مطلقا خارج هذه المدينة. أعتقد أن الله عندما فكر في خلق المدن، فكر أولا في نيويورك، بعدها جاءت بقية المدن.

- لا أدري إذا كان الله معنيا بهذه المدينة وإلا لحماها من أيدي القتلة ومع ذلك لا شيء أجمل من الحياة والموت في هذه المدينة. حتى الآن لا أرى مبررا لتردد الممولين. إذا واجهتهم، سأقنعهم، أنا متأكد من ذلك. إن موضوع الحرب يشغل الجميع، الكبار والصغار، الكرة الأرضية تعيش في كف عفريت وعلى السيمفونية أن تمنح للناس فرصة صغيرة لحب الحياة على الرغم من الموت الذي بدأت رائحته تدخل إلى كل البيوت، حتى التي كانت تبدو بعيدة. الصور وطرق إدراجها ضمن مسار السيمفونية لا يضر مطلقا بالعمل الفني إذا وجدنا المال الكافي لاختيار أحسن التقنيين لإنجازه، بالنسبة إلى حراس الأوبرا الصافية، لا أحد يسمع لهم إلا الذين يشبهونهم في الموت والانغلاق. فيليب غلاس الذي أمضى حياته مقاوما للأفكار الجاهزة مثله مثل والده الذي واجه المكارثية المقيتة، عندما فاتحته في الموضوع في المرة الأولى، كان معي على طول الخط ووعدني بالدفاع عن المشروع، نصحني فقط بالتأمل الجاد والصارم حتى لا ينشغل ذهن الجمهور بالعديد من الأشياء في

الوقت نفسه ثم عليك أن تتحمل نقد الأوبرا الهجينة؟ قلت له إن الأوبرا الهجينة جاءت مثلما جاءت الموسيقى الباروكية، مربكة لكل النظم السابقة، حاربوها ولكنهم مع الزمن، قبلوا بها على مضض. نحن لم نمس النظام العام، أضفنا له فقط جانبا مشهديا، مثلما يحدث في الأوبرا عادة. لم تمنع رقصات فرقة البولشوي الرائعة الناس من الاستمتاع بموسيقى تشايكوفسكي، ولا ريمسكي كورساكوف في شهرزاد، ولا برودين ولا بيزت عندما نفذ كارمن ولا سترافانسكي. الزواج في الأوبرا بين الصوت ومشهد الرقص والموسيقى هو الذي صنع مجدها ولم يمتها مطلقا. قد يكون ما نقوم به مقاربا ولكنه يظل في عمق السيمفونية.

- مع ذلك، التفاصيل في عملك ليست شكلية ولكنها تركيبية.

- عمل الفرقة الموسيقية لن يتغير كثيرا ولكن الذي سيتغير هو الخلفية التي يجب أن نجد لها حلا. في الأوبرا لا يوجد الفراغ أبدا. التلبيس الجديد الخلفي يعطي نفسا جديدا للألوان والأمكنة وحتى الأزمنة التي تصبح كبقية المحسوسات الأخرى. مهم جدا تحديد موقع الفرقة وموقع المايسترو على المنصة. يجب أن يرى المشاهد المتحركة والفرقة ويسمع الموسيقى بدون أن يشغله ذلك عن الإحساس العام بالسيمفونية.

- يجب أن تنتبه إلى أنك أمام جمهور موجود في المقاعد الأرضية وفي البلكونات. أين نضع الشاشة الكبيرة؟ شاشة واحدة أم شاشات؟ كلها قضايا يجب أن تجد حلولها بشكل مسبق.

- فكرت في ذلك طويلا ولهذا سنتفق مع محترفين في هذا المجال. أعرف أن المصاريف ستزيد قليلا ولكني أعتقد أن ذلك سيكون في حدود المعقول، ولا يثقل على أوبرا بروكلين بوصفها مالكة لهذا المجهود. فأنا مع فكرة الخلفية الموحدة، مثلا الشاشة العملاقة، أو أي شكل حي، يعطي حياة للموسيقى ولا يتركها مجرد إيقاعات على خلفية مليئة بالبياض؟

- يبدو أنك فكرت في كل شيء.

- يعني. لن ندخل الجلسة بأيد فارغة.

ومع ذلك لم يستطع جاز أن يخبئ انشغاله. فقد دمرت زيارته لجده كل ما بناه ولكنها نزعت الكثير من التسطحات التي تصحب عادة الأعمال التاريخية الضخمة. وفتحت الكراسة النيلية لمايا شهيته على الانكسارات الإنسانية العميقة التي يريد تجسيدها في السيمفونية. كلما وصل إلى لحظة إليس آيلند، تجمدت أصابعه في الفراغ وهو يرى تلك الطفلة الشجاعة وهي تتخطى بصعوبة حواجز الشرطة الباردة. محملة بشجن حبها الأول الذي لم يجد طريقه وقتل في منتصف عنفوانه. هي نفسها مايا اسكندر التي استعارت اسما جديدا على مضض لتنقذ والدها وقطتها أميرة ونسيت تماما مصيرها.

انتبهت ميترا إلى أن أصابع جاز كانت طويلة قليلا ونحيفة، أرادت أن تقول له إنها مناسبة للبيانو. ثم اكتفت بأن اتكأت على ظهره وبدأت تتأمل حركاتها وهي تعبر بحنان ملامس البيانو في حركة انسيابية جميلة وكأنها كانت تخشى أن تحدث خدوشا أو أذى على سطحها.

- في انتظار أن تناديك سكرتيرة فيليب، أشتهي أن أسمعك حبيبي.

- أتمنى ألا أخيبك وسط هذه الفوضى التي تملأ دماغي. أحيانا أشعر أننا نتدرب في الفراغ لمشروع قد لا يرى النور أبدا. مع أني أنام عليه وأستيقظ عليه وفي كل مرة أشكر الله أنه وهبني يوما جديدا للمقاومة ولفرضه بالحجة والإقناع. أحيانا أتساءل إذا لم يكن من الأحسن الاكتفاء بما قمت به وإلغاء كل ما أتيت به من رحلتي إلى طوليدوالتي غيرت كل شيء رأسا على عقب. وأحيانا أقول لا يمكنني، بعدما فتحت عيني على آلام جدي وجروح أمي، أن أعود إلى الوراء. أبدا.

- جميل.

- مقطوعة إليس آيلند كما أتخيلها تقريبا.

- محظوظة. سأكون أول من يسمعها إذن.

قالت ميترا بعد أن انحنت بصدرها عليه ودفنت رأسها تحت رأسه،

كمن كانت تبحث عن دفء ضائع. رتب الأوراق من جديد أمامه. كانت أجزاء المقطوعة تتسابق في رأسه في تسلسل متناسق. لم يكن مهما أن تتزاحم النوتات الموسيقية في تآلف كبير أو تتداخل، فكل شيء كان منتظما في رأسه، أو هكذا بدا له. انزلقت أصابعه الرقيقة بهدوء، تتحسس ملامس البيانو من جديد. لاحظت ميترا من جديد أنها كانت تشبه أصابع مايا في نحافتها وطولها، ونعومتها أيضا. شعر بفيض الماضي يستيقظ دفعة واحدة فيه مثل الموجة الهاربة التي جاءت من بعيد قبل أن تصطدم بالصخور العالية، ليرتفع بعدها الإيقاع بالتدرج ثم يخبو قبل أن يذوب في عمق القاعة الضيقة. وقبل أن يغيب من جديد في عمق الإيقاعات الهاربة نحو حواف البحر وخبايا الضباب الذي كان يغلف وجه المدينة، رن التليفون عند رأسه بحدة.

- طيب، ما كان التليفون ينتظر قليلا.

تمتم جاز وهو لا يعرف كيف يتصرف، بينما ظلت ميترا منكفئة بصدرها على انحناءة ظهرها، في غيبوبة شبه تامة، تغطي بشعرها جزءا من وجهه.

مدَّ جاز يده نحو التليفون. وضع السماعة في أذنه وخده الأيسر ما يزال ملتصقا بخد ميترا.

- نعم... طيب... أنا قادم حالا.

ثم التفت نحو ميترا وهو يحتضن كفيها في عمق يده.

- خلاص. مارينا تقول إن فيلب ينتظرني... ادعي لي...

- حظ سعيد حبيبي. أنا متأكدة من أنك ستعرف كيف تقنع جميع المترددين. أنت تملك ما لا يملكه الآخرون، التصور الواضح لما تريد إنجازه. أنت الوحيد الذي يعيش هذه التجربة في العمق وبإخلاص. رأيت شططك وجنونك والتباسك بمشروعك، ولهذا لا يساورني أدنى شك في قدراتك.

- شكرا حبيبتي. شكرا...

-٢-

لا أحد في البهو الطويل إلا هي. مارينا باستقامتها وأناقتها وانضباطها. عندما رأت جاز وميترا يخرجان من المكتب، مشت نحوهما بابتسامتها التي تزرع السكينة.

- صباح الخير مارينا.

قال جاز وهو يطبع على خدها قبلة.

- صباح الخير مايسترو جاز، فيليب ينتظرك في مكتبه، يريد أن يراك حالا لإتمام ملف السيمفونية.

- كيف حاله؟

- رائق جدا وإلا ما دعوتك لمكتبه.

قبل أن تسبقه مارينا نحو المكتب، التفتت نحو ميترا:

- حبيبتي ميترا، كنت فقط أريد أن أعتذر منك على عدم حضوري عيد ميلاد جاز. كنت قلقة جدا.

- مر وقت كبير على ذلك. نسيت كل شيء. لا تشغلي بالك.

- أنت تعرفين موت فرانكي في اعتداء ١١ سبتمبر، في البرج الشمالي دمرني من الداخل وحطم كل آمالي. إلى اليوم لا أستطيع أن أنسى شيئا مما حدث. ولا أفهم إلى أي حد يستطيع البؤس البشري أن يدمر حياة بكاملها، بشكل رخيص.

- ويبدو أن البشرية لم تتعلم الدرس جيدا. قدرنا الصعب. لا وسيلة لنا لمقاومة الموت إلا بالإصرار على الحياة. ما عدا ذلك، يخدم القتلة ويفرش لهم طرق الموت والرعب. والألم عندما يعم، يخف.

- أعرف جيدا أن فرانكي لم يكن الوحيد الذي مات في الهجوم على البرجين. عذرا، شيء أكبر من طاقتي. الموت العبثي يهزمني. لقد كان فرانكي مسالما وطيبا. هل يعلم القتلة أنهم خنقوا صوتا كان من أكبر المدافعين عن حق الفلسطينيين في دولة؟ هل يعلمون أنه خرج في مظاهرات عارمة بجانب نعوم شومسكي والكثير من المثقفين السلميين

وتحمل دفع الشرطة وشتائمهم وضربهم أحيانا؟ منذ موت فرانكي لا أحضر أي احتفال. عندما سألت عنكما لأعتذر منكما، قيل لي بأنك سافرت إلى ديترويت في مهمة مع جاز.

تدخل جاز محاولا أن يقلل من ألم مارينا، مربتا على كتفها.

- تعرفين أن فرانكي كان قريبا إلى القلب منا جميعا. ولكن الأقدار عمياء أحيانا. كان يمكن أن يكون أي واحد فينا في مكان فرانكي. أنا نفسي مررت من هناك يوما واحدا قبل الهجوم، ولو أخرت موعدي إلى اليوم الموالي ربما ما كنت موجودا اليوم معكما في هذا المكان. ومع ذلك، على الحياة أن تستمر، وأن تنتصر مهما كانت قسوة الظرف.

فتحت مارينا باب المكتب وهي تحاول جاهدة أن تخبئ ألمها:

- شكرا لكما. فيليب ينتظرك. تفضل.

كان فيليب قد قام من مكانه واتجه صوب باب مكتبه الذي انفتح

- تعال يا صديقي. لدي أخبار مهمة لك وأعتقد أنها ستسعدك كثيرا. قل أولا أين وصلت أعمالك؟

أغلق الباب.

- هل من جديد؟

- جانب الموسيقى، لقد بدأنا التدرب على العناصر الجديدة التي أدخلتها على السيمفونية، وكل شيء يسير مثلما خططنا له على الرغم من بعض النقائص التي سنضبطها تدريجيا. المسألة التقنية المتعلقة بالسند الفني هي التي ما تزال تطرح مشكلة حقيقية. أحتاج بالفعل إلى تقني مختص يساعدني على تذليل ذلك. إن المشكلة مالية وليست تقنية...

- ما تسميه معضلة مالية لم يعد كذلك. أصبح بإمكان أوبرا بروكلين أن تغطي جزءا مهما من التكلفة وهذا وحده كاف ليجعلك سعيدا؟ البقية سهلة: شراء الشاشة الكبيرة أو تأجيرها للتخفيف من المصاريف، والإشراف الفني لعملية دمج الصور بالإيقاع الموسيقي، ليست أمرا صعبا. أصبح في مقدورنا التقدم بلا أي خوف.

- هذا هو عصب المشكلة يا مستر فيليب.

- أعرف أنك منشغل بالإضافات التي أدخلتها على سيمفونية كانت في طور الاكتمال. أنا متأكد أنها ستجد طريقا للحل، فأنت موهوب وتملك ما يخرجك من كل الصعوبات. حماسك لعملك يجعلك في مستوى ترميم كل النقائص الطارئة. ولكن عليك أن تنظر إلى عملك من موقع الاكتمال وليس الانشغال بالمشاكل التقنية مهما كانت قوتها. نحن هنا لتذليلها كما وعدتك وأنا عند وعدي. وأعني ما أقوله.

- لا أدري ماذا أقول لك يا مستر فيليب ولا كيف أشكرك؟

- اسمع يا سيدي وهذا هو ما دعوتك من أجله. أولا بالنسبة إلى المركز الدولي للصورة، تقترح مديرته مدام جوديث أن تمول جزءا من تكلفة التصوير والإخراج وكل ما له علاقة بالصورة مع سقف تم تحديده. مساهمة ليست خارقة ولكنها مهمة جدا. جوديث امرأة حساسة ويسعدها أن تكون شريكا لنا في هذا العمل. لكن الشيء المهم هو أننا تلقينا صباح اليوم موافقة رسمية بناء على ما اقترحناه، من مؤسسة مكافحة المكارثية الجديدة التي وقفت ضد البيان الذي صدر مشفوعا بقوائم كل الذين رفضوا جنون البيت الأبيض الذي حول كل من ليس مثله، إلى أعداء. المؤسسة مستعدة لتمويل تكلفة المشروع بكامله. لقد تبنت كل شيء بدون أن تفرض علينا أي تصور مسبق. يحتاجون منا إلى وثيقة دقيقة بها تفاصيل التركيب المالي المدقق والتكلفة النهائية، وهذا أمر سهل جدا. الملف كان مقنعا وصلبا. فكرت أن نسلم المشروع التقني لماركو.

- سمعته كبيرة. ولكن هل يقبل؟

- ماركو مجنون وسأجعله يقبل. يستطيع أن يقوم بالتركيب المالي على أحسن وجه ولا أرى غيره بصراحة. أعتقد أنه صار الآن بإمكاننا أن نتصل به رسميا. ماركو مادي ولكنه جاد في عمله. يعجبني فيه وضوحه واحترامه للمواعيد وهذا وحده كاف لأن يجعلنا نعمل معه. غير منغلق ومستقيم في عمله. سأتصل به ولكن عليك أن ترتب معه كل شيء. يجب أن يبلغنا بتفصيلات التكلفة من ناحيته حتى نتمكن من بدء العمل.

إذا سار كل شيء كما نشتهي، نستطيع أن نبرمج أول عرض في الربيع القادم، ربيع نيويورك الموسيقي. مناسبة عظيمة تفيدك وتفيد العرض وتمكننا من بيع مشروعنا لجهات أخرى وربما استطاعت تخفيف الأعباء المالية على الأوبرا.

لم يصدق جاز ما كان يسمعه. في لحظة واحدة أغلق كل شيء وفي اللحظة نفسها انفتحت كل الأبواب.

- أمامنا عشرة أشهر. ممكن جدا. كيف لم أفكر في ماركو مولينو؟ هو أحسن من يقوم بالتركيب المالي في مؤسسته وأحسن من يقوم بتنفيذ المشروع تقنيا. يملك المؤهلات والوسائل والخبرة. يجب أن يعرف بأن الأمور جدية حتى يدرجنا في برنامجه فعليا ولا ننتظر كثيرا.

- من هذه الناحية سأتدبر الأمر وأضبط لك معه موعدا لتفهمه بشكل جيد ما تريد فعله من الناحية التقنية. سأقول لمارينا بأن تتصل به اليوم. سيتعبك قليلا بثرثرته ولكن أعتقد أنك ستحب جديته. رجل لا يقبل بأنصاف الحلول.

- كل الناس الذين يشتغلون في عالم الصورة يمتدحون عمله وانضباط مواعيده.

حاول جاز وهو يغادر مكتب فيليب أن يكتم سعادته، ألا يصرخ بأعلى صوته مثل المجنون ويقفز في الهواء الطلق كالريشة في مهب الريح: هوووووراااااه ه ه ه... المركز الدولي للصورة... ثم مؤسسة مكافحة المكارثية الجديدة، هكذا دفعة واحدة؟ لا يمكن للأقدار أن تكون سخية أكثر من ذلك. لم يبق الآن إلا ما هو موسيقي، وقرابة السنة بين أيدينا... ليكن...

مر بسرعة على مكتبه الصغير. تدحرج عند عتبة الباب وكاد يسقط على فمه، ولكنه لم يأبه لذلك. أخذ التوزيع الأخير للسيمفونية الهجينة بكل فوضى نوتاته المتداخلة، التي كانت معلقة على البيانو، مليئة بالمحو والتغييرات المستمرة بالحبر الصيني الأسود والأحمر، ونزل ركضا إلى صالة التدريبات حيث كانت الفرقة الفيلارمونية لأوبرا بروكلين

تعيد عزف السيمفونية بصورتها القديمة مع بعض الترميمات والتحسينات التي كان جاز قد أدخلها وألحقها بالجسد الكلي للمقطوعات المختلفة التي ما تزال تفتقد إلى روابط فعلية.

شعر بأن كل القلق زال فجأة كحالة حمى طارئة. هذه المرة صارت السيمفونية الهجينة حقيقة ولن تعود مجرد مجموعة من المقاطع الممزقة التي تملؤها الفراغات والبياضات التي كان كلما رآها، لا يستطيع أن يتفادى حالة الإحساس باليأس، ولحظات من الشرود بعد أن نسف الكثير من عناصرها البنيوية الأساسية. فقد أدخل جملة من المقاطع الجديدة، وأربك بعضها بإيقاعات لم تكن موجودة وأصداء الطبل وتردداته والأصوات المضخمة بالنسبة للآلات النفخية الثقيلة والأدوات النحاسية الرقيقة والخشنة، لتأكيد الإحساس بأجواء الحرب وخيبات الموت والعذاب.

شعر جاز فجأة بذهنه متقدا. كل شيء كان يشع بنور حاد لم يستطع لجمه.

-٣-

- يكفي هكذا... يكفي شكرا... شكرا...

بإشارة باردة من يده، أوقف جاز العزف. تنفس عميقا وترك يده التي ظلت معلقة في الهواء، تنزل شيئا فشيئا كمن أصيب بخيبة فجائية.

- لا. ليس هكذا. أدرك الآن أن الحماس وحده لا يكفي. نحتاج إلى تدريبات كثيرة وإلى قناعة داخلية بالموسيقى وإلا لا فائدة ترجى من وراء ذلك. السمع لا يقبل هذه النزعة الباروكية التي لا يحكمها أي نظام.

قال جاز وهو يدور في مكانه، كمن أضاع شيئا مهما. كانت العصبية بادية ولكنه كان يبذل مجهودا كبيرا لكيلا يظهرها.

رفع رأسه قليلا. انتبه إلى الديكور الذي كان يحيط به من كل

الجهات. بدت له قاعة الأوبرا، على الرغم من خلوها التام من الجمهور إلا من أعضاء الفرقة وبعض التقنيين، مهيبة بكراسيها المخملية الجميلة التي أعيد ترميمها كلها بعدما تآكلت في أجزائها السفلية، ومخيفة إلى حد كبير. لا يملك حيالها أي شيء سوى الرهبة والانحناء وانتظار يوم يقف فيه في هذا المكان للإعلان عن المتاعب التي تلقاها لإعداد مشروعه.

«- حظ أن يجد الإنسان نفسه داخلها وغباء ألا ينجح ويترك الفرصة تنزلق من بين يديه. قد لا تكون الأوبرا هي كل حياتي ولكنها رهاني الكبير. منذ أيام ونحن في نفس الدائرة المغلقة، والتقدم يبدو ضئيلا.»

تدحرجت الكلمات في أعماقه المرتبكة وهو يعود باتجاه الفرقة التي كانت تتبع حركاته وتحاول أن تفهم قلقه. تعرف جيدا عاداته. كلما انسحب بصمت وأخذ يدور حول نفسه، فهذا يعني أن انكسارا ما حدث في السيمفونية أو في مدخل إيقاعي. لأول مرة يشعر بأن حياته معلقة على رأس قصبة يحركها في كل الاتجاهات بحسابات رياضية دقيقة. لأول مرة كذلك يتدرب بشكل مباشر في قاعة الأوبرا الرسمية، بعد أن أجرى التدريبات الأولى في الصالة الصغيرة المحاذية للصالة المركزية، وهذا يعني له الشيء الكثير. شعر بالألف شخص ينظرون إلى عينيه المتعبتين من قلة النوم والى حركة القصبة الذهبية التي لم تكن هذه المرة انسيابية. الخطأ قاتل لأن الاعتذار فيه لا يفيد.

- طيب، نعود. تدربنا كثيرا في القاعة الصغيرة ولا أحد معنا، وتحملنا الأخطاء لكن هنا، الوضع تغير تماما. يجب أن يدرك كل منا أننا بعد قليل سندخل في غمار البروفا الحقيقية وسنفترض في رؤوسنا، جمهورا نقف أمامه وعلينا أن نؤدي السيمفونية بكاملها، بأجزائها المضافة وكأننا في حضرة أناس دفعوا ثمنا غاليا لعيش لحظات جميلة. كارولين... كارولين لم تدخلي بعد في المجموعة. أشعر كأن المقطوعة مفصولة عن كل سياق. حركتك كانت بطيئة وتفتقد إلى الميزان الذي يربط السابق باللاحق. وهذا مهم جدا. حبيبتي كارولين... أنت وسط أكثر من مائة آلة وأي استباق أو تأخر، هو كسر

للريتم العام وانهيار للإيقاع السيمفوني. صحيح أن المقطوعة الجزئية جديدة عليك وأننا في مرحلة التدريبات ولكن يجب التفكير في أنها مدمجة داخل نسق كلي ولا قيمة لها وحدها.

- مايسترو، هل أعيدها وحدي منفردة للوقوف عند الانزلاق لتصحيحه؟

- منفردة، غير مفيدة، أعرف جودة ما تقومين به خصوصا بعد التدريبات الفردية. لا ينفعنا في هذه المرحلة لأن عزفك سيبقى منفردا ومعزولا على الرغم من أنه لا يشكو من أي نقص. ولكن ستعيدينها في علاقتها بالسابق، أي بحالة الدخول مباشرة بعد الكمان مع وصلة التواصل التي تنتهي عند جون الذي يغطي حالة انتهائك ويكون الربط جيدا ويصعد بدوره بالكنترباس. يجب أن تجد آلة الموندولين الشرقية والمليئة بالحنان، مكانها الطبيعي، وقعها كبير وحنانها لا يقاس في حالات الانكسارات. طيب نعيد؟

طلبت كارولين أن تعيد مرة أخرى وحدها مقطوعتها قبل إدماجها. لم يصر جاز كثيرا ولكنه طلب من الجميع الإعادة بحركات منفصلة.

- طيب، ليكن. للمرة الأخيرة كارولين على الكلارينات، وبعدها نعيدها مدمجة في البقية بدون توقف لنعرف ماذا تعطي في المجموع. إننا نفتقد إلى انسيابية العبور من وضع إلى آخر. أشعر بغياب هذه الحلقة الضرورية. نحاول بشكل منفصل. ميترا...

كانت الفرقة مستعدة لتنفيذ السيمفونية بكاملها مع إدراج التغييرات الجديدة والإضافات التي جاءت لتدخل في رحم الكل. لم يكن الأمر سهلا ولكنه كان طبيعيا، إذ كلما تم إدخال عنصر جديد اختل جزء من النظام التقليدي العام للسيمفونية لأنه سيحتاج إلى وصلات انسيابية جديدة لا توقف المد الموسيقي بشكل جاف.

استمع لميترا. تتبع حركاتها وتلوناتها الجديدة وأحاسيسها العميقة من خلال حركات يديها ووجهها وعينيها. رأى كل ذلك مرتسما في ملامحها الطفولية وعلى أصابعها التي كانت تتحرك بثقة كبيرة. ثم غاب

الصوت بهدوء ليفسح الطريق لكارولين على الكلارينات التي ارتفع شجوها متناسقا ومتواصلا مع نهايات ميترا، مصححة بذلك الوقفات السابقة التي أثقلت المعابر نحو الفواصل اللاحقة. استمر الإيقاع هادئا ومنسابا. رأى في عيني كارولين التي انعكست فيهما أنوار القاعة والوجوه التي تنتظر دورها، سعادة لا تحد. شعر جاز بأن المقطع كان طويلا وأنه سيدخل اللواحق والتوابع الموسيقية في حالة إرهاق. بدون أن يوقف كارولين، سجل ملاحظته على ورقة التوزيع. فكر أن يبتر جزءه الأخير الذي شعر به مكررا وغير متوازن مع الكل. ثم أشار برأس القصبة إلى جون على الكنترباس الذي عكس بصوته المتضخم حالة من الحزن ختمت إشراقات الكلارينات الطارئة التي كانت قد قادت الإيقاع العام نحو مزيد من الحيوية والاندفاع. ثم التفت جاز نحو ضارب الطبل، مع عبور صغير متواز على إيقاعات الشنيشنة التي ارتفعت في يد كادي ذي الأصول اللبنانية-الهندية، مصحوبة بخشخشات هندية كانت تنبع من طارة الشنيشنة نفسها، في صمت كلي لبقية الآلات، وبخلفية هاربة، تكاد لا تسمع من ميترا لتغطية حالة البياض التي كان ينشئها التداخل الكلي والخافت للآلات وللتخفيف من إيقاعات الشنيشنة المتلاحقة.
بحركة خلفية من جاز وتمادٍ أمامي بالقصبة، ترتفع أصوات الفرقة النحاسية في انتظام لا شيء كان يربكه، معوضة شيئا فشيئا الكمان الذي خفت بهدوء بين يدي ميترا، وفق ميزان محدد وتكرار غير ممل. بإشارة جافة امتدت بعيدا، صعد على إثرها جاز على رؤوس أصابع رجليه، عاد صوت الطبل من جديد ليعلن عن حرب كانت تتهيأ لها الأطراف المنفصلة والبعيدة، في أفق لم يعد فيه شيء إلا الظلام. بينما كانت المارشات العسكرية التي كانت تحدثها الضربات المتسارعة والمتواترة على الباتري، تحتل شيئا فشيئا فضاء القاعة الواسعة وتحدد طبيعة المشهد العسكري المتلاحق. تذكر قليلا بمارشات ردانسكي الإيقاعية المتناغمة والمتجانسة ولكنها كانت أكثر انسيابية ولا توجد في داخلها أية وقفات أو بياضات. ثم أعطى جاز الإشارة لسند بقية الآلات النفخية لتعمق حالة

الجو الحربي أكثر. تصاعدت عاليا إيقاعاتها بعد أن طغت على هدير الطبل والحرب المعلنة. استمرت لحظات وكأن لا شيء إلا الحرب والخوف المتنامي. مرة أخرى يلحظ جاز طول المقطع، فيسجل ملاحظته. شيئا فشيئا، يعود حنين الكمان مجمِّعا حوله كل الأصوات والأنغام التي صارت خلفية وبعيدة. بهدوء، بدأت القصبة الذهبية تنزل نحو الأسفل قبل أن يختتم جاز مشهده التدريبي بحركة جافة. وقفت بعدها كل الآلات بشكل متجانس وموحد، كما أراده. فيهدأ كل شيء ويعود الصمت هو السيد مثلما كان في البداية، فلا يسمع حتى حفيف فراشة.

- جيد. برافو. برافو. باستثناء الطول الذي علي أن أنقص منه قليلا. الخلل هذه المرة من عندي وليس من عند أحد. يجب اختصار نهاية بعض المقاطع وتذويب جزء كبير من خواتمها في صوت الكونترباس الخشن، والتفكير بجدية أكثر في الوصلات الناعمة بحيث يكون الانتقال من الهدوء إلى التضخيم غير ظاهر وإلا سيكون في المقطوعة نوع من التمزق أو التوقف الجاف يظهر البياض الموجود بين الآلتين والمقطعين.

- هل أعيد العزف أنا وجون ونتدرب على الوصلة مع نزع الزوائد الأخيرة؟

قالت كارولين وهي تحاول أن تضع في فمها رأس الكلارينات من جديد:

- لنر ماذا تعطي الحركة والوصلة والحذف.

رفع يده. بدأ صوت الكلارينات يتصاعد وكأنه يخرج من محرقة، حزينا ومنكسرا. تعالى جاز وتمايل من الجهة اليمنى قليلا. استعد جون. صعد نشيج الكلارينات حزينا متدحرجا بين الشوق والألم، قبل أن يتهاوى شيئا فشيئا عصفورا من الأعالي، فيبدأ في النزول وتخف حدته لتذوب في الإيقاع المتصاعد للكنترباس الثقيل الذي كانت دقاته البعيدة والمضخمة تهيئ لحالة أخرى كانت تأتي من بعيد قبل أن تحتل

مساحات المكان كلها، لا يسندها في ذلك إلا العزف المتماوج المتأتي من كمان ميترا الذي يشكل بأنينه، الخلفية الدائمة لمعظم الآلات النفخية والوترية أحيانا.

- برافو. أفضل بكثير وأخفّ. نزعنا من المقطوعة جزءها الأخير، فزال ثقل واضح. حتى بالنسبة إلى جو الحرب الذي يعلن عنه الطبل، علينا أن نجرب بنزع جزئه الأخير، لقد استمر طويلا وهو ما جعل اللواحق الموسيقية التالية معزولة عن بقية السيمفونية، وكأنها مقطوعات جديدة ولا علاقة لها بالباقي. الآن نبدأ في تنفيذ السيمفونية من بدايتها الأولى بكل حركاتها ووصلاتها. الفرقة معنية كلها. استعداد.

تحرك الجميع وتململت الآلات المختلفة في أيدي أصحابها. حل بعدها صمت كلي لم يسمع بعده إلا أزيز بعض اللمبات التي كانت تطن كحشرات صيفية. رفع جاز رأسه نحو مخدع الإنارة حيث بابو ينظم كل شيء.

- بابو أعطنا الإنارة الكاملة وكأننا في عرض حقيقي. بدون ذلك لن نتقدم أبدا.

- أوكاي. OK مايسترو، إضاءة تقريبية.

جاء صوت بابو قويا ومسموعا.

- لا تشغل بالك بابو. أفهم ذلك ولكن ابذل مجهودا لكي تكون مشابهة للعرض النهائي.

- وهو ما سأحاول فعله مايسترو.

سمع صوت المحول الكهربائي المتحكم في الإنارة وهو ينزل بقوة كمقصلة نزلت في فراغ لا شيء فيه إلا الرهبة والخوف والموت الذي يكشر في الأفق. ثم أشعلت الأضواء الخفيفة مركزة في شكل دوائر صغيرة على الآلات والأيادي وهي تستعد للعزف الجماعي. شيئا فشيئا اندفن ضوء قاعة الأوبرا الحاد وغاب نهائيا. لم تعد تضيء الصالة إلا نواصات خفيفة قللت من ظلمة الخلفية. ذاب الجمهور المفترض فجأة وغابت ملامح الوجوه الكثيرة التي ظلت مشدودة إلى حركات جاز الذي

لمعت قصبته تحت الضوء المركز عليها. وقف لحظة يتفحص الجمهور وينظر إليه وكأنه كان يحاول أن يتفرس الوجوه التي كانت داخل القاعة مشدودة إلى حركاته وأوامره، قبل أن ينحني بتحيته التقليدية. علت التصفيقات، سمعها تطن في رأسه بشكل حاد فشعر بضخامة المسؤولية ودقتها. ربما كان جاز هو الوحيد الذي كان يسمع ذلك كله. تسمر في مكانه حتى ساد الصمت بشكل كلي، ثم التفت نحو الفرقة التي كانت تمتد حتى نهاية المنصة التي انحنى أعضاؤها برؤوسهم وهو معهم. ففساد الصمت من جديد بعد التصفيقات الجديدة التي جاءت من بعيد لتستقر في رأسه نهائيا. مرة أخرى، كان جاز هو الوحيد الذي كان يسمعها تنزل على رأسه مطارق حادة تزيد من انشغاله ومسؤوليته. أنزل القصبة بخط شبه مستقيم قبل أن يديرها في الهواء متمايلا باتجاه حركاتها وكأنه بدأ عملية تحليق كان الهواء فيها رطبا يساعد كثيرا على الانزلاق.

كانت السلاسة ظاهرة بحيث أدخلت الأجزاء الجديدة بدون صعوبة كبيرة لتصبح جزءا من الإيقاع الكلي للسيمفونية. لم يلحظ جاز هذه المرة إلا انزلاقات صغيرة وخفيفة، محدودة لم يكن لها أي تأثير يذكر في الكل، ولكنه، مرة أخرى، حددها لتقويمها وتنقيحها. حتى المرور بين موضوع وموضوع كان انسيابيا بدون توقفات تكسر النظام العام للسيمفونية.

عندما انتهى بالشكل الجاف الذي ترك كل شيء معلقا في الهواء، سمع التصفيق الذي ملأت أصداؤه أرجاء القاعة، كان يظن أن كل ذلك لم يكن إلا في رأسه، انحنى هو والفرقة. ثم فجأة زادت التصفيقات حدة وقوة. كانت تأتي من الطوابق العليا لدار الأوبرا حيث تجمع كل التقنيين المكلفين بالإخراج والإنارة والديكور وهم يصفقون بحماس شديد ويرفعون أياديهم لتحية الفرقة التي جعلتهم يعيشون لحظات جميلة استمرت قرابة الساعة.

- برافو مايسترو جاز... برافو للفرقة... برافو...

صرخ بابو في الميكرو الذي كان أمامه، من وراء زجاج المراقبة.

- شكرا بابو. كل هذا بفضلكم أنتم كذلك. لقد تقدمنا كثيرا وما تزال أمامنا خطوات علينا أن نقطعها ليصبح كل شيء تاما. نستطيع أن نقول اليوم، إننا عثرنا على الإيقاع الجماعي الذي كان ينقصنا. وهو أمر ليس سهلا أبدا. التقطيعات في أذهاننا صارت واضحة ولكننا نحتاج إلى من يضبطها بشكل جيد مع الصور وهذا يحتاج إلى ماركو. يا الله يا جماعة، نرتاح قليلا من التعب والانشداد النفسي، ونعيدها للمرة الأخيرة وربما بشكل أفضل هذه المرة.

- مايسترو هل نستطيع أن نقول إننا وصلنا إلى نقطة اللارجوع؟

قالت كارولين وهي تمسح رأس الكلارينات بنعومة منديلها الحريري.

- كل عمل نقوم به، مهما كان صغيرا ومحدودا، هو بالضرورة لبنة نضعها في طريق اللارجوع. طبعا بعد كل هذا المجهود وتعب السنين، سنكون أغبياء جدا ولا نستحق اللقب الذي نتكئ عليه، إذا لم ننجح.

أسندت الآلات الموسيقية الحائط والطاولات القريبة وصعد أغلب أعضاء الفرقة إلى الطابق الأول للبام BAM لشرب القهوة التي كان كل واحد يشعر أنه يستأهلها.

مدت ميترا يدها إلى جاز وهي تحاول أن تتماسك من فرط سعادتها:

- كم أشتهي أن آكلك على مرأى الجميع لهذا النجاح الباهر ولكني لا أريد أن أكون أنانية. بعد كل هذه المجهودات عليك أن ترتاح قليلا وأن تجدد نفسك. ضروري.

- مجنونة. أعتقد أنك لو لم تكوني كذلك لما سلكنا نفس الطريق. سنرتاح قليلا عندما ننتهي من المفاصل الصعبة. أستطيع أن أقول إننا خرجنا نهائيا من قاعات التدريبات وبدأنا ندخل المرحلة الأكثر حساسية، المرحلة ما قبل الأخيرة من البروفات. لا أقبل الفشل. فرصتنا الوحيدة، بعدها سأحدد مصيري نهائيا.

ثم شدها من يدها اليمنى. بدت له مشرقة وعيناها مليئتان بالحياة. لثمها كمن يؤجل قبلته العميقة ليوم آخر، ثم التحقا بالآخرين في مقهى البام، بالطابق العلوي.

كانت شمس نيويورك تتسرب شيئا فشيئا من وراء زجاج المقهى وتقاوم باستماتة للخروج النهائي من كتل الغيوم التي حجبت جزءا كبيرا من نورها.

نظر من النوافذ الواسعة المطلة على الشارع الرئيسي لبروكلين. لم تكن نيويورك لحظتها لا ممطرة ولا حزينة على الرغم من الدكنة الثقيلة التي كست سماءها.

لأول مرة، منذ مدة طويلة، يشعر بأن كاس القهوة التي شربها، كانت لذيذة وناعمة.

-٤-

ماركو مولينو. قرأ جاز الاسم المكتوب بخط مذهب على باب المكتب.

وقف قليلا في قاعة الانتظار التي بدت له واسعة جدا، يتأمل صور الأفلام والفنانين. كانت القاعة جميلة ونظيفة، تعطي الانطباع من مظهرها الخارجي بجدية المكان وصرامته. ركز قليلا على كلمة ممنوع التدخين الملتصقة على كل الحيطان بحمرتها التنبيهية قبل أن يجلس. تشهى سيجارة ولكن المنع كان واضحا ومرئيا.

كل الذين اشتغلوا في الحقل السمعي- بصري يعرفون جيدا ماركو وجديته. في وقت قصير جعل من مركزه مرجعا مهما في نيويورك بمكتبيه في مانهاتن وبروكلين. اشتغل ماركو مدة طويلة في ستوديوهات هوليود في لوس أنجلس وانتهي به المطاف إلى نيويورك التي كبر في شوارعها الممدودة والطويلة. يقول إن مدينة لوس أنجلس مدينة ورقية. لم يعد قادرا على تحمل عظمتها الزائفة، شخصيتها غير حقيقية. عاش

فترة غير قليلة في حي بفرلي هيلز(١٠) وفي السانست بولفار(١١) قبل أن يستقر في المدينة الرقيقة سانتا مونيكا(١٢). كان واحدا من مخرجي السلاسل التليفزيونية ولكنه عندما أفلس الستوديو الذي كان يسيره، عاد إلى مدينته الأولى وبنى مركزا ضخما للإنتاج **«مركز بروكلين للفنون السمعية البصرية»** ولم يعد يغامر كما كان من قبل، فقد أصبح مركزه مركز خدمات احترافية، سينمائية وتليفزيونية وإذاعية. تعلم الصرامة في العمل بدون أن يفرط في التفاصيل. الدخول إلى مكتبه يذكر بعالم هوليود. فقد صنعه بحسب مزاجه وبحسب مقاييس الاستوديوهات التي عاش فيها طويلا وتعلم منها الكثير.

عندما دخل جاز إلى المركز، وجد طريقه بسرعة. لم ينتظر كثيرا في قاعة الانتظار. قبل دقيقة من الموعد جاءته امرأة أنيقة ولطيفة في تعاملها مع ضيوفها، سكرتيرة المدير العام. نادته باسمه ضمن المنتظرين معه وقادته نحو المكتب. تبعته بكراستها الصغيرة لتجلس على الجهة اليمنى من ماركو لتسجيل كل الملاحظات الضرورية.

قام ماركو من مكانه، حيا جاز قبل أن يعود إلى الجلوس.

- مايسترو جاز... صباح الخير.

- صباح الخير سيد ماركو. سعيد جدا باللقاء بك. في مدينة واحدة وبكل واحد غارق في عالمه.

- أنت جئتني في نقطة ضعفي الكبيرة: الموسيقى. لا أستطيع حيالها أن أرفض شيئا. شرح لي المستر فيليب غلاس قليلا وقرأت التقرير بتأنٍّ كبير. إذا فهمتك جيدا، فأنت تريد أن تضفي نوعا من الأكسيسوار على السيمفونية، بمعنى أبسط تهجين السيمفونية بحيث يصبح جانبها المشهدي مكملا لجانبها الموسيقي. أكسيسوار يقول

---

(١٠) Beverly Hills

(١١) Sunset Boulevard

(١٢) Santa Monica

التاريخ الذي تتكلم عنه السيمفونية. وإذا فهمتك كذلك بالشكل المطلوب، السيمفونية تتكون مبدئيا على الأقل من أربع تيمات أساسية، مضافا لها البريلود الافتتاحي الذي يشكل صعوبة كبيرة من ناحية الإخراج والخاتمة. يمكن أن تغطي الموسيقى على كل شيء. تريد أن تكون الصورة الخلفية تعبيرا مضافا يحرك حساسية الناس بقوة أليس كذلك، مثلما هو الحال تقريبا في الأوبرا؟

- تماما وكأنك كنت معنا. الصورة ما تزال غائمة ولكنها كل يوم تتضح قليلا. أريد شيئا يعطي ملمسا حقيقيا للموسيقى ويخرجها عن التجريد البحت. يجب أن يرى الناس ما تقوله الموسيقى وعليهم هم بدورهم أن يقوموا بعملية الدمج. قد تكون العملية مخاطرة فنية ومغامرة ولكني منذ أن أعدت النظر في بنية السيمفونية أصبحت المشهدية في رأسي ضرورة فنية. طبعا لا أعرف كيف يتم ذلك من الناحية التقنية ولكن لدي بعض الأفكار التي يمكن أن تساعد على ضبط السنكرونيا بين الصورة والإيقاع.

صمت ماركو مولينو قليلا.

- ما تقوله جيد ويبدو لي هذا ما فهمته. ولكني وأنا أقرأ التقرير تساءلت لماذا لم تفكر بكل بساطة في أوبرا؟

- مشكلة أكثر تعقيدا وتحتاج إلى فعاليات أخرى لا أملكها في الوقت الحالي.

- سنرى فيما بعد الشكل الأكثر إقناعا وملاءمة. تيمات: الإعدامات، الثورة، فلسطين، ثم الهجرة إلى أمريكا وأخيرا الصمت أو لنقل حالة البياض، موضوعات تحتاج إلى تدقيق قصديتك ولهذا أحتاج إليك كثيرا لكي نعرف ماذا نريد. مثلا أرى مثلك الوقع الكبير الذي يمكن أن تحدثه خاتمة مثل نيويورك... نيويورك لجون كندار وفريد إيب. فهي تعطي إيقاعا حيا ومتفائلا وهو قريب من انشغالاتك وخصوصاً أن ما تقوم به يأتي في وضع صعب بالنسبة إلى الشعب

الأمريكي الذي عاش محنة برجي التجارة. السيمفونية تلعب على هذه الموضوعات الحساسة ولهذا يجب ملامسة الحساسيات الكبرى الموجودة اليوم لدى الناس. إذاً فهمتُ جيدا، إنك مازلت بصدد الاشتغال على السيمفونية التي لم تكتمل بعد لنستطيع أن نلصق بها صورا نهائية؟ هذ ليس إشكالا كبيرا، سنترك له بياضات حتى يستقيم كل شيء ونبدأ العمل من الآن لربح بعض الوقت. التفاصيل الأخرى، الزمن والفكرة الخاصة بالموضوع والأمكنة، كلها موجودة في الملف الذي بعثته إلي. أعتقد أني في صلب فكرتك وإذا خرجت عنها فما عليك إلا أن تعيدني.

- كلامك جيد وأنت في صميم السيمفونية. لقد قطعنا خطوات جبارة. وحضرت لك ملفا جديدا يحتوي هذه المرة على كل التقطيعات السيمفونية الممكنة وكل التفاصيل الخاصة بالعمل. اشتغلنا حتى الآن على ساعة ونصف من الموسيقى وننتظر منك أن تتدبر الأمر بالنسبة إلى الخلفية الصورية والأكسيسوارات. حرفيتك تسمح لك بملامسة ما يهرب عنا لأننا لا نحسه مثلما تحسه أنت. الأمر يقتضي وجود فرقة تقنية كاملة تسهر على إخراج ذلك على أحسن وجه. وهذا لا أحد يستطيع فعله إلا أنت وفريق عملك المحترف، يا سيد ماركو.

- أقترح عليك أن تفترض ساعتين من العرض، نحسب على هذا الأساس وبعدها نرى الزوائد التي يمكن حذفها. فإذا كان الوقت ساعة ونصفا يمكنك أن تستفيد من الزيادة وإذا كان ساعتين لا تضطر لأن تبحث عن ممول جديد ولا عن كم صوري قد لا تجده أبدا؟ الزمن محدود وأشعر بالسكينة على الرقبة ولكني لا أستطيع أن أقول لا لفيليب غلاس ولا للموسيقى. أنا أحس بما تحس به ولهذا سأقوم بالمستحيل لإنجاز ذلك كله في وقته المحدد.

- باطلاعك على التفاصيل الجديدة وشبه النهائية يمكنك أن تعطينا تصوراتك المادية والتكلفة حتى نعرف كيف نتصرف مع ممولينا ونضبط العقود.

- بالضبط. قدمت احتمالا ماليا أوليا ولكن مع التفاصيل المضافة، يمكنني أن أبعث بالتركيب المالي في اليومين القادمين أو نهاية الأسبوع. سيكون كل شيء بمكتب فيليب غلاس، وعليه أن يتصرف من جهته لإقناع الممولين. وإذا فهمت جيدا مراسلة فيليب الأخيرة، إن التمويل موجود والممولين مستعدون للذهاب معكم حتى النهاية. أتصور أن تسبيق ٢٥٪ لمكتبنا، سيسرع من وتيرة العمل. ما رأيك؟

- أعرف ذلك سيد ماركو وفيليب وضع كل هذه التفاصيل في ذهنه. أنت لا تشتغل إلا بضمان خمس وعشرين بالمائة من التكلفة تدفع لك في شكل تسبيق وهذه ليست مشكلة أبدا، من حقك. الممولون مقتنعون بالمشروع وأعطوا الموافقة المبدئية ولا يرون أي مانع ولكنهم ينتظرون ردك التفصيلي بعد أن تطلع على المشروع في دقائقه واكتماله. مؤسسة مناهضة المكارثية الجديدة مستعدة لكل شيء وفيها أعضاء كثيرون يساعدون الذين تركوا أموالهم وديعة عند المؤسسة لتصرف في الأعمال الخيرية التي تجعل الفعل الإنساني يتقدم. إذن تستطيع أن تبدأ التفكير في الموضوع بدءا من هذه اللحظة. هل أعتبر أن موافقتك نهائية؟

- طبعا. أحتاج فقط إلى سماع المقطوعة سماعا أوليا للقيام بالتقطيعات الممكنة من الناحية المرئية ولأحدد حاجتنا من الصور والوثائق الضرورية للسيمفونية.

- كل شيء مع الملف. سجلت لك قرصا وشريطا، أتمنى أن يكونا جيدين من الناحية الصوتية على الأقل. العمل غير تام، ولكنه يعطيك فكرة واضحة، وقريبة من الصيغة النهائية للسيمفونية مع التقسيمات الفنية الممكنة.

- طبعا يهمني أن أعرف السيمفونية لأنجز تصورا أوليا أقدمه لك حتى نكون واضحين في عملنا مع احتمالات التكلفة. بالنسبة إلى أرشيف الحقبة والصور الضرورية، هل تتصرف أوبرا بروكلين بشرائه أم سيتكلف مركزنا بكل الحاجيات المرئية؟

- أعتقد أنك ستتسلم المشروع كاملا وبالتالي عليك تدبير كل

شيء. يمكننا أن نساعدك ببعض الصور ولكن هذا ثانوي أمام عملك. اذكر كل حاجاتك لنتمكن من توقيع العقد بسرعة. نحن ننتظر تركيبك المالي لنشرع في العمل الجدي ونخرج من الفرضيات.

- الأرشيف لن يكون مكلفا، فهو في معظمه قديم نسبيا ويمكن الحصول عليه بشكل أرخص وبسهولة أكثر. أعرف جيدا أماكن تواجده، خصوصا فيما يتعلق بالحرب العالمية الأولى والثانية وكل ما تحتاج إليه السيمفونية من صور مصاحبة.

كانت السكرتيرة التي جلست على يمين ماركو، تسجل كل الملاحظات والتفاصيل. من حين لآخر توقفه للاستفسار ثم تواصل كتابة الملاحظات عما كان يقوله جاز أو ما كان يسجله ماركو من ردود فعل. لم تغفل ولا لحظة واحدة.

قبل أن يخرج سأل جاز ماركو.

- والمدة الزمنية التي تحتاج إليها لإنجاز المشروع بكامله؟ بشكل تقريبي طبعا.

- إذا كانت السيمفونية منجزة موسيقيا ومدتها الزمنية في حدود الساعة ونصف أو الساعتين، يحتاج العمل بمساعدة فريق العمل الذي سأنصبه للاشتغال على المشروع، من خمسة إلى سبعة أشهر. قد نضطر للتصوير والقيام بالأعمال التركيبية الضرورية بأنفسنا. طبعا يدخل في هذا الزمن التدريب الفعلي الذي نجريه على السيمفونية وكأنها عرض حقيقي وبجمهور يتابع كل التفاصيل. سيكون لنا متسع من الوقت لترتيب كل الأشياء وترميم النقص في المشروع. أنت تعرف يا جاز أن أي عمل كيفما كان، لا يُعتبر تاما ومنتهيا إلا في آخر لحظة، عندما يعرض على الجمهور.

- أرى أن المدة الزمنية مناسبة ومعقولة وتجبرنا جميعا على العمل بسرعة وبجودة عالية. لم يعد هناك وقت نضيعه بعد أن اتضحت كل المعالم.

- أعتقد صادقا أنه لا يوجد مانع يمنع هذا المشروع الجميل من

النجاح والدخول في السجلات العالمية لأوبرا بروكلين. أنت لست رجلا عاديا يا جاز، وقد أثبت قدرتك الفعلية في الكثير من التظاهرات الفنية لقيادة أكبر الفرق الفيلارمونية التي تزور بروكلين. وإذا كان فيليب غلاس قد اختارك للقيام بهذه المهام الصعبة، فلأنه يعرف ماذا يخبئ رأسك وقلبك من أشياء جميلة ورائعة. إذا احتجت في عملي التركيبي، إلى صور وأرشيف عائلي، سأتصل بك. سأستغل مبدئيا ما بعثته لي وسنرى البقية فيما بعد. أحتاج كذلك إلى اطلاعي على كل التغيرات التي تجريها على السيمفونية، هذا مهم جدا وحاسم بالنسبة للسانكرونيا. البقية سأتدبر أمري فيها. علي أن أعرف أوقات التدريبات حتى أتمكن من زيارة الأوبرا وقت وجودكم للاطلاع على الفضاء والأماكن والاستماع إلى البروفا في أدق تفاصيلها. أريد أن تكون لدي فكرة كاملة عما تريده موسيقيا وأريده تقنيا وفنيا. أنت تعرف أنه لا يمكن أن نتخيل شيئا بدون السيطرة على الفضاء والعمل ضمن أنساقه. كل شيء يترك للصدفة، هو فاشل من أساسه.

– معك حق يا سيدي. لا شيء يقتل العمل الفني مثل الانتظار والاكتفاء بالصدفة. المال يأتي بالمال. يحتاج العمل الجيد إلى مال كثير أحيانا ولكن نجاحه يعوض كل الخسارات في أوقات محدودة. شكرا لك سيد ماركو على الاستقبال والاهتمام بالمشروع.

– على كل ستكون لنا لقاءات أخرى، أكثر ارتباطا بالعمل.

كل الذين عرفوا ماركو مولينو يدركون جيدا إيقاعه السريع والجدي والعملي. يؤمنون بصرامته المفيدة وطيبته وسعادته. عندما ينجح أي عمل يتبناه بقوة. يقول عنه فيليب: «ماركو رجل كامل، يؤخذ ككل أو يرفض ككل. إنسان صعب المعشر، ولكنه إذا قبل تبني عمل، يذهب وراءه ولو بالخسارة ولو أنه لا يخسر أبدا لأن حساباته دقيقة. تضرر في لوس أنجلس ولا يريد أن يكرر تجربة الإخفاق. يحتاط للخسارة. احترافيته علمته ألا ينطلق، إلا بتسبيق ٢٥٪ قبل بدء العمل.»

همس على بحيرة هودسون

-١-

- الليلة، ستكون السيدة فرح أسعد امرأة في الدنيا؟

- أمي. . . لم تطلب من الدنيا سوى أن أظل قريبة منها وأن أكون كما اشتهاني والدي أن أكون، قبل أن يقتل. زيارتنا لها ستفرحها كثيرا. ما تزال شرقية في دمها، من هذه الناحية، تحب عندما يمتلئ بيتها البارد بالحياة.

خرج جاز من نهج برودوي ثم انعكف في الشارع ٣٩ المفضي إلى نفق لينكولن باتجاه نيوجيرسي.

كانت ميترا قد نامت وغرقت في دفء السيارة ونعومة الموسيقى المنبعثة منها والهز الخافت الذي لم يتوقف منذ أن خرجا من ليتل-إيطالي. لم تكن تحس ميترا بالبرد والأمطار التي عادت إلى التساقط من جديد.

عندما استيقظت من إغفاءتها، سألت جاز بغرابة:

- كأننا في نفق، أشعر بصوت السيارة مخنوقا.

- نحن بالفعل نقطع الآن نفق لنكولن(١٣) في الطريق السريع ٤٩٥ ولم يبق الكثير للوصول إلى ضفاف نيوجيرسي(١٤) أحسدك على نومك ونعومة إغفاءتك.

---

(١٣) Lincoln Tunel

(١٤) New Jersey

- أنت هكذا دائما. ألم يكن من الأفضل لنا أن ننام بما فيه الكفاية ثم نخرج بعد ذلك؟ مرتفعات هودسون أو نيوجيرسي تظل في مكانها ولن تهرب. ما أزال أشعر كأن شيئا يثقل عيني ويجبرني على النوم.

- من أراد أن يربح الوقت فعليه أن يتعلم كيف يضحي بقليل من نومه، مخطئ؟

قال جاز مازحا ومستفزا لميترا:

- لا. معك حق. أمي ستكون سعيدة جدا. لم نزرها معا، منذ مدة، مع أنها ما تزال بعقلية شرقية، تريد أن نحط الرحال عندها كلما كان ذلك ممكنا. أفهمها جيدا، لم تجد نفسها في المحيط الإيراني الصعب. الشرقي يراقب الغير أكثر مما يراقب نفسه. وبهذه الطريقة لا أحد ينفذ من صرامة الرقابة، حتى الذي يراقب. أمي تشعر بالمسار الخاطئ الذي تحكم في حياتها، ولكنها تعرف جيدا أنه فرض عليها ولم تختره أبدا.

عندما خرجت السيارة من النفق، دخلت مباشرة في نيوجيرسي. شيئا فشيئا، بدأت تتسلق شارعا رئيسيا ثم صعدت أكثر باتجاه مرتفعات هودسون عن طريق كندي ميموريال بولفار[١٥] الذي يفضي إلى أعالي هودسون وهضابه المترامية الأطراف، على الحواف المائية الكثيرة.

- هل تعرف بأني كنت أقطع كل هذه المسافات لأتبع معلمتي كيللي لدراسة الموسيقى، كل صباح تقريبا، من نيوجيرسي إلى مانهاتن حتى حفظت كل تفاصيل الطريق؟ كنت مولعة بعزفها، وارتبطت بها أكثر من ارتباطي بأمي.

- جميل أنك ما زلتِ تحفظين كل شيء عن أساتذتك ولم تنسي شيئا، كما يفعل التلاميذ الأشقياء مثلي.

- أنا جادة يا جاز. أمي كانت تريدني أن أتعلم البيانو مثل بقية الأهل الذين استقروا في أمريكا وكنا نزورهم. ولكنهم كلهم كانوا من

---

(١٥) Kennedy Memorial Blvd

عائلات الشاه أو من خدمتها. لم يكن يعجبني نظامهم. اختاروا حياة لم تكن جميلة بالنسبة إليَّ. البورجوازية التي نقلت معها نقود البلاد، كانت معقدة ومرتبكة في خياراتها بعد هزيمتها. أمي قضت وقتا كبيرا تشتغل في هذه البيوت الفارهة، التي تربي الكلاب وترمي نصف أكلها في الزبالة. أمي كانت حساسة ولم تكن قادرة على تحمل هذه الأوضاع أبدا. عندما أسألها عما يشغلها، تبكي وتنصحني فقط بضرورة التعلم والنظر دوما إلى الأمام. قلت لها: إن النظر إلى الأمام دوما يعمي أحيانا، من كثرة مواجهة الشمس. ترد بحكمة وبحزن: عمى الشمس ولا ظلمة الفقر. كانت تقول لي إنها تعمل داخل هذه الشروط الصعبة فقط لتكون وفية قدر المستطاع لذكرى والدي. ولهذا أول ما استلمت راتبها، في اليوم الأول، اشترت لي بيانو لأكون مثل الآخرين. تعلمت العزف عليه ولكني سرعان ما تركته. بصراحة لم أجد نفسي في هذه الآلة التي كانت تبدو لي ثقيلة وبورجوازية.

ابتسم جاز.

- لم أكن أعرف أن للبورجوازية وحدها الحق في البيانو؟

- المسألة أعقد من سخريتك. في أعماقي رفضت البيانو لأني كنت أشعر أنه لا علاقة له بذكرى والدي. ولهذا ركضت وراء كيللي حتى مدرستها الفنية، وفضلها كبير في كل ما حدث لي من أشياء جميلة ورائعة.

- عنيدة!

- بالضبط. عندما أصمم على فعل شيء، لا شيء يقف في طريقي، ولا أستسلم أبدا للعوائق والصعوبات. يا الله، قل لي أين ستأخذنا أيها الدليل الطيب؟

- تسألينني؟ من الذي دعا الآخر؟ طيب... ها هو ذا البرنامج... نذهب إلى مرتفعات هودسون ونتوقف هناك بستور كينغ آرت سنتر[١٦]

---

(١٦) Storm King Art Center

على الضفة الغربية. نقضي اليوم بكامله في الحدائق الجميلة. نرتاح. فقد حجزت لليوم بكامله على حواف نهر هودسون. في المساء نعود إلى أمك في نيوجيرسي، لنقضي الليلة عندها كما اقترحتِ. بيني وبين نيو جرزي وأعالي هودسون مدة طويلة. وأحتاج إلى قليل من الوقت لكي أفرغ مخي من تفاصيل التعب وبدء التفكير للدخول في المشروع بذهنية أكثر صفاء. أتساءل أحيانا كيف يسلم البشر في كل هذه الدهشة التي من الصعب أن توجد في مكان آخر. كل شيء يعبر الجسم بقوة مثل الشعاع ويفتح شهية الدخول في عمق الحياة وعدم البقاء على أطرافها الميتة. كنت تتحدثين عن أمك الطيبة، انظري مثلا أنا. . . .

عندما التفت نحوها، وجدها تغط في نوم عميق مثل الطفل، فلم يوقظها وواصل تسلقه باتجاه الأعالي.

كان اليوم جميلا بالأعالي ولكن النوم الناقص حرم ميترا من التمتع بالألوان وعطر المكان. نقص النوم يعطل النظر وحاسة الشم يا حبيبي. قالت ميترا وهي تحاول أن تتهالك على صدره:

عندما عادا مساء من رحلة مرتفعات هودسون باتجاه بيت السيدة فرح، مدت ميترا رأسها على الفراش وتركت نفسها تتدحرج في عمق الحالة التي اشتهتها: أن تتمدد، تغمض عينيها على ضوء الحديقة المتسرب من النوافذ العالية والباب الزجاجي الواسع الذي ينفتح على الأشجار والزهور، وتحلم بلا توقف.

كانت تدندن على إيقاعات الكمان التي ظلت برأسها حتى إنطفأ كل شيء وتحول إلى آلاف الألوان المتداخلة.

عندما انتبه جاز لميترا، كانت قد نامت على صدره مثل طفل وديع وانتشر شعرها الناعم على صدره كشلال من النور. انسل بدون أن يوقظها واضعا رأسها على الوسادة ثم تسلل على رؤوس أصابعه نحو السيدة فرح التي كانت ما تزال منهمكة في ترتيب الصالون.

- أنا كذلك هجرني النوم. كيف كانت الرحلة في أعالي نهر هودسون؟

- ساحرة إلى أكبر حد يا ماما فرح. يجب أن أشكر ميترا فقد منحتني فرصة لا يمكن تعويضها أبدا. لنقل شجعتني وأخرجتني من ضيق الأمكنة في مانهاتن. ارتحت مثلما لم أرتح أبدا وامتلأت بالألوان وروائح الماء التي كاد الحبر الصيني، الذي أكتب به، أن ينسيني إياها. وجئنا لنبيت هنا كما وعدناك، بدل قضاء الليلة في الأعالي. لا شيء يوازي هذا البيت الجميل يا ماما فرح.

- طبعا كنت سأغضب منكما لو فعلتما غير ذلك. الآن كنت أفكر فيك وفي ميترا. كنت سأناديكما لشرب شاي ولكن يبدو أن ميترا لم تغير شيئا من عادتها القديمة، النوم هو معصيتها الكبرى، لا تقاومه أبدا.

- جولة اليوم أتعبتها ولم تنم بالشكل الكافي. تعبت كثيرا في الأيام الأخيرة من كثرة العمل.

ثم انتبه للبيانو في الركن الأيمن من الصالون. بحركة لاشعورية اقترب منه.

- بيانو ميترا؟ لم يكن في هذا المكان سابقا.

- نعم. يوه... قصته طويلة، في كل مرة أغير مكانه خوفا من كسره. الأصدقاء الذين يمرون كثيرون، والأيادي الطويلة لا تحصى كما تعرف، وهو عزيز علي وأريد الحفاظ عليه وإن كانت ميترا لا تحب هذه الآلة التي أكلت الكثير من لحمي. في الركن لا أحد يلمسه خصوصا إذا وضعت عليه غطاءه.

وضعت السيدة فرح الصينية على الطاولة الصغيرة بالقرب من المدفأة التي دفعت داخلها ببعض الأخشاب ثم جلست نهائيا وهي تنظر إلى البيانو.

قال جاز متسائلا:

- بيانو ميترا مهم إلى هذه الدرجة؟ أعرف أنك أنت التي اشتريته لها بأول راتب وهي تحفظ هذا جيدا. تردد ذلك دائما كلما جاء الحديث عن البيانو وعنك.

- في الأول كان يحتل صدر الصالون وكنت أجد لذة كبيرة أن أسمع من يعزف عليه ولكن الأيادي كثرت وخفت من كسره، بصراحة. وضعته هناك حتى يصبح في معزل عن الأيدي. أخاف أن يلمسه شخص آخر، ربما كنت الوحيدة التي تشعر بحميميته الكبيرة. رؤيته اليومية تورثني إحساسا بالراحة الكبيرة وبوجود ميترا الدائم. مع ذلك، فهو يذكرني دوما بذلك اليوم الذي صممت فيه أن أشتري هذا البيانو لابنتي حتى لا تشعر بالدونية أمام الآخرين. كان الزمن صعبا ولم يكن محيط المنفيين الإيرانيين في نيوجيرسي سهلا. في البداية تعلمت العزف عليه وهي صغيرة وإن كانت قد تركته فيما بعد. كان شيء ما ينقصها، الإحساس به. كنت دائما أقول لها: عليك أن تحفظي حرفة التروبادور الجوال، مجنون السنطور. تعلمت البيانو على الرغم من تحسسها منه، وكانت تدعى للعزف في سهرات المعارضة الإيرانية التي كان يقرأ فيها شعر والدها ولكن بعدها شجعتها على الخروج من ذلك العالم لأنه كان سيدخلها في دائرة سياسية ضيقة. كان والدها المعلم شيرازي، هكذا كان ينادى، قبل أن تأتي ميترا إلى الدنيا، ينتظر أن يأتي مولوده بسرعة ليلعمه العزف على السنطور ويمنحه الإحساس به لأنه يطهر الروح ويمنح الذاكرة فسحة من الخيال والفرح. ولكن شيرازي ذهب قبل أن يرى أي شيء. عندما مات في السجن، تحت التعذيب، كما قيل لنا، كانت ميترا ما تزال صغيرة. لا أريد أن أكسر رأسك بقصص سبق أن رويتها لك قبل هذه الفترة، لكننا أحيانا نردد الحكايات لأن رغبة العيش فيها تستيقظ فينا بشكل دائم. الحاجة إلى إفراغ القلب تسكننا، ثم إننا نتصور أننا نكرر الأشياء ولكننا لا نكررها أبدا لأننا في كل مرة نفتح خزانة جديدة من خزانات الذاكرة المغلقة. ومع ذلك، لا أدري لماذا كلما رأيتك شعرت بالحاجة لتذكيرك بشيء مهم وهو أن تضع ميترا في عينيك. فهي لا تعرف شيئا آخر سوى الموسيقى ومحبة الناس.

- أعرف ذلك يا ماما فرح. ميترا وضعتها في القلب وأغلقت عليها وانتهى الأمر. أكثر من ذلك. . . لم تنتظر إذني بحبها، فقد دخلت

القلب والعينين وأغلقت على نفسها هناك بإحكام. هكذا ميترا، مثل الشعاع الدافئ، لا نقاوم نوره ولا ألقه الدائم.

ابتسمت السيدة فرح وهي تحاول عبثا أن تخبئ سعادة برقت في عينيها بقوة.

- في كل يوم أصلي لكما ليحفظكما الله ويمنحكما من نوره وخيره. أنت تعرف لماذا قلت لك هذا. نعيش زمنا صعبا. قد لا تحسون به إلا في الصدمات العنيفة، لكن جيلي يحس به كثيرا. كلما حدث حادث مؤذ، وراءه شخص فيه رائحة من روائحنا، شعرنا بعمق المسؤولية تجاه الآخرين الذين لا يدرون أبدا أننا نحن كذلك كنا ضحايا هذه الآلات البدائية. لا يمكنك ألا تفكر في الموضوع وتغمض عينيك وكأنه لم يحدث أبدا؟ لا أحد في منأى عن هذه الحماقات. ما علاقتك مثلا أنت أو ميترا حتى يلصق بكما وبغيركما جنون بشر آخرين؟ أشعر كأن العالم صار ضيقا إلى أقصى الحدود. ولهذا أتمنى من القلب أن يحفظكما الله من أي مكروه فأنتما لا تحملان شيئا سوى المحبة للآخرين.

- أنا كذلك يا ماما فرح أشعر بعجز كبير. كل ما تقولينه صحيح. هذه أرضي ولم أعرف أرضا أخرى غيرها. لي فيها من الحقوق مثل غيري بقدر ما لي فيها من الواجبات. ومع ذلك أتذكر دائما كلام أمي: البشر هكذا، كلما كان المستوى ضعيفا والبصيرة ضيقة، زادوا تعنتا وحقدا تجاه الآخرين وتجاه أنفسهم. عندما أرى أصدقاء في محيطنا يقاتلون ضد هذا التسطيح والغباء أشعر بعجزي وأقول في نفسي يجب ألا ننحني لآلية البؤس المنظم. عذرا ماما فرح كنت تريدين الحديث عن بيانو ميترا وأنا أبعدتك عن الموضوع.

- نحن في صلب قضية نحملها على ظهرنا ولا مسؤولية لنا فيها. هل لأن أول من صور حرق البرجين التوأمين كان من نيوجيرسي، علينا أن نحرق نيوجيرسي بكاملها؟ حماقة ولا شيء آخر. على كل... خليها على الله... البيانو؟ قصة طويلة. هل تعرف ماذا يعني أن تقبل أن تجوع

مقابل أن تسعد أبناءك؟ ميترا تعلمت بشكل جيد في مدرسة خاصة ولا أدري ما الذي قادها نحو الكمان؟ لا يوجد في العائلة من سلك هذا المسلك. في مساء من المساءات الشتوية، أبكتني ميترا من حيث لا تدري. سألتني وبدون سابق إنذار: كيف كان لون سانتور والدي؟ أجبت بارتباك ظاهر لأني لم أكن أنتظر منها ذلك: لونه كان من لون خشب أصفهان ونعومة قمح ضواحي طهران في أواخر الربيع، ومرتفعات الجبال التي تحتضن المدينة ولون الأرض وسفوح الروابي. لم يكن لدي ما أعرف به اللون إلا ذاكرتي. ثم سألتني: طيب، وكيف كان لون خشب إصفهان، وقمح ضواحي طهران وجبالها؟ أدركت لحظتها أني كنت أرتكب جناية غير محسوبة وأعمِّق فيها هوة الفقدان. هي لم تر طهران أبدا إلا بعيون طفلة صغيرة، فلا تعرف طبيعة صباحات أصفهان. فأعدت التعريف بأشياء أبسط كانت تحيط بنا في حياتنا اليومية. بدأت تذهب عند السيدة كيللي، تعلمها وتسهر عليها لأني كنت أشتغل في بيوتات الأغنياء من ضباط ومسؤولين إيرانيين سابقين، اضطروا إلى ترك البلاد عندما استولى الخميني بحاشيته الدينية على السلطة. سألتني يوما ميترا ونحن على طاولة العشاء سؤالا هزني. ولم أستطع بعدها أن أبلع أية لقمة، فقد انسد كل شيء في: وهل كان بابا يعزف على البيانو؟ قلت لها: لا، أبدا، لم يكن البيانو آلة معلم شيرازي ولكن البيانو كان آلة البورجوازيين، ونحن كنا نعيش متواضعين. البيانو ثقيل وهو تعود أن يرحل بآلته في يده، وعندما يغضب من جلسة طرب يكون قد دعي إليها للعزف وقراءة أشعاره، ينسحب. يأخذ آلته ويعود في ساعة متأخرة من الليل. يظل يوميا ينظف فيها وينقيها من كل الشوائب. ذات يوم قالت لي ميترا: ماما فرح، لقد عثرت على ما يشبه السنطور؟ ضحكت وقلت لها: يا ابنتي أنت في أمريكا والسنطور لا يوجد إلا في إيران. صوته يسمع من القلب وداخل في عمق الصمت وليس داخل الضجيج الذي تعيشون فيه اليوم، ويمشي مع سحر الكلام والشعر أو ما يشبه الشعر؟ قالت وجدته وأنا سعيدة بذلك وسأفاجئك به يوما. وأصرت على أنها وجدته عند

السيدة كيللي وأنها بدءا من اليوم ستتعلم العزف على السنطور الذي تشتهيه، إضافة إلى البيانو. وذات يوم عادت إلى البيت هي ومدام كيللي وفي يدها كيس صغير. كانت تباشير السعادة تملأ وجهها. قلت وأنا أمزح: هذه أكيد هدية لماما فرح؟ قالت: هدية كبيرة. لقد صرت مثل والدي معلم شيرازي. أستطيع عندما أكبر أن أحمل سانتوري مثلما أشاء واقرأ الشعر والموسيقى، ثم أخرجت الكمان ذا الخشب الغامق، وبدأت تعزف عزفا شعرت فيه بشيء مني يتهاوى ويقذف بي بعيدا نحو منجرفات لم أعد منها إلا بصعوبة. كيف عرفت أن تستعيد شيئا كان مدفونا في؟ يومها أدركت أن ميترا ستذهب بعيدا في خياراتها لأن ما حدث لها يكن وليد الصدفة ولكنه نابع من إحساس عميق وغامض.

- ميترا اليوم من أحسن عازفات الفرقة الفيلارمونية لبروكلين ونيويورك كلها وأنا متأكد من أنها ستذهب إلى أبعد من ذلك. قد نجدها يوما في فرقة من فرق مانهاتن العظيمة؟ من يدري؟

- تصور، ليلتها عزفتْ ولم تتوقف مدة أكثر من ساعة. وعندما سألتها من أين جاءها كل هذا؟ لم تجبني ولكنها نظرت إلى مدام كيللي، وهي التي أجابتني بلا أدنى تردد:

«- مدام فرح، ابنتك اختارت ما سمته سانتورا وتحمست له. دُهشت فجأة في قوة تعلمها السريع. إلى اليوم لم أر شخصا يتعامل مع الكمان وكأنه يتعامل مع لعبة يعرفها جيدا. وكل الربتوار الذي اقترحته عليها، عزفته بلا صعوبات تذكر. عرفت أنه من العبث الإصرار على تعليمها البيانو ولو أنها لم تقطع علاقتها به ولكنه أكسسوار زائد، فأصابعها ترتاح أكثر لما اقتنعت أنه يشبه آلة معلم شيرازي.

- ولكن يا مدام كيللي، هي في أمريكا والمفروض أن البيانو يفتح أمامها آفاقا حياتية أكثر؟ ماذا ستفعل بآلة صغيرة مثل الكمان، هناك الآلاف مثلها في أمريكا ولن تجد طريقها أبدا.

- هذه قصة أخرى. أنا على يقين من أن ميترا لا تشبه أحدا في

أحاسيسها. فهي تعزف وكأنها تعير أصابعها لوالدها لكي تواصل من اللحظة التي توقف عندها ولم يتح فرصة لقول ما كان يملأ قلبه. أنا أعرف جيدا ميترا واعرف ماذا تريد بالفعل.»

حزنت، لأني أدركت أني أخطأت فيما اخترته لها. كنت أريدها ألا تحس بالنقص أمام أبناء البورجوازيين الإيرانيين الذين كان الكثير منهم يصادقونها ويحضرون عزفها عندما تقرأ أشعار والدها في الأمسيات التي كانت تقيمها المعارضة. ولكن نفورا تشكل لديها مع الوقت لأنها أحست، كما كانت كيللي تقول، أن البيانو كان يبعدها عن مصدرها الأول الذي كانت تريد أن تشبهه. استسلمت بشكل نهائي لما أحبته. خفت حقيقة على البيانو أن يموت في الزاوية التي وضع فيها بعيدا عن الأنظار، وقد يأتي بعدنا من يبيعه في الأسواق الرخيصة. كان هذا البيانو غاليا علي لأني جعت مدة طويلة لكي أشتريه لها. ومن حيث لا أدري، ورَّثت ابنتي هما آخر وتمزقا جديدا وشعلة لا أدري كيف ستتمكن من التحكم في حرائقها. أنا أعرف أن الغربة مثل الفيروس عندما ينغرس يصبح من الصعب الهرب منه. نتآلف معه فقط ولا ننسى أبدا.

- تذكرينني بأحاسيس أمي يا ماما فرح. يبدو أن للغربة عمقا واحدا يجعل من تفادي هذا الإحساس أمرا مستحيلا أو على الأقل صعبا.

- مثلنا جميعا، كان لمايا جرحها الكبير. نقضي العمر كله في رتقه ولكنه ينفتح في المكان الذي ننتظره فيه أقل. الذاكرة مثل هذه البحيرة التي نرتاح اليوم على حوافها، هادئة في سطحها ولكنك عندما تعرف لغتها، ستدرك التمزق العنيف والانحدارات التي مرت بها لكي تصير على ما هي عليه اليوم بجمالها وهدوئها، وكم يوجد في عمقها من بشر ماتوا على أطرافها وفيها. جيد أن الذاكرة تجمع وتخبئ في خاناتها العميقة ولا تسرب الأشياء القاسية إلا بالتقسيط. بحيرة هودسون، لم تولد هكذا. اسألها بحسك الداخلي وستكتشف أن ما بها وما يتحرك في عمقها، يشبهنا تماما، وما بداخلها لا سلطان لنا عليه.

- كلامك كله حنين ماما فرح. ميترا عرفت كيف تزاوج بين

إحساسها العميق تجاه والدها وتجاه نفسها. أتمنى أن ينجح مشروعنا الكبير، أنا متأكد من أن مكانتها ستزداد كثيرا، لأن كل السيمفونية مبنية على حركات أصابعها. من هذه الناحية، أنا مطمئن تماما.

لم تنتبه السيدة فرح وهي تحكي عن شجونها، وعن خروجها من أرضها الأولى التي دفنت جرحها في القلب منذ أكثر من عشرين سنة، وعن رحلتها القاسية وعن مقتل زوجها الذي ظل ينشد أشعاره الممنوعة والحبل يوضع حول رقبته بدون أن يتوقف عن القهقهة عاليا، إلا عندما دقت الساعة الحائطية القديمة العاشرة ليلا. شعرت السيدة فرح أنها اخترقت طقسها الذي يدفعها نحو الفراش في وقت مبكر ولا تشرب الشاي ليلا إلا في الحالات الاستثنائية عندما تكون نهاية الأسبوع وخاطرها مفتوح على ذلك مثل الليلة. اعتذرت ثم سارت نحو فراشها.

- أعتذر حبيبي جاز. يبدو ذبابة تسي تسي التي لدغت ميترا قد وصلت إلي. ليلتك سعيدة.

- ألا يزعجك إذا عزفت على البيانو، أريد أن أسجل ما ألفته اليوم في مرتفعات هودسون.

- تقدم لهذا البيانو المسكين خدمة جليلة. ستزرع فيه الحياة هو الذي لا تلمسه يد غير أصابعك أو أصابع ميترا. هو لا يحيا إلا بمروركما على نيوجيرسي. أنت تعرف أن غرفتي في أعمق زاوية، فلن أسمع شيئا. تصبح على خير.

- وأنت كذلك يا ماما فرح.

شعر بنسمة برد لم يعلم مصدرها. تدحرج نحو ميترا. كانت شبه عارية، تغط في نوم عميق. غطاها، فتكمشت في مكانها كالقطة ثم استكانت من جديد. أطفأ الأضواء. جلس على كرسي البيانو الثقيل، في الزاوية المنفتحة على الحديقة. عاوده الدفء من جديد. كانت المدفأة تشتعل عاكسة ألوان شعلات اللهب على سطح البيانو الذي مد يده نحو غطائه الخشبي. رفعه بتأن وهدوء كمن يمد يده إلى شيء هش يخاف عليه من الكسر. بدا حزينا ووحيدا ينتظر من يحركه من غفوته الطويلة.

رتب أوراقه أمامه. كانت مليئة بالأشكال المتراصة فوق بعضها بعضا داخل خطوط كان هو الوحيد الذي يعرف معانيها.

وضع أصابعه على ملامس البيانو ثم رفع رأسه عاليا قبل أن يبدأ. لم ير شيئا سوى ضبابة بنفسجية غلفته عن آخره فانحدر في عمقها وترك نفسه يتمادى فيها.

أحس بآثار أنامل ميترا الصغيرة تنام على ملامس البيانو. تحسسها. شعر بحرارة الطفولة والأسرار الصغيرة تخرج منها. رأى ميترا بألبستها الطفولية التي تحمل آلاف الألوان وهي تبحث بعينيها الحادتين عن موقع النوتة، تحت رقابة مدام كيللي ذات العينين الصغيرتين كعيني ديك، كلما أخطأت، خافت من ملاحظاتها القاسية وعضت على شفتيها. تنظر نحو ميترا بحدة لتنبيهها بالخلل، فتعاود العزف من جديد وهذه المرة بشكل أحسن. ثم وهي ترفع أصبعها الآخر وتبحث عن النوتة الثانية مندهشة من النغمة الجميلة التي خرجت من عمق البيانو بسرعة وبلا رقابة.

تحسس جاز من جديد بأصابعه سطح كل النوتات كمن يلمس شيئا ثمينا يخاف عليه من الكسر أوالتلف. استقام بظهره كعادته قبل أن يبدأ العزف. جاءه هدير الخارج الذي بدا واضحا من وراء الباب الزجاجي الذي ينفتح مباشرة على حديقة البيت. تناهى إلى مسمعه صوت البحر وتكسر موجه يأتيه من بعيد. سمع الريح وهسهسة الأشجار العملاقة المحيطة بالدار وهي تنحني على النافذة قبل أن تقوم. تبدو كأنها تلاعب الرياح في بال موسيقي لا حدود لعنفوانه، تسير حيث يسير قبل أن تعود إلى وضعها الأول. ليست الرياح الموسمية القادمة من القطب الشمالي الباردة والتي تمسح كل شيء في طريقها. رياح فصل الشتاء أو غسالة الطرقات ومنظفة الأسطح، التي تهب في وقت متأخر على أعالي نيوجيرسي وبحيرة هودسون في مثل هذا الفصل الذي تكثر رياحه وأمطاره.

أغمض عينيه من جديد. أحس بخيط رقيق يشبه النور يخترقه بقوة مضيئا كل شيء فيه. ثم ترك نفسه يغرق في تفاصيل الهزات التي كان

يحدثها البريلود في أولى حركاته، مصحوبة ببداية صوت رياح كان يأتي من بعيد، لم يكن يراها أو يحس بها إلا خلال من انحناءات الأشجار التي كانت تقاوم باستماتة وتحاول أن تظل واقفة، من وراء النافذة الواسعة التي تنفتح على الحديقة.

-٢-

شيئا فشيئا كان يتمادى في شيء شعر بقوة بلذته ونعومة ملمسه.

عندما تقاطعت أصابعه العشرة على ملامس البيانو المتفضة، كانت حالة التوتر التي قد استقرت من جديد مصحوبة بإيقاعات سرعان ما انحدرت من عنفها نحو نعومة ظاهرة تجلت من ورائها زرقة بحيرة هودسون وواديها الكبير الذي ينزل من أعالي الجبال ليرتمي في المحيط الأطلسي ويغيب نهائيا وسط أمواجه ويندفن وسط قلقه وحيرته. الأصوات الأولى التي انبعثت في البداية كانت مفخمة وحادة. لم يكن يبحث عن ذلك. لم يدون شيئا على الورقة التي وضعها على يمينه. ظلت بيضاء مثل الحلم، على الرغم من تمتمته بشفتيه اليابستين للمقطوعة التي ظلت بداخله. التفت نحو وريقات مسودات مرتفعات هودسون. تأملها. بدت له النوتات النملية الصغيرة تتراقص وتتسابق كالحشرات الصغيرة المليئة بالحياة. شيئا فشيئا بدأ يغيب وينسى كل ما كان يحيط به. بدأت الإيقاعات تنزلق أمامه واضحة ومليئة، وبدا كأنه يعزف مقطوعة يعرفها جيدا كانت قد استقرت في رأسه. كانت تأتي من عمق الأشجار وما رآه في غفوته الغريبة وهو في مرتفعات هودسون. صحَّح قياسات النوتات الأولى التي بدت له دون امتداداتها الطبيعية ودون زمنها الذي افترضه في ذهنه. أعاد رسمها وعزفها من جديد. بدا له كل شيء ينزلق بنعومة كبيرة. رأى المياه وهي تنزل من الأعالي في غمرة خضرة ربيعية وزرقة بحرية لم يمتلك إلا أن ترك نفسه تغوص في أناشيدها السحرية. كانت تتهادى من مرتفعات هودسون لتموت نهائيا في

عمق المحيط وتذوب في مياهه الصاخبة المتمزقة. دندن بفمه متتبعا ذلك بحركة أنامله ثم توقف لحظة. دوّن على الورقة التدقيقات التي حددها على البيانو ثم كتب على رأسها عنوانا: **همس على بحيرة هودسون**.

«هو بالضبط، العنوان المناسب لهذه الهزة الداخلية.»

تمتم جاز وهو في غفوته وخدره الذي حسَّسه ببداية دخوله في عالم لم يكن إلا تفاصيل منهكة وممزقة. شيء ما في هذا النهر الطويل المتمادي في غيه وسحره، لا يموت؟ كم من الأقوام مرت عليه وما يزال هو، هو على الرغم من الموت والحرائق التي أكلت كل شيء. رأى كيف ضاق النهر حتى صار خيطا رقيقا قبل أن أن يتحول في المنتهى إلى بحيرة قسمت نيويورك إلى ضفتين. صعودا، بعد أميال، تتحول البحيرة، إلى واد تتنفس منه ضواحي نيويوك ونيوجيرسي. شريط الحياة، يبدأ مدخله من ويستشيستر كونتي[17] التي تسمى كذلك جولدن إيبل[18] التفاحة الذهبية، في شمال مانهاتن. منبعه يأتي من مرتفعات إيدروندكيس[19]، منحدرا باتجاه الأراضي المنخفضة ممزقا ولاية نيويورك وينتهي في المحيط بعد أن يقطع رحلة خمسمئة كم. رحلة النهر الطويلة والعصيبة منحت الفنانين متعة كبيرة في الإبداع والخلق. خلدها رسامو مدرسة هودسون الفنية الذين وقعوا تحت سلطان جماله ووقع إدهاشه. هي نفسها الأعمال التي سحرت مايا وتركت آثارها في لوحاتها. كانت مايا مولعة بها ومأخوذة بتفاصيل ألوانها ولمساتها السحرية. كلما وقفت أمام أعمالهم شعرت بالرعشة تأخذها من أخمص القدم حتى شعرة الرأس. جاءته كلمات مايا صافية ودافئة وهي تقف مشدوهة أمام الألوان التي كانت تتداخل وتنفصل في إيقاعية لا حدود لها.

«- هل رأيت يا جاز كل هذه الأحاسيس القوية؟ تصور، كيف

---

(١٧) Westchester County

(١٨) Golden Apple

(١٩) Adirondacks

يعطي نهر هودسون الحياة ليس للطبيعة وحدها ولكن للناس الذين يملكون حساسية مفرطة، هؤلاء الفنانون المثاليون وعشاق الطبيعة والحياة جسدوا بلوحاتهم هذا العالم البكر الذي نفذ من أيدي البشر المدمرة، منذ ١٨٢٠. عالم من السحر والدهشة، يسبح في نور مذهل، يكاد أن يكون افتراضيا من كثرة جماله وعنفوانه، كأن يدا عالية حاولت إتقانه ولا يمكن للإنسان إلا أن ينحني أمامها إجلالا. طوماس كول، طوماس داوتي، فريديريك تشورش وبراون ديورن والفرنسي كلاود جيللي[٢٠] الذي ظل تحت التأثيرات الأوروبية وجاسبر فرنسيس كروزبي، كل واحد امتلأ بأنوار وألوان نهر هودسون على طريقته. هل تدري حبيبي أن نشاط مدرسة هودسون استمر حتى ١٨٧٥ قبل أن يستلهم روحها جيل آخر. تشورش أضاف للمسته السحرية الفنية المعروفة، غنائية ووطنية خاصة لم تكن من اهتمامات هذه المدرسة. تصور؟ من شدة حبهم للمكان، اختار الكثير منهم أن يقيم على حواف النهر؟

- كيف عاشوا في هذه الهضاب غير المستقرة والمعرضة باستمرار للعواصف والفيضانات.

- عندما نحب الشيء، لا يبقى إلا الإشراق والألق المضيء والأنوار المشعة، وتنطفئ كل المصاعب. هم كانوا هكذا، كوَّنوا مدرستهم وعاشوها كما اشتهوها. شيء من الجنون كان يطبع خياراتهم.»

بدا وجه مايا دافئا، ممتلئا رقة وحنانا وهي تشرح له تفاصيل معرفتها الفنية. كان يتأمل وجهها على الرغم من المرض الذي كان يسكن عينيها وكانت ترفض أن تنصاع له. يعرف المدرسة ولكنه لم يكن يعرف كل التفاصيل التي كانت تملأ مايا.

خف ثقل الأشياء فجأة. بدأت ملامح الإيقاعات تزداد عمقا. مد

---

(٢٠) Thomas Cole, Thomas Doughty, Frederic Church, Brown Durand, Claude Gellée et Jasper Francis Crospey.

يده إلى الورقة البيضاء ليسجل الإيقاعات الجديدة المصححة والمنقحة مع الامتدادات والأزمنة التي اختارها لها. رددها من جديد حتى استقامت في ذهنه وبين أنامله. كانت نغمات مسالمة وناعمة كما تخيلها في رأسه في المرة الأولى، ثم تصور انزلاقاها المختلفة على البيانو وبين أنامل ميترا. مرر أصابعه على الملامس البيضاء والسوداء من جديد. كانت الإيقاعات تتهاوى مثل أوراق خريفية بين يديه، في عمق لذة موسيقية نادرة متدحرجة بين الحدة والغيبوبة التي ينتفي فيها الصوت بهدوء حتى يغيب نهائيا تاركا المكان لصوت جماعي كان ينبعث من الآلات النفخية الأخرى التي تدعم الخلفية. يتراجع الكمان قليلا، فاتحا الطريق أمام الكلارينات بحنينها المتمادي. وضع لمسة جديدة على الورقة البيضاء التي بدأت تخترقها الأسطر السوداء ورائحة الحبر الصيني. رأى سطح المياه في كل راحته، وهو يتلون بألوان شروق الشمس وغيابها وتماديها في الغوص أخيرا في أعماق المحيط الذي ينام على وقع حركة أشعتها وهي تتراقص على زرقته. النهر صاف ولا موج فيه إلا الندى المسائي الخفيف الذي كان ينزل عليه بآلاف الألوان وملايين الرقصات. يضغط على ملمسين آخرين في البيانو ثم ثالث مفخم قليلا أفرغ الامتلاءات من حوله، قبل أن يخلفه صوت الكمان متبادلا مواقعه مع الكلارينات.

مرة أخرى يمد يده إلى الورقة التي تراقصت تحت لمبة الضوء المسلطة على ملامس البيانو. عض على رأس قلم الرصاص. سجل سلسلة من النوتات المتداخلة بأنصافها وأرباعها أو كاملة، ثم توقف من جديد عند حدود الميزان الذي اختاره. بدت له سريعة جدا. الريتم مهم. أعاد الإنصات مغمضا عينيه، تاركا أصابعه تنزلق بحرية كأنها سفن شراعية على موج مهدهد. أحس بأن شيئا ما فيها لم يكن منتظما كما اشتهاه.

مرة أخرى يشرب رشفة من كأس الويسكي الذي تراقصت عليه ألوان الانعكاسات، فحالت صفرة لونه الاعتيادية إلى مزيج من البياض وحزمة من الألوان الأخرى لم يستطع ضبطها. شعر بانتشاء خاص.

تزحلقت رؤوس أصابعه في رشاقة تكاد تكون آلية. بدت الأصوات المنبعثة متضخمة ومناسبة للحالة التي انتابته وهو يستعيد الرياح التي حركت باطن نهر هودسون. تأتي موجة تلو أخرى ثم تبدأ العاصفة في التضخم. تنحني الأشجار وينسحبُ الورق منسلا من شجره قبل وقته. زمن بين خريف لا ينسحب وشتاءات تدخل بعنف. تأتي الرياح الباردة التي هبت فجأة في ذاكرته، لم تكن عادية لأنها كانت تكنس كل النعومة التي بدت بها في الأول. يرى السفن. جاءه مشهد الحلم في صورته الكاملة متقطعا بتفصيله الذي لم يكن يدري هل كان يأتي من الخارج أم من عمق البيانو؟ كان هدير السفن التي ظلت تنزل عساكرها قد ذاب في عمق دقات الطبل التي بدأت خفيفة وبعيدة قبل أن تملأ المكان، حادة وتصمُّ الآذان، مصحوبة بحركة الجياد المنتظمة ووشوشة نهر هودسون التي انتفت نهائيا.

يسجل جاز بسرعة النوتات المتضخمة التي توقظ الناس من غفوتهم وتجعل كل الإيقاعات الأخرى تتراجع ولا يبقى في النهاية صوت إلا هي. لا شيء يعلوها. ينغمس من جديد في غفوة تأملية. يشعر بدفء المكان وخرخشة الخشب الذي كان يتآكل في المدفأة في حفلة حرق تشبه الطقس الهندي. ينسى كل شيء إلاَّ يده التي تمتد من حين لآخر، في حركة عفوية، نحو كأس الويسكي. لم يعد يعزف وكأنه كان خائفا من أن تتسرب منه التفاصيل التي استقرت بين أصابعه واستعصت على الخروج.

رأى في لحظة هاربة، الجياد الخشنة وهي تنزل من السفن الثقيلة. كانت ترفس حواف النهر وتنشب حرائقها الكبرى في المشاتي المحيطة والبيوتات الصغيرة. يخرج الناس نصف عراة من مخابئهم. هل هم الهنود الحمر الذين خسروا الدنيا والتربة ولم يخسروا شوقهم الدفين؟ يتفرس وجوههم المرتعشة من البرد والخوف. يرى دم نسائهم الجميلات اللواتي كن ينتظرن عودة العرسان من ملحمة النهر وهن يقصصن شعورهن قبل أن ينزع الخيالة الشماليون الذين نزلوا من السفن الحربية،

جلدة الرأس بشعرها ودمها ويقهقهون فرحا بانتصارهم على مقاومة النساء بعد أن أبيد كل الرجال. يشعر بضيق في تنفسه. ينشف فجأة ريقه. البلل الذي منحه له الويسكي لم يكن كافيا. الحرب والموت يتناوبان المواقع. لا شيء يعلو على صوت الطبل إلا النغمات المنبعثة من الكلارينات وكأنها كانت تأتي من فراغ يشبه الهوة السحيقة. تبدو الكلارينات مغيمة ولكنها حاضرة باهتزازاتها الخفيفة على الرغم من وقع هدير الطبول الحربية الكثيرة.

تتسارع أصابعه نحو الكأس ثم نحو القلم في حركات رتيبة. تعزف وتدون سلسلة من النوتات المتلاحقة ثم تتوقف. وتعود ثانية هذه المرة بشكل متسلسل غير محدود. يصعد اللحن الشجي من جديد، مصحوبا بتناوبات كانت تأتي من الكمان الذي كان يرتعش بين ذراعي ميترا قبل أن يندغم شيئا فشيئا مع بقية الآلات. سيل من الناس الذين كانوا يحاولون اللحاق بالجثث قبل دفنها أو حرقها. نغمات شجية تملأ فراغات السماء وقلوب الراحلين نحو التيه الكبير. أهي الأعراس الموسمية أم الاحتفالات الجنائزية التي تملأ المدى؟

توقف جاز قليلا. الحرارة التي ولدتها الكأس الخامسة قربته من عمق الأشياء التي كانت قبل لحظات تفلت من يديه وتنزلق من بين أصابعه. وضع القلم على الطرف الأيمن من البيانو، بمحاذاة الكأس التي لم تتوقف حركاتها. فجأة شعر بأن الورقة التي كانت بيضاء صارت الآن مليئة بالنوتات التي كانت تركب فوق بعضها بعضا كالنمل. شيء ما كان قد بدأ يرهقه، ربما كانت متاعب اللحظة التي لم يعد له سلطان عليها. عبثا حاول أن يمسح الغشاوة التي نزلت فجأة على عينيه، فغطى بصره كليا. دخل في غفوة لم يحسبها. وجد نفسه مرميا من جديد على حواف الوادي الضخم، في أعالي الجبال. الجياد التي عبرت الوادي بطبولها وبواريد خيالتها ونحنحاتها الهائجة، حفرت بحوافرها الأرض وأوجه الناس الذين لا يحملون شيئا إلا خوفهم وذاكرة معطوبة، وتركت ندوبا لا تمحي. أتاه صليل السفن وهي ترمي سلاسلها الخشنة، عندما بدأ

الضباب ينقشع وينسحب قليلا. شاهد الجند الذين يشبهون القتلة وهم يفتحون أبواب السفن الثقيلة وثم يقهقهون ويدوسون تربة النهر المقدسة. رأى بخارها وأدخنتها المتصاعدة إلى السماء. شاهد رعشة قلوب السكان الأصليين ذوي الألبسة الملونة الذين ينظرون إلى العيون المصوبة نحوهم كبنادق لا ترحم. لم يسمع إلا الأنين وتقطع الأنفاس ورعشة القلوب وهي تتأمل نظرات العسكر الحادة التي علق عليها مصير كل واحد منهم وحياته. يخبئون رؤوسهم ويكتمون أنفسهم القلقة. تمر الأحصنة الأولى بانتظام مخيف مدججة بالحديد والنار، تتبعها فيالق أخرى ثم أخرى وأخرى. تطمس العيون وتشتعل الحرائق وتنتشر ألسنة اللهب على سطح نهر هودسون الذي لم يكن يأبه لما كان يدور فيه وحوله.

لم يمت النهر ولم يغير مجراه أبدا.

كان العرق ينضح من جبهة جاز. تباطأت الإيقاعات قبل أن تجد ريتمها الأساسي في النظام الكلي للمقطوعة. تثاقلت قليلا حركة الأصابع وامَحت الرتابة الأولى والتكرار وبدأ جو من السكينة يسري داخل الإيقاع العام. يئن البيانو مرات عديدة تحت لمسات جاز الجافة قبل أن يتوقف. يمد يده من جديد إلى الحبر الصيني، يدون النوتات التي تغلف السوناتا الأخيرة. كانت الأشجار من وراء النافذة تنحني وتقوم ثم تنحني مرة أخرى ولكن ريحا بحرية مثقلة بالماء والأملاح، تمنعها طويلا من القيام. يسمع من رواء البيانو، أغصانها وهي تقاوم الانكسار والتمزق. يغمض عينيه ويتمادى داخل غيمته ويغيب؛ لا تبقى إلا أصوات النداءات التي كانت تأتي من بعيد. يشعر بآلام الناس الهاربين الذين رآهم يعبرون وادي الرهبة والخوف. وحدها ألسنة النار المشتعلة التي صارت الآن تصل إلى السماوات وتحرق زرقتها، كانت تعلن عن حرب الضفاف، حرب ضروس لا هوادة فيها، كان سيدها البارود والماء والموت والتيه.

«لو كانت ميترا معي الآن بالكمان، لأشعلت النار في مياه بحيرة هودسون.»

تمتم جاز وهو يترك مرة خرى أصابعه تنزلق بسرعة على ملامس

البيانو المرتعشة. رأى الناس يموتون عطشا. الماء سيد الحروب القادمة... أية حرب قادمة؟ تساءل في شجنه؟ هل انتهت الحرب الأولى والثانية والثالثة لتبدأ الحرب القادمة، حرب الماء؟ ما زلنا في حروب لم يُقمِ الناس بعد حدادَها. حروب تتكرر وهزائم تتناوب مع الهزائم والقوي هوَ سيد الحكم والتاريخ. الناس الذين ماتوا كثر، والذين بقوا أحياء ماتوا في عمق التيه والعزلة، فمن يقيم الحِداد على من؟

«لابد أن يكون في العالم شيء يدور حول نفسه مثل ذيل الكلب مخلفا في إثره الفراغات الكبيرة.»

لم يستطع جاز أن يكتم غيظه وأنينه.

زادت حرارة الكأس المرتعشة بين يديه. لون الويسكي بدأ يميل الآن نحو حمرة لم يكن قادرا على لمسها بعينيه ولسانه كما اشتهى دائما. خرجت النوتات هذه المرة مغموسة ومطموسة. شعر بالأحرف والرموز ملونة بدم الحروب وعرق الانكسارات. لم تكن الكتابة سهلة. الرياح في الخارج ما تزال في قوتها الأولى. كان الأموات يتساقطون مثل النمل والأطفال يموتون والنساء يركضن للهرب فيذبحن في الطريق حتى قبل أن يصلن إلى البحر لرمي أنفسهن بين موجه لتفادي السكاكين الحادة.

يكتب جاز بسرعة. تتراكب النوتات فوق بعضها بعضا كالحشرات الدقيقة وتسرح وتتطاير بقوة على الورقة، تتناثر كنثار الضوء تحت نور حاد. تتمزق إلى آلاف الحركات الصغيرة التي يحاول ضبطها واحدة واحدة ولكن العديد منها يفلت منه. يعزف. لا يدوْزن، لا يخفف ولا يقلل من الحركة. يحتفظ بكل شيء على أصله الأول ويسجله كما هو، ببطشه وعطشه وجبروته.

يسجل بالرعشة والسرعة ولا يتساءل إذا كان ما يكتبه له توازن ومنطق أم هو مجرد قطع صغيرة لا رابط لها ومفككة الأواصر. قرر ألا يدخل في هذه الاعتبارات. سيستمع إلى كل شيء في وقته وأوانه. جمال الكتابات الأولى يكمن في نزعتها الباروكية، تمتم وهو يتذكر ملاحظات مايا عن الموسيقى البدائية. يدرك جيدا أن كل شيء سيتضح

فيما بعد. الممارسة تولد الجنون والاندهاش. ارتعشت أصابعه وتداخلت فيما بينها بقوة بدون أن تفقد توازنها الأول. أهي الريح التي تأتي من بعيد بشططها وهديرها؟ أم هو حنين الغياب الذي شد كل آلامه إلى صدره لكيلا يفقد ما تبقى من صوابه؟ أم هو بكل بساطة انحراف الأصابع عندما يجتاحها ألم لا اسم له وشوق تنتفي فيه الحدود؟ الريح. . . دائما الريح. ولكنها ليست هي نفس الريح التي اجتاحته في الغفوة الفاصلة بين رشفة الكأس وانزلاقات الأصابع على ملامس البيانو. هي ذي تمر عبر صوت الكلارينات ثم تندفن في عمق الكونترباس الذي يضخمها ويدفع بها إلى الفضاء الواسع. رماد الشرق. عن أي شرق تتحدث؟ تساءل جاز. لقد انكسرت مدارات قرن بكامله. أغمض عينيه لكيلا يرى شيئا.

«رماد الشرق؟ ياه؟ أين كانت مختبئة هذه الكلمة الساحرة؟».

فتح عينيه أكثر. شعر بالغشاوة قد زالت دفعة واحدة ليترك صرخته المكتومة تخرج:

« O My God ! Eureka... Eureka ! . . . وجدتها وجدتها. . . **رماد الشرق**»

دون العنوان على رأس الورقة.

- لم أعد في حاجة إلى السيمفونية الهجينة. **رماد الشرق**.

كانت السلسة الأولى من النوتات قد استقامت واستقرت. واضحة في كل تعرجاتها وليونتها ونعومتها وتضخماتها وموازينها وأزمنتها الربعية والنصفية والكاملة. وضع قلم الرصاص بين شفتيه وبدأ يحسب على رؤوس أصابعه ومن حين لآخر يضغط على الملمس ويسترق السمع طويلا إلى النوتة في كل أصدائها.

كانت الأشجار التي تمايلت طويلا بفعل الريح، قد استقامت ولم تعد موجات الرياح المتتالية تدفع بها نحو الانحناء. صارت تمشط على رؤوسها وتغسلها بحنان امرأة عاشقة، بينما مياه الأمطار الخفيفة تزيل عنها الأغبرة والأوراق الميتة. شعر بالدفء يسكنه وبشيء من الطمأنينة

يعبر كل جسده. الرياح التي كانت تأتي من نهر هودسون ونزلت قليلا باتجاه الجنوب، صارت دافئة. تمسح الأدخنة من على أوراق الشجرة العملاقة التي تحتل ثلث الحديقة وتغسل سطح البحيرة من غبار الحرائق وزيت السفن القلقة التي حطت الخيول والجيوش وتوغلت بين الفراغات وفجوات الجبال والضفاف حتى غابت نهائيا عن الأنظار. لم تكن رياح النهر القديم إلا هواءات خفيفة أعادت للأشجار خضرتها وللأطفال الألوان التي فقدوها وللأحصنة المقاومة، طيبتها وجرأتها وشعلة عنفوانها الحي.

يتمادى المقطع الأخير في هدوئه، ويتضاءل صوت الطبول الحربية ساحبا في أثره، إيقاعات الكونترباس المضخم. تنداح كل الآلات النفخية بشكل جماعي في مارش عسكري منتظم، لتترك على الواجهة صفاء الكمان الذي احتل المساحة البيضاء بكاملها. يتصاعد حنينه في حميمية هادئة لا شيء يوقف تدفقها إلا النعومة التي كانت تخلفها الأصداء المتأتية من الضفاف المتوحشة لنهر هودسون.

عندما تأمل جاز الكأس، كانت فارغة. منكسرة، كم كأساً شربتُ؟ لم يكن مهما أن يحدد العدد. هو يعرف جيدا أن الحرائق التي اتسعت في القلب لم تكن غريبة عن لونه. ياه؟ من أين يأتي هذا النور الساحر الذي غطى الصالة فجأة وعكس على البيانو ألوان أشعة دافئة تسربت من بين ظلال الحديقة؟ وعندما حمل قلم الرصاص، وسجل إيقاعاته المتبقية، كانت أشعة فجر نيوجيرسي تتسلق البحر والأشجار الصغيرة لتتسرب من بين فروعها خيوط ذهبية لامعة مغسولة من كل أغبرة الليلة السابقة.

وضع قلم الرصاص على الطاولة، وتنهد طويلا كمن خرج من حرب منهكة. كان مخه قد تسطح ولم يعد قادرا على لملمة كل التفاصيل الكثيرة ولا حتى على تذكر ما حدث.

أغلق البيانو بهدوء تام. أطفأ الأضواء ولمبة البيانو. ذابت الصالة في العلامات الأولى لفجر اخترق ثقل الغيوم ليتسرب إلى عمق الدار. وفي

هدوء يشبه الصمت، تمدد بكامل طوله بالقرب من ميترا التي فتحت عينيها قليلا ثم غمغمت:

- حبيبي... أمازلتَ هنا؟ ... ظننت أنك كنت مع البيانو. رأيتك تعزف...

- أنا بجانبك ولم أبرح مكاني...

- حبيبي...

ثم أغمضت عينيها على ابتسامته الأخيرة في ذلك الفجر ووضعت رأسها على صدره من جديد. عادت إلى وضعها الأول كما تركها في الفراش عندما قام ليلتصق بملامس البيانو. كانت مثل عروس بحرية، وديعة وناعمة وقد انساب شعرها الحريري على صدره شلالا من النور والألوان. نامت على ابتسامتها الجميلة وغمغماتها الأخيرة. كأن كل ما حدث طوال الليلة الماضية لم يكن إلا لمحة نور صغيرة انفرجت ثم هربت قبل أن يتمكن جاز وميترا من وضعها في كفيهما، أو قوسا صغيرة انفتحت بنعومة لتنغلق من جديد على وقع تكسر موجات بحر نيوجيرسي التي أصبحت أصداؤها الآن أكثر قربا ووضوحا.

اللّمسة الهاربة

-١-

الثلج.

ميترا، بلباسها الأسود وحزامها الأحمر اللذين يعطيان جسدها ألقا جميلا وحضورا استثنائيا. كانت تتهادى كغيمة في مهب الريح أو كريشة تتصاعد عاليا كما تشتهي حيث لا جدار ولا سماء.

«- هل تراني حبيبي؟ لقد أذابتني لمساتك الناعمة وصرت في عمق كأسك؟ أريدك أن تراني هكذا في أوبرا بروكلين، في البروفا الحية لهذه الليلة.»

الثلج لم يتوقف منذ ليلة البارحة. ما يزال ينزل بهدوء وكثافة، يتدحرج ويتداخل ويلتصق ببعضه بعضا قبل أن ينساب على الأرض في تناسق كبير مع حركة ميترا، وهي تشد على مقبض الكمان بأصابع مرتعشة تهتز لكل الإيقاعات الجميلة. لا شيء سوى الصمت المطبق الذي كان يتردد في الصالة الواسعة مخترقا بأنين يتصاعد عاليا رقيقا وناعما كشعاع شمس ربيعية، قبل أن ينحدر للمرة الأخيرة وتموت أصابع ميترا على الكمان وعلى قصبة جاز التي صنعت دائرتين مفتوحتين في الفراغ قبل أن تعلق كل شيء بشكل جاف.

أحنى جاز رأسه.

أحنت ميترا بدورها رأسها فسبقها شعرها كشلال من الضوء قبل أن تصرخ بأعلى صوتها:

- هوراه. . . أووووف.

عندما انتهت ميترا من أداء البريلود بشكل كامل، وبكل إضافاته الجديدة بدون أدنى خطأ، لم يستطع جاز بدوره أن يكتم السعادة لتي ملأته:

- هكذا. . . برافو. . .هذا هو الطريق الصحيح. لقد وصلنا إلى المعبر النهائي ولا أريد أن نخسر موعدنا العظيم بعد كل ما سمعناه من فيليب وديبوراه من اهتمام متزايد بسيمفونية **رماد الشرق**.

انتبه فجأة إلى أنه عاش هذه اللحظة بالضبط، بنفس القلق والخوف، ذات يوم ولكن بشكل مخالف. لا يريد اليوم أن يتذكرها. لقد حدثت أشياء كثيرة منذ ذلك الزمن. أشياء غيرت ميزانه في الحياة وأعادته إلى بعض التفاصيل التي كانت تمر عادية وهي ليست كذلك. لقد صار كل شيء ناعما وأملس على غير ما كان عليه في السابق حيث رأى في ذلك اليوم الذي صار بعيدا، البرجين التوأمين يتحولان إلى كومة من الرماد والناس يزدادون عماء وضغينة وتستيقظ كل الوحوش النائمة في أعماقهم. رأى كيف سلخ الكثير من الناس جلود الملائكة ليعودوا إلى منبع متوحش كان يظنه انتهى ومات.

قام جاز من وراء البيانو وهو يمسح العرق الدافئ الذي ساح على وجهه بكثافة. لم يستطع أن يخبئ علامات السعادة التي ارتسمت على محياه بشكل بارز. أغمض عينيه. تنفس عميقا حتى يقلل من فرط سعادته التي ضغطت على صدره ورئتيه. ثم التفت من جديد نحو ميترا متفاديا النظر إلى عينيها الحارتين لكيلا يتذكر ذلك اليوم الذي غير ملامحه وأدخله في خواء لم يكن يعرفه:

- أنا سعيد يا ميترا. في قمة السعادة. مثل طفل لا يعرف كيف يعبر عن سعادته إلا بالحماقات الصغيرة التي لا يحسب لها أي حساب. أشعر اليوم كأن كل شيء صار ممكنا ولم أعد بين قوسين، بين طب لم أحبه كثيرا وموسيقى لا تسعفني دائما. بين أم مجنونة بالألوان وأب لا شيء يهمه إلا استنطاق أتربة أقوام انقرضت بعد أن ورَّثته كل ثقل همومها

وأسئلتها التي ظلت معلقة. بي رغبة للتحليق عاليا، لم أعد رهين الأرض القاسية وجاذبيتها المفرطة. الآن صار بإمكاننا أن نحلم وأن نغوص بأحلامنا إلى مداها المجنون.

- جاز حبيبي، أنا سعيدة لفرحك. ومثلك، لا أكتم سعادتي. كل المزالق الصغيرة والمستجدات، صححت وأصبحت جاهزة. أنا قلت لك ألا شيء يستعصى على يد بشرية تفكر وتحب ما تفعل. وأنا لا أحب فقط ما أفعل ولكني مستعدة أن أرمي بكل شيء عرض الحائط مقابل البقاء معك داخل هذه الفقاعة الجميلة التي خلقناها واندسسنا فيها خوفا حتى من الهواء من أن يسرق منا ما صنعناه بشوق وأحيانا بألم كبير.

التفت نحو شوارع نيويورك التي كان الثلج الذي نزل طوال الليلة الماضية قد غطاها وبدأ يمحو بعض معالمها في ليتل-إيطالي. الأشجار تقاوم بصعوبة عريها. دفع جاز ببصره عميقا، في الممرات المتقاطعة مثل لعبة شطرنج. سعادة ما كانت تغمره. كانت المدينة مستكينة في هذا الصباح الباكر على الرغم من هدير سياراتها الذي لا يتوقف أبدا وهي تحاول أن تجد مسالكها وسط البياض المتمادي.

لا شيء إلا الصمت وشمس صباحية لم تجد مسالكها داخل الغيوم الداكنة والثقيلة. في بعد كان يتخفى وراء البنايات العالية، تسمع رعود قوية معلنة عن عواصف وأمطار طوفانية تكنس الشوارع من بياضها ومما علق بأطرافها من أوراق وفضلات وحتى من الوجوه التي تبحث عن دفئها في زوايا المدينة المظلمة.

عندما اقترب من النافذة أكثر، كانت الثلوج تعمي مشهد المدينة. كان يريد أن يرى نيويورك التي اشتهاها والتي ملأته بتفاصيلها الصغيرة، في عمق قطرة مطر أو في ندف الثلج الهارب. نيويورك التي تحتله مثل تفاحة محرمة. حتى عندما يغادرها لأيام أو لساعات، يشعر بها معه، يسمع تقطع أنفاسها مثل عشيقة في لحظة ألقها وعنفوانها. يحزمها معه في ذاكرته وأمتعته. عندما يفتح حقائبه في المدن البعيدة، تسبقه هي بروائحها وعطرها وألوانها وفوضاها الجميلة ونسائها اللاّمباليات بالطقس

وشوارعها التي لا تنتهي وموسيقاها التي تأتي من المخابئ المنسية وتستقر في القلب بدون استئذان.

«شتاء هذه المدينة يدفعني نحو الحلم. مايا كانت امرأة حالمة ويبدو أنها ورثتني كل أشواقها الجميلة، ما تحقق منها وما ظل عالقا. كانت تقول: عندما تبدأ عملا أنهه وإلا فكأنك لم تفعل شيئا وضيعت وقتك هباء. الشيء الذي لم يتم ولم ينجز، غير موجود حتى ولو لم تبق منه إلا اللمسة الأخيرة. مايا كانت على حق. كانت في سباق محموم مع الموت وهي ترسم لوحتها [خريف نيويورك الأخير]. وعندما انتهت منها بمشقة، تأكد لها أن الحياة يمكن أن تبدأ في أية لحظة عند الإنسان: ربما هنا مكمن قوة هذا الكائن حتى عندما يخذله كل شيء بما في ذلك جزء من جسمه.»

عاد جاز نحو ميترا. كانت ما تزال تحاول أن تثبت الكمان تحت الجهة اليسرى بين أسفل ذقنها وعلو كتفها، وتعيد وحدها عزف المدخل الموسيقي.

- سأحاول مرة أخرى. انتبه معي جيدا لكل التفاصيل.

- من حقك أن ترتاحي الآن، لقد تعبتِ. الفرقة استفادت من يوم للراحة من متاعب الأوبرا وأنت تقضين صباحاتك في التدريب؟ تعرفين ما يملأ هذا الكمان؟ إحساسك الكبير. الحب. قلبك. أصابعك المثبتة في مكانها بإحكام ومرونة. منذ أكثر من ساعتين ونحن نبحث عبثا عن الأخطاء الصغيرة، لكن كل شيء استقر نهائيا في مكانه الآن. لا توجد أية زوائد ونستطيع أن نواجه بروفات هذا المساء بثقة كبيرة. أنا مع فكرة ماركو، إذا أردنا أن ننجح، يجب أن نقنع أنفسنا، أن سهرة هذا المساء كأنها العرض الحقيقي.

- أريد أن نعيد البريلود للمرة الأخيرة.

عندما استعدت للمرة الأخيرة باستقامتها المثيرة في لباس الليناج الأسود الملتصق على جسدها، بدت له شامخة وواثقة من نفسها كتمثال يوناني من مرمر صاف يقف بشموخ ظاهر في عمق الساحة العامة.

شفاف إلى أقصى الحدود. لباسها الأسود وحزامها ذو اللون الأحمر الذي يشق خصرها بليونة ولباقة متزاوجا بشكل جيد مع الأسود، عمّقا صفاء وجهها وانشراح ملامحها. أغمض جاز عينيه قليلا. داهمته كل الإيقاعات الجميلة التي سمعها في هذا الصباح. وقف وراءها كما تعود أن يفعل قبل أية بداية. ثم وضع يده من جديد على كمان ميترا التي تجمدت في مكانها تنتظر الإشارة. وجهها الطفولي الهش تجاه الخيبات والهزات الجميلة، عمق بياض عينيها الواسعتين اللتين أغمضتهما شيئا فشيئا كدمية.

- هنا يا ميترا، في هذه النوتة بالضبط التي كانت نقطة ضعفك، صار الآن كل شيء يمر عبرها جميلا وناعما وسلسا. الانسيابية والنعومة، هذا ما كنا نحتاج إليه. هناك فرق بين الرخاوة والدفء الجميل الذي يصحب الافتتاحيات الموسيقية. الانسيابية تدفع بالأذن إلى التنبه والرعشة الجميلة. أريد أن يكون الإيقاع حزينا ولكن حيا كذلك.

ميترا لم تتكلم. كانت ما تزال مثبتة في مكانها كأن كل ثقل الملاحظات نزل على رأسها دفعة واحدة.

مد يده إلى شعرها ثم مرر أصابعه على وجهها وهو يحاول أن يتوازن أكثر ويتمتم في أذنها.

- ميترا، حبيبتي أشعر كأننا نعيش على غيمة. شيء ما غير كل شيء في. ماذا يفعل النجاح في البشر؟ مثله مثل الانكسار، يحدثان فجوة يصعب ملؤها. أشعر بإنهاك كبير. أنت اليوم ناعمة وتركيزك في قمة نتباهه. تخيلي للحظة فقط أوبرا بروكلين غاصة عن آخرها بالبشر. الناس يأتون لكي يروا شيئا جميلا ومريحا. يجب أن يكون موعدهم مع ما تصوروه من جمال في الموعد. لم تعد الموسيقى حاسة سمعية فقط فهي شيء كلي تتضامن فيه كل الحواس. الناس اليوم يحسون الموسيقى مثل الذي يشعر بحلاوة وطراوة ما تحت لسانه؟ النجاح ضمانة في الحياة لأن الفشل في نيويورك معناه وضعك في خانة الفاشلين وينتهي أمرك حتى ولو أنجزت أجمل سيمفونية في الدنيا.

- أنا جاهزة تماما، لنبدأ للمرة الأخيرة. أريد بعد هذا العمل، أن نخرج للسنترال بارك قليلا. اشتقت إلى حديقة أمي، فقد منحتنا أياما جميلة ساعدتنا على تجاوز كل المعضلات العالقة.

- في هذا الثلج؟ جنون ولكنه جنون جميل. حياتي كلها وضعتها في الميزان يا ميترا، ويجب أن ننجح في امتحان هذا المساء الكبير. لا أعتقد أن والدي كان على حق. كان يريدني طبيبا بينما أنا شيء آخر؟ هذه السيمفونية لجدي، لروح أمي ولكل من نحب. كل من انتزع من أرضه الأولى أو قتل ظلما ولهذا يجب أن ننجح. جدي سيحضر العرض وقد رتبت كل شيء بحيث يكون معنا ولا أريده أن يخرج بفكرة غير ما نريده له. مهم جدا أن يغادر الإنسان هذه الأرض مرتاحا ومقتنعا بأن صوته ما يزال مستمرا. أتمنى أن يمنحني الله صبرا كبيرا وأن يمنحه عمرا آخر. أمي كانت تريد مني ذلك وربما كان في هذا عزاؤها الوحيد وحدادنا نحن.

بحركة لاشعورية التفت نحو اللوحة المواجهة له. تنهد عميقا. [خريف نيويورك الأخير]. رأى أنامل مايا الرقيقة وهي تعجن الألوان الصفراء والآجورية والبنفسجية على الرغم من الآلام التي كانت كل يوم تأكل مساحة جديدة من جسدها.

«- الألوان يا جاز حبيبي. الألوان ولا شيء غيرها، هي الحياة. لا يمكن للحياة أن تتخلى عن كل ذلك ولا يمكن أن تكون القيامة بلا ألوان وإلا فهي مجرد كذبة ننعت بها فراغ الكون ونهاية الأجسام الحية.»

عندما وضعت ميترا مرتكز الكمان بين أناملها وركزته جيدا عند الكتف اليسرى للمرة الأخيرة وأمسكت نهاية مقبضه بشدة، محررة اليد اليمنى، أغمضت عينيها وتنفست عميقا من جديد.

- جاز، أرجوك ساعدني، أحتاج إلى يديك وأصابعك. وأنت تقف ورائي، تغطيني بنعومتك، تزرع فيَّ قوة لا أملكها دائما. تعرفني هشة أمام كل هذا المجهول الجميل.

شد على كتفيها من الوراء كعادته. ضبطت أصابعها على عصا

الكمان ثم على الخيوط ليخرج أول نغم مصحوبا بأنين عميق سرعان ما تبعه أنين بعيد ومفرد، اختلط بأوجاع داخلية لم يكن قادرا على مجاراتها. كان جسدها يئن بدوره وقلبها ينزف بقوة.

حرك يده اليمنى، رفع عاليا القصبة الذهبية. دوَّرها يميناً وشمالا ثم في اتجاهات متعددة. فتح أصابع اليد اليسرى، تمتم وكأنه كان يعزف الإيقاع بشفتيه. انتفت كل الأصوات، انتفى المكان والزمان ولم يبق إلا صوت الكمان الذي كان يئن بين يدي ميترا. كان كل شيء ينزلق من رأسه ناعما وهادئا ويتحول بين أناملها إلى نغمات كانت تقذف به بعيدا في زمن لم يكن قادرا على القبض عليه. أغمض عينيه متماديا في سحر حركات أصابع ميترا الناعمة.

كل شيء في المدينة كان يبدو من الشرفة كأنه يهرب من شيء مجهول، واضحا ومستقيما ومرتبكا أحيانا في خطوطه وكأنه رسم طفل صغير يسهو بين لحظة وأخرى قبل أن يتذكر عمله. كأن المدينة تأتي نحو البيت. الأبراج العالية تجعل من نيويورك مدينة تنزلق كل يوم أكثر نحو السماء وكل فجر تشعر كأنها صارت أطول من الليلة السابقة. السيارات، حركة الناس، البنايات المتعاظمة والشوارع المتوازية والمتقاطعة، تبدو من هذه الشرفة العالية خطوطا مستقيمة ومتناسقة على الرغم من أن الثلج غيب الكثير من ملامحها الكثيرة.

لم يعرف كيف انتهى البريلود ولكنه بقي لحظة لا يدري بالضبط كم دام، ثانية أم دهرا، رافعا يده عاليا، مغمضا عينيه، لا يرى شيئا إلا نورا كان يأتي جميلا ومدهشا من كل أرجاء البيت الذي امتلأ فجأة حياة وحرارة. عندما انحنت ميترا بظهرها قليلا معلنة عن انتهاء البريلود، لم يرها ولكنه أحس بحركتها قبل أن ينحني ومعه تنزل القصبة الذهبية ويصفق على لميترا قبل أن يحتضنها كما لم يفعل أبدا في حياته.

- مذهل. أكثر من ذلك، جعلتني أحلق في عالم لم أكن أتصور بأنه بكل هذا الألق والجمال.

- لتعرف فقط بأن ما تفعله ليس بسيطا وأنك لو ربحك الطب مرة،

لا تخسر الموسيقى عشرات المرات فقط، ولكن الإنسان كذلك. هل تدري قدر الدفء الذي تمنحه الموسيقى للإنسان في هذا الألم الموحش؟

- أنا على ريشة، أخف من هواء هذا الصباح ولهذا علي أن أعود إلى الأرض قبل فوات الأوان ولن تجدي بعدها شيئا تقبضين عليه. قهوة؟ تستحقين قهوة من يدي. . .

اتكأت ميترا قليلا إلى الأمام، على حافة الشرفة. أغمضت عينيها قليلا قبل أن تفتحهما على يدي جاز وهما تضعان غطاء على ظهرها، ثم وهما تتزحلقان من الوراء بهدوء لتطوقا خصرها وتحضناها بقوة. يرفع شعرها قليلا من على رقبتها. نقطة ضعفها الكبيرة. تبدو رقبتها صافية كماء الجنة، يلثمها تحت أذنها اليسرى حيث تعتريها رعشة الارتباك. يبتسم. يعرف جيدا أسرار جسدها الناعم. يمسد على شعرها بلطف وحنان. تتمتم وهي في حالة انتفاء كلي:

- أوووه. . . حبيبي، أرجوك جاز لا تكن مجنونا. . . ليس هذا وقته.

- من المعتوه الذي قال أن للحب وقتا؟ طيب. . . خذي قهوتك المرة.

يضع الكأس في عمق يدها اليمنى. تشعر بدفئها. كانت رائحة الهيل قوية وتشم من بعيد.

- هذه القهوة تعلمتها من أمي. من الأشياء النادرة التي قبلت أن تورثها لي مايا عن أجدادها. تقول أمي وهي تحاول أن تخفف من ثقل الأشواق التي تملأها: «كالفي لم يكن مجنونا. التربة الأولى كالحبر الأسود، عندما يلتصق بالحرير الأبيض لا يمحي أبدا وإذا أصررت على نزعه، سيتلف القماش بين يديك ولا يذهب السواد أبدا.» أعتقد اليوم أن أمي كانت على حق. مثلها مثل أبي الذي ظل ملتصقا بتربة ظل يلح على استنطاقها حتى أربكته أمي بحبها وبشخصيتها القوية. لابد أن يكون فيه

شيء من مزاج أمي ولا بد أن يكون في أمي شيء من جنونه حتى التقيا وإلا من المستحيل أن يتفاهما. جزء من حياته قضاه أبي على حواف بترا والبحر الميت ومدافن البحرين ومساجد صنعاء الغريبة التي ظلت زمنا تخبئ قرآنا مجهولا. أول ما زار هذه المدن أصيب بعدواها، التصق بها بشكل مرضي وامتلأ عشقا بآثارها قبل أن يواصل بوهيميته التي قادته إلى أقاصي الهند وسواحل قطر ثم إلى صلصال الأردن وفلسطين، هناك انطفأت أخباره بين ضفتي البحر الميت.

- أشعر اليوم بأني أسعد مخلوقة في الدنيا.

- انظري إلى هذه المدينة، جميلة ومخبلة للعقل. نيويورك مدينة ضخمة ومدهشة والذين أصيبوا بعشقها لم يكونوا مخطئين مطلقا. تحتاج إلى يد قوية تسير كل ذلك بدقة متناهية. أحب هذا المكان لأنه يمنح الإنسان، وسط هذه الكتل المتراصة التي تأكله وتصغره، الإحساس بالسيطرة على الضخامة والاستحالة. لولا البحر لأصبحت نيويورك مدينة لا تطاق. ومع ذلك لا نملك إلا أن نحبها.

- الجميل فيك أنك لا تتخلى عن رومانسيتك أبدا.

- في الوقت الحالي نحن أمام رهاننا الأخير ونحن الآن في آخر منعرج. ميترا، أنت ستقودين فرقة فيلارمونية كبيرة وراءك. يجب أن تنسي كل شيء بما في ذلك نحن، وتركزي على الفرقة التي تقتفي خطاك وتتبعك حركة، حركة. أصبحت على يقين الآن أن كل شيء سيسير كما خططنا له. وسعيد أن ماركو أنقذنا من كل التفاصيل التقنية التي أخذها على عاتقه.

تنفس عميقا بحثا عن لحظة متوارية في أعماقه. كانت نيويورك تبدو هادئة ومنشغلة بيومياتها المتكررة. الأمطار توقفت قليلا وصارت رقيقة وناعمة وباردة أكثر. رأى شارع برودوي وهو يتسرسب كالثعبان وشارع الإيست هيوسطن[٢١] الذي يخترقه في وسطه بعنف مخففا من تماديه،

---

(٢١) East Huston

فاصلا الجزء السفلي من مانهاتن عن جزئها العلوي. شوارع كثيرة تمتد في منافسة غير واضحة حتى تخترق ضواحي المدينة قبل أن توقفها بحيرة هودسون[٢٢] التي تنزل من أعالي مانهاتن قبل أن تحوط جنوبها وتحوله إلى جزيرة معزولة لولا جسر جورج واشنطن ونفقا لينكولن وهولندا الذين يربطون شمال المدينة بنيوجيرسي وجسر بروكلين الذي يربط جنوب مانهاتن بشمال بروكلين ويلصقه بكوينز شرقا. تبدو نيويورك من هذا الطابق العشرين وكأنها مدينة الحواف الصعبة. مجموعة من قطع مركبة بشكل قسري: البرونكس[٢٣] شمالا، مانهاتن، كوينز ثم بروكلين جنوبا. لا شيء يحد من حركتها المجنونة. كلها أجزاء عائمة وسط بحيرات وهمية. ثم فجأة استقرت عيناه على الفراغ المهول والفجوة العميقة التي خلفها تفجير المركز التجاري. شعر أن غياب البرجين التوأمين كان كغياب فرد عزيز من العائلة.

- ميترا؟ كنتِ رائعة هذا الصباح، رائعة بكل المقاييس.

- لا يا جاز، أنت تبالغ. لن ننجح إلا عندما نخرج من تجربتنا الجميلة في قمة السعادة. أنت تعرف أن الحركة التي نقبض بها على الآلة لا يمكن أن تتكرر مرتين، قد نكون أعظم من المرة الأولى وقد نكون أقل ولكن لا شيء يشبه شيئا. وراء كل ملمس وضع نفسي وشعور خاص علينا أن نسيطر عليه. والدي الذي ظل ملتصقا بأرض أجداده الأولى وهو يعزف على السنطور، كان يقول دائما عندما يعود متعبا من عمله في الأوركسترا الوطنية أو من سهرات نهاية الأسبوع في شارع النساء أو حي المومسات كما كان الحرس الثوري يسمونه: «عندما ندخل في دائرة الإعادة، ندخل في السأم والموسيقى وجدت أصلا لقتل السأم والعزلة، على الرغم مما يبدو على نظامها من تكرار.» هل تتصور إنسانا باع كل شيء مقابل أن يسعد الناس ونفسه داخل الجراحات العميقة

---

(٢٢) Hudson River

(٢٣) Bronx

والأنين الذي لا حدود له والأشواق المندفعة التي كان يخرجها من آلته؟ كان يقول عندما يزهو بنعيم النغمة التي أفلتت من سمعه ثم عثر عليها «حاشا أن يكون الضعف أو الانزلاق الخاطئ في الآلة، فكل شيء مخبأ في أحشائها، مغلف بمئات الآلافِ من العوائق اللامرئية التي تمنعه من الخروج، سعادتنا وانكسارنا وخيباتنا وأحلامنا وحتى حماقاتنا الجملية، ولكن في اليد التي تزيل كل الشوائب لكي تعيد للأشواق وللآلام نصاعتها وصفاءها. هذا هو المشكل وليس أكثر.» أنا أدين لوالدي بالكثير. ماذا ربح قتلة الروح في بلدي؟ الخميني عندما أحرق حي المومسات كما كان يسميه، هو والحرس الثوري، أدرج والدي في حساباته، فدفنه في السجن حتى الموت، مع أنه لم يكن سياسيا، كل الناس يعرفونه ويحبونه. كان أكبر عازف على السنطور في إيران وبلا منازع أبدا. الذين درسوه يقولون إن في عزفه صوفية جلال الدين الرومي وسحر الراوندي، وجنون الخيام. كان رجل السهرات والشعر الجميل ولم يدخل في مقاييسه تقسيم البشر إلى مومسات وشريفات. يقول: في كل واحد فينا شيء من الاثنين، نريد نظام الحياة ونعشق حرية المومس ولا مبالاتها. ولهذا عندما كان يدعى لملء سهراتهن لم يكن يمانع، بل صار له يوم في الأسبوع يقضيه بينهن ولا يعود إلا فجرا، مزهوا لا يتوقف عن عزف اكتشافاته الجديدة. والدي كان عندما يعزف، يغيب تماما عن المكان. أغبياء الحرس الثوري عندما أخرجوه من سهرته الأخيرة لم يكن معنيا بما كان يحيط به. عندما سألوه عن الناس قال لا أعرف أحدا. وظلوا يعذبونه وهو يرفض وعندما وصل الألم إلى أقسى درجاته، قال أعرف. قالوا من؟ قال آتوني بالسنطور لأتذكر. ضحكوا عاليا ثم أتوه بالسنطور ليوصلوه إلى قول ما يريدون سماعه. قال اسمحوا لي أن أعزف. نظروا إلى بعضهم بعضا ثم هزوا رؤوسهم بالموافقة. قال أولهم: الراوندي. ثم عزف حنينا خرج من أعماقه مليئا بالنور الذي لم يكن يراه إلا هو. قالوا: هل عرفت الروندي؟ قال: كان حبيبي وروحي. دونوا الاسم وانتظروا أن يسلمهم عنوانه. كانت وجوههم من

نحاس بارد قال: قفوا عند باب الجنة واحنوا رؤوسكم وانتظروا أن يُفتح عليكم. الثاني: جلال الدين الرومي. تساءلوا: وهذا المخلوق ماذا كان يفعل؟ هل كان قوادا مثلك؟ نعم قال والدي. عدل السنطور بين رجليه وعزف نشيد الحمام وترتيل الغريب الأوحد كما كان يسميها. بكى طويلا وهو ينحت الأنغام التي تهرب من أنامله. سألوه عن مكانه: قال: صعب لأنه في كل مساء يرحل إلى مقبرة الأنبياء، يتوسد أحد قبورها، وعندما يمتلئ بالرؤى، يعود إلى المدينة مزهوا بالحب والشعر. والثالث يا سادة يا كرام... ولكنهم منعوه من الانتهاء. صرخوا في وجهه: تهمنا علاقتك بجلال الدين الرومي. قال: كان أنا وكنتُ هو. إذن تعترف بتواطئك معه ضد الثورة. نعم. وعنوانه؟ قال: قلبي وكل جسدي وعيني. كان النور الذي به أرى. قالوا: وإذن سنفتت هذا الجسد لنعثر عليه. وفتتوا جسده. وحياتك ليس هذا شعرا. الذين عرفوه في سجنه أوصلوا لأمي كل هذه التفاصيل. أمي هربت بي وقادتها الدنيا وأصدقاء والدي الذين أحبوا موسيقاه، إلى نيوجيرسي. إلى اليوم لا أعرف في أي شيء كان يمكن للموسيقى أن تؤذي البشر؟ وماذا كان في رأس الخميني وهو يصدر فرماناته المتلاحقة ضد والدي ومن شابهه؟ والدي كان عازفا في الأوركسترا الوطنية وكان مؤلفا كبيرا ولم تغيره الآلات الحديثة بل ظل مشدودا إلى سانتوره الذي توارثه عن خمسة من أجداد كلهم عمروا طويلا.

– لنقل إن هذه المرة سيكون الحظ في جانبنا. نشبك الأصابع؟

– لنشبكها.

نظرت إلى ساعتها.

– أشتهي حبيبي أن نذهب للسنترال بارك. أن نغير من الحصار الذي ضربناه على نفسينا طوال الأيام الماضية. نرتاح قليلا لكي نستطيع أن نقوم بأي شيء آخر... لا تقل لي الثلج... أنت تعرف جنوني. نرتاح قليلا لكي نتفرغ لشيء آخر...

أحاطها جاز بذراعيه:

- يهمني أوَّلا أن نتفرغ لذلك الشيء الآخر...

- مجنون...

قالت ميترا وهي تحاول أن تكتم ضحكتها من ردة فعل جاز غير المنتظرة.

- هل تريدين رسما توضيحيا؟

- أريده.

- الآن... الآن...؟

مدت يديها إلى وجهه. تحسسته قبل أن تلتصق بصدره وتتمادى في قبلة طويلة، ثم تمتمت:

- هل صار الرسم واضحا؟

- ... ...

حملها مثل الذي يحمل باقة من النور في يديه. بدت خفيفة كالريشة. حطها على السرير بنعومة. طمس المنبه الذي بدأ يرن لتذكيره بوقت الاستعداد للخروج. وضع قرص ماريا كالاس المفضل، ثم ضغط على زر الجهاز. جاءه صوتها قويا ومليئا بالأشواق الهاربة. دفن رأسه في صدرها. شعر بحرارتها وببريق جميل في عينيها. وشوش في أذنها:

- السنترال بارك أم هذا الفراش المليء بالحياة...

- ما ألذَّ جنونك!

أحس بجسد ميترا ينفتح على الأشواق الخبيئة. تمتمت... كان صوتها مثل وشوشة الأشجار وهي تتداخل فيما بينها. ثم... تناثرت كل الألبسة في الفراغ ولم يسمع إلا تقطعات صوت ماريا كالاس ممزوجة بأنين ميترا الذي كان يأتيه من بعيد مصحوبا بهسهسة الثلج الذي عاد من جديد إلى التساقط، وبموسيقى كانت تتمادى في غيها كلما امتدت أصابعه وشفتاه إلى الأدغال الخبيئة في جسدها.

- حبيبي... عمري... أريدك... لو تدري...

-٢-

شتاءات نيويورك تأتي دفعة واحدة بسيولها وبردها وبياضها. المدينة تستقبل ثلوجها كما تستقبل احتفالا موسميا. يثقل الجو قليلا في شوارع المدينة الخلفية لكن الألوان التي تلبسها نيويورك تعطيها دفئا خاصا. كل شيء يتلألأ من بعيد تحت بياض الثلج أو قطرات المطر العالقة، والإنارة التي تحتضن الشوارع الكبرى، واللوحات الدعائية التي تتسلق كبريات البنايات لتصل حتى رؤوسها، والطرقات والمعابر الصغيرة وأشجار البلاطان التي تفاجئ المارة باستقامتها وثباتها، من حين لآخر في الزوايا المظلمة. لا شيء يلاحظ بالمكان نفسه ولكن عند الابتعاد يبدو كل شيء متداخلا وغارقا في الألوان التي لا تستقر على شكل.

أوقف جاز السيارة في الساحة المقابلة لأوبرا بروكلين متفاديا الدخول بها إلى العمق كما كان يفعل عادة، ثم وقف لحظة مع ميترا يتأملان الأضواء الملونة التي كانت تعلن عن سيمفونية **رماد الشرق**، لربيع نيويورك الموسيقي. الذي أنجز اللوحة الإشهارية كان حساسا وشاعرا: وجه ميترا المليء بالأنوار وهي تسند رأسها إلى الكمان، يتمادى حتى الذوبان في حركة جاز الذي لا يظهر إلا جزء جانبي من وجهه ويده اليمنى وهي ترفع القصبة الذهبية التي أحدثت خيطا من النور تشكل فوق رأس ميترا كهالة. في الخلفية البعيدة، الفرقة الفيلارمونية لأوبرا بروكلين.

كانا مذهولين من سحر اللحظة. لم يحدث في حياة جاز أن عاش إحساسا مشابها وهو الذي ترأس سهرات موسيقية عديدة مع الفرقة الفيلارمونية لبروكلين، ولكنه كان دائما يترأس شيئا يحس به عميقا ولكنه لم يكن له، بيتهوفن... موزارت... شوبرت... شوبان... فاجنر... ردانسكي... هايدن... بيزت... والربتوار الروسي: بروديـن... سترافنسكي... ريمسكي كورساكوف... تشايكوفسكي... لم يكن أكثر من مايسترو يدير الفرقة بإتقان كبير. لم يكن مؤلفا ومديرا لأوركسترا.

- ما أصغر العالم! من كان يقول إننا سنصل إلى ما وصلنا إليه؟ كنت خائفة عليك من الانكسار وضرب كل شيء عرض الحائط. برافو حبيبي، فخورة بك جدا. لقد أوصلتنا إلى النهاية ولم تأبه للمصاعب.

- سألتني مرة عن خط الرجعة، أستطيع اليوم أن أقول لك إني عبرته بسلام.

تأملا اللوحة الإشهارية المضاءة بشكل كان يثير دهشة سكان بروكلين والمارة وعشاق الأوبرا. لقد كانت الدعاية كبيرة وأصبحت تسمية **رماد الشرق** على الكثير من الألسن. فقد سخر فيليب كل الإمكانات المتاحة. قال لجاز وهو في عمق التدريبات القاسية: جاز، لم يعد من حقك التراجع الآن. ضع كل مزاجك في براد، فقد دخلنا مرحلة التنفيذ والدعاية. صار الآن مؤكدا أن العرض الأول سيكون في ربيع نيويورك الموسيقي. فقد برمجت السيمفونية نهائيا ضمن افتتاح ربيع المدينة. قسم الإعلام والدعاية الذي احتكره ماركو، قد حضَّر كل شيء لأنه كان على يقين بأن المشروع لن يكون إلا مربحا. في كل المعابر الكبرى والمحطات والمطارات وأنفاق الميترو، في نيويورك، وُضعت نفس اللوحة الإشهارية، بعنوانها الكبير: سيمفونية **رماد الشرق** للموسيقي **جاز كالفي**. وتحتها كتب بخط ناعم: **خريف المائة عام الأخيرة، سنوات التيه والانكسار والبحث المحموم عن الشرق المسروق**. أعلنت أغلبية الجرائد الكبرى في نيويورك وأمريكا والمجلات الفنية المتخصصة، عن العرض وكتب الصحفيون الذين حضروا البروفات التدريبية، الذين جاء بهم ماركو، مقالات جميلة دعمت كثيرا السيمفونية ووضعتها في الواجهة الإعلامية. وفي شريط دعائي عن ربيع نيويورك الموسيقي، خُصصت مساحة مهمة للأركسترا الفيلارمونية لبروكلين وتُظهر لقطات حية من بريلود ميترا المليء بالحنين والغياب. بعض القنوات التليفزيونية اشترت حقوق العرض، وتم الإعلان عن بعض أماكن وتواريخ عرضها: العرض الافتتاحي في شهر مارس، في بروكلين. عرضان في أوبرا مانهاتن في الشهر نفسه، عرضان في أوبرا

لوس أنجلس في شهر أفريل، سان فرانسيسكو ثلاثة عروض في الشهر نفسه، سان دييغو في شهر ماي، لويزيانا عرضان في الشهر نفسه، القاهرة عرض في شهر جوان، دمشق عرض في النصف الثاني من الشهر نفسه وعمان عرضان، واحد بمسرح جرش والثاني في بترا، في جويلية بالقدس والجزائر العاصمة... و هناك طلب من المسرح الملكي بستوكهولم وأوبرا كوبنهاجن الجديدة وأخرى بالأوبرا الملكية القديمة. لم تكن هذه إلا البداية التي أكدت الاهتمام الكبير بعمل جاز الذي صار الآن حقيقة مؤكدة.

- لا. ميترا حبيبتي. الآن كل شيء تغير. صحيح أن سكان بروكلين يتذكرون جيدا كسارة البندق، بحيرة البجع، طائر النار، كارمن لبيزي، شهرزاد لرمسكي كورساكوف، بيتهوفن، موزارت، هايدن، وبارسيفال لفاجنر... ولكني لم أكن أكثر من منفذ خلاق ومدير ماهر لفرقة بكاملها يتجاوز عدد أفرادها المئة، لكن في هذه المرة كل شيء تغير وأصبح ثقل المسؤولية مزدوجا، التوزيع، الخيارات والإنجاز الملحمي وإدارة الأفراد والمجموعة الصوتية. كل هذا مهم ولكنه أمام سعادة جدي لا يساوي الشيء الكثير.

- لقد قمتَ بعمل جبار وأنا متأكدة من أن بابا شريف سيكون أسعد إنسان على وجه الأرض.

- أتمنى أن أكون قد لامست أدق تفاصيل آلامه الداخلية.

- بابا شريف ليس شخصا عاديا، حساسيته تجاه الحياة كبيرة.

- غريب، هناك شيء لا يتحكم فيه البشر. يكفي أن ينطلق لينحت مسالكه الخاصة.

تذكر جاز الأيام القليلة الماضية التي كانت مليئة بالحركة. حماس فيليب غلاس كان بدون حدود بعد الدعوات التي بدأت تأتي من كل الجهات إلى أوبرا بروكلين بمناسبة ربيع نيويورك الموسيقي، وكلها تبحث عن تاريخ عرض سيمفونية **رماد الشرق** في مسارحها أو أوبراتها.

«- هذه كلها بدايات يا جاز، وننتظر أكثر من هذا. أنا متأكد من أنك تملك أشياء عظيمة لا حدود لها، تحتاج فقط إلى من يضعها في الواجهة من جديد. كل شيء انطلق الآن ولم يعد من الممكن العودة إلى الوراء وعليك أن تجند نفسك للتنقل المستمر على مدار سنة على الأقل. أليس حظا جميلا واستثناء خارقا، أن يحدث هذا لأوبرا بروكلين؟

- لقد شهدت هذه الأوبرا أسعد أيامها بفضل إدارتك وشجاعتك. الجميل فيك يا مايسترو، أنك عندما تقتنع تغمض عينيك، وتتقدم إلى الأمام ولا تسأل عن النتائج. قليلون اليوم من هم مثلك في عالم لا يزال فيه سلطان السوق هو السيد.

- شختُ يا جاز. قانون العمر لا يرحم ولكنني سعيد بشكل لا تتصوره. أنت تعرف أن رهاني عليك كبير ولا أرى غيرك يحمل إدارة هذا المكان بعدي.

لم ينتظر إجابة جاز. جمع ملفات العروض وسلمها كلها للمسؤولة الإعلامية ديبوراه التي جاء بها ماركو إلى أوبرا بروكلين. فقد قامت بعمل ضخم وكبير لإقناع المهتمين بالموسيقى الكلاسيكية بجدوى المشروع.

- نحن في محاورات مع مسارح أخرى وأوبرات ننتظر موافقتها القريبة، ليس هذا وقت الإعلان عنها، قالت ديبوراه وهي لا تعرف كيف تخبئ حماسها الكبير.

- لم نكن ننتظر كل هذه الردود الكبيرة. حتى أوروبا الشمالية الباردة عادة نحو الأعمال التي تأتيها من نيويورك فيما يتعلق بالموسيقى الكلاسيكية، صارت تبحث لها عن مكان وتاريخ. لأول مرة يقدم المسرح الملكي لستوكهولم وأوبرا كوبنهاجن، القديمة والحديثة طلبات للحصول على موعد لعرض **رماد الشرق**. جميل أن ترمي حجرة صغيرة في بحيرة وتمنحك كل هذه الدوائر اللامحدودة.

- شكرا ديبوراه. هذا كله شيء مهم وصناعة كبيرة واحترافية لا حدود لها. عمل جاد وعظيم لا يسنده إعلام حقيقي لا قيمة له أبدا. منطق السوق. يجب أن نشكر ماركو على جنونه ومغامرته. عندما رأى

أول عرض تجريبي، أغمض عينيه ودخل بشركته كممول للمشروع عن طريق الدفع الإعلامي. لم ندفع سنتا واحدا نحن الذين ظللنا شهورا طويلة نبحث عمن يمنحنا ثقته. لقد أنهى عمله التقني في وقت قياسي، شهرين قبل الموعد. سيأتي غدا بعد الظهر ونرى معه العرض التجريبي النهائي. وسيكون الشريط الذي أعده مصاحبا للسيمفونية في صورتها النهائية. لم يترك أية فجوة للصدفة. قام بتسجيل نسختين تمران في الوقت نفسه وتعرضان متزامنتين، في حالة توقف الأولى ينتقل العمل آليا إلى الثانية بدون أن يكون هناك إحساس بالخلل. يريد من تجربته أن تكون تامة ولا تشكو من أي نقص. سترافقه فرقته المتخصصة ومخرجه الذي سيتابع كل دقائق الأمور. على كل حال سنكون غدا بعد الظهر كلنا معا قبل العرض الحي.

- أنا لا أدري كيف أشكرك في رحلة السنتين القاسيتين. أعتقد بصدق أن العمل لن يخيب الآمال. سيكون حدثا بالمعنى الدقيق للكلمة. بكل هذه الوسائل المسخرة، إذا لم ينجح، فالخلل فينا وليس في الإمكانات وفي الآخرين. أنا ممتن وسعيد ويبقى أمامنا المهم، أن ندخل ربيع نيويورك بقوة.

- أنا على يقين من ذلك. لا تهتم بالبقية. أعتقد أنه من الناحية المادية نحن في راحة تامة. الأوبرا لم تخسر ولا مليما وحداً، على العكس، ما ربحته يسمح لنا بالتفكير جديا في شيء آخر بنفس الدرجة من الملحمية والأهمية. التاريخ أصبح اليوم ميدانا واسعا لقول الشيء الكثير. نتمنى أن يكون لنا عرضان قبل عرض مانهاتن، ذلك مهم جدا لسكان بروكلين الذين سيشعرون بفخر كبير وبحالة من الزهو. سكان بروكلين عاشوا معنا الصعوبات والقلق الكبير واستعدوا بكل أفئدتهم للمشاركة في التمويل، فهم يستحقون ذلك بامتياز.

- سيد فيليب، كل ما تحقق كان بفضلك وبفضل شجاعة الفرقة التي لم تدخر أي جهد لإنجاح المشروع.

- كنت فقط أريد أن أقاسمك سعادتي أنت والفرقة الفيلارمونية

لبروكلين. أظن أن عملك سيكون قصيدة للحياة وتمجيدا للنور والمحبة، ووفاء لكل الذين سبقونا إلى هذه المحبة والاندفاع نحو الحق. جميل أنك لم تسقط في الأحقاد التي تحجم الملحمة وتضيقها، فقد كانت رؤيتك واسعة جدا. «نرى كل شيء، الحروب، بشاعة البشر ولكن شجاعة الناس وحبهم للحياة وانتصارهم للحق.»

كانت الثلوج والأمطار ما تزال تلون أضواء الأوبرا.

وهما يستعدان لعبور مدخل الأوبرا، سألت ميترا جاز وكانت ملتصقة في ذراعه الأيمن كسلة من البنفسج البري:

- ألا يخيفك هذا الاهتمام الكبير بالسيمفونية؟ ألا تشعر بالقلق؟

هربت من شفتي جاز ابتسامة عابرة لم تدر أين تستقر. يعرف جيدا ماذا كانت تريد ميترا من سؤالها. لم يكن كلامها عابرا أو لتغطية الدهشة التي كانت تملأها من فرط سعادتها.

- ميترا حبيبتي، أنت وحدك تعرفين مدى الألم والقسوة المتكررة كل ليلة من ارتكاب الخطأ القاتل والانزلاقات التي لا ترحم. كل شيء يحتاج إلى نظام دقيق وتوقيت ثابت، كما فعل معنا ماركو الذي لا يترك شيئا للصدفة. الصدف الجميلة، قد تكون قاتلة أحيانا. أن تقف وراء مقطوعة ألفها غيرك، تستطيع أن تجد أسبابا للإخفاق، ولكن أن تخفق في تأليفك فهذا معناه النهاية...

- ولأني أعرفك بما فيه الكفاية، أسألك. أخاف عليك من هذا الإصرار من أجل المثال ومن العداءات المجانية. أنا أعرف أن كل شيء يمر بين يديك لا ينكسر لأنه بكل بساطة فيه منك.

- سبقتني إلى الإجابة. أشعر أكثر بثقل المسؤولية التي تحملني مزيدا من الأعباء ومزيدا من العمل. طبعا سيمفونية **رماد الشرق** لم تظهر بعد ولو أنها ارتسمت نهائيا، ولكن كل ما يحيط بها من رعاية يحسسني أني ابن هذه الأرض وعاشقها وألا قيمة تعلو على الإبداع. هناك قسوة مجانية يمارسها البشر ولا يعرفون وقعها القاسي ولكن لا يهم. يجب أن

ندرك أن العمل وحده هو الباقي، من يتذكر المظالم التي مورست ضد كورساكوف، وبيتهوفن أو موزارت حتى من أقرب أصدقائه؟ ماذا بقي من كل هذا؟

- الكثيرون لن ينزلوا سكاكينهم، من نقاد وموسيقيين أخفقوا ومن عنصريين وغيرهم.

- عظمة الفن أنه يبقى بنبضه حتى عندما ينسحب البشر الذين كانوا من ورائه. طبعا، أعرف جيدا ماذا سيحدث في حالة نجاحنا. سيكثر الأعداء كلما كانت التجربة ناجحة. كل شيء مترتب على الإحساس الذي يخلفه العرض الأول. المشكل في الموسيقى، أنك تواجه الناس بكل عظمتك ودهشتك وعيوبك ولا تستطيع أن تؤول ضعفك. ثم إنك أمام جمهور يتغير باستمرار. مايا كانت تقول دائما إن مصائب الموسيقي لا حصر لها أما الرسام والشاعر والكاتب ورجل المسرح فيستطيعون الهرب وراء التأويل، ويفلتون بسهولة من عيون الغربال بذكاء لأن فنهم يسمح لهم بذلك. الموسيقي يواجه الجمهور وقدره مباشرة ولا حق له في الخطأ. حتى المسرحي له من يلقنه عندما يخطئ، أما الانزلاق في الموسيقى فقاتل وقد يعني النهاية بكل بساطة.

- قريبا ينتهي كل شيء وندخل غمار تجربة الحياة العالية.

- سنرى. بعد قليل نبدأ العرض التجريبي الحي بوسائل العرض الحقيقية ولا عذر لأخطائنا أبدا. بعدها نستعد لعرض الربيع، ويبدأ شيء آخر لا أعلم كيف سيكون ولكني على يقين أنه سيدخلنا غمار تجربة جديدة، شرط أن ننجح في بروكلين. المؤكد أنني سأنسى هذه الحموضة التي تخترق المعدة. أمامنا العروض العالمية والعربية والمعابر التي سنقطعها. عمل مثل هذا لا سلطان لنا عليه وله مختصُّوه. هناك أماكن لا أظن أني سأصل إليها. كم كنت أشتهي مثلا أن نقدم عرضا على حواف البحر الميت؟ من الجهة الأخرى، حيث ما يزال والدي غارقا في صلصال تلك الأرض. الزمن قد لا يمنحنا وقتا كافيا لذلك، وإلا ستكون

الصدفة جميلة ومدهشة. لم أعد أعرف عن كالفي الشيء الكثير ما عدا اللقطة الهاربة التي رأتها أمي في حصة تليفزيونية بإسرائيل وهو يعتز بحجارته وتربته التي اكتشفها. كم أتمنى أن ألتقي به واسأله سؤالا واحدا فقط: لماذا ذهبتَ بعيدا من دون أن تلتفت وراءك بالضبط حيث كانت تقف مايا بحزن؟ هو السؤال الذي حملته أمي إلى قبرها معها ولم تسمع أي صدى عنه.

- من يدري قد تتلقى ردا على ذلك. أو في العرض الذي سيقدم في القدس. على العرب أن يروا صورتهم وصورة أعدائهم موسيقيا وأن يقرؤوها بشكل آخر بغير الخطابات القاتلة.

- لا أدري؟ هل سأتحمل رؤية شيء ظل في قلب مايا؟ فقد قضت كل حياتها وهي تتفاداه لكيلا يقتلها ألم الغياب دفعة واحدة ولكن بالتقسيط؟ أما أنا، فالمسافات الفاصلة قد تجعلني أتحمل ذلك كله بدون شروخ كبيرة لأني لم أعرف كالفينو إلا قليلا وأن تلك الأرض التي أعطت الحياة لأمي، ليست إلا حبات من الرمل كلما حاولت لمسها هبت عاصفة وسرقتها مني. جزء من ذاكرة مايا الحية، وضعته في عمق يدي وانسحبت بدون أن تقول لي ماذا أفعل به؟

- الأحسن أن ننسى كل شيء ونتفرغ الآن للعرض التجريبي الحي. يجب ألا نشعر بأي شيء آخر إلا ما تقوله لنا الموسيقى، هذا هو المهم، ما عدا ذلك، يمكنه أن ينتظر.

- وهل هناك شيء آخر؟ المفروض، لا يوجد ما يعطل أحاسيسنا المشتعلة. عندما نصل إلى هذه المرحلة، تصبح الخسارة ممنوعة بشكل قاطع وإلا فنحن لا نستحق النعوت التي نحملها.

ثم توغلا عميقا في الأوبرا حيث كانت الأوُركسترا الفيلارمونية قد التأمت واستقر فيليب في المخدع المشرف على منصة العرض، بينما كان ماركو يعطي أوامره لضبط آخر الترتيبات.

-٣-

عندما فتح جاز الباب المؤدي إلى مخدعه لتغيير ملابسه، كان كل شيء جاهزا. كانت الفرقة مستعدة لكل شيء. كل واحد منشغل بآلته يحاول أن يتلمسها ويتحسسها قبل إشارة جاز للدخول في بداية العرض السيمفوني التجريبي. بعد يوم من الراحة سمح للفرقة من باستعادة قواها الداخلية بعد عمل دائم لم يتوقف لمدة أكثر من شهرين، لم تلتقط فيه الفرقة أنفاسها.

لم ينتبه ماركو لجاز وميترا عندما دخلا ولا عندما افترقا لارتداء ملابس السهرة الرسمية. كان برفقة المخرج الإرلندي كافكا، الذي تكاد عظام وجهه تخترق جلده الناصع البياض، على رأسه قبعته السوداء التي لا تغادر رأسه أبدا. كافكا لا يتوقف أبدا عن العمل. كان غارقا في مراقبة تفاصيل العمل الدقيقة متبوعا بمهندسه، يراقبان جهاز عرض الصور والشريط الموقت آليا مع أول نغمة تخرج من كمان ميترا بحيث ينتفي أي بياض يمكن أن يربك بقية العرض. لقد بذل ماركو وقتا كبيرا لإيجاد الصيغة المناسبة تقنيا ولا يريد أن يضيع كل شيء بحماقة غير محسوبة. لا يتوانى من حين لآخر عن الصراخ في وجه عماله، عندما يلاحظ تباطؤا في العمل قبل أن يترك ذلك كله لتقنيي الأوبرا. الكل يعرف مزاجه جيدا ولهذا يتفادى قدر المستطاع تنبيهاته الحادة التي قد تصل إلى استعمال لغة ثقيلة. العرض التجريبي مهم للوقوف على أي خلل صغير لم يتم ضبطه. هكذا هو ماركو. لكن الذين يعرفونه عميقا يدركون صدقه وحبه لعمله. كان يمكن أن يسلم كل المشروع للتقنيين الذين يشتغلون معه بعد أن ذلل كل الصعوبات العالقة، ولكنه رفض وقرر أن يشرف هو بنفسه على كل شيء، خصوصا العرض التجريبي والعرضين الأول في أوبرا بروكلين والثاني في مانهاتن لأنهما أهم عرضين على الإطلاق في نظره وفي نظر الجميع.

التفت نحو كافكا ومهندسه اللذين كانا يقتفيان كل خطواته ويتدخلان

كلما طلب منهما ذلك أو ينبهان للأخطاء الممكنة. ماركو هو من سمى المخرج بلقب كافكا منذ أن بدأ يعمل معه، قبل عشر سنوات، لانعزاله ولنحافة جسده ولخيبته في كل علاقاته النسائية.

عندما تأكد ماركو من أن كل شيء على ما يرام، ضرب على كتف كافكا ضاحكا.

- برافو كافكا، بعد كل هذا العمل الممتاز، أعتقد أنه آن الأوان لتزويجك.

- شكرا مستر ماركو. أعتقد أننا قمنا بعمل جيد يبقى الآن اختبار كل شيء على العرض للمزيد من الدقة.

- معك لا أخاف من المفاجآت لأني أعرف مسبقا أنك تستبق الأحداث وتتخيل لها حلولا حتى قبل حدوثها ولهذا فأنا مصمم على أن أفتح في وجهك جنة النساء بعد هذه السهرة.

- مستر مـــ. . . . ـــار. . . كـــــــو؟؟؟

ابتسم كافكا وهو يمطط كعادته في كلمة ماركو ليقول له بأنه ليس مهتما بقضية الزواج أو النساء وأنه مرتاح إلى ما هو عليه. رقصت في عينيه سعادة طفولية بعيدة لم يستطع كتمها.

- أنت تعرف لساني. . . شكرا كافكا. كل شيء جاهز. الوقت محسوب بدقة ومبرمج كما رأينا سابقا على اللايف[٢٤]، على أولى إيقاعات ميترا وليس على حركة جاز. حركة جاز مهيأة فقط للبداية، تستمر في حدود الخمس ثوان. من هنا، فكل الوقفات التي ستأتي فيما بعد، مبرمجة على البدايات والمفروض ألا يكون أي خلط وأي ارتباك أو أي نقص في حساب الوقت.

ثم التفت إلى الخلف بعد أن وضع السماعتين في أذنيه.

- من فضلكم، كل واحد في مكانه، سنبدأ. . . مايسترو جاز نحن مستعدون. . .

---

(٢٤) Life

ثم مد ماركو يده إلى الشاشة البلازمية الخلفية ليتحسس جوانبها.

- مايسترو جاز... انس كل شيء. مسؤوليتك واحدة ووحيدة. أمامك الموسيقى وتسيير الفرقة وهذا وحده يزن الجبال من حيث المسؤولية. ميترا وكارولين وجون... والبقية، كل واحد يثبت عينيه على التوزيع جيدا وتدخلاته. كل شيء يجب أن يتحرك مثلما كنتم تفعلون في الحالات العادية. المشكل الوحيد الذي يمكن أن يطرح هو مشكل السانكرونيا، البقية أنتم تعرفون أحسن مني كيف تسيرونها. الفرق عما تعودت أن تقوم به الفرقة الفيلارمونية لبروكلين هو أن الجمهور هذه المرة سيرتبط بموسيقاكم ولكن كذلك بالصورة على خلفية الأوبرا. ارتفاعها قليلا فوق رؤوسكم، يجعلها في مرمى البصر بدون فقدان العلاقة بالموسيقى وحركات المايسترو. الشاشة البلازمية مهمة، ألوانها من الدقة ما يجعلها قريبة من الحقيقة. أنتم لا ترونها لأنها ستشكل خلفية جميلة لعملكم الموسيقي الضخم. جاز... إذا كنتم جاهزين، سنبدأ.

التفت جاز نحو فرقته. الكل في مكانه. انحنت الفرقة قليلا معلنة عن استعدادها. مد جاز يده إلى الأمام ثم التفت نحو ماركو، وتمتم بصوت سمعه هذا الأخير جيدا:

- لنبدأ.

أغلقت الأبواب كلها وماتت الحركة فجأة. ساد صمت مطبق بدا طويلا أكثر من يوم القيامة. انسدل الستار نهائيا ليضع الفرقة بكاملها من وراء السواد ويخيم نوع من العتمة من الجهة الخلفية من القاعة.

- الإضاءة يا بابو.

- أوكاي سيد ماركو، كل شيء جاهز. ثلاثة، اثنان، واحد، صفر.

بدا ديكور القاعة استثنائيا تحت الإنارة الخفيفة التي أضاءت الجوانب بينما انفصلت الستائر عن بعضها بعضا شيئا فشيئا حتى ظهرت الفرقة بكامل أعضائها، يترأسها المايسترو جاز. تركزت الإضاءة على الزاوية الخاصة بورقة توزيع السيمفونية على المرتكزات الحديدية

الرقيقة. كانت الأنوار الحادة المسلطة على الأوراق الموسيقية، تأتي من لمبات صغيرة موجودة في كل مرتكز حتى لا تؤثر على دقة الصورة التي ستعرض في الخلفية. عانى ماركو كثيرا لإيجاد موقع الإنارة لحل إشكال التأثيرات الضوئية على الخلفية التي يُجب أن تظل في الظلام لكي تظهر الأشكال الخلفية بشكل دقيق وواضح. الإضاءة التقليدية التي كانت تأتي من فوق في ترتيبات أوبرا بروكلين القديمة، لم تكن لتساعد على تفادي الإشكال إذ كانت الخلفية تبدو مخترقة بالكثير من البياضات وغلالة من الضباب الذي يذهب فاعلية الصور. جرب أن يتحايل عليها ولكن كل محاولاته باءت بالفشل. مشكل وضوح الصورة في الخلفية وتشتت الضوء، كان هاجسه إلى أن وجد الحل في اللمبات الصغيرة المسلطة مباشرة على النوتات أمام كل عضو من أعضاء الفرقة.

بدت الخلفية المظلمة كفراغ مهول وبدون حدود. لا شيء فيها إلا شاشة كبيرة تكاد تصير جزءا من السواد العام لولا اللمبات الصغيرة التي كانت تبعثر ضوءا خفيفا على حوافها الأربع. لا شيء يسمع إلا حفيف الكهرباء الذي كان يأتي من زاوية مبهمة قبل أن يخفت بدوره.

التفت جاز نحو الجمهور، انحنى قليلا ثم مد يده، فتبعته الفرقة بنفس الحركة التقليدية استعدادا للبداية. تبادل نظرات خفيفة مع ميترا كتعويض عن وقوفه وراءها كما تعود أن يفعل قبل كل بداية. بدا كل شيء في غاية انسجامه.

كانت ميترا على بعد خطوتين منه. لوح جاز بيده عاليا. . . ثم أنزلها بهدوء كمن ينجز خطا متعرجا في الهواء. شيئا فشيئا بدأ أنين كمان ميترا يملأ القاعة الساكنة. انطلقت الصور في الخلفية بشكل متواتر ومتناسق وسلس، في حركة انزلاقية هادئة ومتماوجة. قبل أن يتهادى وراءها، وعلى الوتيرة نفسها، الصوت الجماعي للآلات النفخية المتراصة بالقرب من بعضها بعضا مما أعطى لصوتها تمركزا واضحا أسنده الساكسوفون الذي بدا وكأنه مخنوق ويأتي من بعد سحيق ولا يشوش في شيء على وضوح تقاسيم الأنين. وعندما بدأ صوت الكلارينات كانت الصور تتابع

بانتظام إلى الوراء لتتعاقب الوجوه والأحداث والوقائع الكثيرة وكأنها كائنات حقيقية في أشواقها وآلامها. مشانق عاليه، نيران الحروب ووقوف الرجال في وجه الهمجيات المتلاحقة.

تتابعت الإيقاعات في تجانسها وانتظامها وتداخل أجزائها. كانت الفقرات الموسيقية مقطوعة بلحظات خفيفة تحددها الوقفات التي كثيرا ما تنتهي بشكل حاد لتبدأ من جديد بمطالع هادئة قبل أن تشتبك وتتصاعد من جديد. لا شيء إلا دفء المكان وحرارة الوقع.

كل شيء كان يسير بانتظام خفف على جاز كل الوهن والضغط الذي عاشه في الشهور الأخيرة. لم يشعر في أي لحظة من اللحظات بثقل يده عندما يحركها كثيرا ولا بالخوف على ارتباكات ميترا. حين انتهت حركات السيمفونية السبع، بدأ الضغط ينزل شيئا فشيئا وتخمد جل الآلات ما عدا الكمان الذي كان رابطا بينه وبين عازف الساكسوفون الفرنسي، جوزيف لوغران[٢٥]، الذي لم يأخذ العمر من طاقته القوية وطول نفسه إلا قليلا. يتصاعد صوت الآلة المفخم القادم من بعيد، مندمجا مع صور المعابر الإفريقية الضيقة وأدغالها الكثيفة ومع رمال الشطآن الجافة الباحثة بيأس عن قطرة ماء. يصمت شيئا فشيئا أنين الكمان وتحل محله أصوات رباعية لشابين وشابتين، يقفون باستقامة وراء الميكرو، ينشدون نشيد نيويورك...

نيويورك... نيويورك...
أشيعوا الخبر، سأرحل اليوم إلى نيويورك،
زادي، حذائي وحقيبتي مثل الجوال
أريد أن أفتح عيني في مدينة لا تنام.
وأكون أنا سيد المكان...
نــيــو...يــوووورك... نــيــو.يــوووورك...
نيو...يووووورك.

---

(٢٥) Josef Legrand

كانت أصواتهم القوية تبدو كأنها أصوات الفرقة بكاملها التي اندمجت في النشيد الذي لم يقطعه التصفيق الذي انبعث من كل أطراف القاعة الكبيرة. لم يتوقف حتى عندما كانت الفرقة والمايسترو ينحنون أمام الجمهور قبل أن ينسحبوا واحدا واحدا وتنغلق ستائر أوبرا بروكلين الخشنة بينما نشيد نيويورك المسجل ظل مستمرا حتى النهاية على تصفيقات حادة من جمهور التقنيين وعمال الأوبرا وفيليب وماركو الذي لم يستطع أن يخبئ فرحته، فنزل، من غرفة المراقبة باتجاه القاعة وهو يصرخ صرخة الهنود الحمر التي لم يتخلص منها كلما نجح في مهمة ما «واوووووووووو. . . واووووووو. . .». ثم ركض نحو جاز واحتضنه بين يديه القويتين.

فرحة الجميع كانت بلا حدود.

- برافو. . . برافو. . . مايسترو جاز. . . برافو. . . شكرا للجميع.

قال فيليب وهو يعانق جاز وميترا وكارولين وجون ومارك وجوزيف وبقية أعضاء الفرقة، عناقا طويلا. كانت سعادته لا تتصور. لأول مرة يشعر كأنه كان يولد من جديد. الكاميرات التي وضعها المخرج كافكا في كل الأماكن صورت كل دقائق العرض التجريبي. كان العرض رهانا للكل ولماركو أكثر. فبعد أن شاهد العرض التجريبي، اندمج كشريك فعلي أخذ على عاتقه الجانب التقني والدعاية وتسويق العمل. فهو صاحب السبوت Spot الدعائي الذي مررته الكثير من القاعات والمحطات التليفزيونية لتعلن عن ربيع نيويورك وتواريخ العروض القادمة لسيمفونية **رماد الشرق**.

كانت علامات السعادة بادية على كل أعضاء الفرقة والعمال والإداريين.

فجأة خمد كل شيء. وعاد الصمت ليلف قاعة العرض الواسعة. لم تبق في الخلفية إلا امرأة واحدة، كانت تقف كتمثال من مرمر على الرغم من التعب الذي توغل في عمق عينيها. ركض جاز نحوها وهو لا يستطيع أن يوقف الدمعات التي نزلت من عينيه. ضمها إلى صدره بقوة.

- لودميلا. . . ماما لودميلا، أنا أسعد إنسان. كيف أشكرك على تشريفي. كم تمنيت أن تكوني من بيننا لكن المستشفى منعك من ذلك. كم اشتهيت أن تمنحي فرقتنا حبك ومعرفتك. . .

- لا أدري. كلما رأيتك، تذكرت ليتل-مام التي وضعت أمك في عينيها. امرأة لن تتكرر أبدا. وتذكرت حبيبتي مايا التي منحتني حبها وحنانها بسخاء كبير. أشعر بسعادة غامرة لأن مايا كانت تريدك أن تحمل بعض جنونها وجنون كالفي، وها قد صرت بدءا من اليوم رجلا كبيرا وعظيما.

- لودميلا ما أزال أصر أن تفتتحي سيمفونية **رماد الشرق** بالعزف على البيانو. أن تشتركي معنا في هذا العرس. الريبرتوار العالمي كله في رأسك ولا تحتاجين إلى تدريبات كثيرة. استمعت إلى **رماد الشرق**، لنفكر معا بصوت عال، ربما استطعنا أن نعبر معا ممر النور هذا الذي اسمه الموسيقى.

- الآن لا أريد شيئا. أريدك فقط أن تسعد أنت وميترا بهذا الإنجاز الجميل. لقد غادرت موسكو ومسرح البولشوي منذ مدة طويلة ولم أعد إلا في المرة التي دفنت فيها أمي. كنت حزينة أن أرضي تخلت عني بسهولة ولا أعتقد أن صلحا سيعقد بيننا قبل الموت، ولكني مع ذلك شعرت بخواء عميق وألم لا يضاهى وأنا أستمع إليك. أحسست بأن السماء ضاقت على رأسي وأن الأرض صغيرة من تحت قدمي، أكثر مما يتصورها الناس وأن كل حدودها ولغاتها مجرد أوهام.

- أنا بالفعل أسعد إنسان في الدنيا. كم أشتهي أن أدعوك للشرب معنا ولكن. . .

- أنت سيد العارفين. أنا تحت رحمة الملاكين اللذين ينتظرانني. وأشارت لودميلا إلى الممرضين اللذين جاءا برفقتها. مجبرة على البقاء أربعة أو خمسة أيام في الأسبوع في مستشفى الكلى وتصفية الدم. أعيش تحت رحمة الآلات. ولكني أعدك أن ألتحق بك متى كان ذلك ممكنا.

احتضنها ثم تأملها وهي تتكئ على عصاها الصغيرة. لم يضع شيء

من رونقها. رأى فيها مايا وهي تعبر ممرا طويلا أو وهي تهتز لشيء جميل حيث يتغير لون عينيها ويدخلهما إشراق خاص.

صعد الجميع إلى البام، حيث شرفة الأوبرا والمقهى لمواصلة الحديث. فقد كان العرض كاملا وتاما في كل جوانبه ولم يكن به أدنى خلل وهو ما جعل ماركو يصرخ كالطفل وهم يرشفون بيرة مستحقة بامتياز ويرفعون الكؤوس الألمانية الخشنة:

- هذه البيرة ذات المذاق الخشبي ممتازة. قلت لكم بأننا سننتصر على ضعف الحضارة ونقائصها ونستطيع أن نخضعها لحاجاتنا. قتلنا سلطان الضوء. لا تنسوا بأننا كنا أمام سيمفونية هجينة تقترب أكثر من الأوبرا وهو ما صعب المهمة. كنت خائفا من أن ينقص من فاعلية الصورة ولكن الطريقة التي اخترناها جعلت الضوء محصورا فقط على الورقة التي بها التوزيع الموسيقي للسيمفونية، وأنا جد سعيد لذلك. الأشياء البسيطة أحيانا هي التي تهرب من مساحات نظرنا ولهذا يجب التفكير في كل شيء. صور الشريط كانت ممتازة والسانكرونيا كانت مضبوطة إلى أقصى حد. لم نستعمل إلا النسخة الأولى ولم نلجأ إلى نسخة الإنقاذ. شكرا لكم... شكرا لكم جميعا... دورة البيرة هذه علي أنا.

- كنت مدركا منذ البداية أن أي شيء تضع فيه يدك ينجح تقنيا. لم نلحظ أي خلل، على العكس من ذلك ظللنا مشدودين إلى العزف والى الفرقة بشكل لم يترك لنا مجالا للتنفس. ساعة وأربعون دقيقة كانت كافية لأن تجعلنا نحوم في عالم جميل وقاس. وأعتقد أن من يخرج من هذا المكان بعد انتهاء العرض لابد أن يكون ممتلئا حبا وكارها للظلم والحروب وحزينا على شرق لم يجد منذ قرن مسالكه. المايسترو وميترا وبقية الفرقة لم يتركوا أي شيء للصدفة. احترافية عالية. وأعتقد بصدق أن جمهور مدينتنا لن يكون أقل حساسية... أعطيكم خبرا وصلني قبل الدخول إلى الأوبرا من سكرتيرتي: كل الأماكن بيعت في العرضين الخاصين ببروكلين وعرضي أوبرا مانهاتن كذلك.

رد فيليب بحماسه المعهود.

- راحت عليك يا جاز، لن تكون لك فرصة الاستمتاع برؤية العرض الموسيقي المذهل.

قال ماركو لجاز ساخرا وهو يكرع الكأس الثانية من البيرة ذات المذاق الخشبي.

- طبعا لا. ليس لي حظك يا ماركو. فقد حرمتنا من كل شيء عندما وضعت كل الثقل على ظهورنا ورؤوسنا. من حسن الحظ أننا لا نلتفت عندما نعمل، وإلا كنا تركنا كل شيء وغرقنا في دقة اختياراتك. طبعا رأيت ذلك في التسجيل الأولي، وشعرت بهزات عنيفة في الأعماق خصوصا وأنا أرى تركيب الحروب وهزائم الشرق القاسية وجرائم الهولوكوست وفلسطين ومهاجري إليس أيلند وبحيرة هودسون. لا أدري من أين أتيت بكل ذلك الأرشيف ولكنه كان مذهلا واعطى للإيقاعات وقعا استثنائيا شديد الدقة. كنت أخشى أن تسرق منا الجمهور وتجعل من السيمفونية محارة جميلة ولكن فارغة. لا أصدق عيني وأنا أتابع الشريط مع السيمفونية أن البشر بكل هذا القدر من القسوة وهذا السخاء والحب. ما تعلمناه منك يا ماركو هو أن التردد يقتل العمل. ستكون لي فرصة رؤية الشريط التسجيلي الذي صورته اليوم عن عرضنا.

- أمزح طبعا. لقد كنت خارقا في تأليفك وإدارتك. الصدفة يا جاز كما تعرف ذلك جيدا، قد تكون جميلة ولكنها في اختصاصنا، مدمرة مائة بالمائة. الدقة الحسابية والمرونة الذكية هما المتحكمتان في كل شيء. الوسائل الحديثة تمنحنا ما لا تمنحه الوسائل القديمة ولكنها بدون لمسة الفنان، لا دور لها.

- طبعا لولا مجهود الفرقة التي التزمت بالنظام وتحملت قسوة كل الخيبات وظلت ثابتة، واثقة في عملنا وفي غاياته لما حدث الذي حدث. كل واحد أعطى ما استطاع أن يعطي متجاوزا كل الصعوبات.

أضاف جاز وهو ينظر إلى أعضاء فرقته الذين رفعوا الكؤوس عاليا على صرخة ماركو المجنونة.

في آخر الليل أطفئت أضواء الأوبرا الداخلية ولكن الواجهة ظلت بصورها وبإعلاناتها التي كانت تبرق وتتلألأ تحت آلاف الألوان التي كانت تنكسر على قطرات المطر مثل الملايين من الأنجم وبقايا الثلوج التي هدأت بعد أن غطت المدينة بمساحة صافية من البياض. كانت ميترا تبدو على اللوحة الإشهارية وكأنها كائن حقيقي يريد أن يخترق غلاف الصورة ليخرج منها.

في سيارة شيروكي 4x4 نظرت ميترا مليًا إلى وجه جاز. كانت الأمطار الخفيفة قد ملأت وجهها وكونت كويرات صغيرة على شعرها تلألأت تحت الإنارة التي تسربت إلى السيارة:

- هل يسمح لي حبيبي أن أقبله على هذا الإنجاز الضخم الذي كادت حماقته أن تقتله وتحرمنا من متعته؟

- هل تسمح لي أجمل حبيبة أن أقبلها على جنونها الذي صنع منها أعظم أنامل في الدنيا وأرق حنين لم يتخيله أحد؟ أعرف أنه بعد مدة قصيرة ستسرقك مني كبريات الأوبرا الأمريكية، أعرف أن أضواء شارع برودوي لن تتركك على هدوئك الجميل، ولكني لن أسلمك بسهولة. اتركينا على الأقل نستغل فرصة وجودك هنا ما دمت مرتبطة بعقد سنتين أخريين مع الفرقة ولا حق لك في الهرب. سيحاول فيليب أن يحرمك من إمكانية الهرب من أوبرا بروكلين وسأقف بجانبه وسأكون ضدك هذه المرة. ستكون المرة الوحيدة التي لن أناصرك فيها أبدا.

- يا مجنون، لم تعلمك الحياة أي تعقل. تتمادى في غيك ولا تسأل. لا. سأبقى هنا. ملتصقة بك حتى تكرهني. سأكون ظلك الدائم الذي يوقظ كل جنونك الكامن. تربيت في أوبرا بروكلين ولن أتركها ما دامت هي تريدني. أنا مثل لودميلا، صديقة أمك. لن أخرج من الأوبرا. حتى عندما أتقاعد، سأظل هنا. هنا بالضبط، مقابلة لك مع انحراف صغير على اليسار أنتظر حركة يدك تدعوني إلى التلاشي في عمق ما تصنعه أصابعك وما يقوله لك قلبك.

قبلته. هدهدتها قطرات الأمطار التي كانت تتكسر بانتظام على

زجاج السيارة التي لم تتحرك من مكانها وسطحها. هي بالضبط اللحظة التي تسرق منها عقلها وانضباطها وتشعر دائما تجاهها بأنها لمحة ضوء، شعاع الحياة، إغفاءة، نجمة هاربة، لن تتكرر أبدا.

- إلى أين الآن حبيبي؟ أمامنا أسبوع من الراحة قبل العودة إلى صرامة التدريبات.

غمغمت ميترا بين شفتي جاز.

- دايخ. يبدو أن البيرة فعلت فعلها أو الموسيقى، لا أدري. خذيني أينما شئت. أنت سيدة الشأن الآن، لا أريد أن أنام. ألم تقل ماما مايا «لنا كل الموت لننام؟» اذهبي إلى أي مكان يمنحنا قدرا من الجنون حتى الصباح.

- مكان يمنحنا... قدرا من الجنـ....ون...و حتى ... الصباح...طيب...

كررت ميترا وهي تنظر إلى الأضواء وخطوط الأمطار التي زادت وجهيهما نصاعة على اللوحات الإشهارية العملاقة. بدأ صوت المحرك يخترق صمت المكان.

- مكان يمنحنا... قدرا من الجنـ....ون...و حتى ... الصباح...طيب...

لا تدري من أين جاءتها تلك النباهة وكيف لمعت بذهنها فكرة الذهاب إلى هناك، ربما سعادتها. لم تفكر في ذلك من قبل ولم تخطط له. فجأة تذكرت ذلك السبت الهارب الذي دعا فيه كالفينو مايا وطار بها إلى مانهاتن لأول مرة، نحو مطعمه المفضل ذو كمبنغ رومكوفي[٢٦] بمنطقة سوهو[٢٧] كان مكانا جميلا ومليئا بالحياة والجاز بقاعته الآجرَية التي تعطي الإحساس بالبساطة والراحة وباره الواسع والمليّء بالألوان. كان كالفينو مجنونا على الجاز. كان يأتي إليه كلما عاد من سفرة بعيدة

---

(٢٦) The Camping Room Café

(٢٧) SoHo

ليسمع الجاز ويغرق في أدخنة السكارى اللطيفين، ويلتقي مع مايا التي تسبقه عادة إلى هناك لأنه لا يريد أن يستقبل ويودع في المطارات. عادته التي حملها معه إلى مدافن البحرين وطين البحر الميت... مكان يمنحنا... جيد...

تمتمت ميترا بسعادة غامرة ارتسمت في عينيها.

أقلعت ميترا سيارتها باتجاه جسر بروكلين «بروكلين بريدج» المتدحرج بين بحر يسحبه باستمرار نحو الماء وسماء عالية تمنعه من الغرق. خرجت من ٣٠ نهج لافاييت قبل أن تتوغل في عمق فولتون سترويت الطويل الذي يقود مباشرة نحو أعالي بروكلين حيث تتداخل مع جنوب مانهاتن.

كانت الشوارع تستحم في سيول الماء كلما صعدت أكثر. عندما دخلت إلى جسر بروكلين، بدا لها عظيما وجميلا أكثر من كل المرات الماضية، غارقا في أنواره الكثيفة التي تداخلت مع إنارة السيارات وانعكاسات سطح البحر، قبل أن تندفن فيه، وتغوص بعدها في عمق شارع برودوي الطويل الذي يصعد مستقيما نحو أعالي مانهاتن، كخط من الأضواء المتشابكة التي تعكسها لمبات الشوارع وحركة السيارات التي لا يتوقف سيلانها وهديرها الذي كان يشبه هدير البحر.

أناشيد الأراضي البكر

-١-

أول الربيع، لم يكن يوما ربيعيا إلا على الورق.

قطع جاز مسافة الثلاثين كيلومترا الفاصلة بين ليتل-إيطالي في مانهاتن ومطار كندي انترناشونال إيروبورت[٢٨] في ظرف أقل من نصف ساعة على الرغم من ثقل حركة المرور، خوفا من أن يصل متأخرا إذ تغير كل شيء في آخر لحظة. كان يفترض أن ينزل جده بابا شريف في لاغوارديا إيروبورت[٢٩] في كوينز ولكن الطائرة حولت ساعات قليلة قبل وصولها إلى مطار ج.ف.ك[٣٠] بسبب الأحوال الجوية السيئة وسرعة الرياح القوية فوق كوينز. تذكر أنه ورث ذلك كله عن أمه. كانت مايا تحتاط لمثل هذه المفاجآت غير المحسوبة، تعرف جيدا أن بابا شريف مزاجي وحساس جدا، ويمكن بسهولة أن يتصور بأنه غير مرغوب فيه وأنه من المستحسن أن يعود من حيث أتى.

«- جاز حبيبي، أنت لا تتذكر أو أني لم أقل لك ذلك، في المرات القليلة التي زارني فيها بابا شريف، كان علي أن أحتاط لكل التفاصيل حتى لا يحس بأي شيء. لبابا شريف كبرياء مرضي. كان يقول لي

---

(٢٨) Kennedy International Airport

(٢٩) La Guardia Airport

(٣٠) JFK

دائما، لم أبق عند خالاتك ولم أشتغل في مطعمهن، لا كرها فيهن، خيرهم لا يحد، خصوصا ليتل-مام، امرأة عالية، ولا حبا في الابتعاد عنك، فقد كنت في كل نبضة من نبضات القلب. ولكني فضلت ديترويت ومصانع السيارات حتى لا أسمع ضجيج الآخرين من حولي. كنت مثقلا بالخيبة المرة ومتعبا بالهزائم القاسية. حساسيتي أحيانا مرضية ولكنها مني وأنا منها ولم تنزل علي أبدا من السماء.»

في المطار انزوى جاز كعادته ناحية الزجاج الثقيل بحيث يراقب الأمطار وهي تنكسر على الواجهات الزجاجية ويستمتع بشرب قهوته. لا يدري من أين جاءته هذه العادة التي كلما داهمته الأمطار، اشتهاها. شتاء نيويورك لم يغير أبدا من نظامه، يرفض الانسحاب والربيع ما يزال في دلعه المستمر، يظهر ساعة ويختفي أسبوعا. الأمطار لم تغادر سماء بروكلين منذ مدة حتى عاد الناس إلى ألبستهم الخشنة. الشمس التي لمعت قليلا قبل أن تندفن في عمق كتل الغيوم لم تكن إلا لحظة عابرة من فصل ما يزال هاربا. النيويوركيون يعرفون جيدا أن فصل الدفء لا يدخل دفعة واحدة وأن الشتاء يخترق الفصول جميعا. ويحدث أحيانا أن تجتمع كل الفصول في يوم واحد أو نصف يوم.

شعر بمتعة القهوة وهي تتسرسب دافئة في داخله.

لم يسمع صوتها الطفولي في البداية ولكن الإلحاح عليه باسمه جعله يلتفت نحو الصوت:

- مساء الخير مايسترو جاز.

كانت الطفلة في عمر العفوية، تلعب بورقة بيضاء كانت في يدها. على بعد خطوات، هي نفس المسافة التي تفصل عادة بين ميترا والأوركسترا من جهة وجاز من جهة ثانية. نظرت الطفلة الصغيرة إلى وجهه طويلا وكأنها نسيت ما جاءت من أجله:

- هه يا شاطرة، ما اسمك... هل يمكنني أن أفيدك في شيء؟
- اسمي أوليفيا. أنت هو مستر جاز كالفي؟
- نعم حبيبتي أنا هو جاز كالفي، كيف عرفت؟

شعرت الطفلة باطمئنان كبير.

- رأيتك في صورة المطار. أمي تعرفك جيدا.

ثم التفتت نحو أمها التي كانت على بعد أمتار تراقب كل حركاتها.

- أريد أوتوغرافا منك يا سيد جاز كالفي على هذه الورقة.

رسم جاز فراشة ووقع تحتها بعد أن كتب:

«حبيبتي أوليفيا. . . ليكن عمرك مليئا بألوان الفراشات وبحريتها.»

كانت أوليفيا سعيدة وهي تلتصق بأمها التي مدت يدها نحو جاز:

- كلوديا. هل تدري؟ هي التي لمحتك تعبر أمامنا وعندما رأت صورتك الجانبية في المطار، قالت لي: أمي هذا الرجل الذي مر من أمامنا يشبه الرجل الذي على الصورة. كنت أظنها تقول أي كلام ولكننا عندما رأيناك في المقهى تأكدنا بأنك المايسترو جاز كالفي. أنت لا تعرفني. السيدة كلوديا. نحن من سكان بروكلين ونريد أن نحييك على العمل العظيم الذي قمت به. حضرت الكثير من سهراتك خصوصا تلك التي أدرت فيها شهرزاد لرمسكي كورساكوف مع أوركسترا بروكلين. أنا متأكدة من أن عملك الجديد سيكون لافتاً للانتباه. وجدنا بصعوبة محلين في الأوبرا بصعوبة لسهرتك **رماد الشرق**. أحب ما تقوم به.

- أتمنى أن ينجح ما نحن بصدده وأن يلتفت الناس إلى المظالم من حولهم ليقللوا منها على الأقل ويجعلوا الموسيقى تنتصر في النهاية، هذا هو ما نحلم به. عندما نصل إلى هذه المرحلة يجب أن ننجح وإذا فشلنا فنحن لا نستحق الألقاب التي نحملها.

- بروكلين وأمريكا الحية، تعتز بكم يا سيد جاز.

عندما سمعت كلوديا نداء الإقلاع إلى بوسطن، اعتذرت منه. قالت وهي تضع في عمق كفه بطاقتها الشخصية.

- هذه بطاقتي، نعتذر. طائرتنا ستقلع بعد قليل. سنلتقي في حفل الافتتاح، سأكون برفقة أوليفيا.

- سأكون سعيدا برؤيتك. عذرا، عادتي سيئة، فأنا لا أحمل معي أية بطاقة.

- لا تشغل بالك، نعرف جيدا أين نجدك... سأجدك... باي... بسرعة أوليفيا...

تمدد جاز إلى الوراء قليلا، متزحلقا قليلا برجليه إلى الأمام. الوضعية التي يرتاح لها. ثم نظر إلى كارت كلوديا ميريلا. منشطة تليفزيونية ومخرجة سينمائية. فجأة تذكر أنه رآها على شاشة التليفزيون العديد من المرات وهي تقدم حصة: ميوزيك ناو[٣١]. حاول جاز أن يكتم ندما باطنيا انتابه. لا يدري لماذا قال لكلوديا «عندما نصل إلى هذه المرحلة يجب أن ننجح وإذا فشلنا فنحن لا نستحق الألقاب التي نحملها.» ربما لأنه شعر في لحظة اللحظات أن شيئا من أرض كالفينو المبهمة كان في حركاتها ووجهها ونظرتها الحادة واندفاعها.

تمدد جاز أكثر إلى الوراء على الكرسي مستمتعا بمنظر الطائرات التي كانت تنزل وتصعد تحت وابل من الرياح والأمطار. شعر بحيرة داخلية حاول عبثا أن يتفاداها. كل شيء مر بسرعة. لم يبق على افتتاح ربيع نيويورك للموسيقى سوى أيام قليلة. الناس يسألون وينتظرون أكبر حدث فني في نيويورك. «لا شيء غير النجاح. ما عداه يعتبر بلادة غير مبررة». تنفس عميقا كمن خرج لتوه من مكان مغلق تماما. نظر إلى الساعة. الوقت يمر بسرعة غير اعتيادية. الوصول كان مقررا قبل نصف ساعة. نظر إلى الشاشات التي تملأ حيطان مطار كندي بانفعال ظاهر. لم توجد إلا الملاحظة المضيئة الأولى التي تعلن عن تأخر الطائرة القادمة من طوليدو وتحويلها من لاغوارديا إيربورت إلى مطار ج.ف. كندي. نظر إلى وجوه الناس الذين كانوا ينتظرون ذويهم، فلم ير عليها أية حيرة أو أي قلق زائد مما طمأنه قليلا.

«- عائشة أخبرتني بأن الطائرة لن تتأخر إلا ربع ساعة. كانت في

(٣١) الموسيقى اليوم. Musique Now.

الطائرة عندما كلمتني لآخر مرة من الموبايل قبل أن تطفئه، وكانت الطائرة قد أغلقت الأبواب وتستعد للإقلاع؟»

ردد جاز في أعماقه بحيرة كانت بادية على ملامحه وعلى حركاته التي زادت وعلى طريقة القهوة التي كان يشربها. لم يطمئن إلا عندما سمع صوتا يعلن في المكبر عن وصول الرحلة القادمة من طوليدو:

«تعلن شركة أمريكان أيرلاينز عن وصول رحلتها رقم ٦٧ القادمة من مطار طوليدو، التي كان من المفروض أن تنزل في لاغوارديا إيربورت.»

نظر إلى الشاشة ليتأكد، رأى علامة **حطت**. تأكد بأن الطائرة التي كان ينتظرها قد وصلت. لم تكن حركة الناس كبيرة كما هي العادة في مطار فجيرالد كندي، فقد ألغيت الكثير من الرحلات.

عند المعبر الذي يقود إلى الأمتعة ثم الخروج، رأى جده بقامته الفارعة التي لم تقهرها الأيام إلا قليلا. كان يتكئ على عصاه، كعادته. لا يقبل مساعدة أحد إلا عندما يكون مريضا أو عندما يريد هو. ظلت عائشة تسير في أثره وتقتفي خطواته المنتظمة خطوة خطوة على مسافة قريبة جدا منه.

عندما رفع بابا شريف رأسه قليلا، رأى وجه جاز المشرق. لم يكن قادرا على كتم سعادته:

- يبدو أننا أتعبناك زيادة يا جاز من لاغوارديا إلى ج.ف. كندي... مش يومنا هذا... درنا كثيرا في السماء قبل أن يسمح لنا بالنزول في هذا المطار. سعيد جدا برؤيتك.

- الحمد لله على السلامة. جميل يا جدي أن تمنحني هذا الحظ الرائع، أن أستقبلك في مطار نيويورك. الدنيا لا تمنحنا فرصا كبيرة للبقاء مع من نحب.

- سعيد أنك صرت رجلا مهما في هذه البلاد. لا أدري كيف أفسر ذلك، ولكني وجدت فيك ما بحثت عنه عند أمك ولم أجده: الإصغاء... الإصغاء يا جاز حبيبي هو ما نفتقده اليوم والذين نحبهم لا

ينتبهون لهذه الأشياء التي تبدو لهم عابرة. أين وصلت مشاريعك الموسيقية؟ رأيتك منهمكا كثيرا ومأخوذا بها. . .

نظر جاز إلى عيني عائشة الذكيتين. برمشة متواطئة عرف بأنها ما تزال تحتفظ بالسر وأن جده لا علم له إلا بالعموميات.

- أنا سعيد أنك منحتنا بعضا من أيامك يا جدي. تحملت عناء السفر وجئت تحضر معنا افتتاح موسم ربيع نيويورك الموسيقي. عصفوران بحجرة، تغير أجواء طوليدو، وتستمتع بما توفره لنا فرصة هذا الربيع.

- أنا كذلك تسعدني دعوتك إلى طوليدو مع ميترا. ليست معك اليوم. . .؟

- لا بقيت في بروكلين، تحضر لك بيت مايا كما اشتهيت لتكون مرتاحا فيه، المدة التي تشاء. أعرف أنك تحب بيتها ولهذا لم نغير فيه شيئا، ما يزال كما تركته. أشياؤها الصغيرة ما تزال في أمكنتها.

- أفتقدها يا جاز. أصبحت أحس بغيابها في المدة الأخيرة أكثر من أي زمن مضى، وكم أحزن للوقت الذي ضاع منا. المشكل أننا لا نتفطن لحماقاتنا إلا عندما يداهمنا الزمن الذي لا يرحم أبدا. . . هل تعلم أني وقفت طويلا أتأمل وجهك في المعبر المؤدي إلى حزام الأمتعة؟ لم أصدق نفسي عندما رأيت صورتك وصورة ميترا واوركسترا أوبرا بروكلين. كدت أصرخ بأعلى صوتي. . . هذا ابني. . . حبيبي. . .

- هل تعرف يا جاز ماذا فعل جدك؟ تدخلت عائشة التي كانت تدفع بعربة الأمتعة. تركني وذهب بسرعة صوب الصورة وقبلها تحت دهشة الناس الذين كانت رؤوسهم ما تزال مثقلة بسبب الاهتزازات والنزول الصعب للطائرة، وهو يردد على مسامعهم: إنه ابني. جاز كالفينو، ابني. بعضهم فرح معه ووقف بجانبه يقرأ اللوحة الإشهارية، والبعض الآخر اعتبروه يهذي ويقول أي كلام، بسبب هزات الطائرة. فلم يعيروه أي انتباه. ضحكوا ثم مشوا نحو حزام الأمتعة.

- من يستطيع منعي من الفرح بحفيدي؟ لم أقرأ شيئا، إلا اسمك. بقية الخطوط كانت صغيرة ولم يكن يهمني في ذلك كله إلا وجهك. صرت مشهورا... لم أفهم **رماد الشرق**. ماذا ستقدم فيه؟

شعر بسعادة عميقة أن بابا شريف كان على حواف الحقيقة ولم يكن في عمقها. لأنه لو عرف مسبقا لن يكون لعيد ميلاده أية هزة وأية مفاجأة.

- نحتفل بيوم الموسيقى على طريقتنا يا جدي. مقتطفات من الموسيقى العالمية والشرقية. المهم هي الفرصة التي لا نريدها أن تذهب هكذا بدون أن نعيش فيها بعض حقنا في الفرح.

عند مدخل المصعد المؤدي إلى موقف السيارات، توقف بابا شريف متسمرا في مكانه، ينظر إلى اللوحة الإشهارية الكبيرة التي ملأت جزءا من الحائط. تأملها جيدا هذه المرة وفكك كل خطوطها المختلفة الألوان. قال بنوع من الزهو وفرحة ارتسمت في عمق عينيه:

- كبرت يا جاز وصرت عظيما... بي رغبة ملحة للصراخ بأعلى صوتي: يا عالم، اجروا نحوي، هذا الذي ترونه على الصورة صغيري وحبيبي، وهذه صديقته ولكني أخشى أن يعتبروني مجنونا كما حدث لي قبل لحظة. ولكن... لماذا سميت عملك **رماد الشرق**؟ ألم تجد عنوانا أكثر تفاؤلا وسط هذا العالم الهش. كيف جمعت بين الشرق والموسيقيين الغربيين؟

- أنت تعرف يا جدي أن فردي[٣٢] كتب عايدة من وحي الشرق وريمسكي كورساكوف كتبها من عمق ألف ليلة وليلة وبيزات[٣٣] ألف كارمن وهي من بقايا جنتنا الأندلسية الضائعة. عندما نختارهم نفكر كذلك في وقعهم على الناس وفي تقاطعهم ومشتركهم معنا.

جلست عائشة في الكرسي الخلفي للسيارة، بينما استراح بابا شريف

---

(٣٢) Verdier

(٣٣) Bizet

بجانب جاز. وهو يقفل حزام الأمن، بادر بسؤال كان جاز يتوقعه منذ أن رأى جده يعبر البهو الطويل المؤدي إلى منطقة الخروج:

- هل لي أن أطلب منك شيئا؟

- نزور قبر مايا، ونمر على بيتها في بروكلين. أعرف أنك لا تحب مانهاتن، وأعرف رأيك في التفاحة الضخمة التي مازلت تحمل خوفا تجاهها...

- إذن أنت تعرف كل شيء إذن...

- لا يوجد أي إشكال يا جدي. سنذهب، أنا كذلك مشتاق لمايا، أتمنى فقط أن تخف الأمطار حتى تستطيع الوقوف قليلا على قبرها. على كل حال معي مطريتي ومطرية ميترا. لا تهتم...

على القبر، وقف بابا شريف بصمت. كان جاز بجانبه يقبض على المطرية لتفادي الأمطار التي زادت قوتها. انحنت عائشة بعد أن أمالت مطريتها قليلا إلى الأمام ثم وضعت باقة الورود التي كان جاز قد اشتراها من بائع الأزهار المفضل لديها في مانهاتن. لم تفقد نظرات بابا شريف ألقها على الرغم من مسحة الحزن الدائمة، وهو يتمتم ببعض الكلمات، ربما كانت الفاتحة، على روح مايا. عندما انتهى، مسح على وجهه كمن يزيل صورا ثقيلة من نظره. كان جاز ملتصقا به ويحرك المطرية كلما تحرك بابا شريف.

- هل تعلم يا جاز حبيبي أن شهوتي للإقامة بجانب ابنتي كل يوم تزداد تأكدا. لا أنا شبعت منها ولا هي شبعت مني. ربما يمنحنا الموت فرصة للبقاء معا، لم تمنحها لنا الحياة. سأترك لك نسخة من وصيتي، هي عند عائشة. لم أعد أثق كثيرا في الأيام المتبقية. لقد وصلنا إلى عمر تزداد فيه خديعات الزمن. كم أشتهي أن أنام بجانبها وأعتذر لها عن الوقت الضائع! كم أشتهي أن أسمع صرختها كلما أغضبتها بدل أن ترجع كل شيء إلى قلبها! أريدها أن تعلي صوتها في وجهي وتقول لي إنها غير موافقة على أن تصمت كما تعودت أن تفعل. صمت الآخر يقهرنا ويرمينا مباشرة في دوامة الندم والحسرة.

- طول العمر يا جدي. . . الدنيا هكذا ويبدو لي أنه لا جدوى من الندم ولكن أن نحب أكثر من فقدناهم ونلتصق بالحق المتبقي لنا في الحياة. تعلمت هذا من مايا. ربما أخذته في النهاية منك.

- لا أدري. مشكلتي مع مايا هي أننا نتشابه إلى حد بعيد كما قلت لك سابقا. للدنيا نظامها يا ابني ونحن جزء من هذا النظام. غريب هذا الربيع الذي لا يأتي أبدا حتى وأنتم تحتفلون بموسمه. هذه هي نيويورك كما عرفتها أول مرة، منذ أكثر من نصف قرن. لا شيء يحسسك في هذه المدينة بأن الفصول تتغير. نفس الضباب، نفس الغيوم الداكنة بل نفس الجو الثقيل. كلما دخلت إلى نيويورك، رغبت في العودة السريعة إلى طوليدو، إلا هذه المرة، أشعر كأن يدا قوية تسحبني نحوكم ونحو هذه الأرض التي تنام فيها ابنتي وبعض أهلي. المشكل في طوليدو أنها جميلة ولكنها مدينة العزلة والوحدة وانتظار المبهم.

- هذه هي نيويورك يا جدي، تعرفها قبل أن آتي إلى هذه الدنيا، تفاجئنا حيث لا أحد ينتظرها. الربيع هنا ليس مثلما في المدن الأخرى. لا نتفطن له إلا عندما نجده في زهور حديقتنا ودفء فراشنا وفي قهوتنا الصباحية في الشرفة المطلة على المدينة. في النهاية، سيتخلى الشتاء عن عناده مفسحا الطريق أمام النوار والأعراس الجميلة.

عندما التفت جاز وراءه بعد أن سبقهما إلى السيارة، بدا له بابا شريف وعائشة تحت المطرية وهما يعبران ممرات المقبرة، لوحة مبهمة الألوان، لا تستقر على شكل. كانت الأمطار تغيِّب حركتها وألوانها وتحولها إلى مجرد ظلال هلامية تسير تحت آلاف الخطوط من مياه الأمطار التي غطت كل شيء، ساعدتها في ذلك، غلالات الضباب التي كانت تنزل شيئا فشيئا ماسحة جزئيا، علامات المقبرة والشجيرات والشواهد وحتى محيط المكان الذي كانت تقف فيه السيارة.

عندما وضع جاز يده في يد جده شعر بالألوان ترتبك في عينيه. تمتم بابا شريف وهو يلتفت نحو مسالك المقبرة والأصوات الخفية وكأنه كان يحادث نفسه:

«- لا شيء تغير . . . أبدا لا شيء. كلما وقفت على قبر من أحب، سحبتني الذاكرة نحو ظلامها بقسوة. أشعر فجأة بضياع الجغرافيا، كأني لم أعش في نيويورك ولا حتى في ديترويت ولكن في مدن ما تزال تنام على وقع المدافع والحروب والخوف. وعندما تتعب وتحني أسلحتها قليلا باتجاه الأرض يأتي من يذكي فيها الأحقاد الدفينة ويوقظ الحروب الأهلية الطاحنة. أدرك اليوم بأننا نسير وفق قدر خطط لنا من أيامنا الأولى، بدءا من اللحظة التي مزقت فيها الجغرافيا بشكل عمدي ومدروس. انفصلنا عن تركيا لنبني وطنا كبيرا ونسترجع مجدا مسروقا أو ضائعا، فجاء من يقترح علينا أوطانا وحروبا وأحقادا جديدة. قاومنا الفكرة باستماتة وظننا أن حربنا لن تكون حربا خاسرة وأن أبناءنا سيحملون أسلحتنا ولكننا في هذه المرة أيضا كانت خسارتنا قاسية، اكتشفنا أن حروبنا لم تعد تعني الشيء الكثير لأبنائنا. بعد ٦٧ سقطت آخر أوراق جيلي الذي وجد نفسه عاريا حتى من ورقة التوت التي كانت تستر عورته، ولم تفهم مايا أبدا سر صمتي؟ تصور خطابا يفتح أمامك كل مسالك الدنيا ويشربك الانتصار في فنجان القهوة الصباحية ويحشوه في البيجاما التي تمنحك النوم الهادئ، وفجأة تكتشف أن الذين كنت تريد أن ترميهم في البحر وقفوا على ضفاف أنهارك ومدنك وقلبك يقهقهون من سذاجتك الكبيرة. مايا لم تفهم أبدا أنَّ الإنسان عندما يصمم على الموت في المنفى، ذلك يعني أن الخيط الذي كان يربطه بالعودة وبالحياة قد تقطع نهائيا ولم يعد يجدي معه الترقيع. وأن الخيبات تراكمت حتى صار من الصعب ترقيعها كما تعودنا على ترقيع أقمشتنا التي تبلى. مشكلتنا أننا عندما يتمزق لباس ويصير صغيرا على ظهورنا، نضعه في الوسادات ولا نسأل عن البقية وعندما تنغلق سبل الدنيا نخرجه ونتدثر به من جديد ولا نعرف أن الكثير من الألبسة عندما تتمزق يصبح من الصعب رتقها. وأنت يا جاز، ربما كنت من همٍّ آخر وانشغالات أكثر تعقيدا، ولكن، على الأقل تبذل مجهودا كبيرا لأن تنصت إلى هذا الأنين الخفي الذي لا يسمعه كل الناس. كنت أذهب إلى العمل وكلما

نظر إلي شخص ما، أعرفه أو لا أعرفه، لا يهم، شعرت به يعريني من كبريائي ويضع هزيمتي أمام عيني. تصور. . . ثم يقف قبالتي ويقهقه بأعلى صوته. طعنة ٦٧ كانت آخر الطعنات التي قذفت بي في عمق الصمت الذي يشبه الموت، بل وأقسى منه، لأنك ترى نفسك تموت يوميا آلاف المرات ولا تستطيع أن تحرك ساكنا ضد قدرك الذي فُرض عليك. هل تدري قدر القسوة عندما تفشل في الدفاع عن حقك وترى الظلم يشتعل في داخلك؟ كانت إسرائيل هي أول من أعلن الحرب الثالثة، وفي ظرف ستة أيام يسمونها Milkhemet shehet hay amim ملحمة الأيام الستة، تم تغيير الجغرافيا والتاريخ مرة أخرى، فضمت القدس الشرقية، والضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء إلى الدولة العبرية. وتضاعفت أرض إسرائيل أربع مرات في أقل من أسبوع. العالم الذي بني على الاستخفاف بالعقل العربي، قال إن العرب هم من بدأ بالاعتداء إلى أن كذبهم الجنرال إسحاق رابين الذي لم يكن يريد أن يسرق منه الانتصار: «لا أظن أن جمال عبد الناصر كان يريد الحرب. الفيلقان اللذان دفع بهما نحو صحراء سيناء لم يكونا كافيين للهجوم على إسرائيل. كان يعرف ذلك كما كنا نعرفه.» في فجر ٥ جوان ١٩٦٧، عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، حلقت طائرات حربية فوق المتوسط بشكل منخفض لتفادي الرادارات، وأفرغت جام غضبها على المطارات العسكرية المصرية. في ٥٠٠ طلعة، تم تدمير ٣٠٩ طائرات حربية من مجموع الـ ٣٤٠ التي كان يملكها الطيران الحربي المصري. وعندما تجرأت الدول الغربية قليلا وفتحت فمها لتوقيف الطيران الإسرائيلي عند الحدود المسموح بها، صرخ أبا إيبان مذكرا الغربيين بجرائمهم النازية: «حدودنا هي حدود الهولوكست.»، فصمت الجميع وكأن ماء باردا أفرغ على رؤوسهم، بينما كان جيش التسحال يقتل ويحرق كل ما اعترض طريقه، متخطيا الخط الأخضر باتجاه الجولان وبسط الهيمنة على أكثر من ٩٠٪ من المقدرات المائية في المنطقة. أشعر كأن الدم سيعوم على الماء ذات يوم ليس ببعيد، فحروبنا القادمة

سيكون الماء سيدها وسيصبح الجشع هو محرك الأمم. لا أفهم كيف يتحول المقتول الذي سرقت منه النازية الشنيعة شرطه الإنساني إلى وحش ضار؟ في ٨ جوان من السنة نفسها، في صحراء سيناء، في مدينة العريش، قتل أكثر من الف سجين بالطريقة التي ابتدعها التسحال. كان الإسرائيليون يطلبون من السجناء العرب أن يحفروا قبورهم قبل أن يجهزوا عليهم برصاصة في القفا وببرودة دم. محنة... محنة...»

– اركب يا بابا شريف... اركب...

قال جاز وهو يفتح باب السيارة التي غابت نهائيا في عمق الضباب الذي كان قد غطى كل شيء. لم يسمع إلاً صوت جده يأتي كالتمتمة الخافتة:

– لا تشغل بالك يا جاز، كله محصّل بعضه في هذه اللحظة بالذات، لا تهتم...

-٢-

هادئة ودافئة تأتي موسيقى **الفصول الأربعة** لفيفالدي إلى مسامع الناس الواقفين تحت البرد والمطر ينتظرون دورهم للعبور إلى القاعة الواسعة.

بدت أوبرا بروكلين بأضوائها المشتعلة كأنها قطعة هاربة من الجنة. كل شيء كان يشع بآلاف الألوان. على الرغم من الأمطار والبرد، فقد كان جو من الدفء يحيط بحوافها. يدور حولها حزام من الناس امتد طويلا من عمق الأوبرا، متسرسبا عبر الحائط الآجري القديم، على أطراف نهج لافاييت. كان اللون الأخضر الباهت الذي يضيء عادة إليس آيلند وتمثال الحرية يغمر مدخل واجهة الأوبرا. الناس كانوا ينتظرون ولم يبد عليهم أي تذمر إلا الذين لم يجدوا مكانا لهم.

عندما أدخل الأعوان بابا شريف وعائشة من الباب الخلفي للأوبرا، كانت الكراسي الأولى المحجوزة للضيوف قد امتلأت عن آخرها ما عدا

كرسي فيليب الذي كان ما يزال في بهو الأوبرا يحاول أن يقنع من لم يجدوا لهم مكانا أن يعودوا في اليوم الثالث.

من وراء الستائر، كانت الأوركسترا تأخذ أمكنتها وتتحسس آلاتها قبل انفتاح الستائر. فتح جاز الستار قليلا من الزاوية بحيث يرى كل شيء ولا أحد يراه، لمح جده وكل الناس الذين يحبهم في الكراسي الأمامية بينما بدأت القاعة تمتلئ ساعة قبل بدء العرض.

أغلقت أبواب الأوبرا الثقيلة على قرابة ١٥٠٠ شخص. بقي في الخارج أكثر من الذين كانوا بالداخل، على وجوههم علامات الخيبة. كانوا يظنون أنه بإمكانهم شراء أماكنهم بعين المكان. احتجوا طويلا ولم يغادروا المكان إلا بعد أن وعدهم فيليب غلاس نفسه بعرض خاص إضافة إلى العرضين المبرمجين. كرر مرة أخرى على مسمعهم:

- أرجوكم. أنا أحس بخيبتكم ولكن الأوبرا تجاوزت طاقتها الاعتيادية. أعدكم بأنه بعد العرضين المبرمجين سنسعى إلى أن نقدم عروضا أخرى. سنحاول أن نولف بين التزاماتنا وما ينتظر منا من طرفكم.

- هل نعتبره وعدا منكم سيد فيليب؟ حاولت حتى في أوبرا مانهاتن ولكنها بدورها مملوءة منذ أكثر من أسبوع. لم يبق لنا إلا مهرب نيوجيرسي ولكننا ووجهنا بنفس الإجابة، فرجعنا من جديد إلى مدينتنا.

قال شيخ كان يقف بصعوبة تبدو على وجهه علامات الخيبة.

- وعد مني. سنرى البرمجة وتواريخ الالتزامات. أنا متأكد من أن أوركسترا بروكلين لن تخيب سكانها وأنكم ستعيشون معها هذا الربيع كما في المرات السابقة.

انصرف الجميع تحت وقع الأمطار بعد أن ألقوا نظرة أخيرة على الأوبرا الغارقة في أضوائها بينما صعد البعض الآخر إلى البام لشرب قهوة أو بيرة في محاولة يائسة لنسيان الخيبة القاسية.

كانت علامات السعادة تبدو واضحة على وجه جمهور القاعة من الذين حصلوا على أمكنة لمشاهدة العرض. كان أغلبهم منهمكين في

الأوراق التي وزعت عليهم في المدخل، يطالعون كلمات عن تاريخ أوبرا بروكلين وعن الأوركسترا الفيلارمونية للمدينة، وعن فكرة السيمفونية وعن مؤلفها جاز كالفينو وبقية أعضاء الأوركسترا الفيلارمونية وعن دلالة التقسيمات التي اختارها مؤلف **رماد الشرق**.

- **بريلود افتتاحي**.
- **الحركة الأولى**، مشانق الربيع الدامي.
- **الحركة الثانية**، خيبات تربة ميسلون.
- **الحركة الثالثة**، رماد الشرق اليتيم.
- **الحركة الرابعة**، شبابيك إليس آيلند.
- **مقطع اختتامي**.

انطفأت الأضواء الرئيسية إعلانا عن البداية واشتعلت النواصات الجانبية، يخترقها اللون الأزرق الباهت والأخضر الناعم والأحمر الذي تبعثر على الجوانب الأمامية لزوايا القاعة وعلى ستائر الأوبرا المرصعة بالنجوم التي التمعت تحت انعكاسات الإنارة. بدا ديكور القاعة الواسعة، المخمل الآجري والقطيفة السوداء والجلد الرمادي الفاتح، ناعما وألوانه هادئة وغير مستفزة للحواس.

كان إيقاع موسيقى فيفالدي، الفصول الأربعة ما يزال يملأ الفراغات والأسئلة. يأتي خفيفا وناعما ليستقر في أسماع جمهور يتلذذ بمتعة القراءة والانتظار.

من وراء الستائر قام كافكا بآخر التحضيرات عن قرب قبل أن يلتحق ببقية أعضاء الفرقة في غرفة المراقبة. أعاد موقعة كل الكاميرات التي كانت جاهزة لتصوير الحفل. تفحص هو ومهندسه، الإنارة الصغيرة التي ثبتت تحتها مباشرة ورقة التوزيع الموسيقي الموجود أمام كل واحد من أعضاء الأوركسترا. ثم هز إبهامه عاليا باتجاه جاز مؤكدا على استقامة كل شيء. فرد عليه جاز بالحركة نفسها.

للمرة الأخيرة اتجه جاز نحو ميترا. وقف وراءها وثبت يدها جيدا على مقبض الكمان وهو يتمتم في أذنها مازحا:

- أمازلت بحاجة إلي؟ أن أقف وراءك؟

- مجنون... لو لم نكن في سهرة لعضضتك من أنفك.

ردت ميترا بابتسامة عكسها كلُّ محياها. شعر جاز بأن ميترا مرتاحة داخليا.

- جيد. كل شيء سيمر كما خططنا له.

أجابت ميترا بصوت يكاد يشبه هسهسة الفجر:

- لا تخش شيئا حبيبي، سننجح بامتياز. لا يمكن أن نخذل هذا الجمهور الجميل. ننتظر إشارتك فقط.

ثم تسرسب بين أعضاء الفرقة ليقف على الساكسوفونيست الذي كان يدندن بفمه الأصوات ويضبط بحركة رجله اليمنى الإيقاعات الخشنة والمفخمة. من خزرته الهادئة والمرتاحة، عرف أنه كان على استعداد كامل. قبل أن يعيد ترتيب الكورال الرباعية في الأخير، فوضع بجانب كل شاب، شابة لكي يصبح الصوت الجماعي متداخلا في بعضه بعضا... كل شيء كان مرتبا كما اشترطه جاز قبل بدء السهرة. ميترا. الفيولونسيل. الكلارينات. البيانو في الزاوية المظللة حيث باتريثيا تهز رأسها وهي تعزف على بياض. الكنترباس. الآلات النحاسية المتراصة في خطوط مستقيمة ومربعات. الشاشة الخلفية الكبيرة التي كانت تبدو كقطعة زجاج معلقة أو كلوحة بيضاء في انتظار فنان يملأها بإشاراته وألوانه. كان يعبر الممرات التي تفصل بين مجموعات الأوركسترا الموسيقية، شعر بهم قريبين منه أكثر من أي زمن مضى. سمع نبض قلوبهم قريبا منه، بتنفسهم وهو يأتيه دافئا، مليئا بالنعومة ورعشات الهشاشة الطفولية.

ثم سار نحو الخلفية حيث كانت تتخفى لودميلا وقد أشرق وجهها كصبية. قبل خدها الأيسر كما في العادة الروسية التي بدأت لودميلا نفسها تنساها:

- لودميلا؟ كل شيء على ما يرام؟ جاهزة لنشيد أمريكا؟

- تماما.

احتضنها وتمتم في أذنها، فرددت معه النشيد بابتسامة أشرقت تحت اللمبات الملونة الصغيرة التي كانت تحيط بالشاشة الواسعة:

أريد فقط أن أفتح عيني في المدينة التي لا تنام.

وأكون أنا سيد المكان...

نيو...يوووووورك... نيو.يوووووورك... نيو...يوووووورك.

شعر بسعادة كبيرة من أجل لودميلا التي ستكون من حين لآخر صدى لباتريثيا الأنيقة كذلك. صحيح أن دورها محدود في سيمفونية **رماد الشرق** بسبب مرضها المزمن ولكن حضورها الرمزي كان كبيرا. لأول مرة ستواجه لودميلا جمهورا عريضا أحبها في البارات قبل أن يراها تعزف الريبتوار الكلاسيكي العالمي في أوبرا بروكلين.

عاد إلى موقعه. تأمل الفرقة المنتظمة بشكل كامل. بدت له ميترا جميلة بلباس الليناج الأسود المقطوع في الخصر بحزام أحمر.

رفع جاز قصبته الذهبية. وبحركة منه، استقام جميع أعضاء الأوركسترا. لم يسمع إلا صوت قيامها ليسود بعد ذلك صمت مطبق.

شيئا فشيئا بدأ الستار ينفتح مظهرا الأوركسترا بكامل انتظامها. التفت جاز الذي كان مقابلا للأركسترا، نحو الجمهور. لم يفاجأ بالكثافة البشرية التي لم تترك مكانا واحدا فارغا. حتى الممرات امتلأت ولم تبق إلا معابر الإنقاذ التي ضاقت بدورها. في لمحة بصر بدا له أنه رأى كل الوجوه.

انحنى قليلا إلى الأمام، فتبعه كل أعضاء الفرقة، كما يشترطه التقليد. زادت عاصفة التصفيق التي لم تتوقف لدرجة أن الفرقة بقيت واقفة مدة طويلة ترد على التحيات قبل أن يدعوها إلى الجلوس. كانت الشاشة، في الخلفية، تظهر تصفيقات الجمهور أو بعض أعضاء الفرقة في إطارات مكبرة. وعلى أطرافها اختلطت كل ألوان الطيف الباهتة.

نزل الصمت قويا وضاغطا. شعر جاز بالحرارة تتصاعد من ذاكرته.

تقدم قليلا إلى حيث دائرة من الضوء. فتح الورقة التي كانت في يده عن آخرها. نظر قليلا صوب القاعة باتجاه جده الذي ظل يتتبع كل حركاته. كان منغمسا في سعادة كبيرة طبعت محياه. لأول مرة يرى الابتسامة ترتسم على شفتي بابا شريف بهذا الشكل.

قال جاز بهشاشته المعهودة ورقته التي يعرفها جميع الناس عنه:

- «أعذرونا على الأمطار، كنت أتمنى أن يكون الجو مشمسا ولكننا سنصنع ربيعنا معا في هذه الأوبرا الجميلة. واعتذر للجمهور الذي لم يجد مكانا له وكم تمنينا أن تحتويهم هذه القاعة جميعا وأدرك حزنهم ولكننا سنجد حلا لذلك في الأيام القادمة. أربع كلمات إذا سمحتم لي أريد أن أقولها في هذه السهرة التي أتمنى ألا تكون مخيبة. مهم أن ننجح في رهاناتنا في ظروف صعبة كهذه.

الكلمة الأولى موجهة لضحايا هجومات ١١ سبتمبر. الصدفة والصدفة فقط هي التي شاءت أن نكون اليوم هنا. كان يمكن أن يكون أي واحد منا في مكان الضحايا. إحساسي بالحزن يذهب نحوهم جميعا نحو أسرهم وأحبتهم وكل الذين يموتون ظلما وهم لا يعرفون لماذا قتلوا. يمكننا أن نقول ما نشاء، لكن لا شيء يبرر الجريمة في حق أناس لا يطلبون أكثر من العيش كبقية الخلق في الهدوء والطمأنينة.

الكلمة الثانية تذهب إلى جدي الذي أدين له بالكثير في هذا العمل. أشكره كثيرا، فقد علمني أشياء عظيمة لم أكن أعرفها. هذا العمل السيمفوني مستوحى بقوة من تجربته الكبيرة التي تشبه إلى حد ما الكثير من تجارب العائلات المهاجرة التي وجدت نفسها، لظرف أو لآخر، في هذا البلد الطيب، محاطة بالمحبة والاحتضان على الرغم من الصعوبات التي نعرفها. جدي مثلكم، لا يعرف شيئا عن هذا العمل إلا ما يراه الآن. أعود لما قالته لي أمي، مايا كالفي التي يعرفها الكثير منكم في بروكلين ويحتفظ لها بلوحات في بيته: «الهوية تعاش بغنى واعتزاز، فكلما انحصرت صارت مرضا قاتلا.» هذا بالضبط نشيدنا اليوم. هذا

العمل مهدى لجدي الذي منحني ما لم يمنحه لأي شخص آخر: ذاكرته. من كثرة ألمه وخيباته وأحزانه المكتومة وعزلته الكبيرة، لم يعد يحفل كثيرا بتفاصيل حياته. ربما يكون هو نفسه قد نسي، فاليوم عيد ميلاده الخامس والتسعين وليس مستعدا أن ينسحب من هذه الدنيا قبل مائة سنة أخرى. له طول العمر ولكم جميعا السعادة والمحبة.»

ضجت القاعة بالضحكات والتصفيقات الحادة. رأى ارتسامات الفرحة على محيا بابا شريف الذي بدا عليه بعض الخجل والتأثر. أخرجت عائشة منديلها ومسحت دمعه الذي ساح غزيرا بين الأخاديد من وقع المفاجأة الجميلة التي هزته بحنان لم يستطع مقاومته.

- «**الكلمة الثالثة** هي هذا العمل السيمفوني الذي أسميته **رماد الشرق** والذي استغرق إنجازه العديد من السنوات. كل شيء مفصل داخل الوثيقة المطوية التي قدمت لكم عند المدخل. **رماد الشرق** ليست درسا في التاريخ ولا في قسوة الجغرافية، ولكنها درس في الحياة التي يجب أن نحافظ عليها بقوة. وراء سعاداتنا اليوم، آلام كثيرة عاناها من سبقونا وبنوا هذه الأرض بعرقهم ودمهم لكي تكون أرضا متسامحة ومحبة للغير. صحيح أن الموسيقى لا تدفئ طفلا يموت بردا، ولا تطعم جائعا ولا تحرف رصاصة ملتهبة عن مسارها القاتل ولا تسكن نزفا، ولكنها رهاننا الكبير لزرع قليل من المحبة بين الناس والتأمل عميقا في دواخلنا التي لا نزورها إلا قليلا. **رماد الشرق** سيمفونية بالمعنى الكامل للكلمة ولكننا أردناها أكثر من ذلك. مغامرة أنتم أحسن من يقدر جدواها. حاولنا أن نجمع بين السيمفونية والأوبرا واستفدنا مما يمكن أن تمنحه لنا التقنيات الحديثة من إمكانات عالية. كل ما سترونه على الشاشة الخلفية حقيقي يجعل من السيمفونية ذاكرة مستعادة.

الكلمة الرابعة تذهب نحو حبيبتي ومعلمتي لودميلا التي كانت نجمة البولشوي والمسارح العالمية ولكن زمنا أملس، بلا حب ولا ذاكرة، سرق فرحتها. كانت سيدة السعادة في عزفها السخي في البارات والمطاعم قبل أن تجد مكانها في أوبرا بروكلين. الكثير منكم ومن

أبنائكم تعلموا على يديها. لم نمنحها ما تستحق، فهي فوق كل هذه الاعتبارات ولكني أشكرها لقبولها الانضمام الرمزي إلى فرقتنا على الرغم من مرضها الذي يمنعها من التنقل. ومعها يذهب تفكيري نحو أمي. فقد كانتا فراشتين زرعتا دفئا ملونا في قلب هذه المدينة.

ولا أترككم مع ربيع مدينتنا قبل أن أشكر العمل الجبار الذي قام به شخصان: فيليب غلاس، مدير الأوبرا الذي تحمس للمشروع ورعاه حتى النهاية ولم يستسلم أبدا للمشاكل التي كثيرا ما دفعت بنا إلى اليأس والقنوط، وماركو، الذي ذلل كل العقبات الفنية ومنحنا الفرجة والمتعة التي نستحق جميعا والجنون الذي نحبه ونخافه.

أتمنى لكم سهرة ممتعة وشكرا... شكرا... شكرا...

علا التصفيق بحرارة ليتردد في أرجاء الأوبرا لحظات طويلة من الزمن، بينما بدأت الأضواء تخفت من جديد ولم تبق إلا دائرة الضوء التي كان جاز يقف في وسطها، واللمبات الحادة، المسلطة على ورقة التوزيع الموسيقي، الموجودة أمام كل عضو من أعضاء الأوركسترا. وتوقفت نهائيا خشخشة ستائر بروكلين عندما تنزلق لتنغلق أو لتنفتح.



IV - أصداء الزمن المستعاد



بريلود[٣٤] افتتاحي

رفع جاز ذراعه اليمنى. بقي على وضعه للحظات. كان الصمت سيد المكان.

ثم رسم خطه المعتاد الذي ينزل من العلو نحو الأسفل قبل أن يشكل بقصبته الذهبية نصف دائرة ارتسمت بسرعة في فراغ كان وحده وأفراد أوركسترا بروكلين يعرفون معناه ومؤداه. ارتفع أنين الكمان هادئا ومتموجا. تمايلت ميترا قليلا برأسها، يمينا ثم يسارا. أغمضت عينيها وتركت أصابعها تنساب داخل نعومة القصبة التي كانت تنزلق بسلاسة على خيوط الكمان. لم تكن بحاجة إلى قراءة التوزيع الموسيقي أمامها، فقد حفظته عن ظهر قلب. كلما فتحت عينيها داخل ذهول المتعة والغيبوبة الجميلة، بدت أمامها قامة جاز الفارهة بلباسه الأسود ويده التي لا تتوقف عن الحركة، أكثر قربا وأكثر انسجاما مع ما كان يخرج من كمانها الذي ظل متشبثا بين دفء ذراعها وانحناءة الرقبة.

في الخلفية، ارتسمت على الشاشة في اللحظة نفسها تدفقات نهر هودسون في صور متلاحقة بالأبيض والأسود. أحصنة تركض مذعورة من هدير السفن الحربية التي تحتل الحواف، ووجوه لا خيار لها إلا الحرية التي لا حدود لها والدفاع عن أرض مفتوحة على السماء وصفاء التربة. تشرق شمس فجرية مليئة بالضوء، تنعكس على سطح النهر بقوة محدثة شلالا من الأنوار التي تصعب مقاومتها ومواجهتها. تركض

---

(٣٤) Prélude

الأحصنة نحو رجال سيدتهم الشجاعة والحكمة والغليون الطويل. كانوا محاطين بأقوام لا حصر لها، تريد إجابات عن ذعرها الذي كان يتنامى كل يوم أكثر، كلما احتل معبر من معابر النهر من الرجال البيض التي غزاها الضباب ومحا كل مسالكها المعروفة.

لم يكن النغم مرتبكا ولا متلعثما، ولكنه كان جميلا كجرح خيبة حب كبير. شعرت ميترا بنفسها تغوص في عمق الألوان. تطير كفراشات البحيرات الملونة. تعبر ضبابا شفافا لا يترك أمامها إلا بعض المعابر الضوئية. تمشي داخل مسالك البياض والإشعاعات المنعكسة على سطوح الأمواج الرخوة المتمادية الألوان، بنعلين خفيفين مثل نعلي راقصات البالي. تتخفى داخل النور والشعر والخمرة الغائبة. يتكشف من وراء غلالة الضباب، الفردوسي[٣٥] الذي عشقته عندما سمعت باسمه من والدها لأول مرة وارتبطت به عندما قرأت كتاب الملوك. **الشاهنامة**. قالت لجاز يومها، عندما أصيبت بحبه: **لو لم تكن أنت لكان هو**. احتاج جاز إلى وقت كبير لكي يفهم سحر الرجل وجاذبيته. قالت له: «لولاه لماتت بلاد فارس. جاء بها من بعيد بعد أن أيقظها من موتها. وعندما أباد الخميني روح البلاد، سمعت صوته يأتيني من خفاء ما، خافتا وحزينا، في الوقت الذي سمعه فيه والدي وأمي. كان يقول: غادروا بسرعة هذا القفر الرملي. ستأتيكم من الجبل المقابل عاصفة رعدية ستنزع الأشجار وتبعثر الأوراق وستنزل من السماء المظلمة ثلوج تمحو أمامكم كل المسالك.» عندما خرجنا، كان كلام الفردوسي يصب في الحقيقة. أبي الذي نصحنا لم يسمع إلا لجنونه بعد أن ترك نفسه يذوب داخل عطر عمر الخيام[٣٦]. من بعيد جاءه، اعترض طريقه، كان جسده معطرا بماء الزهر وعود النوار وقشور التفاح. لم يسمع لنصائحه وبات ينشد في حي النساء، كان يرفض تسميته حي المومسات، حتى

---

(٣٥) ولد في ٩٣٤ وتوفي في ١٠٢٠.

(٣٦) ولد في ١٠٤٨ وتوفي في ١١٢٢.

إنقض عليه الحرس الثوري وأحرقوا البيوتات الجميلة التي كانت تأسرها أناشيد الخيام وشعراء الحياة الذين أصيبوا بجنون الروح. عندما ضاقت عليهم الأرض، سرقوا من الجنة بعض أجزائها وعاشوا داخل أسرارها.

مدت ميترا ذراعها بكل طوله، في خط شبه مستقيم، صارت النغمة أنينا وانحدارا نحو الأعماق الدفينة. الصوت الذي خرج شجيا مبحوحا من الكمان، اختلط بحرائق ما سماه قتلة والدها ماخورا، بياقوته وزمرده وحكاياه ومنمنماته وصناعاته ولذاته المسروقة. «الأراضي العظيمة تقتلها أحيانا قملة تمتص دمها وتسمم تربتها.»، حكمة حفظتها ميترا عن والدها. بدا لها والدها أكثر قربا من أي زمن مضى من عينيها وهو يبحث في سنطوره القديم عن أدق الإيقاعات التي كان يشتهيها مولانا جلال الدين الرومي[٣٧] وهو ينتفي من عقال الجاذبية التي كانت تكبله، وهو في خلوته الكبيرة يكتب **المثنوي** وينظر في الوقت نفسه إلى المشانق التي كانت تنصب على حواف الطريق وكان على يقين أن إحداها تنتظره. سيقال له أنك ألبست نصك لباس القرآن حتى صار شبيهه وأغلقت الأبواب ورميت مفاتيحه بعيدا عن هذه الأرض. لا يرد لأنه اختار أن يسلك طريق المثنوي المزدوج: طريق السكينة والهدوء الذي يترسب عبر مسالك الطبيعة قبل أن ينتهي إلى بحر الخلود، وطريق المجرى العاصف والزبد الذي يخلفه انكسار الأمواج العنيفة، الذي يغرق في عزلة الهضاب الناشفة. يأتيه حافظ الشيرازي[٣٨] سيد الأشواق ولسان الغيب، وهو في حي النساء مليئا بالأشواق وأنوار السنطور المسكرة، وينصحه أن يتزوج اللغة المبهمة وأن يتبطنها، وينسى أنه ابن هذا الزمن. ينشده شوقا وحنينا لم يعهده من قبل:

إذ تضع كنز العشق في قلب جريح،
ستنتشر ظل الغنى على الأرض اليباب...

---

(٣٧) ولد في ١٢٠٧ وتوفي في ١٢٧٣.
(٣٨) ولد في ١٣٢٥ وتوفي في ١٣٨٩.

لكن رجل السنطور الأوحد في البلاد، يرفض إلا أن يكون ابن هذا الزمن الذي لم يعد يحفل بالشعر والحياة كثيرا ويمنع السعادة المسروقة والأفراح الصغيرة. انكفأ رجل السنطور الأوحد في حي النساء وعزف على أدق خيط، كان الوحيد الذي يعرف سحره ورد على الشيرازي بنشيد سمعه منه قبل زمن:

فجر البارحة، أدخلوني في غمرة الحزن،

لكني في ظلمات الليل، سقيت بنبع الحياة.

سكت حافظ الشيرازي. هز رأسه قليلا، ثم انسحب كما دخل، متبوعا بالسعدي[٣٩]، الباحث عن توازن الروح وحرائق الجسد الذي لم يقل ولا كلمة.

مرة أخرى مد جاز يده اليسرى وفتح أصابعه الخمسة عن آخرها، مشيرا إلى بقية الفرقة النحاسية التي صعد نغمها الجماعي متكاملا مع كمان ميترا الذي كان ما يزال يصدح داخل زمن اللاجدوى. تسابقت في الخلفية، صور الأفراح التي لا تقهر. كان العالم مهرجانا من الألوان تصنعه الفراشات التي كانت تأتي من أمكنة مختلفة. تصاعدت أكثر قبل أن تخف قليلا ملتصقة بضربات الصنوج التي كانت تأتي من بعيد كنذير شر، مفسحة المجال أمام نحيب الكلارينات الذي ردد نفس الإيقاعات التي عزفت ميترا على ميزانها. ضربات الطبول الخلفية كانت تعلن عن علامات حرب ممكنة. الأرض بدأت تخسر وحشيتها الأولى وطفولتها. أغمض جاز عينيه وهو يدخل في عمق الإيقاعات ذات الأصداء الخشنة. انسحبت ميترا شيئا فشيئا من المشهد ونام رأسها على الكمان بحنان اليائس وسال شعرها على جزء من الآلة الخشبية القديمة ذهبا مسبوكا وناعما.

في الخلفية، كانت الأدخنة تملأ الشاشة. كانت السفن الخشنة ترسو الواحدة تلو الأخرى، تحمل أعلاما سوداء عليها جماجم وعظام. تتوقف

---

(٣٩) ولد في ١٢١٣ وتوفي في ١٢٩٢.

على جوانب النهر الهادر بالمياه المندفعة بقوة. آلاف السلالم كانت ترمى على الحواف، يلتصق بها كالجراد، بشر عيونهم مليئة بالدم وتقدح بشرارات الموت. تنزل آلاف الخيول وعليها فرسان ملثمون، في أيديهم بنادق طويلة المواسير. تتبعهم فيالق من البحارة والمشاة بعدد النمل الذي أكل كل السهول التي ظلت خضراء إلى أن جاؤوا. رأى جاز في غفوة الذي يحس ولا يرى. يصبح أنين الكمان واضحا، يختلط مع وقع الخيول وهي تركض وراء الريح وتبحث عن مسالكها على أرض لم تكن تعرفها. رأى على الهضبة المقابلة خيولا ضخمة، لا يحكمها إلا نظام الفوضى. كانت تحاول أن تصعد إلى السماء بينما كان الفرسان ذوو الألبسة الجلدية التي تغلب عليها الألوان الحمراء والصفراء والخضراء، يلجمونها عبثا حتى لا تركض للاصطدام بأحصنة السفن. عندما مال جاز قليلا بأصابعه نحو أصداء الكنترباس التي جاءت خشنة تعلن عن حرب مبهمة، وصلته نحنحات خيول الرجال الفوضويين وهي ترفع قوائمها صوب السماء وصوب بحيرة هودسون لكي تدافع عن حقولها الخضراء ومائها. سمعها وهي تحدث أصواتا جافة، ثم وهي تخترق الماء من الجهة العليا للنهر الذي ارتسم بكل تفاصيله على الشاشة الخلفية. كان هندي مسن يرفع نداءاته وندبه على إيقاع البوق وينحت صوتا قادما من بعيد. صوت خائف ويائس من موت كان يتربص في كل الخلجان. وقع الطبول يجعل الخطوات أكثر انتظاما تشبه إلى حد بعيد المارشات العسكرية التي أعادت إلى ذاكرة جاز وهو ينحني بيده اليسرى نحو الفرقة النحاسية والطبول والكنترباس، مارشات رادانسكي. كان الناس يتجهون نحو الحرب والموت بقلوب منكسرة. تتبعهم الهندي المسن ذو اللباس المزركش وهو يحرق العرعار لإبعاد الأرواح الشريرة عن المحاربين الهنود، سكان الوادي والبحيرة الأوائل. كان الرعاة والعابرون يهربون كلما رأوا عسكريا يمر بالقرب منهم. تناهى إلى مسمعه رجع إيقاع هندي لا يحكمه شيء إلا الصوت الذي كان يأتي من بعد سحيق. فجأة تتعالى الصيحات التي تشبه عواء يأتي من كهف لا حدود لسواده. هو لا يعرف

إذا كانت الأصوات الغامضة هي نداءات آدمية أم هي عويل الرياح فقط؟ كانت الحرب تأكل الماء والتربة والأجساد.

يرق صوت الكمان شيئا فشيئا، حتى يصير شفافا مثل النداء الذي يأتي من صراخ طفل في حالة يائسة. تتلون مياه النهر المقدس وتحمر فجأة على الشاشة التي كأن اتساعها قد زاد أكثر بحيث يصبح المشهد كاملا. الطبول المرتفعة لا تمحو أنين الناي الذي كان يخترق أبواب ممرات الماء التي أوصدت على القتل وعلى السفن الضخمة التي كان يقودها مسلحون. كانوا ينهبون الأشواق والمحبة من تلك الأرض، ويجرون وراءهم مياه نهر هودسون ليتركوا الأرض وراءهم يبابا. الهندي المسن، الرجل المزركش كان يبكي بأعلى صوته، بينما كانت الأناشيد الوطنية ترتفع عاليا وتحتفل لأرض سلخت حية ولكنها لم تمت. كان يحسب خطواته بحثا عن المسالك لكي يصل إلى بيته؛ ولكن لم تعد هناك أمكنة، لقد ذهب كل شيء وصارت القفار هي سيدة الأرض. اندس في عمقها حتى يحافظ على النوع ولا يندثر مع الذين ذهبوا، تلك وصية الأجداد. غطت الرمال التي قامت فجأة آخر خطواته وآثاره التي انتهت إلى مكان لم يعرفه أحد.

يأتي أنين الفقدان قويا ومثقلا بالشجن. يتدحرج طائرا مذبوحا. تضغط ميترا بخنصرها، ثم ببنصرها على الخيط الأكثر خشونة في الكمان، فيصير ناعما. تنزلق القصبة عليه في تماوج مستمر، وحدها كانت تعرف تلونات ميزانه بدقة. عينها على يد جاز الذي بدأت علامات الزهو والتأثر تحتل كل ملامح وجهه. يتهادى نهر هودسون في استكانته الأولى. لا شيء يموت سوى العواصف والحركة المجنونة للمياه التي سرعان ما تعود من حيث لا أحد ينتظرها. النداءات الكثيرة التي تعالت لا شيء يقف في معابرها نحو البحار والأنهار والسهول إلا الرياح الساخنة التي عصفت من بعيد محملة بأخبار الجبهات والنداءات المبهمة.

أغمضت ميترا عينيها. الهدهدات التي كانت تخرج من عمق الكمان قذفت بها بعيدا نحو عالم لم يكن موجودا إلا في رأسها. اتسع مرة

أخرى إطار الشاشة الخلفية، وانفتحت كل العلامات المغلقة التي خلفها العابرون وعادت الأرض إلى بدائيتها مثلما خلقت في المرة الأولى. عندما وقف الله على مصبات نهر هودسون كما تقول أسطورة الرجل الهندي، الذي يلبس ألبسة النار والشمس والربيع، ورمى بأولى الحبوب التي أنبتت ناسا ومدينة، اشتعل الشوق في قلبه وامحت كل أحقاده السابقة. يقسم الهندي المسن أنه رأى طائرا مزركشا يقف على أصابع الله وهو مستغرق في زرع التربة المحروقة. من كثرة قربه من وجه الله، شعر بأنفاسه التي كانت تأتي ممزوجة برائحة العرعار والصنوبر المقدس والخلوة. سمع هديل حمامة يملأه الغياب وأحس بحفيف جناحي فراشة. كان الحفيف خفيفا وملونا كحلم جميل، لم يملك الله إلا أن انحنى لعالم لم يكن إلا في مخيلته ورهن حلمه البعيد.

عندما فتحت ميترا عينيها للمرة الأخيرة، رأت تفاصيل ملامحها منعكسة في عيني جاز وهما تبحثان عنها من وراء الشعاع المتسرب من ألوان الشاشة الخلفية التي ظلت تعكس معابر المدينة وحواف بحيرة هودسون المعطوبة وبواباتها الشمالية البعيدة. كلما زادت الموسيقى حنينا واندغاما مع الروح، أحست ميترا بنفسها قريبة أكثر من جاز حتى إنها شعرت بأنفاسه قريبة منها، وفيها. كلما سحبت على قصبة الكمان الرقيقة وضغطت على زوايا الخيوط الناعمة، وحركت رأسها في حالة من السكر والدوخان، تدفق شعرها كشلال من الشموس والأنوار ولامس عطره وجه جاز أو كاد ليدخله أكثر في غمرة الألوان والسعادات الهاربة.

عندما تمايلت القصبة الذهبية في يد جاز، في الهواء، متعالية أكثر فأكثر، صعدت ميترا مع أشواقه وتمادت إلى نفس السقف المتعالي. تبعتها بقية الآلات في انتظام كبير وهارمونيا استثنائية لم يشبها أي وقع دخيل، وعندما أنزل يده، تهادت كل الأصوات مجتمعة قبل أن تصمت بشكل موحد وجاف. جاز يحبذ مثل هذه الوقفات لأنها تضع حدا للتدفق وتجعل الروح تتعطش أكثر إلى مزيد من النور، تطلب أكثر وتشعر باستمرار كأن شيئا ما يزال مفتوحا على أفق لم يغلق.

كان البريلود قد وصل إلى خاتمته.

التفت جاز نحو الجمهور انحنى مرة، ثم عاود مرة أخرى بعدما طلب من الفرقة أن تفعل الشئ نفسه. فانحنت كلها في حركة موحدة ثم قامت ثم انحنت ثانية تحت وقع التصفيق الذي لم يتوقف إلا عندما التفت جاز من جديد نحو الأوركسترا ورفع يده استعدادا للحركة الثانية.

بينما ظل مشهد الشاشة الخلفية الكبيرة مثبتا على القصبة الذهبية في يد جاز وهي تبحث عن سماء جديدة للتحليق بلا توقف، بعيدا عن أرض لم تعد كما كانت.

الحركة الأولى

مشانق الربيع الدامي

عندما أنزل جاز ذراعه قليلا مشكلا خطوطا هادئة ومتعرجة، واندفع بصدره إلى الأمام، كانت عيناه قد ذهبتا بعيدا عن ميترا التي ظل نظرها معلقا بحركة يده التي لم تستقر على مكان. بهدوء ونعومة بدأت نغمات ميترا تزداد انسيابية على الكمان مما جعل الصوت المنبعث، يشبه أنينا كان يأتي من الأعماق. تتحرك أصابعها في حركة سلسة وتتزلق قصبة الكمان على الخيوط مثل الماء العذب.

تشتعل على الشاشة الخلفية نيران الحرب العالمية الأولى وعساكر الأتراك الذين كانوا يركضون في كل الاتجاهات، ومدافع الألمان الثقيلة وهي تبحث عن أمكنتها لتستقر على حواف الموانئ والصحاري. النساء الجميلات الشقراوات ذوات الوجوه الفاتحة يحملن الورود، يودعن الذاهبين نحو حروب الإبادة. تتعمق الحفر التي أنجزت للدفاع عن مواقع وهمية مقابل حفر أخرى للعدو الذي لا ينتظر شيئا إلا الحركة ليخمدها في مكانها. يخرج الناس الذين تدلت لحاهم. الملتحون أو المشعرون. يبحثون عن أكلهم وعن بعض الدفء حتى ولو كانت خاتمة ذلك رصاصة. لكن الجوع والبرد والوحدة تتكاثف عليهم فيسقطون برصاص لم تعد تعنيه كثيرا تلك الأجساد النحيفة كخيط، لا شيء فيها إلا العظام التي برزت على الوجوه والمرافق وعلى الأماكن الممزقة من السراويل. يتعالى أنين الكمان أكثر مصحوبا بدمدمات الكنترباس. يسقط طفل على وجهه، كان يبحث في عمق التربة التي تغطيها الثلوج، عن نباتات

تحت-أرضية ما تزال حية ليأكلها. لا يجد شيئا. يبتلع التربة الباردة ولكنه ينام في مكانه ولا يتحرك. تهب العواصف الثلجية، يحاول أن يعود نحو الحفر ولكنه يفشل في القيام. ينحني على ركبتيه وينام على وجهه مشكلا حدبة صغيرة في المكان المسطح الذي غطته الثلوج بسرعة.

يتصاعد أكثر أنين الكمان مصحوبا بالكورس الجنائزي الذي كان يأتي من مجموع الآلات الموسيقية المؤتلفة في إيقاع موحد. يذوب في تمزقات الخيوط التي بدا وكأن خوفا ضامرا كان يتسلل وراءها كالظل. فجأة يزداد الظلام سوادا والخوف تعمقا في النفوس.

تتكشف من وراء الأنين حيطان سجن مليء بالسواد وأناس مثل الظلال الهاربة يبحثون عن أماكنهم، في أياديهم شموع لا تكاد تضيء المسالك الصغيرة. يطؤون بعضهم بعضا ويتقاسمون الأمكنة مع الفئران والحشرات. كانوا ثمانية ينتظرون الموت ومشانق عاليه. تبدو وجوههم مكدودة وجائعة إلى الحرية والهواء والماء. تلتمع من حين لآخر ابتساماتهم التي كانت تنتشل من الأعماق المنهكة.

تتحرك يد جاز بعنف يمينا وشمالا بحثا عن مسلك، ثم تصعد عاليا لتعود إلى انسيابيتها وتبعد شيئا فشيئا عن الحركات الجافة، متبوعة بنقرات منفصلة على البيانو الذي كان ينام في الظل ولا يرى إلا الطرف الأيمن من وجه باتريثيا وفي الخلفية البعيدة قليلا، أصابع لودميلا وهي تردد الوقع نفسه. يصعد الإيقاع الجماعي الذي يتنامى حتى يشمل المكان. يمتزج الأنين ببحة الناي الذي يحاول عبثا أن يسمع صوته مقابل طغيان نقرات البيانو التي اتضحت من جديد وخرجت من الهامش لتحتل الفضاء وحدها لتندمج في النهاية مع الخلفية والأطراف، حيث يتهادى صوت الفيولونسيل الجماعي. تتمادى ذراع جاز وعصاه الذهبية إلى الجهة اليمنى، ثم اليسرى والوسط قبل أن تركز من جديد على إيقاعات بيانو باتريثيا مغلفة بنداءات كمان ميترا التي زادت وتنوعت تشكيلاتها.

تشتعل نيران الخنادق في كل مكان. لا أحد يخرج رأسه من الحفر

التي تصطف كالقبور المهيأة لاستقبال قتلى الحرب. تختلط وجوه الضباط الإنجليز والفرنسيين بوجوه الحكام الأتراك والألمان، تتداخل بملامح الوجوه الجائعة التي تعبر شوارع بيروت وهي تترنح كأنها لم تأكل منذ زمن بعيد. أياد تمتد نحو المزابل وتصعد فارغة. قطط تتقاتل على أبواب المطاعم والمقاهي والحانات والمواخير التي تتداخل مع بيوتات شارع المتنبي الشريفة. يتكاثر الجراد الأعمى ويبدو أكبر من حجمه. يأكل الأخضر واليابس في طريقه ثم يقف على الأعمدة الخشبية والحديدية ويبدأ نقرها والتلذذ بالتبرز عليها. هل هو عام الجوع أم عام الحرب القاسية التي لا ترحم نارها حتى الرماد الذي تخلفه وراءها. وتبدو بيروت كامرأة عارية في خلفية الشاشة. يصحو الفجر على جبالها وروابيها قبل أن ينزل الليل من جديد على حواف سجن عاليه وقضاة الموت. تدق الساعة القديمة دقاتها المنتظمة: الثانية فجرا. بدأ الموت بإيقاعاته المخيفة التي تجعل من دقائق الحياة المتبقية كنزا ينفد بسرعة. تفتح الزنزانات. تنسحب الوجوه الواحد بعد الآخر بسرعة. تقرأ في عيونها علامات الخوف والسخرية المرة. كأنها لا تصدق ما كان يحدث لها. تثبت الصورة على دهشة الملامح، ثم اليأس ثم صورة ثالثة تندلع منها ضحكات كانت حزينة على الرغم من الابتسامات التي لم تكن دليل فرح وسعادة. العين هي سيدة الأسرار. يبدو الخوف متوغلا في أعماقها. يُدفع السجناء نحو السيارات الخشنة مثلما تدفع الحيوانات نحو المذابح. يركبون ولا أحد ينظر في وجه صاحبه. كانت الوجوه مشدودة تحت تهديدات السجان والحرس العسكري التركي الذي لا يكلف نفسه السؤال عن الأسماء. الناس مجرد أرقام، بسرعة تمحي وبعدها لا أحد يتذكرها.

نقرات بيانو باتريشيا تتناغم وتتداخل ثم تنفصل بهدوء كحبات الماء الصافية أو كدمعات تنسل من عيون منكسرة، الواحدة بعد الأخرى قبل أن تتواكب وتتلاحق. تغطيها إيقاعات عسكرية كانت تأتي من بعيد مصحوبة بضربات الطبل والباتري والفيولونسيل الذي يسندها نحو مشانق

الموت. تتشكل إيقاعات البيانو من جديد في شكل حلقات مثل السلاسل المقيدة وتصعد وراءها الإيقاعات الوترية المختلفة.

كل شيء يتحرك بسرعة مخيفة. الأيادي، البشر، النار، العيون التي ترتسم في أعماق بؤبؤها علامات القيامة. تبدو السيارات العسكرية كبيرة كجراد ضخم لا قوة تقف في طريقها، كأنها تنزل من الشاشة نحو جمهور الأوبرا. تنزل من أعالي محكمة عاليه العرفية محملة بالأنين والخوف، باتجاه ساحة الإعدامات في بيروت. ينحدر السجناء مطوقين بالعسس الليلي، لا تسمع إلا أصواتهم الخفية وهي تنكسر في شكل ضحكات وقهقهات. تتماهى في صورة السجناء وهي تقترب. كانوا يضحكون. يضحكون من الموت. يتمادون في الضحك من داخل الموت. يندمج أنين الكمان بالخزرات المكسورة. تعطي ميترا من رؤوس أصابعها، كل ما لديها من قوة وحرية. تتمادى في أشواقها الدفينة التي تمر عبر حركات جسدها الذي لا يستقر على وضع. فجأة تثبت الصورة في لحظة الخوف والدهشة من موت لم يكن أحد يصدق أنه حقيقة. تتعمق خطوط الوجه وتسود، وكأن اللعبة انتهت قبل وقتها. يغيب كل شيء وسط خراب كلي لا أحد يعرف من أين جاء وجثث منتشرة على مد البصر وطائرات تغيب وسط سماء من حديد.

تغرق القاعة في صمت مطبق وقلق كبير. كانت عيون الجمهور مرشوقة على الشاشة البلازمية التي كانت تعطي للصورة كل جودتها ودقتها الحية وكأنها كانت تحدث في اللحظة ولم تزدها الإيقاعات إلا صدقا وحيوية وحضورا. يسترق الناس السمع إلى نداءات الكمان الذي كان يتلوى ألما وخوفا ويقول ما يتخفى وراء ارتعاشات العيون. يختلط في وقع منتظم مع الناي الشرقي وإيقاعات خلفية تأتي من الكلارينات، سرعان ما يبدأ في الانحدار والانفصال والتمادي والموت. يتماهى شيئا فشيئا ليتداخل مع الإيقاع الكلي في شكل كورس تقاسمته الآلات الوترية والنفخية الجماعية. صوت جنائزي تصحبه ساحة البرج الفارغة التي كانت تعوم في ألوان ضبابية قبل أن تنسحب تلوناتها الكثيرة مخلفة

وراءها أجسادا تأكلها العزلة والوحدة والتساؤلات اللامحدودة بعد أن انطفأت ابتساماتها وانكسرت خزراتها وهي تساق إلى الساحة على مرأى من عساكر الأتراك، ترتدي قمصانا بيضاء واسعة باستثناء اثنين ظلا بلباسهما العسكري.

نظر جاز نحو ميترا مرة أخرى. عادت إلى حنين الغائبين وأشواق المظلومين. يتماوج الكمان بين يديها. تشد الضغط عليه بين ذراعها الأيمن ومنعطف ذقنها، فيخرج الصوت نشيجيا، مبحوحا وداميا.

من يصنع الموت؟ يد خشنة تمتد من أعماق الشاشة وسط الفراغ وتاريخ يصدم العيون المحروقة التي لم تستطع أن توقف سيلان دموعها: ٠٦-٠٥-١٩١٦، تصنع أنشوطة للأول بحبل خشن. لا تظهر إلا الرقبة التي يدور حولها الحبل كأفعوان. يعقبه صوت جاف مثل المقصلة، لآلة الكنترباس، حادا، متماديا وسط أصداء لا تتوقف. جثة معلقة في الهواء. رقم تم محوه. أنشوطة أخرى وجسد آخر يتدلى. ساحة البرج بظلمتها، تندس وسط البنايات الرسمية الكثيرة وكأنها تخبئ جرائمها الصغيرة وأنفاس مومساتها الكاذبات اللواتي يبكين في حجور الأغنياء والعساكر والضباط ويتمرغن في أحضان العشاق المخبوئين في أعماق صدورهن. رعب مشابه آخر في ساحة المرجة باتساعها وهواء فجرها الربيعي البارد وماء نهرها الذي تخلى عن كرمه وقصائده: بردى. تتوقف الصورة عند حدود الأنشوطة وتظهر التقنية الجادة التي صنعت بها لكيلا يكون أي أمل للمقتولين الذين كلما تقدموا نحوها أغمضوا عيونهم لكيلا يروا قسوتها وشدة ربطها والموت الذي تحمله في عمق دائرتها.

تتصاعد الأصداء. تزيد الآلات النحاسية في قسوة أصواتها في شكل جنائزي وكأنها موكب يسير وراء الأموات المقتولين فجرا. تتصاعد عاليا على تنويعات خفيفة على البيانو كأنها نقرات حذاء ذي كعب عال على أرضية مبلطة قبل أن تتخشن وتتضخم في نفس المسار الإيقاعي الضخم الذي غادرته كل الأصوات الأنينية الرقيقة. المشانق لا تشبع من الرقاب. تتأوه يد جاز وتندفن في الفراغ الأبكم.

بوضوح الفجر الذي تأخر في المجيء، تبدو وجوه المعدومين معلقة والعيون مغلقة كأنها في حالة سبات عميقة. حركة الترافلينغ[٤٠] تجعلها تعبر واحدا واحدا وكأنها تودع الناس للمرة الأخيرة، في رحلتها النهائية وعلى وجوهها بقايا أسئلة ظلت إجاباتها معلقة. ثم تغيب واحدا فَواحداً في سواد الألوان الذي يمسح كل شيء. ترن الصنوج بقوة مخترقة الرتابة مع سند من الفيوليونسيل، مرتين، ثلاث مرات، في تواتر تعقبه الأجساد وهي تتدلى وعيونها منطفئة نهائيا هذه المرة. تقترب الصورة أكثر فأكثر، قبل أن تتلاشى وتتحول إلى ذرات ونقاط صغيرة تذوب نهائيا، ليخرج منها سواد آخر لا ملامح فيه ولا حياة، مثقل بالسواد.

يتحول أنين كمان ميترا، إلى عواء يأتي من الغياب. تسحب على الخيط الأكثر حساسية وتنصت بقلبها إلى الوقع الذي كان يزداد حدة ويدمع العيون الملتصقة بالمشهد. تتبعها بنفس الإيقاع بقية الآلات، في شكل يبدو فوضويا محكوما بأنفاس الحياة التي كانت تتقطع.

رفع جاز يده ثم أنزلها في شكل تدرجات متوترة ودوائر. نزل إيقاع ميترا قليلا متماهيا مع صوت الكلارينات الذي بدأ يتصاعد مخترقا حدود الصمت الذي فرضته الصورة. تنشب الحرائق في الحقول الزراعية فتموت الأشجار والناس والعصافير والبيوتات التي لم تبق فيها إلا الحجارة واقفة قبل أن يجتاحها الجراد الأعمى. ينزل جاز يده إلى الأسفل بسرعة، فتصعد الأبواق المعلنة عن حرب ساحقة، ثم بلمسة القصبة الذهبية، يتلفها كالساحر، ويعيد ميترا إلى الواجهة مصحوبة بالكنترباس. الصوت يتهادى. كانت الحرائق تتحول إلى رماد والرماد إلى ذرات تأخذها الريح في تماديها الأبدي. يتوغل جاز في إيقاعه الذي كان ينزل ويسكن شيئا فشيئا، ومن وراء حركة يده اليمنى، تظهر اللوحة الخفية للخراب: فداحة الحرائق الكبيرة وجثث الذين ماتوا. يعود بيانو

---

(٤٠) Traveling

باتريثيا إلى عناصره الأكثر رقة ونعومة ويغيب في أفق مبحوح ويائس قبل أن يندمج في الإيقاع الكلي للفرقة الذي لم يتوقف ولكنه صار في عمق الخلفية بعد أن فسح المجال لخاتمة الكمان الذي افتتحت به ميترا إيقاعها الأول، لينزل خفيفا إلى أن يتماهى مع الصمت حتى يكاد كل شيء أن يتوقف.

بحركة انزلاقية تنزل قصبة جاز، يصعد الصوت من بين أنامل ميترا للمرة الأخيرة حادا. ثم بحركة جافة يضع حدا للألم وتسكن كل الآلات مثبتة على المشانق التي ظلت تعوم في الظلمة قبل أن تغيب وتتوقف الصورة على يد جاز وهو يرفع يده للمرة الأخيرة واضعا حدا للحظة الألم. صمت كل شيء في حين بقيت يد جاز معلقة في الهواء ثم نزلت بشكل حاد ليسود الصمت الذي يشبه الموت. تجمد الأيادي وقلوب المتفرجين للحظة.

يلتفت جاز نحو القاعة ويحيي الجمهور بانحناءته المعهودة والتقليدية. تعقبها عاصفة التصفيق التي ظلت مكبوتة لدرجة أن جاز الذي تراقصت أضواء القاعة الملونة في عينيه المشرقتين، وجد صعوبة في مسح جبهته التي نزَّت عرقا وظل يتمتم ويكرر كمن فقد لغته: شكرا... شكرا... شكرا...

التفت نحو بابا شريف، لأول مرة يراه في حالة إشراق كبير بعد أن برقت عيناه بدموع ظلت عالقة، على الرغم من قلة الإنارة ولكنها كانت كافية لرسم ملامح جده.

التفت من جديد نحو الأوركسترا. وقف للحظة ساد فيها الصمت فجأة ولم يعد يسمع أي شيء.

كانت ترتسم على وجوه الحاضرين الغارقة في الظل، أسئلة هشة وطفولية: أين كان يخبئ جاز وأوبرا بروكلين كل هذا البهاء الآسر وهذا الحنين المفجع؟



الحركة الثانية

خيبات ميسلُون

عاليا، عاليا ترتفع يد جاز، تحلق كالعصفور الجريح قبل أن تتهاوى لتقوم ثانية، في مقاومة هادئة، لا تتوقف.

عاليا تمتد قامته لتطال السماوات الموصدة وتفتح معاقلها الباردة. يقف على رأس حذائه الأسود الرقيق، يشمخ نحو السماء بحثا عن اللمسة الهاربة وعن اللون الضائع. لا ينظر حوله، لكنه يتمادى وكأن الجاذبية التي كانت تحكمه إلى الأرض لم تعد قادرة على لجمه.

وعاليا، ترتفع قوائم الأحصنة الأمامية، ترتسم في عيونها الحمراء، من قلة الراحة والنوم، كل الانكسارات الدفينة. نحنحاتها الجموحة تنكسر قبل أن تندفن في حناجرها. من بعيد، في خواء غير مرئي، يسمع أنين يأتي صافيا ونقيا ومرتبكا كبكاء طفل، في عزلة الخوف. كانت الحرب الأولى تدق على الأبواب بأيد من حديد والخيبات تسري في الشوارع والأزقة الضيقة مثل الوباء الذي يدخل إلى البيوت الموصدة بلا استئذان. كان نشيد الموت قد بدأ يتعالى مخترقا سماء بلا عنفوان، باردة وصامتة كالموت.

عندما أشار جاز إلى الآلات البعيدة التي تركن في الظل، تنتظر إشارات القصبة الذهبية، صعدت التمزقات المنبعثة من صوت الكلارينات بإيقاع أحادي لا تشترك فيه إلا يد جاز التي كانت تنسج كل الألوان بخيوط من ذهب وهمية في سيولة لا حصر لامتدادها. شيئا فشيئا تندمج مع دقات الطبول بقوتها الطاغية على كل الإيقاعات، معلنة عن

عنف كان ينشأ في الآفاق. تزداد الدقات كثافة وجفافا، دافعة ببقية الأصوات إلى الخلف لتصبح مجرد أصداء لعنفها الذي ظل يتنامى ويزداد حدة وجبروتا. حتى الكنترباس الذي كثيرا ما أعاد ترتيب الموازين، تضاءل وصار أبح قبل أن يتهاوى ويصمت، كأن الصرخات التي كان يستبطنها كانت تخرج بصعوبة على الرغم من خشونة وقعها.

لا شيء في الأفق يمنح الطمأنينة. لا شيء، سوى أن السماء ادلهمت وغابت ألوانها ليطغى عليها الرمادي الخانق. تلتصق العيون التي تعوم في ظلمة الأوبرا، في الألوان التي اسودت والتبست وفي الأغبرة التي خلفتها وراءها أحصنة عربية كانت تجري في كل الاتجاهات بجنون، وجمال عطشى يقودها رجل أشقر قادم من بلاد الشمال. يكبر وجهه على الشاشة، تتضح ملامحه. من يعرفه لا يخطئ في قسماته: لورانس العرب، بعقال عربي ولباس فضفاض. يتبدى الرجال الذين كانوا برفقته، عرب نحتت الشمس وجوههم حتى أكلتها. في مقدمتهم سيارات إنجليزية وقطارات تسابق الرياح وأغبرة متصاعدة من كل مكان. شيء كان يحدث على جبهات الشمال وعلى حواف ميناء العقبة: بحيرة الخوف والعزلة.

يتلون العزف بآلاف الألوان والإيقاعات التي يتبعثر على أثرها رماد الحرب وهدير الطائرات التي كانت ترمي الأوراق المليئة بالآمال الكاذبة. في كل مكان تتراقص الأوراق قليلا قبل أن تتهاوى كطيور ميتة. لا شيء سوى سلاح الشجاعة والإيمان الذي لم يكن كافيا لضمان الانتصار والخيبة الدفينة التي تعلق بالحلق الناشف كالرمل. تمتلئ الشاشة بوجه رجل كان يصلي صلاة الحرب ويقبل ابنته القبلة الأخيرة على جبهتها ويخرج نحو الموت. يلوح بإشارة خفية كان محبوه يعرفون أسرارها. تنطلق القطارات محملة بالبشر. كلهم كانوا يتجهون نحو مكان النار ونسوا أن لهم حياة يجب أن يحافظوا عليها وأن يقللوا من أنانياتهم في الموت. تبرز واضحة محطة الكسوة. وجه فيصل بارد كحجر الصوان وهو ينزل من سيارته التي سبقت القطار. ينزل الوزراء بحقائبهم وكأنهم

مجرد مسافرين أغنياء. ألبسة سوداء وأطقم جميلة. رئيس الوزراء هاشم الأتاسي يرمي بورقة يأخذها شخص آخر. سيدي هذا بيان الحكومة الذي يطمئن الشعب بأن المقاومة ستستمر؟ لا يرد وينظر نحو غبار الحروب. تأتي الأصوات باردة وخافتة:

- البيان... البيان... لماذا تلح علي كل هذا الإلحاح؟

- لأني أعتقد أننا إذا سافرنا من غير أن نصدر هذا البيان نكون قد انهزمنا من العمل. ونحن لا نذهب فرارا من الواجبات المترتبة علينا، بل لنتمكن من أداء تلك الواجبات بأحسن الوسائل وأكملها.

- أنت تكذب على نفسك وعليَّ.

ثم يولي وجهه صوب الغبار. يسأله ثانية. سيدي غاب عن الرحلة فارس الخوري وعلاء الدين الدروبي. سيدي لا نراهم. يصرخ الرجل: لقد اختاروا طريقهم. ثم يلتفت صوب غبار المعارك. فجاة يسمع طلقة جافة. ويأتي الصمت وتدخل الآليات إلى دمشق. يصرخ الرجل: يوسف العظمة انتحر. يصرخ جندي بسيط بلباس رث: لم ينتحر يا سيدي ولكنه استشهد. لم يكن يريد أن يرجع إلى دمشق سجينا أو مهزوما أو حتى منكسرا. يكبر وجه يوسف الذي خانه إخوته، على الشاشة ويصعد ضباب مثل الغبار سرعان ما تتضح من ورائه الآليات الفرنسية الكبيرة. أين ذهب الملك فيصل؟ يصرخ الرجل. يجيبه العسس: لا تزعج سيدك، إنه يشرب قهوته المسائية مع غورو وأللنبي ويستعد لمغادرة البلاد باتجاه درعا وحيفا قبل أن ينتهي ملكا في العراق. تئن كل الآلات بشكل اقرب إلى النحيب العراقي. يغيب وجه الرجل الطيب الذي يشبه كل الوجوه التي خرجت تبحث عن قطرة من الحرية لتبلل بها عطش الروح الذي دام أربعمائة سنة. رجال ارتسم كل شيء في عيونهم، لا يحملون إلا بقايا حلم مستحيل وفتات جسد رهنوه لرغبات الصحراء ورياح السموم. في الخلفية التي تكاد لا ترى، كانت الأحصنة ترتمي في النار مخلفة غبارا كثيفا ونحنحات ماتت بين كثبان الرمل وأدخنة كانت تعمي كل شيء في طريقها وهي تنتشر.

ينحت الكمان في يد ميترا أنينا يتمادى في غيابه وقلقه. ترتعش العيون التي ظلت مشدودة إلى العازفين ولم تغادرها ولو للحظة واحدة، وإلى الشاشة التي امتلأت بالأجساد التي كانت تتراكم بكثافة. جسد على جسد ولا يد تستفسر عن الوجوه والأسماء. حفر جماعية تردم فيها آخر الصرخات.

تقتفي بقية الآلات الوترية والبيانو خطوات ميترا محافظة على نفس وتيرة الانكسار. ثم يندمج الكل في فرقة الفيولنسيل التي تلتحق بنشيج الأوركسترا مكونة هارمونيا كاملة. تصعد الإيقاعات عاليا في شدو جنائزي لا شيء يحد من امتداده، قبل أن تبدأ في الانحدار شيئا فشيئا نحو خوف كان يعلن عن رعشات ميسلون، وعن حرب قاسية، لم تكن لا عادلة ولا متكافئة. في الوادي الذي جف سريره، لم يكن هناك شيء يثير الانتباه سوى رجال يتخفون وراء الحجارة الصغيرة، ويواجهون الطائرات بوجوه انسحبت الحياة منها، بنظرات لا أحد يجيب عن حيرتها، وبصدور حفرتها المدافع الرشاشة وقنابل الطائرات.

هل مات الرجل الذي أحب المدينة؟ لم يكن أحد يملك الإجابة. تفتح أبواب دمشق الشام على اتساعها وتُرمى مفاتيحها عند أقدام قاتليها. يركب الجنرال غورو[٤١] العربة التي يجرها الأهالي. يتراكض الأطفال في كل الجهات لاكتشاف الغرابة. تندب النساء الزهر والحظ الميت. لقد عرف الناس أن الرجل الوحيد الذي دافع عن المدينة، قد مات ودفن بلا جنازة. عندما خرجت فيالق الذين سكنوا الأرض أربعة قرون، لم يتركوا إلا الخراب والأدخنة، وعندما تكشف ضباب الأعراس الأولى، كان رجال الشمال قد حطوا رحالهم واحتلوا الأمكنة القديمة. تشتعل الحرائق في الجرائد اليومية التي هللت للدولة وللمقام الجديد. أدعية المكاتب الأرضية والكنائس والمساجد والكنيس اليهودي لم تتخط عتبات السماء الأولى، ولم يسمعها الله بتاتا. كل الناس يصلّون ولا صلاة تهز

(٤١) Le Général Gourou

القلوب بصدقها. كان رجال الشمال يحملون مشرطا ضخما ويمزقون جغرافية الشرق بمشرط حاد ولا يأبهون لصرخات الألم التي كان يحدثها. زمن آخر كان يخرج من صلب الدم والأشلاء.

تنداح أصوات كل الآلات في حالة من الانسجام والنعومة، يزكيها البيانو بنقراته التي صارت متقاربة مشكلة سلسلة من الإيقاعات التي تمجد الحياة حتى في لحظات الخسارة. يأتي صوت الفيولونسيل هذه المرة على نفس إيقاعات ميترا، خفيفا، هادئا دافئا، مجردا من كل الأحقاد الماضية. يرفع جاز يده اليسرى مشيراً إلى الصفوف الخلفية، فيرتفع صوت الصنوج محدثا طنينا يربك الدماغ ويوقظ الناس من موت كان فيهم، ماسحا كل النغمات الخلفية الأخرى ليموت فيه حنين الكلارينات وتمزقات البيانو. تنشطر السماء إلى نصفين. يصمت الآخرون ويتفرد صوت الكمان من جديد، ناعما وخفيفا وكأنه كان يعزف على خيط واحد، الخيط الأكثر حدة ورقة، فاتحا جراحات عميقة. يتدرج في تصاعده حتى يبح نهائيا.

الأبواب التي أغلقت في وجه الهجمات، تنفتح من جديد على كل اتساعها. يخرج الضابط الرافض لسلطان اليأس من قاعة الاجتماعات بوجه بارد. الشوارع ممتلئة بالذين يبكون. تخرج القطارات مرة أخرى من ساحات دمشق القديمة، يركبها الكبار والصغار بحثا عن أي سلاح يمنح للناس معنى آخر لليأس. تهب الريح الساخنة منكسة الرايات والأشواق الدفينة. الألبسة مقطعة. والقلوب، لا شيء فيها يدل على الحياة. القطارات ممتلئة عن آخرها. تعود الصنوج بقوة كبيرة وتتداخل مرة أخرى مع الكنترباس الذي ظل خافتا مختبئا وراء الفيولنسيل والطبول الخشنة. من جديد تنغرس طبول الحرب في قلب المعركة. يظهر وجهان كبيران، يملآن الشاشة عن آخرها: العظمة الذي كان مأخوذا بعفوية الناس البسطاء وهم يرحلون في قطارات الموت صوب ميسلون. والجنرال غورو الذي كانت رايات الانتصار ترفرف على سيارته وتغطيه، على رأسه برنيطة المحاربين المحترفين. لا شيء إلا النار التي كانت

تتوسع كل يوم أكثر، تأكل الأخضر واليابس. ترفرف الأعلام العربية، تنحني، تسقط ثم تقوم من جديد في يد طفل يهرب بها ليتخفى من وراء صخرة. يتضور الناس جوعا. لا يسمع إلا عويل الجرحى وتنهدات الموتى الأخيرة. كانت القطط والكلاب وحدها سيدة الأمكنة والزوايا المظلمة. تتعالى ألسنة النار. السيارات القديمة والقطارات كانت تدمر وتفجر حتى قبل أن تصل إلى ميسلون. يتقدم رجل في الظلمة، تقتفي خطواته نقرات البيانو المتباعدة التي تزيد شيئا فشيئا في ريتمها وتناوبها مع الآلات الأخرى، حتى تندمج وتصير صوتا واحدا. تعبر يد باتريشيا على النوتات بسرعة، تنزلق أصابعها محدثة صوتا أجش وأبح يتهاوى كورقة خريفية جافة. ينزل الرجل المطرز بالخيبة والذاهب نحو الموت على ضفاف النهر الجاف. لا جيش ولا دفاع، كل شيء كان خاليا حتى رائحة الله انسحبت مخلفة وراءها سحب الموت وعفن الخوف. يبكي الرجل الطيب عزلته. ينأى صوت الفيولونسيل بعيدا ليستقر عند ركض الرجل بشكل جنوني مصحوبا بكل الفرقة، ليرتمي تحت صخرة متفاديا الرشقات الأولى. تصدح الآلات النحاسية للمرة الأخيرة. يرفع الرجل، الضابط العسكري، رأسه، لا يرى شيئا سوى سحب جافة، مثقوبة في وسطها، وفارغة من أي حس للحياة. يتمادى في ركضه. تصعد كل الآلات في الإيقاعات نفسها في تماه مستمر وبلا توقف. تشتعل النار عند رجليه. يركض ولا يلتفت وراءه ولكنه عندما انحنى لسحب صديقه الجريح، سقط على وجهه ولم يتحرك. يصعد من جديد أنين يشبه العواء. يزداد الخلاء توحشا. لقد مات الرجل الوحيد في البلاد. تهب الرياح الساخنة ساحبة في إثرها كل الملامح المتبقية لحلم عاش طويلا في قلوب عشاق الوطن الكبير. الناس يبكون والأصوات تزداد حدة وتسارعا وتواترا. الطبول الخلفية تسكن بفعل الهزيمة. تظهر القطارات الشرقية وهي تمتلئ بالهاربين وعفش الأمير فيصل وألبسة نسائه، متبوعا بحاشيته المقربة. يخرج قطار الشام بصفير حاد اختلط بصراخ الآلات الوترية التي صدحت في كل الجوانب. تنزل الرايات العربية. يزداد

الصراخ والأنين. وترتفع أعلام الشمال على البنايات والمؤسسات ويستكين كل شيء. لا بشر، لا طير ولا جراد. يموت شيئا فشيئا الزمن الأول ويعوضه زمن آخر لم يكن أحد يعرف ملامحه.

تزداد اختناقات الكلارينات ويتهاوى صوت الكمان وكأنه ينزل في عمق بئر، في خفوت مستمر ومتواصل ليتوقف نهائيا على إيقاع لم يتم، ظل جزؤه الأخير معلقا في الهواء، إذ حسمت حركة جاز الجافة كل شيء وظلت القصبة ترتعش في الفراغ، جامدة بشكل متصلب.

ساد صمت. ثم صمت آخر. ولا شيء غير الصمت على صورة فم طفل ملأ عرض الشاشة، ظل مفتوحا على صرخة لا أحد كان يعرف ماذا كانت تقول، ولكن الجميع الذين تحسسوا بنظراتهم المنكسرة حزنه وخيبته، عرفوا أن لغتها كانت مشتعلة وحادة كشفرة حلاقة.

ينحني جاز وتمتلئ القاعة الغاصة في صمتها وحيرتها، تصفيقا وهتافا.

عندما التفت جاز قليلا، بنصف دائرة إلى الوراء، نحو الشاشة التي كانت تحتل كل الخلفية، لم ير شيئا سوى الصرخة التي ظلت عالقة في الفراغ والفم المفتوح الذي لم يكن يقول شيئا سوى اللعنة.

رفع يده مرة أخرى صوب الأوركسترا، فتوقف التصفيق نهائيا وساد الصمت من جديد.

الحركة الثالثة

رماد الشرق اليتيم

ضاقت دائرة الضوء حتى استقرت في نقطة ضيقة أظهرت جاز وحده غارقا في بياض اللون.

شخصت عينا جاز في عيني جده. بدا له في كامل راحته وعنفوانه. غزته ابتسامة لم تدر أين تستقر. السعادة مثل الموجة، عندما تتدفق يصعب لجمها.

اتسع الضوء قليلا ليشمل في الخلفية القريبة وجه ميترا وأصابعها وكمانها.

كان بابا شريف ملتصقا بيد حفيدته وهي تتهيأ للصعود، وبقصبته التي ظلت معلقة في الهواء. ثم التفت بعينين صافيتين لم تقهرهما السنوات، نحو ميترا التي وقفت كنخلة محتضنة بعشق كمانها وأحاسيسها الدفينة.

أغمض بابا شريف عينيه. لم ير إلا تلك اليد التي كانت ترتفع وتنزل لتنظيم ريتم الإيقاعات التي كانت تصل إلى مسمعه بشكل واضح. يتكاثف الزمن حتى يصير مجرد قوس صغير في جملة طويلة. شيئا فشيئا جاءه القداس الكبير في كنيسة القيامة، يوم سبت النور، وكأنه كان يحدث أمامه ولم يتغير شيء في المشهد سوى الوجوه والديكورات العامة وحركة الناس. بان له وجه عازف الكمان توفيق الصباغ صافيا ومنورا، ينبض بالحياة وهو يبحث برأس قصبته وأصابعه عن أدق اللحظات حساسية. عرفه أول مرة في مسرح قهوة المعارف بباب

الخليل، بالقدس. سحره وسحر كل من عرفه بعزفه وبالحنين الذي يخرجه من آلته الصغيرة. كان الصباغ أحيانا، من أجل إدهاش رواد قهوة المعارف، يعزف على وتر واحد مستخرجا منه كل الألوان الممكنة، في هارمونيا جميلة. كانت هذه عبقريته التي لا يستطيع أحد غيره القيام بها بدون خسرانه لنظام التوليف والبناء. ما كان يساعده، هو معرفته الكبيرة للنوتة الموسيقية واستعماله لها بدقة متناهية. كان يتقاسم مع سامي الشوا القدرة الفائقة على عزف الكمان، لكن هذا الأخير ارتبط أكثر بالتقاسيم العربية الصرفة على الكمان، خصوصا ما يسمى بالعفقة الأخيرة من التقسيم، التي اختص بها دون غيره.

سبت النور المقدس. كان هذا الاحتفال إبان الحكم العثماني من العادات اتي تم احترامها بشكل كبير. كان يتم توزيع الضيوف داخل كنيسة القيامة بشكل مدروس. كانوا يكنون للشعب، على اختلاف دياناته وطقوسه وعاداته وتقاليده، احتراما زائدا أفضل من دولة الانتداب التي كانت تعطي الأولوية للإنجليز فقط. وكان مدير البوليس البريطاني لا يتوانى عن ضرب الحجاج الأقباط القادمين من مصر بالسوط عندما كانوا يحاولون دخول باب الكنيسة. يبيتون الليالي الباردة في الشوارع في حي النصارى بألبسة مخزية، لمدة طويلة ويتحملون الجوع والبرد وينتظرون بفارغ الصبر مشاهدة خاتمة احتفالات الآلام المقدسة، سبت النور.

كان خالي إبراهيم، بحكم عمله يؤمَن المدعوين إلى احتفال سبت النور المقدس في كنيسة القيامة، من عائلات الإنجليز لمشاهدة احتفال سبت النور المقدس في محلات عديدة داخل كنيسة القيامة. أهمها البلكون الذي يخصص عادة لكبار ممثلي الحكومة، المقابلة لباب قبر المسيح شرقا. ثم الكاليري التي تشرف على ساحة القيامة من المدخل، ثم الساحات بجانب الجلجلة المشرفة أيضا على باب الكنيسة من الداخل، فوق المغتسل، ثم شبابيك للأرمن الثلاثة المطلة على القبر. وكان الجمهور بمختلف الطوائف يحمل بيده الشموع وينتظر فيضان النور المقدس ليضيء الشموع منه. عند الساعة الواحدة والنصف بالضبط يقرع

الجرس الكبير العائد للروم الأرثوذكس، برنين قوي داخل الكنيسة. يصيح الجمهور ابتهاجا بالنور. وتتصاعد أناشيد شباب الروم الأرثوذكس القادمين من مختلف البلديات المحيطة بالقدس وزغاريد حجاج مصر الأقباط، وتضرب الأجراس والنواقيس والصنوج على اختلاف أنواعها من روم وأقباط وسريان وأرمن وغيرهم. بعد دقائق تمتلئ الكنيسة بأنوار الشموع. وتغلق الأبواب نهائيا ولا تفتح إلا بعد فياضات النور العظيم. لا شيء يسمع وسط الصمت إلا أنين الأورغ أو أصابع توفيق الصباغ وهي تفتل إيقاعاتها مثل الذي ينسج خيوط الذهب والفضة.

حرك جاز قصبته الذهبية ومدها متقدما بصدره إلى الأمام وكأنه كان يستعد للانطلاق نحو الفضاءات الواسعة. فتبعه البيانو في سلسلة نقرات متتابعة كشلال يتدفق قبل أن يعطيها الفيولونسيل تناسقا وأفقا جماعيا. تتالت كل الآلات الوترية في عزف جماعي وإيقاع موحد عمَّق الإحساس بالعزلة والحيرة. مد جاز كفه اليسرى، جافة متصلبة ومفتوحة عن آخرها باتجاه العمق، فتناغمت الطبول معلنة عن دوي آخر لحرب محتملة كانت تلوح في الأفق المغلق. كلما فتح جاز أصابع يده اليسرى أكثر، زادت حدة الطبول وأصبحت جافة ومنذرة بالعواقب الوخيمة.

لم يكن أحد يعرف هول الفاجعة. القذائف التي كانت تنزل على الأحياء والقصف الجوي الأعمى، يحرق النبات والحيوان ولا يرحم البشر. تنهار البنايات على ساكنيها وتشتعل الحرائق في كل مكان. يخرج الناس من صلب الحرائق لمواجهة النار بأيد عارية. الحرب الثانية لم تعد على الأبواب، لقد صارت داخل البيوت والقلوب والرؤوس. في الأفق المغلق، تأتي طائرات صفراء، مثقلة برياح الصحراء وبارود الحروب وقنابل الإبادة. طفل مرمي في الزاوية يبكي ويئن مع أنين الناي المعدني الذي تفرد صوته عن بقية الآلات. كان حادا وجنائزيا. زمن التيه كان قد بدأ. الناس يهربون في كل الاتجاهات داخل دائرة كانت كل يوم تزيد انغلاقا وضيقا. لا أحد يلتفت للآخر، الكل ينظر صوب طريقة ليبحث عن مسلك ينقذه.

الإيقاع المضخم للبيانو الذي استمر طويلا أكد على الإحساس بالخوف والحيرة، قبل أن يتحول الفيولونسيل إلى نغمات متلاحقة تتبع خطوات الناس وهم ينتفون داخل أتون الحرب، لا بيت، لا ملجأ لهم ولا أي اتجاه محدد. بحركة من القصبة الذهبية التي لمعت تحت الأضواء مثل البرق الهارب، امتلأ الخواء نحيبا وبكاء. تحول الكل إلى خلفية لكمان ميترا الذي عاد ليحتل الصدارة. تمد ميترا أصابعها واحدا واحدا إلى ذراع الكمان وتتركها تنزلق بهدوء محدثة حالة من الأشواق المصحوبة بحنين منكسر. تتلوى ميترا أكثر، تميد في مكانها وكأنها في حالة دوخة استكان فيها العقل نهائيا. تخرج النغمات جريحة ومفعمة بالألم. تتهادى على موجة لا تتوقف ولا تنتهي كانت تقذف بها بعيدا حيث لا شيء سوى الخيبة التي تغير ملامح الوجوه وتحفر في سماتها مدارات من الانكسارات المتتالية. يبدو البيانو متكأ مسندا إلى الإيقاعات التي بدأت أصداؤها تتضخم بالفيولونسيل والآلات النفخية المحيطة.

في خفاء يبدو بعيدا، يأتي الصوت هادئا وخافتا ثم يذوب شيئا فشيئا إلى أن يتضاءل. يصعد صوت السكسوفون مختلطا بالنوتات الأكثر حساسية التي بدأت تخرج من البيانو من جديد مخلفة حولها فجوة كبيرة من الفراغات. شيء ما كان يتمزق داخل خيوط الكمان وملامس البيانو العتيق، مخلفا وراءه ضبابا تتضاءل فيه الوجوه وتغيب، قبل أن تتضح مع لمسات باتريشيا وأصداء بيانو لودميلا التي بدأت من الصوت المفخم لتنتهي إلى الصوت الأكثر رقة، صوت الكلارينات الذي عوضته في تمازج غير محسوس وكأن الآلة هي نفسها التي تخرج من الغلالة البيضاء القاسية. أنين ما في الأفق كان يصنع قدرا لم يكن أحد يلمسه حتى في أقصى احتمالاته. تلتئم الأيادي على الصدور، تمزق ألبستها وجلدها. من كان يقول بأن الأرض ستهرب من تحت أرجل ذويها وأن البلاد ستغير كل سكانها؟ وتندلع صرخة اليأس التي تجرح الأعماق وتمزق الآذان المصغية ويصبح التوحش قانون الذين يَقتلون والذين يُقتلون.

تتكشف الملامح المتعبة والمرهقة من كثرة السير والهرب. الشاشة

تمتلئ بالوجوه التي لاشيء كان يجمع بينها إلا الخلفية السوداء والعيون التي ثبتت على حيرة واندهاش قاسيين. تحوم الطائرات ثم تقذف بحمم الموت من الأعالي. تشتعل الوجوه المحروقة بحر الشمس والجوع. المارشات العسكرية المستقيمة تملأ مدينة برلين. الكل يؤدي التحية للقادم الجديد بآلات الموت ومصانع الحرق. تخرج من كل مكان في المدينة، أذرع طويلة تؤدي التحية لهتلر. هتلر فرح بانتصاراته، يضحك وهو الذي لا يعرف الضحك إلا قليلا. يشرب الفوهرر، الثعلب، قهوته مزهوا بانتصارات الجبهات الكثيرة. ترفع الأعلام والألوان ترحيبا به لكن نظراته الحادة تخترق كل الوجوه التي كان يحادثها. زمن مخيف كان ينشر أسلاكه على الأبواب.

تنساب الأدخنة شيئا فشيئا ولا تبقى إلا الموسيقى المتموجة وكأن زمنا آخر أجمل كان في طور الحلول. لكن تسارع نغمات البيانو غيرت كل شيء. صدى موحش كان كأنه يأتي من وادٍ ناشف. عمق الفيونسيل الفجوات والانحدارات التي كانت تعمي كل نور وأمل. تتبَّع ميترا بعزفها يد جاز وهي تعلو أكثر فأكثر منحرفة تارة يمينا وتارة شمالا، في إيقاع مهدهد، يتماهى فيه الكمان بمشاهد الحرائق المهولة. فجأة تزداد السرعة وترتعش القصبة في يد جاز. تتمدد يده اليمنى هناك عميقا حيث يعود الكنترباس ممزوجا بالفيولونسيل في حالة إرباك وارتعاش كبيرين.

تندلع الانفجارات كالبراكين ويزداد عدد الطائرات ويتعمق أذاها، تجسدها الأصوات المتواترة للأركسترا بكاملها. تتباعد نقرات البيانو الذي يعود إلى عزلته الأولى. تنحصر الصورة في القطارات التي كانت تنفث أدخنة سوداء. تسحب في قاطراتها الناس بالآلاف كالحيوانات المحضرة للحرق. كانوا متراصين بعضهم على بعض بحيث لا تبدو إلا عيونهم وبعض ملامح وجوههم المحفورة بالخوف والجوع والبرد. يتساءلون بدون لغة: إلى أين؟ لا أحد يعرف أبدا. متى نعود؟ لا صوت يجيب. يصدح القطار بصفاراته المنبعثة من البيانو، تخترق القلوب والآذان. يرق صوت الكمان في تمازج مع البيانو الذي استيقظ من

جديد، حادا وحزينا، مستندا إلى خلفية آلة الفيولونسيل التي مد جاز يده نحوها، فزاد خفوتها بحيث لا تسمع إلا كسند خفي. تصعد أدخنة القطارات ثم تتوقف قبل أن تفتح البوابات الخشنة على نفس الوجوه وهي تنزل لتحشر في فضاءات مغلقة. لا تظهر إلا الأدخنة وكومة النعال والمشط والألبسة المتراكمة لأناس كأنهم ماتوا وجردوا من كل شيء قبل أن يبادوا حتى لا تدفن معهم أدواتهم الصغيرة. زمن الموت المجاني والهولوكوست كان قد شرع محارقه وأبوابه ونوافذه وسماءه الموصدة التي انسحب الله منها.

تفتح البوابات الخشنة عن آخرها على خلفية إيقاعات دائرية من الآلات الوترية التي ترنحت قليلا وحدها قبل أن تغيب في عمق بقية الآلات الأخرى. في شكل متواصل وبلا أي انقطاع، تصدح الآلات بكل قواها قبل أن تتفرد ميترا وعازف الكنترباس بجنائزية الحزن والانكسار. يتناوبان على الصعود والخفوت قبل أن ينسحب الكنترباس مخلفا وراءه أنين الكمان وحده يبحث عن مكانه داخل ضياع التيه والخوف الذي ارتسم طويلا على الملامح والوجوه.

كل المسالك مسدودة. يصير الجسد البشري لا شيء. تفتح الحفر الجماعية أفواهها عن آخرها. تدفع الجرارات بآلاف الأجسام نحو المقابر الجماعية. تتعجَّن، تتعفن، تتداخل، تتساقط في الأعماق كالخضر الفاسدة. تردم. يرفع الفوهرر يده اليمنى زهوا، وبيده اليسرى يفتح حمامات الموت. بيوت الغاز. يجر الناس جماعات جماعات، مستسلمين لمصير لم يصنعوه. بين الموت والحياة، تفتح امرأة عينيها اللتين تمتلئ بهما الشاشة الواسعة، تدينان عالما كان يخون قيمه ومثله العليا.

تتهاوى كل الأشياء وينزل الإيقاع نحو الأسفل باتجاه التمزق بحيث لا يسمع إلا صوت جماعي تؤديه الآلات النحاسية في كورس جنائزي موحد. يتهاوى أكثر نحو القاع المظلم. تتحول الإيقاعات الأخرى إلى مجرد أصداء لألم فظيع، وكأنها تصعد من عمق الحفر المثخنة

بالجراحات والمثقلة بروائح الجثث المتحللة. يثبت جاز أكثر يده ويرفعها بدرجات محدودة وقصيرة محدثا تقطعا في عزف الأوركسترا وكأنها سكاكين حادة تقطع الأجسام. وعندما تخرج الأصداء من عمق الحفر المظلمة، يكتنف الكنترباس حنين يقترب من النعومة والصفاء الذي يظهر حالة الحزن في أقصى تجلياتها. عندما ارتسمت الخطوط المتقاطعة في يده لم ير جاز وهو يغمض عينيه بشرا ولكنه سمع نداءات داخلية وأصواتا تأتي من عمق بئر مظلم، لأناس لم يعودوا بشرا، كانت الحفر تأكلهم واحدا واحدا وجماعات جماعات، وتمحوهم في النار وأعماق الرماد. يتحول الإيقاع إلى عويل خزنته الذاكرة زمنا طويلا قبل أن يخرج مع صرخات الموت الأخيرة.

تنشدُّ الآذان إلى النشيد الذي كان يأتي من بعيد. كان يخرج من حفر الموت. تشبك العيون المتعبة في الأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بالمحتشدات. تنسحب كل الإيقاعات مثل الموجة الهاربة ولا تبقي وراءها إلا الأصداء الخفيفة التي تتصاعد في شكل موسيقى جماعية سرعان ما تتأبط حزنها وتلتصق بألقها الأول: موسيقى الأفراح والأعراس الباروكية التي لا حدود لحريتها وانطلاقها. تتعالى الأعلام البيضاء. النساء يرقصن ويسعدن بزهو كبير. وجوه مختلطة. تزوق المقابر بكل الألوان. ترتفع الإيقاعات نحو التسامي. انتهى كل شيء عند بوابات العلمين وعند مداخل موسكو المغلقة بالثلوج. سقطت آلة الموت نهائيا وتهاوت كقطعة حديدية صدئة. يخرج الناس كالنمل، يكتسحون الساحات الغارقة بالأعلام البيضاء ويملؤون حتى الزوايا الصغيرة للشاشة الكبيرة التي كانت كلما ركض الناس، بدا وكأنها تزداد اتساعا. الرقصات التي بدأت في البيوت انتهت في الشوارع الخلفية. الليل صار نهارا والشمس أشرقت قبل وقتها.

لم تدم موسيقى الزهو والفرح طويلا. تغير بسرعة وجه السماء وتلبد من جديد بالغيوم الثقيلة. تغيرت الأدوار فقط ومشى البشر من جديد في دروب الجريمة. ينظر جاز بعيدا. يرمي بصره في الأفق الملتبس بالنور

والغيوم. يحاول أن يغيِّر قدر الحروب المتعاقبة. تخفت الموسيقى وكأنها ضيعت ميزانها الأول وصارت تبحث عن مقاسات جديدة. فجأة، بحركة جافة على ملامس البيانو، يخفت النور من جديد ويتوزع مع نقرات البيانو المتلاحقة في شكل مارشات عسكرية تأتي وراءها بنفس التناسق، حركات الفيولونسيل المتعاقبة.

تغادر الجيوش العربية بلدانها باتجاه فلسطين. تتيه في الطرقات ولا تصل إلى مواقعها. تبدو دروب القدس حزينة ووحيدة في حزنها. هجر المصلون الساحات الكبيرة ولم يبق إلا الحمام يأتي ويروح. وقسم الحائط العتيق، ذو الحجارة العارية بين حائط البراق وحائط المبكى وسرق طريق المغاربة ومحي وجه سيدي بومدين ولم يعد إلا أصداء خبر. غابت روح المدينة المقدسة في ظلال مفزعة، يتلاسن فيها الناس قبل أن تصير الشتائم حربا ضروسا، الذين أشعلوها معروفون ومن يوقفها لا يتجرأ على فعل ذلك. من بعيد يبدو بيت المقدس مضاء قليلا ولا يسمع أذانه إلا كحنين لشيء مبهم وغائب باستمرار.

تبدأ موسيقى الرحيل والعزلة. الأوركسترا بكاملها تشترك في إيقاع المأساة. جماعات تأتي سفن محملة بالبشر ترسو في ميناء حيفا ويافا. أناس يعدون بالآلاف يخرجون على وجوههم أمارات البحث عن مأوى لهم. فلسطين كانت تفرغ وتموت وتحيا بوجوه أخرى. تشتعل النار في دير ياسين وتغير حيفا جلدها وطرقاتها ووجوهها.

في حرائق الظلام تصرخ امرأة. يمزق الصوت أعماق المجموعة النحاسية المتكئة باستمرار على الفيولونسيل. تشتد النداءات اليائسة. تتماوج في حنين سرعان ما يندفن في عمق طبول الحرب التي تطغي على كل شيء. في الخلاء الموحش، يتعالى نداء غريب وموحد للناي المعدني، مصحوبا بالكلارينات وضربات خلفية مرتبكة للصنوج والباتري، يوقف زحف موسيقى الحنين التي بدأت تنشأ.

وجوه ينام الحزن والخيبات المتوالية بين شقوق ملامحها. تترك كل

شيء وتمدد خطواتها باتجاه الحدود الجديدة التي رسمت لبلاد الشام. تتوغل السيارات العسكرية في عمق الأحياء الشعبية التي تنام وتستيقظ تحت الخوف. في نفس الحي المقدسي تبكي امرأة على حافة القبر جرائم الهولوكوست وتضع ورودا على قبر لا تتبين اسم صاحبه. تبكي أخرى على الحافة المقابلة، حفرة منسية ما تزال تربتها منداة بدموع المارة الذين عبروا بعد أن اضطروا لمغادرة أرضهم. كتب على شاهدة القبر علامات اتضح فيما بعد أنها أبجديات كتبت بالعبري والعربي:

«ألم يكن من الممكن أن يكون الفلسطيني مسلما أو يهوديا أو مسيحيا؟ »

تتماهى الدمعات مع تمايل جاز الذي كان يوجه ذراعه باتجاه بيانو باتريشيا تارة وتارة أخرى باتجاه لودميلا التي كان ألق عينيها يوحي بثقة عزفها. تدرجات الفيولونسيل لا تتوقف وتواصل هسيسها في الخلفية بشكل جماعي وحاد، متعال في بهاء ومتدرج صعودا ونزولا. يعود البيانو إلى نقراته المتوالية التي تتضاءل شيئا فشيئا حتى تغيب نهائيا في صفاء مياه نهر الأردن التي بدت ملساء، وكأن لا شيء كان يحركها بعد أن انتمت لجهة المنتصر. يفتح النهر فاه باتجاه الضائعين الذين قضوا الليل يبحثون عن المسالك قبل أن يأكلهم الطمي والرمال المبتلعة. يزداد إيقاع الكمان صفاء وأنينا ثم شيئا فشيئا يغيب بدوره، كأن زمنا آخر بدأ وانتهى بسرعة في الأرض التي خرج منها. يصدح الإيقاع الجماعي في شكل خاتمة باروكية مختلطة لا شيء يجمع بينها إلا المأساة. ينزل الصمت فجأة، يقطعه الصوت الحاد للكنترباس والكلارينات ونقرات البيانو ثم الفيولونسيل ليموت كل شيء بشكل جاف بما في ذلك الطبول التي نهضت بقوة قبل أن تموت على قصبة جاز التي حسمت نداءاتها عندما نزلت كمقصلة، جافة وباردة. ويصمت كل شيء بغير انتظار.

ينحني جاز وعلى وجهه علامات التعب واللذة. يكتم دمعة رقصت في عينيه تحت الشعاع المتسرب من اللمبة التي كانت تضيء ورقة التوزيع الموسيقي. يتعالى التصفيق كنهر جارف لا يتوقف.

تنحني الفرقة بدورها وينتظر الجميع توقف التصفيق الذي ازداد حدة وامتدادا.

عندما التفت جاز صوب الفرقة معدلا من هندامه قليلا ومد قصبته الذهبية، متأملا وجوه أعضاء الأوركسترا واحدا واحدا. كل شيء كان جاهزا للحركة الأخيرة.

شعر بأن القلب كان ممتلئا بشيء امتزج فيه النور برماد الحرائق الداخلية المهولة.

وهو يتأمل الناس عندما أنزل القصبة الذهبية، في نهاية الحركة بشكل جاف وحاسم، زاد يقينه بأن الجمهور صار مأسورا بالسيمفونية ويزيد عطشا لها كلما تقدم أكثر في اكتشافاته لها. تعمقت ثقته. رأى الإحساس نفسه يتجلى في ابتسامات من كانوا قبالته من أعضاء الأوركسترا، وفي عيونهم الملتصقة بحركة رؤوس أنامل اليد اليسرى ودوران القصبة الذهبية.

الوقت في أوبرا بروكلين لم يكن يشبه الوقت في الخارج. كان المطر والأنوار الملونة والشوارع التي بدأت تخلو من المارة من كثرة السيول التي كانت تغسل المدينة للمرة الأخيرة. وكان الداخل مشدودا إلى آلام الإيقاعات التي كانت تنشأ بين يدي جاز والأوركسترا ودفء الأحاسيس التي صارت صافية حتى إنتفت في داخل الناس بعد أن صارت في أقصى درجات الشفافية.

أغمض جاز عينيه قليلا. تدحرج مرة أخرى في غيمة قادته نحو صفاء اللحظة. ترك الموسيقى تقود رحلته المتبقية وسط الصمت الذي سكن الوجوه والعيون واستوطن القلوب للمرة الأخيرة.

الحركة الرابعة

شبابيك إليس آيلند

جاء فيض الموسيقى ناعما ودافئا. يحرك مدافن الأشواق القديمة والطفولة المسروقة. شعَّت حبات العرق التي ملأت وجه جاز بلمعات عديدة تحت الإضاءة البيضاء المسلطة عليه. تمايل قليلا كالعصفور المذبوح. صوب نظره بشكل ناعم على وجه ميترا الطفولي. عندما كان صغيرا، كان جاز دائما يحلم بالطيران ولم تمنحه الدنيا إلا الموسيقى لكي يحلق مثلما يشاء متجاوزا كل جاذبيات الأرض التي بدت له ثابتة ولا شيء فيها يتحرك أبدا. ثم أنزل يده بهدوء ليعطي لحالة تحليقة مدى أكبر في التمادي لدرجة الغياب.

بعينين مغمضتين، لم يكن يرى بهما إلا ما كان يشتهي أن يراه، أعطى إشارته.

وإذ تنغمس ميترا في عزفها، تدور وتدور في مكانها كأنها كانت مركز كل ما يحيط بها من ألق، يتدفق شعرها على وجهها، فتبدو غجرية في أقصى درجات الندب والخوف. يرتفع أنين الكمان متصاديا مع بقية الآلات التي كانت تقتفي خطى جاز. شيئا فشيئا يتحول الأنين إلى بكاء صامت يشبه عواء الذئاب المكتوم، يأتي من بعيد، ثم يرتفع ليصبح بوق سفينة كانت تمخر البحر بكل أثقالها. يتكرر نداء الغياب أربع مرات مسنودا بالكنترباس الذي كان ينزع من الكمان رقته ويحولها إلى سماكة محسوسة وخشونة توحي بصعوبة الحالة. يمتزج الكنترباس بالكلارينات

عندما تبدأ السفينة تمخر عباب البحر لتتحول إلى نقطة صغيرة في الأفق، تتبعها نقرات البيانو حتى تنطفئ نهائيا من المشهد.

زمن يمضي، تعكسه الوجوه المنهكة. وزمن يأتي لا ملامح فيه تطبع صفحة الوجوه.

السفينة الضائعة في عمق الهول تبحث عبثا عن مرساها على حافة البحر. تبدو وهي تدور وتدور، كأنها ستصطدم بتمثال الحرية ولكنها سرعان ما تتفاداه. تمتلئ شرفات السفينة بالوجوه التي لم يمنعها قلقها وخوفها من الطرد والعودة على متن نفس البحر. تتمادى أصابع الطفلة وهي تسأل والدها في عالم كان يدور بسرعة: «بابا حبيبي، هل هذه هي أمريكا؟» يكبر وجه الطفلة على الشاشة. تردد نفس السؤال إذ لم تسمع للأول إجابة. ثم فجأة يسمع من بعيد صوت إيقاع نيويورك الجميل: **نيويورك**... **نيويورك**... لجون كيندر وفريد إيب. تزهو الطفلة في مكانها وهي تحاول أن تزيل شعرها من على وجهها، وتشد أكثر على يد والدها الذي بدت الحيرة واضحة في عينيه. ينسحب الضباب الذي غطى المكان، لتبدو بعده بوضوح كبير، إليس آيلند، حلما كبيرا للناس القادمين من بعد سحيق وهم لا يعرفون إذا ما كانوا سيصلون أم سينتهون في الطريق؟ وعندما يصلون، لا يعرفون إذا ما كانوا سيقبلون أم سيعادون على أعقابهم؟ ينظرون من الشرفات إلى تمثال الحرية بلونه الأخضر المرتبك الذي يشبه إلى حد بعيد قطعة نحاسية ضخمة وقد علتها قشرة خضراء سميكة من الأكسدة، بشموخه وهو يخترق الضباب، رافعا يده يرحب بالقادمين الجدد، أو على الأقل هكذا كان يبدو الأمر في عيونهم. سعادات صغيرة ترتسم على الوجوه المختلطة وهي تؤكد لنفسها أن تمثال الحرية لن يخدعها.

عندما يصعد النشيج المنبعث من زوايا الصالة، ومن الكلارينات التي كانت تؤدي نشيد الفرح المؤجل، تبدو إليس آيلند في عزلة تامة كجزيرة مفصولة عن بقية نيويورك. ينزل الخوف على الوجوه. يعبرها كسحابة ثقيلة. في العيون حيرة تزكيها ميترا على ذراع الكمان الذي كان

يتماوج مثل سفينة منهكة، مثقلا بالأسئلة المستعصية. تتداخل نظرات العيون الضائعة بصوت حنيني تغطيه الأوركسترا بمسحة إيقاعية جماعية ووصلة ناعمة ومتدرجة، تشبه رقرقة وادٍ في أدغال معزولة لم تطأها أقدام بشر. من جديد تتحرك قصبة جازءكالفينو باتجاه ميترا لتعطي لحركتها مدا طويلا يخرج منه صوت رقيق يقتفي خطوات الناس وهم يصطدمون بالداخلين من كل جهات العالم. يدفع جاز بميترا إلى التمادي أكثر. يخرج الأنين مبحوحا ومنكسرا كما اشتهته. وجوه الناس تبدو مكدودة من كثرة السفر ومشقة الرحلة التي دامت طويلا في عمق البحر والرطوبة والملوحة الزائدة. يبحثون عن حياة جديدة في إليس آيلند بألبسة ممزقة وأسئلة غريبة لم يتهيأوا لها. يؤثث جهاز الأورغ المختبئ في زاوية ما داخل الصالة الواسعة، ليتصاعد متدرجا في إيقاع كنسي وجل وخائف من اختناقات غير ظاهرة. يقف المسافرون الوافدون على حافة الحواجز الحديدية مسطرين في شكل شبه مستقيم. كل ينتظر دوره. يمرون واحدا واحدا. يتمزق عزف البيانو إلى نوتات صغيرة متتابعة كأنها تقتفي الخطوات المنتظمة للناس الذين أصبحوا الآن يسيرون في خطوط كالعساكر. فجأة ترتبك الإيقاعات وتختل منبئة بشيء كان كل واحد خائفا منه بدون أن يتجرأ على مواجهته، قبل أن تجد الإيقاعات استمراريتها وانسيابيتها الأولى شيئا فشيئا. تصحو الوجوه من غيبوبتها. لا تصدق أنها كانت في فضاء نيويورك. بعضهم يصلي عند المخرج الحديدي والبعض الآخر يركض في الميناء في حالة هستيريا كاملة وهو لا يعرف أن المشقة كانت في بداياتها فقط. لكن كل شيء يهون مع الدخول. تبدو نيويورك أكبر من حلم، حياة بكل جنونها وألقها.

تتألق الأنغام وتتكاتف الآلات كلها من جديد، يغمرها الساكسوفون الذي كان يتبادل المواقع مع الكمان. شيئا فشيئا تعود مقطوعة نيويورك لتملأ المشهد وتزرع بعض السعادة على العيون التي كانت مشدودة إلى خوف مبطن من مصائر الناس.

تستكين القاعة للوقع الذي كان في قمة تمزقاته. يغرق كل واحد من

الجمهور في مساره ومسار أجداده. تحك امرأة على رأس ابنتها. تتذكر جدتها التي جاءت من إيرلندا في القرن التاسع عشر وكيف أنقذتهم نيويورك من المقاتل الدينية والجوع والأمراض. تنظر ابنتها إلى عيني أمها لتذكرها أنها استوعبت جيدا ما حكته لها قبل مدة عن مسار أجدادها الذين جاؤوا إلى هذه الأرض عندما انغلقت عليهم كل سبل الدنيا. يستيقظ فيهم نفس الإحساس المدفون. الذاكرة تغفو قليلا ولكنها لا تموت أبدا.

تنتفي الأوركسترا في الظلمة وتسود ظلمة قاسية لا تخترقها إلا اللمبات الصغيرة والملونة التي تحيط بإطار الشاشة، وتبقى لودميلا وحدها في دائرة الضوء، وراء البيانو القديم. وجهها كان صافيا وأبيض مثل شمعة. تعزف بكل ما أوتيت من قوة. تتذكر شبابها بين مسارح موسكو ومطاعم بروكلين، فيزداد عنف العزف قبل أن يرتفع بين أناملها الناعمة نحيب نيويورك بقوة في شكل صياح أو استغاثة تموت في عمق التصفيقات الحادة للجمهور بدون أن توقت الأوركسترا موسيقاها. تظل مندمجة في إيقاعاتها في حلقات تكرارية مع طغيان البيانو وميترا التي شكلت خلفيته لها بالكمان. ينسى الحاضرون أنفسهم ويرددون نشيد الغرباء في مدينة نيويورك، بانتظام كبير وكأنهم دربوا على ذلك من قبل مع المجموعة الصوتية التي اتكأت عليها لودميلا كثيرا.

نيويورك. . . نيويورك. . .

أشيعوا الخبر، سأرحل اليوم إلى نيويورك،

زادي، حذائي وحقيبتي مثل الجوال

أريد أن أفتح عيني في مدينة لا تنام.

وأكون أنا سيد المكان،

على واجهة الإعلانات والطرقات،

بؤسي القروي ورائي، يذوب كالثلج.

أعاود حياتي في نيويورك العتيقة،

فإذا نجحت في نيويورك، لِمَ لا أنجح في كل الأمكنة؟

نيو... يووووورك... نيو. يووووورك... نيو... يووووورك.

يتكرر المقطع مرة أخرى. تُعاود لودميلا التي ارتسمت صورتها بكل تفاصيلها على الشاشة بأناملها الطويلة والناعمة، العزف. تتحول الموسيقى إلى عرس كبير ممزوج بالأشواق الدفينة. لا يتمالك الجمهور من التصفيق بجنون وكأنه في عرس انتفت فيه كل الموازين ومسارات الانضباط. افترض جاز كل هذه التفاصيل ولهذا ألح على عدم فقدان الميزان بدل التوقف، الدخول في لعبة تكرار المقطع إلى أن يهدأ الجمهور.

على الخلفية الواسعة تتدفق نيويورك كالشهد. تمنح شوارعها وباراتها وورشاتها وابتسامات نسائها للمهاجرين الجدد. تشهق المباني في علوها حتى تخترق ألوان السماء والغيوم الهاربة التي صارت تخبئ رؤوس البنايات. تنشأ الشوارع مستقيمة، جميلة ونظيفة. تتقاطع فيما بينها كلعبة شطرنج ثم تهرب بعيدا نحو الزوايا الأكثر عزلة.

كل شيء كان يتغير بسرعة مذهلة. لم يكن المهاجرون قادرين على استيعاب ما كانوا يصنعون. تنسحب الأحصنة الثقيلة من المشهد لتعوضها سيارات جميلة وآليات ضخمة. شيء يشبه التحدي لم يكن أحد قادراً على إيقافه في هذه المدينة التي جُنَّت بحريتها.

شيئا فشيئا تنزل الإيقاعات بتواتر غير مكرر، مقتفية حركات جاز التنازلية بيديه اللتين لم تتوقفا مطلقا، تارة على اليمين وتارة على الشمال وأخرى في الوسط حيث الإيقاعات الجماعية للفولونسيل والفرقة النحاسية. ينكشح ضباب المدينة بهدوء مثل غلاف شفاف من الأدخنة الكثيرة وتبدو نيويورك بكل عنفوانها وكبرها واتساعها وقوتها وجبروتها. تملأ أصداء الساكسو والترومبيت القاعة في انسجام كلي مع الخلفية التي بدت خافتة وحذرة. يتغير مشهد الأحزان والمشقات ويبدو الشباب في

عز سعادتهم الهشة. يرقصون ويتذوقون موسيقى الجنون، يشربون في الحانات المضاءة ليلا بألف ضوء. الرقص الشرقي، السامبا، التانغو، التويست، البلوز، الجاز، الغوسبيل، والسوينغ. . . بلا توقف. القبلات التي تخترق حرمة الصمت وتجعل الحياة أكثر دفئا وأكثر حبا وتقربا. الكحول يسيل وينسكب على الأرض تحت قهقهات الناس وتقاطعات موسيقية يعزفها الفيولونسيل بلا توقف وبقوة متمادية في تدعيم حالة السعادة الكبرى. تتصاعد الإيقاعات الجماعية التي تغطيها الفرقة النحاسية من جديد، تأتي كالرعشة أو حشرجة الارتباك. ثم ينداح الفيولونسيل نحو الخلفية شيئا فشيئا محدثا فجوة من الصمت لا تملأها إلا نقرات جافة وباردة على بيانو باتريشيا. تسارع ضربات الطبل ونقرات الباتري الجافة والباردة لتتداخل في عمق الإيقاعات الجماعية.

صور بالأسود والأبيض والسيبيا[٤٢]. تتغير السعادات الصغيرة. تمتلئ الطرقات الخلفية بالعاطلين. جزع يقرأ في العيون التي تبحث عن لغتها. تتخفى من عيون مافيا الكحول. ألكبون[٤٣] يقهقه ولا تسمع وراءه إلا رشقات الرصاص. يعطي الكنترباس بروزا خاصا لشقاء الخيبة. يموت الناس في المدينة. يتهاوون بأعداد هائلة بين رصاصين، رصاص الشرطة ورصاص المافيا. تسأل طفلة بعيون مرتبكة ملأت الشاشة: «بابا هل هذه هي أمريكا؟» ينظر الرجل الصافي الوجه في عيني ابنته ويشير بعيدا للبرجين التوأمين اللذين كان قد انتهى تشييدهما: هذه أيضا أمريكا. تعود الطفلة إلى لعبها مطمئنة.

يهتز الجمهور عميقا ولا يملك يديه ولا دمعه. يصعد التصفيق حادا وعاليا.

شيئا فشيئا يصبح العزف أكثر نعومة وأقل شراسة. تتدحرج إيقاعات الكلارينات لتسيطر على بقية الأوركسترا. سرعان ما تعود نيويرك إلى

---

(٤٢) Sepia

(٤٣) Alcappone

ألفها وتعود لها الألوان التي يعرفها سكانها. الأضواء وموسيقى الميوزيك-هول(٤٤) في برودوي الممتدة إلى أعالي مانهاتن. حركات ميترا تزداد انسجاما وكثافة. يتحرك ذراع الكمان جيئة وذهابا بلا حدود ولا فواصل قبل أن يندفن الإيقاع داخل نعومة مخملية تجيدها ميترا بشكل ممتاز.

كانت نيويورك تحتفل بعنفوان آخر لم يكن أحد يدركه ولكنه كان ينشأ في الخفاء.

شيئا فشيئا، يتهادى كل شيء ويميل نحو الليونة والاستقرار أكثر. التصقت عينا جاز بعيني ميترا وكأنهما لا تريدان أن تضيعا أية لحظة للمتعة. تتمايل بحسب تحليق القصبة الذهبية التي كانت تصنع أقدار اللحظة بكاملها. ينزل جاز يده شيئا فشيئا وكأنه يخاف من هشاشة سقوط الأشياء التي كانت تخرج من يده. وبتدرجٍ متجانسٍ ومتواترٍ، تموت كل الإيقاعات، الكمان الذي كان يصنع الواجهة بعنفوان كبير، ثم نقرات البيانو التي زادت المسافات بينها حتى إنتفت نهائيا وفقدت نفسها الأول، ثم الفولونسيل الذي ظل يشكل خلفية كانت تسند مجمل الإيقاعات في خفاء يكاد لا يسمع.

يهدأ كل شيء وتصمت الموسيقى.

لم يحرك الجمهور ساكنا. كان غارقا في لحظات انتظار، تعوَد عليها ولم تأت.

عندما انحنى جاز وميترا متبوعين ببقية الفرقة، تأكد الحاضرون أن الحركة الرابعة وصلت إلى نهايتها.

الجمهور الذي تعوَد على النهايات المقطوعة كان مشدوها، ينتظر البتر الموسيقي الحاد والجاف الذي يعلن عن النهاية ولكن ذلك لم يحدث. فقد اختار جاز خروجا ممدودا. لأول مرة تأتي النهاية انسيابية وغير مقطوعة كما تعود جاز أن يفعل ليترك النفوس متعطشة إلى المزيد.

---

(٤٤) Music Hall

فجأة استدرك الجمهور ذهوله فقام من غفوته. وتحت وقع الهزة العنيفة التي وصلته متأخرة، وقف جماعيا وترك نفسه يغرق في تصفيق استمر طويلا حتى تدخل جاز بالتفاتته المعهودة نحو الأوركسترا ليعلن عن بقية الرحلة في لحظاتها الأخيرة.

مقطعٌ اختتامي

تخف الحرارة التي اعترت جسدها وتصعد البرودة شيئا فشيئا لتعبر كامل الخلايا. تنظر ميترا إلى عيني جاز اللتين بدت واضحة استدارتهما اللوزية بشكل كامل. شيئا فشيئا تغرق داخل البؤبؤين اللذين كانا يشتعلان بالنور المتسرب من اللمبة القريبة. رأت نفسها وهي تقبض على الكمان قبل أن تغرق فيهما.

لا شيء في المدينة إلا الضباب الذي كان يتصاعد عاليا وبشكل غير اعتيادي من بحيرة هودسون، على الطرف الغربي من المقبرة، ليغطي كل شيء بغلالته الشفافة. تتعالى الإيقاعات في هدوء وسكينة تشبه الموسيقى الجنائزية التي تعمق حالات الفقدان. تكاد الهمهمات الحزينة والابتهالات تخرج من عمقها وتعلن عن نفسها. تتضاءل ثم تصعد في شكل تراتبي بدون أن تسقط في التكرار الممل. تفقد الأشياء مسافاتها الاعتيادية عندما يصير الحزن صافيا كدمعة أو كحبة مطر جاءت من أعمق سماء وأبعدها.

زاد النور حول الشاشة بدون أن يطمس صور بحيرة هودسون التي كانت تتلاحق داخلها.

شعر جاز بضيق المسافة بينه وبين ميترا. وبينه وبين كراسي الجمهور المشدود إلى كل حركاته وإيقاعات الشاشة. كأنه كان في استراحة، إذ بدت كل حركاته متحررة من كل قيد نظامي وإيقاعي. ومع ذلك، فهو يعرف جيدا أن الخاتمة هي عادة آخر ما يبقى في الذاكرة. تسربت نفس الراحة نفس الحرية إلى الأوركسترا التي بدت أكثر ليونة وفي كامل عنفوانها. كان كل شيء يرحل نحو فضاءات من الحرية لم يكن هناك ما

يحده إلا الإيقاعات التي تداخلت وانتظمت في حزنها وخيباتها. صارت الآن كل المدارات في مرمى يده مثل النور، لا يقبض عليها، تتسرب كالضوء ولكنه كان يحسها وهي تعبر جسده زارعة فيه الكثير من الدفء. تمتم في أعماقه متذكرا فيفالدي، ردانسكي، موزارت، هايدن... خصوصا فاجنر... الخواتم أو القفلات يجب أن تصعد عاليا وأن تتخطى حدودها الاعتيادية وتشق بقوة الصدور التي انغلقت على الذاكرة كصدر جده المقفل بإحكام على ألمه وقصصه وخيباته التي جرها وراءه قبل نصف قرن: يا بابا شريف؟ الزمن تغير كثيرا وإذا لم نفهمه سحقنا مثلما تفعل السيارات يوميا ملايين المرات مع الحشرات! تمنى أن يتمتم في أذن جده اليسرى حيث زاوية إنصات القلب. تمنى جاز أن يقول له ذلك كله عن طريق الموسيقى. أن يصل قلبه قبل أن يودع هذه الأرض التي لم تكن رحيمة دائما معه. أن يقلل من المسافة التي كانت تفصله عنه، ولكن...

عندما جنح قليلا بعصاه الذهبية باتجاه الفرقة النحاسية، تعالى الشدو عاليا ساحبا في إثره كل الأوهام القلقة والأشواق الهشة. الدنيا تغيرت يا جدي؟ سمع الكلمة تأتيه وهي تنسحب مشقوقة مرتبكة من جماع الإيقاعات السيمفونية التي توحدت فجأة لتستجمع قوتها وشجاعتها لقول ما كان يعذبها عميقا.

كان يرى كل حركات بابا شريف الطفولية وهو يقفز عاليا كلما نهض الجمهور، يرتكز على عصاه بجسده النحيف فيصفق طويلا، ويكون هو آخر من يجلس. يعشق أحاسيس جاز الصافية ويحب خواتمه. يعرف جيدا أن جاز كان مأسورا بالنهايات حتى عندما تكون حادة وبتْرية كمقصلة. يشعر بابا شريف بها وهي تنزل عليه بوقعها البارد الذي يعيده إلى ذاكرة كادت تموت تحت ركام الغبار. يصفق وينغمس داخل جنون اللحظة تحت وقع كان يشده عميقا نحو حياة يرفض أن يترك خيطها. تأتيه كل كلمات جده صافية كدمعة حزن يتيمة:

«- الموت سلطان يا جاز حبيبي، يمكن أن نرده. في هذه السن

نشبه كثيرا متسلق الجبال الذي عندما تحاصره الثلوج عليه ألا ينام، أن يقاوم السكينة بكل قوة. النوم هو أسهل طرق الموت. سلطان قاس هو الموت ولكن يجب أن يواجه بعيون مفتوحة لينسحب وحيدا غير مصحوب بروح من جاء من أجله. لقد أعطيت للحياة دائما مبررا لكي أظل ههنا واقفا كشجرة ولا أنام حتى لا أسهل طريق الموت، أنتظر من يصغي إلي. الآن بدأت أشعر بالسكينة التي طالما بحثت عنها بتشوق كبير بعدما استمعنا إلى بعضنا بعضاً.

- طول العمر يا جدي.

- لا. نعشق الحياة ولكن في عمري، يصير الجسد هشّا كجناحي فراشة، بمجرد أن نلمس أشواقنا التي انتظرناها، نترك الخيط ينزلق من أيدينا لأن المسافة بيننا وبين الموت تضيق فجأة حتى تصير فينا. وإذا سكن الموت أطراف الجسد، أخذ أملاكه وانسحب بأهم ما هو فينا، الروح.

- يا بابا شريف أنت مازلت هنا وهذا هو الأهم.

- هذه غلبتَني فيها. الحياة أهمّ.»

شعر جاز بجده وهو يقوم وينزل إثر كل حركة ويمد يده ليضع قبلة على شفتيه ثم يقذف بها نحوه مثل المراهق العاشق الذي استيقظت فيه الحياة فجأة. كان سعيدا لأن بابا شريف لم يسلم في خيط الحياة مطلقا. رآه عندما التفت نحوه في الحركة الرابعة: شبابيك إليس آيلند. ثم عندما رفع يده من جديد بقصبته الذهبية، لمحه وهو يجلس بهدوء ويمدد رجليه، يتكئ على الكرسي ويترك نفسه تغرق داخل العذوبة. تذكر كلماته الأخيرة عندما عبروا إلى إليس آيلند وهم في طريقهم من المقبرة إلى بروكلين:

«- هذه هي إذن التفاحة الضخمة التي تتوقف في الحلق بحلاوتها وقوة سحرها. هذه هي نيويورك إذن التي سرقت كل الذين نحبهم. لم تتغير كثيرا. ما تزال الأشياء الكبيرة في أمكنتها سوى أنها صارت نظيفة

وارتفعت بناياتها أكثر. هناك، بالضبط هناك، على حافة إليس آيلند كانت أمك في يدي وأنا أعبر سعيدا وأخادع الأطباء خوفا من المرض، فقد كانت الحمى قد امتدت نحو أمك. كم كانت شجاعة مايا... بنتي الصغيرة، حبيبتي التي سرقتها مني التفاحة الضخمة مثلما سرقت الكثير ممن أحببت. أتذكر جيدا أنها على حافة هذا الميناء بقيت صامته، تضع يدها على فمها الصغير لكيلا تكح ولكيلا يرى أحد قطتها أميرة التي خبأتها في عبها. الصدف العظيمة تصنع أحيانا الأقدار الجليلة. عضت على شفتيها بقوة وتحملت الألم وكتمت كل نفسها وتحدثت مع العسس والأطباء براحة وبإنجليزية بهرت الجميع. أعتقد أن لغتها أنقذتها وأنقذتني معها. فقد كانت تخاف عليَ. نسيت فجأة عليان نفسه الذي ارتبطت به بعمق. كان كل حياتها بالنسبة لها. تخيل طفلة في مقتبل العمر تأتي إلى مكان هي لا تعرفه ولا تشتهيه وتترك أعز مخلوق لديها، أمها إذ لم تكن تعرف أن مانيا كانت قد قتلت؟ كل ذلك من أجل إنقاذ والدها. نصاب بالعمى أحيانا ولا نبصر إلا أنانيتنا البائسة. لم تكن تتصور أنها ستترك يوما حارات القدس التي كانت حياتها. لا شيء في عينيها إلا الزيتون واللوز المر والحيطان العتيقة وحبَ لم يكتب له أن يعيش طويلا؟ صحيح أننا لم نشبه بعضنا لكننا كنا نتشابه كثيرا ولم يكن بيننا ما يمكن أن نداري به. أنا على يقين أنها في عمقها سامحتني أني لم أقص لها ما حدث لأمها، ولكنها لم تغفر لي قصتها مع عليان. الوحيد الذي ظلت تسأل عنه باستمرار، ويوم سأل هو عنها أغلقت دفترها نهائيا وكأنها كانت فقط تتشهى أن تسمع صوته أو سؤاله عنها لكي تقوم بحدادها النهائي ورأت الحياة بقوة أكثر كما اشتهتها. رزانتها كانت تبهرني.

- كل شيء انتهى الآن يا جدي. أنت هنا وهي هناك بين النجوم وفي قلوب كل الذين أحبوها. مايا لم تكن امرأة عادية، فنانة كبيرة.

- ليست هناك بين النجوم، ولكنها دوما هنا، في القلب وفي وسط كومة من الخيبات والحرائق. لقد أزلت يا جاز كل شيء عني وصرت

أراها. أسمع صوتها يأتيني من بعيد كل ليلة وأغضب كثيرا من الله، لأنه خلقنا متشابهين وكنت أتمنى ألا نكون كذلك حتى نستطيع أن نحادث بعضنا بعضا كأي صديقين. مايا كانت شعلة من الذكاء وحققت ما شاءته من الحياة. حاولت أن تغلق في وقت مبكر كل أبواب القدس الصعبة، مدينتها المقدسة، وتنسى ما لا تستطيع تحمله، فأكلها الحنين من الداخل ونحتها حتى إنهاها.

لم ينزل جاز يده ولكنه أبقاها عالية ومتقدمة. عندما سحبت ميترا على الكمان وتمايلت، خرج النشيد مبحوحا ومجروحا كأنه نشيج يخرج في شكل غصة. بكاء مخنوق. دمعت عينا بابا شريف على حافة إليس آيلند لأول مرة وهو يخرج من الميناء، وبكى بعد نصف قرن بنفس الحرارة ونفس الشوق. انكسرت الدمعات المتعبة في عينيه اللتين ظلتا صافيتين وكأن الزمن لم يفعل فيهما شيئا، واضحتين ونقيتين من كل الشوائب. كانتا كفجر نيويوركي على ضفاف بحيرة هودسون. أخرج منديله بيده التي كانت ترتعش أكثر من المعتاد ومدها إلى وجهه وهو يتمتم ويهز رأسه وينظر إلى تمثال الحرية بعمق، يمسحه بعينيه، يعبره من مرتكزه الضخم ويتسلقه درجا درجا حتى وجهه وحتى اليد العالية التي كانت قد غرقت في عمق الغيوم العالية وهي تشد بإحكام مشعلها. عندما رفع بصره أكثر متكئا على عصاه قليلا، لم يبد له التمثال كما رآه عندما دخل لأول مرة إلى نيويورك، كبيرا إلى درجة مخيفة وكأنه كان يريد أن يسطو عليه. رآه يتمايل وخاف أن يسقط عليه.

«- الغريب هو أني عندما رأيت نيويورك بأدخنتها المتعالية وميناثها المكتظ، رأيت تمثال الحرية الذي بدا لي وقتها متماديا في تعاليه واختراقه الغيوم والسماء. يبدو أن الأشياء تتغير كثيرا مع العمر، إما أنها تنزل قليلا بفعل الزمن الذي ينحت كل شيء من الأعماق أو نعلو نحن أكثر بفعل الزمن كذلك، وما كان يبدو لنا كبيرا ومستحيلا، يصير تقريبا في حجمنا ومستوعبا بصريا. لم أجد الوقت يوما لأسال مايا هذا السؤال هي الطفلة الحساسة التي عندما رأت التمثال سألتني بدهشة صبية عندما

رأت الناس يركضون نحو شرفات السفينة: « بابا شريف، هل هذه هي أمريكا؟ لم أجبها فقد غرقت في خوفي الذي كان ينتظرني. »

ينزل بقصبته التي لمعت بقوة عندما اخترقت خيط الضوء الذي كان ينير دائرة جاز. تتماوج يد ميترا بلا توقف في حركة انسيابية، ساحبة في أثرها حنينا مكسوا بأنين لا حدود له وألما كان يأتي من عمق خيوط أخرجت كل ما في أعماقها. تتمايل ميترا، شعرها لا يستقر على مكان. تطير عاليا، عاليا في الفضاءات التي لا حدود لنهاياتها المبهمة، كعصفور يبحث عن سماء أكثر علوا من السماء العادية. أعلى، دائما نحو الأعلى، مخافة أن يرتطم الصوت الحنيني بالأرض. يتداخل المقطع مع أشواق العودة التي يخترقها حنين الناي والأورغ المصاحب لدقات الكنترباس الجافة ليقترب الكل ممَا يشبه الإيقاع الخلوي الإفريقي. امتلأت كل البياضات التي كانت ميترا تخلفها في إيقاعها المتواتر. الساكسوفون يعطي هذه المرة على كل شيء مستعينا بأنغام محاذية لألفوستو في حنينها وقلقها. ويتحول كل شيء إلى نداء يأتي من الأعماق، يضع الانكسارات والخيبات في الواجهة.

تغيب على الشاشة الخلفية معابر قنوات إليس آيلند وميناء نيويورك داخل غيمة ماطرة، تنزل خيطا من السماء. تملأ المكان صحراء عطشى تذوب شيئا فشيئا في معبر مائي كان الآلاف من الناس يحفرونه. قناة السويس. فجأة تمتلئ القناة بالسفن التجارية والعبَارات والسفن الحربية الكثيرة التي صارت فجأة هي سيدة المكان بمدافعها. كانت الأرض تضيق مرة أخرى. يد تبني بعذاب وأخرى تدمر بلذة زائدة. تقذف الطائرات من علو شاهق السفن الراسية والطائرات والناس. تكتظ الشوارع بالخيبة والأحقاد. الشوارع تغلي. المياه التي اشتعلت فيها نيران ٦٧ عادت إلى ألقها وعادت السفن إلى حركتها. لا شيء في الأفق.

يخرج الصوت الحنيني متعاليا مع الساكسوفونيست الذي لم يوقف نفسه ولم يقطعه في منتصفه ولكنه تركه يطول قبل أن تدركه إيقاعات ميترا التي زاد نشيجها وتعاليها وارتباكها. تشتعل النيران. حرب على

حرب وموت يحاذي موتا، والمقتول نفسه والخوف يزداد ضراوة. يتوافد المصلون إلى ساحة الجامع الأقصى، وكنيسة المهد وهيكل سليمان وحائط البراق أو المبكى. تزداد شعلات النار وتأكل ألسنتها كل بيوت الله.

يندفع أنين الكمان بدون توقف بشكل متواتر كأنه يركض أو يسابق زمنا قبل فوات الأوان.

تنزل غيمة داكنة بها سواد ثقيل. ربما كانت أدخنة نيويورك العادية وضبابها المثقل بالأنداء والرطوبة والمياه. تغطي المدينة كليا. يندلع الصراخ حادا وعميقا وجارحا مشفوعا بانفجارات متلاحقة. لم تكن غيوما ولكنها كانت دخانا أعمى كل شيء. غطى البرجين ومركز التجارة العالمية. لا شيء إلا الرماد ومقبرة واسعة يقف الأصدقاء والأهالي على حوافها قبل أن يضعوا عليها زهورهم وأنينهم ثم ينسحبون.

يشتعل البرجان التوأمان. تأكلهما النيران. تصعد الأناشيد الجنائزية الحزينة. يئن الكمان بين أصابع ميترا للمرة الأخيرة. تتبعه الفرقة النحاسية والفيولونسيل. في خلفية بعيدة، تعلن الطبول عن حرب قادمة لكن الأنين يزداد أكثر والدق الجاف يرتفع بقوة. من جديد يصعد أنين الكمان مغطيا طبول الحرب التي حاولت أن تتعالى فوق كل شيء، ولكنها انتهت إلى السكينة.

تتكاثر حركات جاز في كل اتجاه قبل أن تحصر تركيزها في ميترا. تخفت كل الآلات وتصمت نهائيا ليندلع نشيد البكاء وأنين الكمان وحيدا وحادا على الخيط الأكثر رقة وإثارة للفقدان، حافرا على جدار الذاكرة وعلى بقايا قبور لم تعرف أسماء أمواتها، رموزا لم يكن أحد يدرك معناها. يتحول عزف الكمان مثل عواء ذئب في البراري، وحيدا في عزلته وبرده. يتضخم قليلا بالكنترباس ليصير نداءً كان يأتي من أعماق بئر، مخنوقا وغير واضح قبل أن يتضح صفاؤه برفقة الكلارينات التي التصقت بالكمان وصارت في نفس مسالكه الوعرة، لتتحول إلى نقرات ناعمة وخفيفة، تسندها في خلفية قريبة، ملامس بيانو باتريثيا ولودميلا.

تتعالى الأدخنة التي كانت تغطي نيويورك. تصير الأدخنة غيوما يخرج من صلبها كف تمثال الحرية وهو يحضن الشعلة التي ارتجفت قليلا قبل أن تستقر في مكانها. تصير الشعلة حقيقة وتبدو نيويورك مدينة في كامل ألقها، تعبرها وجوه من كل الجهات: هندية، أوروبية، آسيوية، عربية، جنوب أمريكية... تتعدد الوجوه وتتداخل باستمرار. يصعد نشيد المدينة عاليا مرة أخرى مثلما حدث في المرة الأولى. تتعالى فوق كل الإيقاعات، أصوات المجموعة الصوتية، الكورال، بالآلات التي اندغمت قبل أن تنفصل عنها ميترا وبيانو لودميلا الذي اتضح أكثر برفقة الساكسو الذي كان يتعالى بتواتر في الخلفية المظلمة:

نيويورك... نيويورك...

أخبروا الجميع، سأرحل اليوم إلى نيويورك،

لا زاد لي إلا حذائي وحقيبتي مثل الجوال

أريد فقط أن أفتح عيني في مدينة لا تنام.

وأكون أنا سيد المكان...

نيو...يووووورك... نيو.يووووورك... نيو...يووووورك.

يقوم الناس من أمكنتهم. يستمر النشيد الذي كان هذه المرة كذلك يأتي من عمق القاعة. يتواصل في امتداده على وقع التصفيق الحاد والعاصف الذي لم يتوقف. حتى عندما انتهت السيمفونية وقام الفنانون من أمكنتهم استعدادا للتحية، واشتعلت أضواء الصالة الجانبية، أعاد جاز برفقة بيانو لودميلا التي ظهرت في دائرة الضوء بأناقتها، على الرغم من تعب العمر، وبمساعدة صوت الكورال، المقطع الأخير من الخاتمة:

أريد فقط أن أفتح عيني في مدينة لا تنام.

وأكون أنا سيد المكان...

نيو...يووووورك... نيو.يووووورك... نيو...يووووورك.

فاستمر نشيد نيويورك في كل الأفواه. لم يستطع أحد من الحاضرين أن يكتم كل الهزات العنيفة التي انتابته ولا الدموع التي انهمرت بغزارة أو تحجرت في العيون.

انحنى جاز تقديرا للجمهور حتى كاد أن يقبل الأرض، مرات عديدة وانحنت معه الفرقة. ثم جاز وميترا وحدهما بينما غاب بقية الأعضاء في الظلمة الخلفية.

لم ير جاز شيئا ولكنه سمع كل الأصوات التي كانت تأتيه من بعيد. فجأة شعر براحة داخلية وبثقل قد زال نهائيا، حمله على ظهره طويلا قبل أن يضعه حيث كان يجب أن يوضع.

زاد التصفيق وارتفع عاليا، مصحوبا بصراخ الهندي الأحمر واووو... برافووووو... واوووو... ضحك بعض أعضاء الأوركسترا وميترا ثم جاز الذي لم يتمالك نفسه من التمتمة عندما أدرك أن الصوت كان يأتي من غرفة المراقبة، في الطابق الأول:

«- لن يغير ماركو أبدا من عاداته المجنونة.»

ستائر أوبرا بروكلين

يقف جمهور بروكلين لحظات قبل أن يغادر المكان، فقط ليسمع الستائر وهي تنغلق وينطفئ بعدها كل شيء.

شيء ما في ستائر أوبرا بروكلين مثير للغموض واللذة. سحر خاص لا يقاوم. لا أحد يدري مصدر ذلك؟ أهي الستائر نفسها أم حركتها وهي تنفتح أو تنغلق أم هي هسهسة الصوت الذي يصحب تحرك الستائر على سكك حديدية رقيقة غير مرئية؟ أم لونها الآجريَ الغامق الذي يولَد إحساسا كبيرا من الراحة؟

تنغلق الستائر على انحناءة كل أفراد الأوركسترا للحظات، قبل أن تنفتح من جديد على أضواء هادئة وباردة، أعطت نوعا من الدفء ملأ قلوب الحاضرين الذين بدت علامات السعادة واضحة على وجوههم.

بالتدرج، تشتعل بقية الأنوار بداخل القاعة التي كانت ما تزال تهتز تحت عاصفة التصفيق الذي لم يتوقف. الفوانيس الجانبية. أنوار الجهة اليمنى. أنوار الجهة اليسرى ثم لمبات الوسط الكاشفة. شلالات من الأنوار تتدفق بعنفوان وقوة. فجأة تغرق قاعة الأوبرا بكاملها في بياض ضوئي كثيف، وجد الحاضرون صعوبة في تحمله في البداية،

ينحني أعضاء الأوركسترا للمرة الثالثة أمام جمهور كان متعطشا للحظة مسروقة عبرت كلمحة.

زاد التصفيق حدة. ظل يهدر بشكل عاصف ويتردد من بعيد أمواجا تتلاطم بعنف لتتكسر في النهاية على العوارض الإسمنتية قبل أن تعود ثانية نحو التدفق.

مسح جاز على وجهه ولم يستطع أن يكتم بريق السعادة الذي ارتسم

في عينيه. قدم أعضاء الأركيسترا واحدا واحدا. ثم ميترا وعازفة الكلارينات وباتريشيا، عازفة البيانو وعندما توسطهم انحنوا جميعا. تفقد جاز بعينيه كل الحاضرين الذين ظلوا غارقين في التصفيق. رأى حتى كلوديا صاحبة البرنامج التليفزيوني ميوزيك ناو(٤٥)، التي التقى بها في المطار وابنتها أوليفيا التي كانت تحمل باقة من الورود في عمق الصالة، أم ميترا وصديقات لها من الجالية الإيرانية المنفية في نيوجيرسي. فتش بعينيه عن كل الذين جاؤوا. فيليب غلاس وبعض عمال الأوبرا. القاعة كانت غاصة ومن الصعب رؤية الأماكن الخلفية التي بدا فيها الناس متداخلين وهم يرفعون أياديهم للتحية. التصفيق لا يتوقف وكلما خف عاود ثانية بحرارة أكبر.

تنغلق الستائر ثم تنفتح من جديد. يقف جاز في الوسط. يتدفق التصفيق شلالات شلالات. يمد يده إلى الجهة اليسرى. تدخل لودميلا تحت عاصفة من التصفيق من جديد. تحتضن جاز بقوة. تجهش.

مسح القاعة بعينيه مرة أخرى. كلهم كانوا هنا. رأى عائشة وهي تتمتم في أذن فيليب. ينظر فيليب قليلا نحو بابا شريف ثم نحو جاز، يلوح نحوه بقبلة مثلما كان الجد يفعل قبل لحظات. يقبض فيليب على يد عائشة بحنان. رأى انكسارا في عيونهم وشيئا مبهما يشبه الحزن يكتسح الوجوه، ربما كانت هزة الفرحة. بدا له كأن فيليب لم يستطع تحمل وقع هذه اللحظة الجميلة. أخرج منديلا أبيض. مسح عينيه مثلما فعلت قبله عائشة. فجأة، بدا لجاز كأن الزمن كان يسير بشكل بطيء والوجوه، كل الوجوه تمر أمامه بتثاقل، واضحة الملامح وحادة النظر. تختلط الوجوه والألوان في حالة شبه نشوة، تتبعها دوخة يتداخل فيها كل شيء. رأى الناس يصفقون، يتمايلون ثم يصيرون ظلالا في عمق الألوان، تحت وقع الموسيقى الخلفية التي كانت تستعيد السيمفونية مسجلة ومشاهد الجمهور وهو غارق في لذة الاستماع أو التصفيق والأحاديث الجانبية في انتظار

---

(٤٥) Music Now

نزول جاز وميترا وبقية الفرقة من المنصة واتجاههم نحو **البام** BAM حيث بقية السهرة التي نظمها فيليب على شرف الأوركسترا وبعض الضيوف الذين جاؤوا من أمكنة مختلفة. شعر جاز بشيء غريب ينتابه وبعدم قدرته على تحمل كل هذه السعادة وحده. صعب أن يكون إنسان هو أسعد رجل في الدنيا لوحده؟ بذل مجهودا لكي يبقى واقفا ومتوازنا ومتكئا قليلا على جسد لودميلا الذي ظل يقاوم التعب. اهتزت شفتاه. ارتعشت يده اليمنى التي كانت ما تزال تحتضن القصبة الذهبية ولودميلا، بينما كان أعضاء الفرقة قد بدأوا ينسحبون نحو عمق الأوبرا لتغيير ألبستهم، الواحد بعد الآخر. الجمهور ظل ثابتا في مكانه ولم يتعب من التصفيقات الحادة التي شعر جاز كأنها صارت قريبة منه أكثر.

انكسرت الدمعات الأولى على خدي جاز الذي لم يستطع أن يقاوم السعادة الغامرة. يبرق وجهه الذي تكسرت عليه الأضواء الأفقية المنسحبة من أعلى الصالة. لم يعد يأبه بإيقاف الدموع مطلقا، تركها تنزل ومعها تنفجر الغصة التي ظلت ملتصقة بالحلق. تنظر ميترا طويلا إلى وجهه الغارق في شلالات الضوء الكثيفة. لم تره أبدا بهذه الحساسية المفرطة. كان دائما قويا في مقاومة وقع فيض الأحاسيس على عكس مايا التي لا تعرف كيف تخبئ دمعها. تمرر لودميلا يدها الناعمة على وجهه. يعانقها. تلتصق بصدره فتزداد، عاصفة التصفيق. من وراء شعرها المبعثر على صدره، تحرك بنظره ليرى الوجوه قبل أن يستقر على وجه جده من جديد. لم يقم من مكانه حتى عندما اهتزت القاعة للخاتمة. التعب الكثير ومشقة السفر وقسوة العمر وشروطه القاسية، وعدم القدرة على تحمل الواقع الذي أعاده إلى زمن كسره من الداخل ودفع به إلى الموت صمتا.

«- لابد أن يكون قد تعب كثيرا من سطو الذاكرة المغلقة.»

خمن جاز وهو يسحب من ذهنه كل ما يرهق لحظة جميلة كالتي كان يحسها.

نقرات البيانو تتواكب الواحدة بعد الأخرى كخطوات سيدة رشيقة في مكان واسع وفارغ من أي صدى.

قبل يد لودميلا طويلا ثم انحنيا أمام الجمهور للمرة الأخيرة. خرجا. ليعود وحده هذه المرة.

كان بابا شريف متكئا بظهره على الكرسي الوثير، في ارتياح نادر وانطلاقة قليلا ما شهدها فيه، يداه على ركبتيه، مضمومتان مثل يدي طفل يستمع إلى درس معلمه بانتباه كبير. رأسه مرتفع قليلا نحو السماء كأنه يتأمل الأنجم الضوئية المرتسمة على سقف أوبرا بروكلين. كان كأنه يتمادى في ألقها شيئا فشيئا حتى يغيب كليا. لقد نسي بابا شريف أن هناك محيطا عليه أن يلتفت نحوه. لم يعد منشغلا بأي شيء. انغمس في الأضواء التي كانت تتمزق إلى ملايين الألوان، آتية من كل الأمكنة، مثل ماء السواقي عندما يتشبَّع بنور القمر ويصير ضبابيا، عصيا على كل لمس، وهشا ومدهشا.

كل شيء كان يبدو لجاز يتحرك ببطء كبير على الماء والضوء. عندما التفت قليلا صوب الحضور من جديد، لم ير شيئا إلا الأيادي التي تضاعف تصفيقها أكثر فأكثر والورود التي كانت ترفع في الخلفية إعجابا بما قدمه. رأى الطفلة أوليفيا ترفعها أمها كلوديا عاليا لكي يراها، ثم وهي تركض نحوه بعد أن تركت أمها وراءها تماما كما حدث في المطار. تطلب من رجل الأمن أن يرفعها إلى المنصة. ينظر إلى جاز. يشير برأسه أن نعم. تلتصق أوليفيا بجاز، ينحني عليها. يقبلها على جبهتها. يتمتم في أذنها: أعجبتك السهرة؟ تفهمه. ترد برأسها وبابتسامة عريضة ارتسمت على وجهها. تنزل أوليفيا وتركض من جديد نحو أمها. يحاول أن يفتح عينيه وأن يقف باستقامة. لا يرى إلا الأشكال وحركة الناس المتداخلة. تنكسر على وجهه شلالات الضوء التي غمرته كأمطار ملونة، على إيقاعات رقراقة من البيانو كانت تأتي من بعيد، لم تتوقف أبدا. انحنى للمرة الأخيرة ثم انسحب إلى الوراء. انتفى كل شيء من ذاكرته ولم تبق إلا صورة جسر بروكلين وهو يمتد بقوة وجبروت، كاسراً المسافات والعزلة، متوغلا بقوة في عمق مانهاتن بشوارعها المتداخلة وطرقها السيارة والمطعم الأرجنتيني الجميل وموسيقى الجاز ورقصات التانجو

التي قربته من ميترا. نسي نهائيا الأصوات التي وقفت قبل مدة، على أرصفة الأوبرا، تكتب الشتائم ضده وتحاول حرق سيارة فيليب غلاس.

كان يتراجع إلى الوراء منحنيا قليلا، بينما كانت ستائر أوبرا بروكلين تنغلق بهدوء بعد أن غاب صريرها وسط حدة التصفيقات المتموجة.

انطفأت الأضواء الخلفية والشاشة الكبيرة ولم تبق بها إلا أضواء الصالة المركزية.

لا يعلم أية قوة دفعت به نحو بابا شريف؟ عندما انغلق الستار المرصع بالنجوم نهائيا، كان هو في الكواليس يقطع الأدراج التي تنزله مباشرة باتجاه القاعة بسرعة لم يعتدها. على العكس من ميترا، لم يهتم حتى بتغيير لباسه. كان يركض فقط ليقبل عيني جده على قبوله المجيء لتقاسم هذه السعادة الكبيرة التي كانت تحدث أمام عينيه. سيكون له شرف تقبيله وضمه بحرارة والأخذ بيده كأمير. سيعانقه طويلا هو وميترا ويذهبون سويا لقضم قليل من سحر التفاحة الضخمة التي كانت دائما تخيفه.

عندما قطع الأدراج، كانت حدة التصفيق ما تزال تملأ رأسه بقوة.

بدت له المسافة الفاصلة بين مخدع الألبسة والآلات وبين جده طويلة جدا، وأن الأدراج التي كان يقطعها ركضا، تمتد طويلا على مرمى البصر ولا تتوقف أبدا. كان كلما قطع درجا بدا له أنه كان يولد أمامه سلم جديد لم يكن قادرا على مجاراته.

لا يدري إذا ما كانت التصفيقات قد توقفت أم لا؟ ولكنه كان يسمعها تدوي بشكل متقطع على بقايا الموسيقى التي ظلت تنبعث وتتسرب بدفء من زوايا الأوبرا.

عندما وصل إلى القاعة كان جزء كبير من الجمهور قد خرج وتمركز عند المدخل أو في نادي البام(٤٦) حيث المقهى في نادي الأوبرا هاوس القديم. مقهى ومطعم ضخم وواسع، يستقبل زبائنه في ديكور مذهل ومدهش ببواباته الزجاجية الواسعة والمفتوحة على فضاء لا تسنده إلا

---

(٤٦) BAM (Brooklyn Academy of Music) Café

مرتكزات حديدية ضخمة، ترفعه عاليا باتجاه سقف يمتد على مرمى البصر. لا شيء إلا الكأس الأنيقة الممزوجة بالجاز وموسيقى الكاريبي وفوضى إيقاعات أمريكا اللاتينية.

عندما وقف بمحاذاة جده، رآه في جلسته الأولى، لم يغير من عادته أبدا، مستندا إلى الكرسي بارتياح كبير، انعكست على وجهه المتنور والحيوي وشفتيه اللتين نفذت منهما ابتسامة جميلة لم تقهرها السنوات، كل أنوار الصالة التي زادت ألوانها الخلفية. كانت عيناه مفتوحتين بشكل هادئ وطمأنينة، تعكسان شلالات ألوان الأوبرا الغارقة في ألقها، تتلألآن بالحياة وتتشبثان بآخر الأشواق التي ملأت نظره.

عندما كان الناس يتكدسون عند المدخل وفي بهو الأوبرا وينتظرون عبور جاز ويتناقشون حول الهزات والفجوات التي خلفتها فيهم سيمفونية **رماد الشرق**، كان هو غير قادر على لجم دموعه، يجلس بجانب جده ويمسك بيده اليمنى ثم اليسرى. يشعر بهما دافئتين وكأن الموت لم يعبرهما أبدا. يتحسس جبهته التي كان يتجلى منها نفس الدفء. عندما التفت وراءه، رأى حجم السعادة الكبيرة التي ارتسمت على أوجه الألف، وأكثر من نصف الحضور ظلوا ينتظرون في بهو الأوبرا وفي مقهى البام، مجيئه.

نظر جاز إلى عائشة التي كانت نظرتها شاردة ومنكسرة.

- هل قال لك شيئا خاصا؟

- أنت تعرف جيدا بابا شريف، أو على الأقل تحس به. كان لديه إحساس غريب بأنه لن يعود إلى ديترويت. وطلب أن يدفن بجانب ابنته كما قال لك في المقبرة. كان يحبك كثيرا يا جاز ويشعر بأنك أرجعته إلى الحياة بعدما كان ميتا مدة نصف قرن وإلا لما جاء. لقد منحتَ له ما لم يمنحه له أحد. كان خائفا من الذهاب قبل أن يراك ويرى عملك. وظل بفضلك يشد على خيط الحياة حتى اللحظة التي اشتهاها.

- هل كان سعيدا بما رأى وما سمع؟

- لا يمكنك أن تتصور مقدار فرحه. كانت يده في يدي. وكنت

أحس به وهو يهتز كالطفل الصغير. ويقوم أحيانا حتى بدون أن يتكئ على عصاه. كان سعيدا أنك لم تنس حبك لأرضك ولوجدانك. لكنه لم يستطع أن يلجم دمعه عندما أهديته السيمفونية. أعتقد أنه لو لم يستح من الحاضرين لشهق طويلا بأعلى صوته.

- أرجوك...

قالها جاز وهو يضغط على قلبه لكيلا ينفجر. تمنى شيئا واحدا، أن يركض باتجاه الخارج ويجري تحت الأمطار الغزيرة ويبكي هو كذلك بأعلى صوته، ولكنه شعر في لحظة من اللحظات أنه لم يكن سيد نفسه. الآلاف الذين جاءوا لسماعه، يشتهون الآن رؤيته.

- السيد فيليب غلاس قام بكل شيء... لا تنشغل.

استدركت عائشة وهي توجه انتباه جاز نحو رجال المطافئ القريبين الذين كانوا قد وصلوا. كان الضابط يقف عند رأس جاز ويحاول أن يتماسك أمام وضع قاس بعد أن تفحص ذراع وعنق وصدر بابا شريف.

- آسفين يا مايسترو. هكذا الدنيا. لقد كنت رائعا. لا تشغل بالك سنقوم بكل الإجراءات اللازمة. سنأخذه إلى المستشفى الكبير. سنخرج من أبواب النجدة بحيث لا نثير انتباه أي أحد.

قالت عائشة وهي تحاول أن تستجمع كل قواها:

- جاز لا تشغل بالك. أنا سأرافقه مع رجال المطافئ. أما أنت وميترا فابقيا مع الضيوف. لن يتغير شيء في الوضع. ويجب أن يستمر كل شيء بشكل عادي وإلا ستكسر أشواق الآلاف الذين تجشموا المسافات فقط ليحضروا هذه السهرة الكبيرة.

- أشعر بألم كبير يا عائشة ولست قادرا على التفكير.

- يجب أن تتماسك. على كل حال لن ترجعه والأفضل أن تفعل وكأن شيئا لم يحدث. مجرد وعكة.

قال فيليب غراس وهو يحاول أن يسحب جاز باتجاه الناس الذين كانوا ينتظرونه.

عندما وصلت ميترا بعد تغيير ملابسها، كانت علامات الإشراق تعلو

وجهها. كان جاز يقف مع الضيوف من أصدقائه المقربين جدا. سألت ميترا جاز عندما قرأت حيرة ما في عينيه وهو يودع فيليب بعناق دام طويلا اهتز له جاز بأحاسيس مفعمة بالحب والمودة:

- ماذا أقول لك؟

- لا شيء. شكرا لك على كل شيء يا فيليب. كل ما حدث من شيء جميل، فضلك فيه لا يقدر بثمن.

فهم فيليب جيدا أن جاز لا يريد أن يكسر فرحة ميترا التي كانت مثل نجمة متألقة في لباسها الرائع وفي خفة حركاتها. عانق فيليب ميترا طويلا واحتضن جاز قبل أن يسبق الجميع إلى البام حيث متسع من الوقت للسعادة. مشكلة الأقدار أنها لا تأبه إلا لنفسها.

التفتت ميترا نحو جاز الذي لم يستطع أن يخبئ ارتباكه.

همس فيليب في أذنها لكي يبعدها عن الأسئلة.

- أنتظركم في مقهى البام.

- سنلحق بك بعد قليل.

ردت ميترا وجاز في الآن نفسه:

- حبيبي، كنت رائعا. مدهشا. منحت الجميع فرصة العمر لتغيير النظر إلى الحياة والالتصاق بها وحبها باستمرار وبقوة والإنصات إلى نشيد القلب. أين ذهب بابا شريف وعائشة؟

كانت خاتمة السيمفونية ونشيد نيويورك يعادان في القاعة في شكل دورة مغلقة وبلا توقف. شعر بهما تأتيانه وتصيبانه في الصميم. قاوم قبل أن ينهمر ويترك نفسه عرضة للتلاشي. ليس هذا وقته، تمتم في أعماقه.

- حبيبي لم تقل لي أين بابا شريف؟

رددت ميترا مع حيرة كانت تقرأ بوضوح في عينيها.

- لا شيء حبيبتي. مجرد وعكة. ذهب مع عائشة ليرتاح قليلا في هيتز-بروكلين، سنلحق بهما بعد قليل. لم يتحمل قوة الضغط، ولكنه كان أسعد إنسان في الدنيا. هشاشة السن وقوة الأحاسيس. الناس

ينتظروننا في الطابق العلوي للبام، يجب ألا نبقى هكذا طويلا. تعرفين حساسية الناس.

لم يتذكر جاز شيئا عن جده سوى باقة الورد التي وضعها بجانب مايا وتمتمته الأخيرة بصفاء كبير ظهر على محياه:

«- شايف يا جاز كم الحياة قاسية. عشت غريبا على هذه الأرض، وقد أموت فيها غريبا. أوصيك عندما ينتهي العمر أن تضعني هنا، بجانبها، ربما جمع الموت ما فرقته الحياة.

- يا جدي ألم تقل لي إن العمر في الرأس؟ ما زلنا نحتاج إليك.

أغمض جاز عينيه كي لا تخدعه دموعه وحاول أن يتوازن في استقامته. لا شيء سوى تلك الدمعة الهاربة التي رقصت طويلا في بؤبؤ العين قبل أن تنطفئ على الخدنأ الذي تعمقت خطوطه وتستقر على حافة قلب كان يخفق لملامس ميترا التي ظلت تظن أن كل ما كان يحدث له، كان بفعل الهزة التي خلفها نجاح السيمفونية التي قذفت به، منذ تلك اللحظة، إلى عالم آخر، أقوى وأكثر صرامة.

ضغط على يد ميترا التي شعر بحرارتها، ثم اتجها إلى أعالي البام التي كانت الأصوات المتداخلة والقوية والضحكات الكثيرة، والضوضاء العارمة تأتي من عمقها.

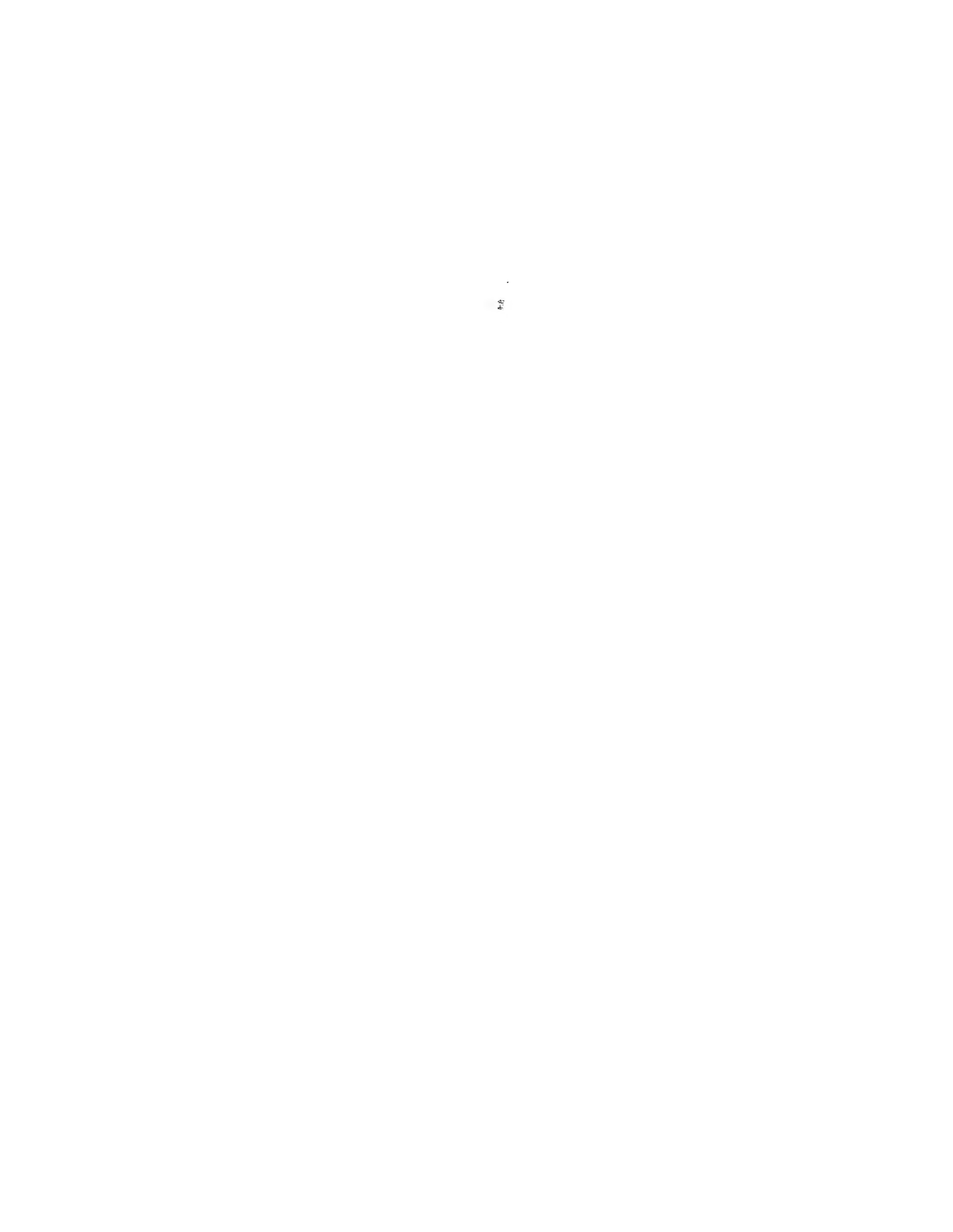
جاءته فجأة كلمة جده الأول من بعد سحيق، وطنت في رأسه كجرس كنيسة قديم:

«مثل المشمش البري. أنت يا وليدي شريف، عودك قوي ومية قليلة تسقيك.»

ثم تناهت إلى مسمعه الأناشيد الأخيرة لموسيقى رماد الشرق وستائر أوبرا بروكلين وهي تنزلق بنعومة لتنغلق نهائيا على مشاهد نيويورك الأخيرة المليئة بالأنوار والألوان و. . .

* لوس أنجلس، بيروت، باريس، تيلبورغ ٢٠٠٣ - ٢٠٠٧

فهرس الجزء الثاني



هذا الكتاب

في الجزء الثاني من رواية: ***رماد الشرق/ الذئب الذي نبت في البراري***، يواصل جاز البحث في هوية كانت دفينة، من خلال مسار جدّه الحياتي، وعبر عناصر السيمفونية التي يقوم بتركيبها قطعة قطعة قبل أن تتشكل نهائياً. من حاضره الأمريكي القاسي الذي يعتبره عربياً ومسلماً معادياً بسبب الهجوم الإرهابي على البرجين، إلى حكايات جدّه بابا شريف، يعيد بناء صورة بداية القرن العشرين بالأبيض والأسود، وبدون أية رتوشات. يتعرف القارئ على اللحظة الأولى التي يرى فيها بابا شريف، المناضل القومي، والده في سجن عاليه، ثم معلقاً على أخشاب المشانق في بيروت بأمر من جمال باشا السفاح، ويعيش مقاومة البطل القومي يوسف العظمة في سوريا ويكتشف لورانس العرب والأمير فيصل وأللنبي والأمير عبد القادر الحفيد، وغيرهم ممن صنعوا عصراً بكامله كانت رهاناته دولية أكثر منها عربية. وتصبح سيمفونية ***رماد الشرق*** التي يعرضها جاز في أوبرا بروكلين، هي رهانه وهي وسيلته للانتصار للحياة ولاستعادة تاريخ جدّ لم يكن في النهاية إلا وسيلته لكشف المآلات التي وصل إليها الوطن العربي اليوم.

رماد الشرق رواية ملحمية تستعيد قرناً من الحياة العربية من خلال حيوات متضاربة لأناس بسطاء، لا يستطيع التاريخ قولها. وحدها الرواية بإمكانها اختراق أسرارها. لا يمكن فهم ما يحدث اليوم من ثورات دموية وانتفاضات إلا داخل هذا الغليان الذي أشعل القرن العشرين مخلفاً وراءه تمزقات تراجيدية، ترابية وإثنية ودينية، من الصعب رتقها بالوسائل التقليدية.

